«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

الحرب العالمية الأولى

نيل م. هايمان



ترجمة: حسن عويضة

«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

الحرب العالمية الأولى

نيل م. هايمان

ترجمة: حسن عويضة

مراجعة: سامر أبو هواش





الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة

الحرب العالمية الأولى
نيل م. هايمان

D521 .H42712 2011
Heyman, Neil M
[Daily life during World War I]
الحرب العالمية الأولى / تأليف نيل م. هيمان : ترجمة حسن عويضة : مراجعة سامر أبو هواش.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 406 ؛ 15×23 سم. (سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)
ترجمة كتاب: Daily Life During World War I
تدمك: 978-9948-01-861-2
1 - الحرب العالمية الأولى، 1914 - 1918.
2 - العالم - تاريخ - العصر الحديث.
أ-عويضة، حسن. ب- أبو هواش، سامر.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Neil M. Heyman
Daily Life During World War I
Translated from the English Language edition of *Daily Life During World War I*, by Neil M. Heyman, originally published by Greenwood Press an imprint of ABC-CLIO, LLC, Santa Barbara, CA, USA.



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+





ص. ب: 333577 دبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 3807774 4 00971 فاكس: 3805977 4 00971

الحرب العالمية الأولى

المحتويات

إلى البروفسور ألفن كوكس (1924–1999)

شكر وامتنان

تعتبر الحرب العالمية الأولى من المواضيع المثيرة والمنفّرة على حدّ سواء. إن دراسة جوانبها الاجتماعية معقدة بشكل خاص بقدر ما أنها مؤثّرة عاطفياً. ويودّ المؤلف هنا أن يعبر عن امتنانه وشكره للمساعدة التي تلقاها في جهده لدراسة هذا الموضوع الصعب.

لقد منحتني كلية الفنون والآداب بجامعة سان دييغو العديد من الإجازات لمواصلة بحثي وكتاباتي كما زودتني بالتمويل اللازم للسفر. ولم تبخل صديقتي وزميلتي في قسم التاريخ جوانا فيرارو بنصائحها القيمة ودعمها المتواصل في مراحل الكتاب المختلفة. والقدر نفسه من الدعم والمساعدة، كما قدّم صديقي الطبيب لاري لوفر نصائح لا تقدر بثمن في التعامل مع المسائل الطبية التي تثيرها دراسة العيش خلال الحرب العالمية الأولى.

وخلال بحثي عن الصور المناسبة تلقيت مساعدة كبيرة في أرشيف مكتبة هوفر من قِبل السيد رمي سكوايرز. كما قام السيد إيان سمول من لجنة أضرحة ضحايا حرب الكومنولث بمساعدتي في المسعى نفسه وبقدر كبير جداً.

وأتوجه بالشكر الجزيل لمحرّرة الكتاب، باربرا ريدر، التي تميزت بمزيج من الحماسة والفضول والنقد المستنير. ومثلما هو الحال دائماً، أتوجه بالشكر العميق لبريندا ومارك وديفيد.

وكما هو معروف دوماً، تتميز دراسة التأريخ بوجود العديد من الموهوبين والمفعمين بالنشاط. ويتميز بعض هؤلاء بالكرم الشديد في تشجيع أعمال زملائهم الأصغر سناً وتشجيعهم. وقد أثبت الأستاذ ألفين كوكس، عضو قسمي في جامعة سان دييغو والباحث المتميز في التاريخ العسكري الياباني، ذلك النوع من الكرم. وأهدي هذا الكتاب لذكراه.

التسلسل الزمني

1914	
28 يونيو	اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند على يد القوميين الصرب في سرايفو
23 يوليو	الإنذار النمساوي إلى صربيا
28 يوليو	النمسا والمجر تعلنان الحرب على صربيا
1 أغسطس	ألمانيا تعلن الحرب على روسيا
3 أغسطس	ألمانيا تعلن الحرب على فرنسا
4 أغسطس	ألمانيا تغزو بلجيكا وبريطانيا تعلن الحرب على ألمانيا
7 أغسطس	اللورد كيتشنر، وزير الحرب البريطاني، يدعو المتطوعين إلى توسيع الجيش النظامي البريطاني
23 أغسطس	معركة مونس
28 أغسطس	إغراق ثلاث بوارج ألمانية بواسطة البحرية البريطانية بالقرب من هيلغولاند
6–11 سبتمبر	معركة مارن
22 سبتمبر	غواصة ألمانية تغرق ثلاث بوارج بريطانية بالقرب من السواحل الهولندية
20 أكتوبر– 22 نوفمبر	معركة إيبرYpres الأولى
27 أكتوبر	الألغام الألمانية تُغرق البارجة البريطانية Audacious قبالة الساحل الأيرلندي
6 نوفمبر	اعتقال الرجال البريطانيين في ألمانيا الذين تتراوح أعمارهم بين 17 و55 عاماً.
16 ديسمبر	السفن الحربية الألمانية تغير على الساحل الشرقي لإنجلترا
25 ديسمبر	الجبهتان المتحاربتان تشاركان في هدنة غير رسمية «هدنة عيد الميلاد»
1915	
يناير	«السفن الجوية» الألمانية تبدأ في قصف أهداف في جنوب إنجلترا وبدء تقنين الخبز في ألمانيا
فبراير	انتشار التيفوس الوبائي بين الحلفاء في ألمانيا؛ فرنسا وألمانيا توافقان على تبادل السجناء المصابين بجروح بالغة

مارس	بدء غارات السفن الهوائية الألمانية على باريس
13 أبريل	الحكومة الألمانية تسمح لهربرت هوفر بالبدء في برنامج لتغذية السكان المدنيين في الجزء المحتل من فرنسا من قِبل الألمان
22 أبريل	معركة إيبر Ypres الثانية تبدأ بالهجوم الألماني بالغاز
7 مايو	غواصة ألمانية تُغرق العبارة البريطانية لوسيتانيا قبالة ساحل أيرلندا؛ وفي أعقاب ذلك، الغوغاء الإنجليز يُهاجمون الشركات الألمانية في لندن، واعتقال معظم الرجال الألمان في بريطانيا
9 مايو	فرنسا تشن هجوماً على أرتوا Artois
22 سبتمبر	فرنسا تشن هجوماً على إقليم شامبانيا
25—26 سبتمبر	معركة لوس
أكتوبر	اندلاع أعمال الشغب في برلين بسبب نقص الغذاء
15 ديسمبر	تعيين دوغلاس هيغ قائداً عاماً للقوات المسلحة البريطانية
1916	
21 فبراير	بدء معركة فردان
17 مايو	الحكومة البريطانية تتبنى نظام التجنيد الإجباري
22 مايو	ألمانيا تؤسس مكتب غذاء الحرب
31 مايو 1 يونيو	معركة جوتلاند
1 يوليو	بدء معركة «سوم»؛ الجيش البريطاني يتكبّد 20,000 قتيلاً و40,000 جريحاً) في أسوأ خسارة يتكبّدها بلد في العصور الحديثة في يوم واحد
أغسطس	هندنبيرغ ولودندروف يتوليان قيادة المجهود الحربي الألماني
15 سبتمبر	الجيش البريطاني المقاتل في معركة «سوم» يزج بالدبابات إلى القتال للمرة الأولى
أكتوبر	سلطات الاحتلال تبدأ في ترحيل البلجيكيين للعمل في المجهود الحربي في ألمانيا
7 نوفمبر	إعادة انتخاب وودرو ويلسون رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية لولاية ثانية
28 نوفمبر	الألمان يبدأون بقصف الأهداف في إنجلترا باستخدام الطائرات

2 ديسمبر	مجلس النواب الألماني يقرّ قانون خدمة الاحتياط (برنامج هندنبيرغ)
7 ديسمبر	ديفيد لويد جورج يغدو رئيس وزراء بريطانيا العظمى
12 ديسمبر	الجنرال روبيرت نيفيللي يتولى قيادة القوات الفرنسية
1917	
يناير – فبراير	بداية «شتاء اللفت» في ألمانيا بعد الفشل في جني محصول البطاطا
1 فبراير	ألمانيا تجدد حرب الغواصات دون قيود
مارس	النساء يلتحقن في الجيش البريطاني عضوات في قوات الاحتياط النسائية، وكذلك يلتحقن في البحرية الأمريكية عضوات في «الحرس الوطني»، وألمانيا تنفذ انسحاباً تكتيكياً لتقوية دفاعاتها في هندينبرغ تحسباً لهجوم الحلفاء
8–12 مارس	ثورة في روسيا تسقط الحكم الملكي وتؤسس جمهورية بقيادة الليبراليين المعتدلين
6 أبريل	أمريكا تعلن الحرب على ألمانيا
16 أبريل	الهجوم الفرنسي تحت قيادة اللواء نيفيل يمنى بخسائر جسيمة
4 مايو	وصول أول مدمرة أمريكية للمياه البريطانية لمواجهة الغواصات الألمانية
17 مايو	فيليب بيتان يحلّ محلّ نيفيل في قيادة الجيش الفرنسي
18 مايو	قانون الخدمة الانتقائية يؤسس التجنيد الإلزامي في الولايات المتحدة
19 مايو	هربرت هوفر يتولى منصب مدير الغذاء في الولايات المتحدة، الجيش الفرنسي يبدأ في التمرد
25 مايو	السلطات الفرنسية والألمانية توافق على تبادل أسرى الحرب متوسطي العمر الذين مضى على اعتقالهم 18 شهراً على الأقل
26 مايو	اللواء جورج بيرشينغ يتولى قيادة القوات المسلحة الأمريكية
يونيو	اللورد روندا يدير إمدادات الغذاء البريطانية
5 يونيو	الولايات المتحدة تقرّ قانون التجسس؛ بدء تسجيل أول دفعة من المتطوعين الأمريكيين
7 يونيو	بريطانيا تفجّر ألغاماً ضخمة تمهيداً للهجوم على ميسين ريدج بالقرب من إيبر

4 يوليو	الفرقة الأولى من القوات الأمريكية بما فيها من محترفين ومتطوعين جدد تستعرض في شوارع باريس
20 يوليو	وزير الحرب نيوتن بيكر يقوم بسحب قرعة اليانصيب إشارة إلى الأمريكيين الذين سوف يتم استدعاؤهم للخدمة العسكرية الإجبارية
31 يوليو	بدء معركة إيبر الثالثة (باشنديل)
أغسطس	الحكومة الفرنسية تسيطر على إمدادات البلاد الغذائية
سبتمبر	بدء تدريب أول فوج من المجندين الأمريكيين
2 نوفمبر	القوات الأمريكية تتكبد أولى خسائرها في القتال في فرنسا
7 نوفمبر	تولي الحزب الشيوعي الحكم في روسيا تحت قيادة لينين وليون تروتسكي كنتيجة لثورة نوفمبر
16 نوفمبر	جورج كليمنصو رئيساً للوزراء في فرنسا
18 ديسمبر	الحكومة الأمريكية تبدأ بتقنين استخدام الحبوب في تخمير الجعة وتضع القيود على كحول الجعة
1918	
يناير	اندلاع إضرابات واسعة في المصانع الحربية الألمانية، الحكومة الفرنسية تفرض تقنين الخبز، حكومة الولايات المتحدة تسيطر على هيئة السكك الحديدية
8 يناير	الرئيس الأمريكي ويلسن يعلن عن مشروع للسلام يتكون من أربعة عشر بنداً
6 فبراير	البرلمان البريطاني يوافق على منح المرأة حق التصويت
مارس	ألمانيا تشن هجوماً كبيراً على الجبهة الغربية، المدفعية الألمانية تقصف باريس عن بعد خمسة وسبعين ميلاً، وصول أولى عاملات بدالة أمريكيات (الملقبات مرحباً أيتها الفتيات) إلى فرنسا
ربيع 1918- ربيع 1919	تفشي الأنفلونزا على نطاق عالمي
مايو	وقف الهجمات الجوية الألمانية على فرنسا، الأمريكيون يشاركون في معركة شاتو تييري

6 يونيو	قوات المارينز الأمريكية تهاجم منطقة بيلو ود
يوليو	الحكومة البريطانية تسيطر على معظم إمدادات البلاد الغذائية
8 أغسطس	القوات البريطانية تحقق نصراً حاسماً ضد الخطوط الألمانية بالقرب من آميان
9 أغسطس	المدفعية الألمانية بعيدة المدى تتوقف عن قصف باريس
13 أغسطس	البحرية الأمريكية « المارينز » توافق على تجنيد النساء لأول مرة
12 سبتمبر	هجوم أمريكي على سانت ميهيل
16 سبتمبر	بدء هجوم قوات التحالف على الجبهة الغربية، بدء الهجوم الأمريكي على قطاع ميوز– آرجون
3 أكتوبر	ألمانيا تناشد الرئيس وودرو ويلسون لقبول الهدنة
21 أكتوبر	ألمانيا توقف هجوم الغواصات غير المحدود
29 أكتوبر	اندلاع التمرد في البحرية الألمانية في منطقة كيل
3 نوفمبر	تمرد البحارة الألمان يمتد ليصل إلى سكان البلاد المدنيين
7 نوفمبر	انتشار موجة من الأخبار الكاذبة في دول التحالف حول الهدنة
9 نوفمبر	القيصر فليهليم الثاني يتنازل عن الحكم، ألمانيا تتحول إلى النظام الجمهوري
10 نوفمبر	فيلهليم يتوجه إلى منفاه في هولندا
11 نوفمبر	ألمانيا توقع على الهدنة
12 نوفمبر	المرأة الألمانية تحصل على حقها في التصويت
1 ديسمبر	دخول القوات الأمريكية إلى المناطق التي احتلتها في غرب ألمانيا
1919	
18 يناير	بدء مؤتمر باريس للسلام
فبراير	إطلاق سراح آخر أسير من الحلفاء على الجبهة الغربية
28 يونيو	التوقيع على معاهدة فيرساي
أكتوبر	إطلاق سراح آخر أسير ألماني في قبضة يد القوات البريطانية
19 نوفمبر	مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة الأمريكية يرفض معاهدة السلام
1920	
28 أغسطس	المرأة الأمريكية تنال حقّ التصويت

الخريف	إطلاق سراح آخر أسير ألماني أسر على يد القوات الفرنسية
1921	
25 أغسطس	الولايات المتحدة توقع على اتفاقية سلام منفصلة مع ألمانيا (معاهدة برلين)

مقدمة

خلال ثمانية أيام، تمتد من نهاية يوليو إلى مطالع أغسطس 1914، دخلت القوى الكبرى في أوروبا، أي النمسا – المجر وألمانيا وروسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى، الصراع الذي نعرفه باسم الحرب العالمية الأولى. وقد أدهش النطاق الذي بلغته الحرب وكلفتها الكثير من الأوروبيين، إلا أن قلة من رجال الدولة في القارة الأوروبية أو أولئك الذين كانوا على اطلاع بالأحداث من شعوبها العديدة، شعرت تماماً بالدهشة لاندلاع الأعمال الحربية.

فقد كان للنزاعات بين هذه الدول القوية والكبيرة جذور عميقة. إذ نجمت الكثير من التوترات جراء ظهور أمة قوية في وسط القارة. كما أدى النصر الذي حققته الولايات الألمانية بقيادة أوتو فون بسمارك في بروسيا، على فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية عامي 1870 و1871 إلى ظهور ألمانيا الموحدة. كما أنه خلق حالة من التوتر الدائم بين فرنسا المتواضعة القدرات فجأة، وجارتها القوية حديثاً. وقد بلغ الإذلال الفرنسي ذروته بحصول ألمانيا على مطلبها بالسيطرة على مناطق الحدود الاستراتيجية والتي تشمل كامل مقاطعة الإلزاس، وجزءاً من اللورين.

كما ألقى ظهور ألمانيا السريع كقوة رائدة في القارة بظلاله أيضاً على المصالح البريطانية. فقد لعب الألمان دوراً قيادياً في التجارة الدولية والمسائل الاستعمارية، التي تُعد حجر الأساس بالنسبة إلى رجال الدولة البريطانيين. وتدهورت العلاقات بشكل حاد، خصوصاً عندما تدخل الألمان في مجال المصالح البريطانية في جنوب

أفريقيا- وقوف برلين علناً إلى جانب أعداء بريطانيا من البوير قبل «حرب البوير» وخلالها، ما بين عامي 1899 و1902. وإضافة لعوامل أخرى، وضع بناء ألمانيا لأسطول على مستوى عال معتمداً على البوارج الحربية، الحكومة في برلين في حالة خلاف مع نظيرتها في لندن. فقد بدا أن مثل هذا الأسطول الذي احتوى على أكثر السفن قوة في ذلك العصر قُدِّر له مواجهة أسطول بريطانيا الكبير في بحر الشمال. وعلاوة على ذلك، فإن إمكانية سيطرة الألمان على الممرات البحرية حول بريطانيا وبالتالي تهديد إمدادات الغذاء للجزيرة، جعل العداوة أمراً مرجحاً، إن لم يكن في واقع الأمر حتمياً.

كما أن الأخطار الناجمة عن الطموحات الألمانية كانت تقابلها الصراعات المستعصية في أماكن أخرى. فقد واجهت النمسا -المجر العداء الروسي عندما انهارت السيطرة العثمانية التركية على منطقة البلقان خالقةً فراغاً في السلطة تورطت فيه كلتا الدولتين. وكان للنمسا - المجر أسباب قاهرة للتدخل هنا خوفاً على وجودها، وذلك لأن ولايات بلقانية مثل مملكة صربيا نمت بشكل كبير على حساب المصالح التركية. ولأن عشرات الجنسيات كانت تعيش في تلك الدولة بمن فيهم الصرب، فإنها خشيت على نفسها من الانهيار إذا ما فكر السكان الصرب وسكان المناطق الجنوبية الذين يقطنوها في الانفصال والانضمام إلى مملكة صربيا. ارتسم سيناريو كابوسي في فيينا يتصور أن المجموعات العرقية الأخرى الساخطة في النمسا - المجر ستتجرأ هي الأخرى على الانفصال.

كانت روسيا بالمثل جاهزة للتدخل في الشؤون البلقانية. إذ أخذت القوة السّلافية العملاقة في أوروبا الشرقية على عاتقها دور الراعي والحليف لصربيا. كما رغبت روسيا في تأكيد مكانتها كقوة عظمى، وكانت منافسة النمسا على النفوذ في منطقة البلقان هي الطريقة الأكثر ترجيحاً التي يمكن أن تقوم بذلك من خلالها. كما زادت الروابط الثقافية والدينية الروسية مع الصرب، اللتان اشتركتا في الانتماء للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية، من مصالح سان بطرسبرج السياسية في المنطقة. وبالتالي، لا يمكن أن يحدث أي تحرك نمساوي من دون المغامرة برد فعل روسي جاد وخطير.

هدّدت الأزمات التي وقعت في منطقة واحدة من أوروبا بالانتشار. كما أدّى تطور أنظمة التحالف التي نسجت في عقود ما قبل الحرب اندلاع النزاعات المحلية أمراً غير محتمل. وكذلك الأمر بالنسبة إلى التفاهمات غير الرسمية التي ربطت أمن دولة واحدة بالأخرى. وبالتالي، كان لدى النمسا –المجر معاهدة رسمية تربطهما بألمانيا. وبالمثل ارتبطت فرنسا وروسيا. بيد أن التهديد الألماني المتصاعد جعل بريطانيا العظمى حليفاً محتملاً– وإن لم يكن رسمياً بعد– لفرنسا وروسيا.

وقد أدّت أحداث بعينها في العقد الذي سبق العام 1914 إلى زيادة صعوبة إدارة التوترات أكثر فأكثر. فقد ساهمت ألمانيا المتعالية بوقوع أزمتين– واحدة عام 1905 والثانية عام 1911 – حول الجهود الفرنسية لإحكام سيطرتها على المغرب. وتلك المنطقة كان ينظر إليها على أنها منطقة نفوذ فرنسية، بيد أن الألمان رغبوا في عرقلة السياسة الفرنسية وبالتالي تأكيد دورهم في الشؤون الدولية. وبشكل أكثر تحديداً، كان الألمان يحاولون قطع العلاقات بين بريطانيا وفرنسا، وعزل جارهم المعادي إلى الغرب. وفي كلتا الحالتين جاء الأثر عكسياً. ففي الأزمة الأولى، قدمت بريطانيا دعماً دبلوماسياً لفرنسا في مواجهة الضغوط الألمانية. وكانت الأزمة التي بدأت في 1911 هي الأكثر خطورة بين الأزمتين. فقد أثار دفع ألمانيا بزورق حربي إلى ميناء مغربي، تعهد بريطانيا الرسمي بالوقوف إلى جانب فرنسا حتى في حالة الحرب. ووجدت ألمانيا المهانة نفسها مضطرة إلى التراجع.

ومنذ بداية 1907، هددت أزمات البلقان بجلب روسيا والنمسا –المجر إلى المجابهة المباشرة. وساعدت المبادرات التي قام بها الدبلوماسيون الروس على بدء حربين في منطقة البلقان في 1912 و1913، وأدى ذلك إلى نزع السيطرة التركية من جميع مناطق البلقان باستثناء منطقة صغيرة جداً. ونجحت سلسلة من المؤتمرات الدولية في وضع حدود جديدة لدول المنطقة. ولكن حالة عدم الاستقرار بقيت سائدة. كما انسجمت عداوة الكثير من الصربيين نحو النمسا –المجر مع تصميم حزب الحرب في فيينا على مسح مملكة الصرب عن الخارطة.

بذل كل من البريطانيين والألمان جهداً لوضع حد لسباق التسلح البحري وذلك

عندما قام وزير الحرب البريطاني ريتشارد هالدن بزيارة برلين عام 1912. فقد أمِلَ هالدن، الذرب باللغة الألمانية لأنه تلقى تعليمه هناك، التقليل من حدة التوترات، مدركاً أن تحجيم بناء الأسطول البحري قد يحسّن العلاقات الألمانية الإنجليزية، إضافة إلى تخفيف العبء المالي الثقيل الذي فرضه سباق التسلح البحري على كاهل البلدين. ولكن المهمة أخفقت، واستمر سباق التسلح البحري، وتعمقت الشكوك المتبادلة بين الطرفين.

وفي ظل هذا الجو المتقلب، كان يمكن لحادثة مؤسفة واحدة أن تشعل الحرب في أوروبا. فكان اغتيال الأرشيدوق فرانز فيردناند، وريث عرش النمسا –المجر، على يد الوطنيين الصرب في 28 يوليو عام 1914 الشرارة التي أشعلت الانفجار. إذ لقي تصميم النمسا –المجر على المضي قدماً نحو الحرب مع صربيا دعماً وتأييداً ألمانيين. فتحركت روسيا للدفاع عن صربيا. ووجهت فينا إنذاراً نهائياً لمملكة صربيا في الثالث والعشرين من يوليو– وهو الإنذار الذي رأى النمساويون أنه لا يوجد أي سبب يحمل الصرب على قبوله– فبدأت إعلانات الحرب تنطلق الواحدة تلو الأخرى: النمسا – المجر ضد صربيا في الثامن والعشرين من يوليو، وألمانيا ضد روسيا في الأول من أغسطس، وألمانيا ضد فرنسا في الثالث من أغسطس وبريطانيا ضد ألمانيا في الرابع من أغسطس.

ولكن ماذا كانت توقعات المشاركين في الحرب الذين وجدوا أنفسهم في الحال غارقين في صراع مميت على الجبهة الغربية وفي أماكن أخرى؟ لعقود من النمو المطرد– وفي كثير من الأحيان المسعور– زود النمو الصناعي كلاً من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا بالقدرة على شن حرب على نطاق واسع وغير مسبوق. فقد استطاعت هذه الدول حشد جيوش تُعَد بملايين الرجال. كما تمكنت من تجهيز أولئك الجنود بكميات غير محدودة من الأسلحة الفتاكة والتي تراوحت ما بين البنادق والرشاشات إلى المدفعية التي وصلت لدرجة من الحجم والخطورة لم يسبق لها مثيل. كما جُند العلماء والفنيون في جميع هذه الدول لاختراع أدوات دمار جديدة.

نطاق هذا الكتاب

يدرس هذا العمل كيف كانت الحياة خلال 52 شهراً من الحرب العالمية الأولى؟ وأدت الحاجة إلى طرح هذا الموضوع الضخم بشكل طيع وسهل، إلى التركيز على الجبهة الغربية وعلى القوى الرئيسية التي تحاربت هناك. فقد أصبح هذا الشريط من الأراضي الممتد لأكثر من أربعمائة ميل، بدءاً من ساحل القنال الإنجليزي وحتى الحدود السويسرية، المسرح المركزي للصراع بأكمله. وقد شهدت الجبهة الغربية المجزرة العسكرية الأكثر فداحة في الحرب، وأثارت الأحداث هناك تغيراً ضخماً في بريطانيا وفرنسا وألمانيا. وفي العام الثالث من الحرب، دخلت الولايات المتحدة إلى حلبة الصراع. وتركزت جهودها على الجبهة الغربية أيضاً.

كانت الحرب أولاً وقبل كل شيء حدثاً عسكرياً. تركز الفصول الثمانية الأولى من هذا الكتاب على التجربة العسكرية لمختلف المشاركين، دارسة كيف جُندت ودرّبت الجيوش، والتجهيزات التي استخدموها والطعام الذي تناولوه. كانت حرب الخنادق حياة وأيضاً سلسلة من المواجهات العسكرية الضخمة والدامية، كما تنظر هذه الرواية هنا أولاً إلى الروتين اليومي للخدمة في الخنادق، ومن ثم تتفحص ظاهرة القتال.

في حين مثّل الجندي في الخندق الشخصية الأكثر اعتياداً على الجبهة الغربية، فقد كان عمل البحارة في أساطيل الدول المتحاربة وثيق الصلة بالقتال الدائرة رحاه على اليابسة. وقد أدّت محاولة إغلاق الطرق المؤدية إلى العالم الخارجي في وجه العدو، بالحلفاء لمحاصرة ألمانيا، ودفعت الغواصات الألمانية إلى مهاجمة سفن الحلفاء التجارية. وبالإضافة إلى شكل الحرب بالنسبة إلى البحارة، تشير رواية الجبهة الغربية إلى تجربة الطيارين الجديدة. ومع استمرار الحرب، ازدادت أهمية الطائرات والرجال الذين قادوها، أكثر من أي عامل آخر في الحرب.

تحتاج النظرة العسكرية في زمن الحرب إلى تجاوز الجيوش المتعددة وميادين قتالها المختلفة. إذ تتضمن تلك النظرة النظام الطبي الذي اعتنى بالأعداد الهائلة من ضحايا الصراع، ونظاماً آخر أصغر ولكنه ذو أهمية يتمثل فيما أعدته كل دولة للتعامل مع الأعداد غير المتوقعة من أسرى الحرب لديها. كما لعبت النساء دوراً مهماً في الشؤون

العسكرية. وكان عمل الممرضات العسكريات أكبر مساهمة متوقعة تمكنت المرأة من تقديمها. بيد أن نساءً أخريات قدمن أدواراً مساندة للخدمات العسكرية. ففي بريطانيا ومن ثم الولايات المتحدة الأمريكية، التحقت المرأة فعلاً بالقوات المسلحة. وأظهر منظر النساء غير المسبوق في الزي العسكري – المزعج لبعضهم – كم كان شكل هذا الصراع مختلفاً مقارنة بالحروب السابقة.

تتناول فصول الكتاب التالية حياة المدنيين. فقد تغيرت الحياة داخل الأوطان بطرق لا حصر لها، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا بعيدين تماماً عن القتال الفعلي. تَسَرّبت أجواء الحرب وتأثيراتها إلى كل مجال من مجالات الحياة اليومية، من دروس تلاميذ المدارس إلى الازدهار المحموم لاقتصاد الحرب. كما شكّلت الحرب بالنسبة إلى بعض المدنيين تهديداً مباشراً. وهدّدت آلات الحرب الجديدة – بشكل رئيسي الغواصات والطائرات وحتى المدفعية الثقيلة– حياة المدنيين على نحو غير مسبوق. كما عاش ملايين الفرنسيين (وكذلك البلجيكيين) تجربة حرب هيمن عليها حكم أجنبي غاشم.

وبالنسبة إلى جميع من كانت لهم صلة بالحرب غدت الإمدادات الغذائية، والتي كانت مسلماً بها بالنسبة إلى بعض الدول في زمن السلم، مدعاة للقلق على الأقل، إن لم تكن هاجساً. أما بالنسبة إلى ألمانيا المحاصرة فقد غدت هاجساً فعلياً. فقد بات المواطن العادي مرتبطاً ذلك الارتباط الأشدّ مباشرة والأكثر إيلاماً بحكومات الحرب الممتدّة عندما سعت تلك الحكومات للتحكم فيما يحصل عليه من غذاء كل يوم.

وقد تأثّر الدور الاجتماعي التقليدي للمرأة على الجبهة الداخلية بتأثيرات الصراع. إذ أصبحت المرأة تشكل مصدراً مهماً للعمالة في الاقتصاد الحربي. كما حولت الحرب ذلك القلق المتفاقم، في الفترة التي سبقتها، بشأن معدل المواليد المنخفض، إلى جهود مضنية لزيادة تلك المعدلات في الكثير من الدول. وتلقت النساء بوصفهن الجنس الذي لم يضطر إلى الذهاب للقتال، مستوىً من النقد يسمح بتسليط الضوء على المرارة المتزايدة التي أنتجتها الحرب.

مع التوقيع على وقف إطلاق النار في 11 نوفمبر 1918، كان أكثر من أربعة ملايين

فرد قد لقوا حتفهم في القتال على الجبهة الغربية. واضطر الذين كانوا على جبهة القتال، وأولئك الذين كانوا في أوطانهم، للتعايش مع خسارة وجه مألوف لهم، في كثير من الأحيان كان وجه أحد أحبائهم. وهزّ حجم الخسائر، إضافة إلى عنف الموت بين 1914 و1918، المجتمعات التي أصبح فيها الموت بسلام على السرير في البيت مقتصراً على كبار السن. وباتت الحياة اليومية بالنسبة إلى الكثيرين خلال الحرب العالمية الأولى تعني التأقلم مع الفاجعة.

وأخيراً، عندما وضعت الحرب أوزارها، جاءت بموجة من الحماسة في الدول المنتصرة. ولكن وبمجرد الإعلان عن توقف الأعمال الحربية، بدأت علامات التغيير تظهر جلياً على حياة ملايين الجنود الذين عملوا في القوات المسلحة. فقد امتدت تجربة الحرب لأولئك الجنود حتى بات بالإمكان إقناع – أو إجبار – السلطات العسكرية التي امتلكت سلطة حياتهم أو موتهم، بتركهم يعودون إلى ديارهم.

مسار الحرب

بدأت الحرب في أغسطس 1914 بهجوم ألماني كبير على الجبهة الغربية. حيث شقت جيوش القيصر فيلهلم طريقها عبر بلجيكا وشمال شرق فرنسا، وتوغلت حتى بلغت مشارف باريس. تماماً مثلما فعل قادة جيوش نابليون في القرن الماضي. وقد أمل الألمان بتدمير قوات العدو في حملة واحدة ضخمة، تسيطر من خلالها على عاصمته وتتفرّج عليه وهو يتوسّل السلام. ولكن الألمان لم يكونوا بمفردهم. فقد بدأ الفرنسيون الحرب أيضاً بهجوم على الأراضي الألمانية، تلك الأجزاء من اللورين التي كان الألمان قد استولوا عليها من الفرنسيين في عام 1871.

غير أنّ أياً من الخطتين لم يلق النجاح. فقد انتهى الهجوم الفرنسي بفشل دام. كما أوقف الهجوم المضاد الناجح للقوات الفرنسية والبريطانية زحف القوات الألمانية. فقد اندفعت الجيوش المتحاربة تجاه الشمال لتطويق الجانب الآخر واستعادة زمام المبادرة، ولكن لم تستطع القوات الإنجليزية الفرنسية ولا القوات الألمانية التحرك بالسرعة الكافية لضعضعة دفاعات العدو. ومع نهاية عام 1914 استقرّت الحرب على

الجبهة الغربية على مواجهات بين ملايين الجنود، وسرعان ما تعززت بملايين أخرى.

كما احتدم الصراع في شرق أوروبا، وفي نهاية المطاف امتد ليصل إلى سواحل الصين، وجزر المحيط الهادئ، والشرق الأوسط وأفريقيا. واضطرت ألمانيا لخوض صراع كبير مع روسيا على الجبهة الشرقية. ومع ذلك حشد الأعداء الرئيسون من وسط أوروبا وغربها- بريطانيا وفرنسا وألمانيا- معظم قواتهم المسلحة على الجبهة الغربية. في بادئ الأمر بدأت الحرب في البحر بعيداً عن أوروبا ولكن سرعان ما تركزت في مياه بحر الشمال وشرق المحيط الأطلسي. وعندما بدأت الحرب الجوية، شهدت سماء شمال غرب أوروبا أكبر المعارك أيضاً.

ومع بداية عام 1915، أسبغت الهجمات التي شنها الفرنسيون لطرد الألمان من الأراضي التي كانوا قد احتلوها في الخريف الماضي، على الجبهة الغربية طابعاً مروعاً. وأصبح نمط الهجمات واضحاً بشكل مشؤوم. كما اصطدمت هجمات المشاة الضخمة، التي مُهد لها بأكبر قدر ممكن من نيران المدفعية التي يستطيع المهاجم أن يُجمعها، بخطوط دفاعات العدو. وكان من المفترض أن تُضعف نيران المدفعية دفاعات العدو- في هذه الحالة الدفاعات الألمانية- ولكن استرعى هذا القصف انتباهه واحتياطاته لهجوم قادم. وبالتالي أخفقت تلك الهجمات لأن الخطوط الدفاعية اشتملت على خنادق محمية بأسلاك شائكة وممتلئة بالجنود المزودين بالبنادق والمدافع الرشاشة السريعة. ولم تسفر هذه الهجمات إلا عن أعداد مروعة من الضحايا.

دخلت أسلحة جديدة مسرح الأحداث لأن كلا الجانبين ضاق ذرعاً بحالة الجمود التي سيطرت على الموقف. واستخدم كلا الجانبين الغاز السام بدءًا من عام 1915، وظهرت الدبابات لأول مرة في ساحات القتال في عام 1916، وتحولت الطائرة من أداة استطلاع هشة إلى جزء من أسطول جوي كبير. وبدأت تلك الأسراب تتنافس على سماء ساحة المعركة بقوة جوية معادية متكافئة. كما استخدم الألمان «السفن الجويّة» (مناطيد زيلن[1]) في 1916، وفي العام التالي بدأت الطائرات القاذفة بقصف

(1) فرديناند زيلين هو ضابط في الجيش الألماني بدأ في تطوير أفكاره بشأن السفن الجوية في عام 1897. وتم قبولها لخدمة الجيش في مارس 1909. وطورت في العام 1914 حيث وصلت سرعتها القصوى إلى 136كم في الساعة وكان بمقدورها حمل خمسة مدافع رشاشة و 2000 كغم من القنابل.

الأعداء في عقر دارهم. وردّ الحلفاء بالطريقة نفسها.

عانت القوات الفرنسية أكبر قدر من خسائر الحرب بسبب الهجمات البرية العقيمة التي شنتها في عام 1915. كما شهد البريطانيون والألمان القدر نفسه من الخسائر في عام 1916. وتخلّت القيادة الألمانية العليا، بقيادة المارشال إريك فون فالكينهن، عن آمالها باختراق حصون العدو. وفي فبراير عام 1916، هاجمت قواتها الدفاعات الفرنسية البارزة (الدفاعات المكشوفة في الخطوط القتالية) في مدينة فردان التاريخية. وقد أمل الألمان تدمير القوات المسلحة الفرنسية وعزيمة الأمة الفرنسية القتالية، وذلك من خلال إيقاع خسائر فادحة لا تحتمل في صفوف القوات الفرنسية المضطرة لأسباب سياسية للتمسك بفردان. ولكن بعد ثمانية أشهر من المعارك واسعة النطاق، عانى كلا الطرفين القدر نفسه من الخسائر المؤلمة.

وخلال تلك السنة نفسها سيطرت القوات البريطانية الجديدة، التي تشكلت من المتطوعين في الشطر الأول من الحرب، على ساحة القتال في معركة «سوم» في فرنسا. وبقي القادة البريطانيون من أمثال دوغلاس هيغ متمسكين بأهداب الأمل من خلال الاعتقاد أن عدداً كافياً من قطع المدفعية إلى جانب هجوم ضخم لقوات المشاة كفيل باختراق خطوط العدو. إذ افترض هيغ أنه يمكن تحقيق النصر عندما تقتحم قواته مؤخرة العدو وتبدأ بالتقدم صوب ألمانيا بشكل لا يمكن إيقافه. وبدلاً من ذلك، بدأت المعركة بمذبحة في صفوف قوات المشاة البريطانية بسبب المدافع الألمانية الرشاشة التي أطلقت نيرانها بشكل لم يسبق له مثيل حتى على الجبهة الغربية. متابعاً الهجوم، بغية استنزاف العدو، أراق هيغ المزيد من الدم البريطاني. وقُتلت أعداد كبيرة من الألمان أيضاً، غير أن الوضع على الجبهة بقي على حاله.

وشهد العام 1916 تخلي الأدميرالات على جانبي بحر الشمال عن الحذر الذي أظهروه منذ بداية الحرب. فقد انتظر البريطانيون عبثاً خروج أسطول أعالي البحار الألماني خارج الميناء فبدؤوا بتمهيد المسرح لمعركة «ترافلغار» جديدة، أو ما يسمى بالطرف الأغر، ذلك النصر البحري الحاسم الذي حققه الأسطول البريطاني في أعالي البحار ضد البحرية الفرنسية في أكتوبر من العام 1805. كما شعر الألمان بالقدر عينه من

خيبة الأمل لأن الأسطول البريطاني الكبير أطبق حصاره على الموانئ الألمانية من مسافة آمنة. ولم تنتج المناوشات التي حدثت في بحر الشمال سوى حالة من الجمود المحبط، كما أظهر قادة القوات البحرية احتراماً كاملاً لإمكانات الأسلحة مثل حقول الألغام الحديثة والطوربيدات التي تطلق من الغواصات. وتسببت المواجهة بين الأسطولين الكبيرين في معركة «جوتلاند» في أواخر مايو بخسائر أفدح في صفوف البريطانيين. بيد أنه كان حدثاً فريداً، ليس له نظير في أي مرحلة أخرى من الحرب، إذ ترك قيادة سطح المحيط في أيدي القوات البريطانية.

وقد أصبح اليأس الذي أصاب كلا الطرفين أكثر وضوحاً في عام 1917. إذ بدأ الفرنسيون هجوماً ضخماً ضد الألمان في «شمبانيا»، مدفوعاً بتفاؤل قائد جيشهم الجديد الجنرال جورج نيفيل. إلا أن انهيار الهجوم الذي شنّه في مواجهة المقاومة الألمانية شديدة الصلابة والدربة، دفع الكثيرين في الجيش الفرنسي للتمرد. وغدت القوات الفرنسية أولى القوات– ولكن ليست الأخيرة–على الجبهة الغربية التي تشهد انهيار روح القتال والنظام. وقد استرد القائد الجديد فيليب بيتان النظام للجيش مرة أخرى، ولكن على حساب وقف الهجمات الدامية التي كانت الأمل الوحيد لتحقيق نصر سريع.

وقام الألمان أيضاً بخطوات يائسة أملاً في تحقيق نجاح سريع. فقد بدت الغواصات، ذلك السلاح الجديد الذي يستخدم للمرة الأولى في الحرب العالمية الأولى، الأداة التي ستحقق النصر في البحر. حيث استطاعت غواصات الأسطول الألماني، كما كان مأمولاً، أن تحقق النصر الوطني الذي فشل الجيش في تحقيقه من خلال قطع إمدادات الغذاء عن بريطانيا، التي كان معظمها مستورداً. وتواصل هجوم الغواصات بطريقة مشؤومة طوال فترة الحرب. ولكن وبحلول نهاية عام 1917 أظهرت تلك الغواصات أنها لن تنجح في تحقيق النصر المنشود. إلا أن خسائر قوات التحالف كانت سهلة التدبر ولا زالت سفن الإمدادات الحيوية قادرة على عبور المحيط الأطلسي. حيث هزمت المجموعة المتنوعة من التدابير الجديدة أو المقيتة– استخدام القوافل البحرية على الرغم من معارضة قادة البحرية ذوي العقول العدوانية، وإجراءات تقنين الطعام على الرغم

من المشقة التي فرضتها على الكثير من السكان- اندفاع ألمانيا إلى الأمام. وكانت كلفة الجهد الألماني تهدف إلى جر الولايات المتحدة إلى دخول الحرب. حيث كانت حكومة « وودرو ويلسون قد أعلنت قبل عامين أنها لن تسمح بحرب غواصات مفتوحة النطاق من قبل ألمانيا.

وفي الوقت نفسه، واصل البريطانيون هجومهم المتفائل لاختراق الخطوط الألمانية وبالتالي شق الطريق نحو النصر. فقد بدأ هجوم جديد- هذه المرة حول مدينة إيبر الواقعة شمال غرب بلجيكا- في طقس الصيف الجاف، وامتد حتى أمطار الخريف. وبسبب الأراضي المنخفضة التي تحولت إلى بحر من الطين، عانى البريطانيون من أسوأ الخسائر خلال الحرب في معركة إيبر الثالثة (التي عرفت باسم معركة باشنديل)- وذلك للاستيلاء على أجزاء ضئيلة من الأرض.

وبدأت السنة الأخيرة من الحرب بهجوم ألماني ضخم، وجّه خلاله الألمان بقيادة بول فون هندينبرغ وإريك ويدندورف سلسلة من الضربات القوية على طول الجبهة الغربية، آملين إلحاق الهزيمة بالفرنسيين والبريطانيين قبل وصول القوات الأمريكية الضخمة. وزحف الألمان قدماً معطلين كامل الجيش البريطاني الميداني في هذه العملية. ولكن في نهاية المطاف، صمدت خطوط قوات التحالف أمام هذا الهجوم الضاري. وبحلول نهاية الصيف، بدأت معنويات الجيش الألماني في التصدع. فقد تحركت القوات الأمريكية الضخمة، غير المدربة، بصعوبة إلى الأمام نحو قطاع ميوز- آرجون حول مدينة فردان في شمال شرق فرنسا، في حين قاد الفرنسيون والبريطانيون بشكل خاص الهجمات الكاسحة التي أجبرت الألمان على التقهقر إلى حدودهم.

ومع اقتراب قوات الحلفاء من الحدود الألمانية، أفضى اليأس الألماني إلى نتائج سياسية وعسكرية بالغة الأهمية. ودعا ويدندورف الشخصية الرئيسية في القيادة الألمانية العليا، القيادة السياسية في بلده إلى التوصل إلى هدنة. وتحت ضغط من الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون، وقَبل الهدنة، تحرك الألمان لإنشاء نظام برلماني أقرب إلى النظام المعمول به في بريطانيا العظمى. غير أن الأحداث تجاوزت أية نية. أمر الأدميرالات الألمان، الذين كانوا يسعون إلى معركة بحرية أخيرة في بحر الشمال،

أسطول أعالي البحار بالإعداد لهجوم نهائي، ولكن البحارة المنهكين ثاروا ضد ضباطهم وأوصلوا رسالة التمرد إلى جموع السكان الألمان.

وعندما سافر الوفد الألماني الذي سيفاوض على الهدنة، لمقابلة ممثلي دول التحالف في مدينة كوميون الفرنسية في الأسبوع الأول من نوفمبر، غصت ألمانيا بالثورة. وتنازل القيصر فيلهلم الثاني عن العرش على مضض، وتشكلت الجمهورية المؤقتة، كما جهز القادة المتطرفون من أمثال كارل ليبكنخت[1] للانتقال بالثورة إلى مرحلة أكثر شمولاً. فقد تصوروا أن التغيير لن يتوقف عند هذه المرحلة من جمهورية الطبقة المتوسطة، وبدلاً من ذلك يجب أن تتحول إلى حكومة عمال ثورية مشابهة لتلك التي قبلها الروس في نوفمبر من العام المنصرم.

(1) أحد مؤسسي عصبة سبارتاكوس والحزب الشيوعي في ألمانيا.

الجزء الأول

الحياة العسكرية

الفصل الأول

التعبئة والتدريب

دخلت دولتان من الدول المتحاربة على الجبهة الغربية[1]–هما ألمانيا وفرنسا– الحرب بجيوش كبيرة مدرّبة. وذلك لأنهما كانتا تعملان بنظام التجنيد الإجباري الذي سمح بدفع أعداد كبيرة من الجند إلى الخدمة العسكرية سنوياً، وإضافة إلى تعبئة الجيش بالقوات النظامية وبالمتحقين حديثاً بالخدمة، سمح النظام العسكري في كلتا الدولتين بوضع الشبان الذين أنهوا الخدمة العسكرية في وحدات الاحتياط، وكان جنود الاحتياط يعودون إلى الخدمة الفعلية لفترة محددة كل عام، وكانوا على أهبة الاستعداد والجاهزية للالتحاق بالجيش النظامي في حالة حدوث أي طارئ وطني. لذا تمكنت هاتان الدولتان من الدفع بملايين الجنود المقاتلين والمدربين إلى حد ما إلى جبهات القتال في غضون أسابيع قليلة من إعلان الحرب.

وفي عام 1914 وضعت خطط مدروسة ومفصلة بُنيت على أساس توسيع خطوط السكك الحديدية في كلّ من ألمانيا وفرنسا، جنود الاحتياط في مواقعهم، وربطتهم بوحدات الجنود النظاميين، ومن ثم نقلتهم إلى جبهة القتال بسرعة فائقة. وفي الوقت نفسه اندفع المتطوعون المتحمسون نحو القوات المسلحة في كلتا الدولتين. ومع استمرار القتال، تواصل العمل بنظام الخدمة الإلزامية القائم، وكان مرور كل عام

(1) الدول المتحاربة على هذه الجبهة شملت دول الحلفاء بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية ودول المحور، ألمانيا والنمسا – المجر وتركيا.

يشهد الزج بكثير من الشبان الذين بلغوا سن التجنيد إلى أتون الحرب.

أما في بريطانيا، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية. فالبريطانيون كان لديهم جيش صغير من المتطوعين جنباً إلى جنب مع عدد كبير من متطوعي البحرية. ولم يكن لدى بريطانيا منهج موطّد لزيادة عديد القوات العسكرية بصورة جوهرية. ولم توفّر القوة العسكرية الإقليمية البريطانية – وهي نسخة طبق الأصل من الحرس الوطني الأمريكي – إضافة إلى قوات الجيش الصغيرة وقوات الاحتياط البحري، إلا دعماً محدوداً للجيش النظامي، بيد أن بريطانيا أطلقت بصورة فورية جهداً هائلاً لحشد عدد كبير من المتطوعين لتشكيل جيش جديد. ومع استمرار الحرب، أنتج الجدل بشأن اللجوء إلى نظام الخدمة الإلزامية – أسوة بالنظام المعمول به في الدول الأوروبية المجاورة منذ زمن طويل– مشروع[1] مسودة قانون في عام 1916.

كما اختلفت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً عن بقية الدول الكبرى في القارة الأوروبية. فالقوات المسلحة الأمريكية تكونت أساساً من أسطولٍ بحري كبير وجيش صغير. وكان الجنود الذين يتمتعون بالتدريب المتقدّم والجاهزية القتالية، جزءاً من قوات مشاة البحرية الصغيرة (المارينز) والتي لم يتجاوز قوامها ستةَ عشر ألف مقاتل. وبعد وقت قصير من دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب، استطاعت الحكومة تطبيق نظام الخدمة الإلزامية في جميع أرجاء البلاد. وبقليل من الإعداد، أو دونما أيّ إعداد مسبق، شرعت في إنشاء جيش يتكون من ملايين الجنود.

الجيش الألماني

أمضى جنود الجيش النظامي الألماني وقوات الاحتياط الجاهزة، الذين دخلوا الحرب في أغسطس من عام 1914، فترة من التدريب التكتيكي في وقت السلم كجنود. وكان الجيش النظامي في تلك الفترة المكون من زهاء ثمانمائة ألف مقاتل يضم فرقاً عسكرية من المجندين الذين تم استدعاؤهم للخدمة في خريف 1912 و1913. و دُعموا بشكل

---

(1) قانون الخدمة الإلزامية الذي يعد نقطة تحول في تاريخ الجيش البريطاني ولكنه واجه معارضة شديدة من قبل المجتمع المحلي إذ سُجن زهاء 16000 شاب لرفضهم الالتزام به.

سريع بجنود احتياط منتظمين من الفرق العسكرية التي استدعيت للخدمة في الفترة من عام 1907 إلى 1911. وأضيف إلى تلك المجموعة جنود الاحتياط القُدامى من مؤسسة الحرس الوطني Landwehr الذين تمتدّ أعمارهم حتى سن التاسعة والثلاثين.

كما أتاح عدد سكان ألمانيا الكبير نسبياً للحكومة بأن تختار للخدمة العسكرية الجنود المرغوب فيهم من الناحية البدنية والسياسية. ففي عام 1911 انحدر أكثر من 65٪ من المجندين من مناطق ريفية، على الرغم من أن أكثر من نصف سكان ألمانيا يقطنون في المدن، إلا أن 13٪ فقط من المجندين جاءوا من المدن الكبيرة أو المتوسطة الحجم. ففي تلك المدن كانت هناك مجموعات يُعتبر ولاؤها موضع شك واضح من قبل الحكومة مثل الاتحادات العمالية والحزب الديمقراطي الاشتراكي.

كان جميع جنود الاحتياط من المخضرمين بعد أن أمضوا عامين من الخدمة الفعلية عندما تم استدعاؤهم في عامهم العشرين. وكذلك خضع سلاح الفرسان السابق للخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات. وتم توزيع هؤلاء جميعاً على الثكنات العسكرية وباشروا مهماتهم الجديدة كجنود في القوات المسلحة. وقد عمل الرقباء الدائمون الذين مضى عليهم في الخدمة العسكرية الفعلية اثنا عشر عاماً، على إعداد الجنود ذهنياً وبدنياً نحو الأهداف عسكرية. وخلال ستةَ أشهر من خدمتهم تلقى الجنود التدرب التقليدي الابتدائي: المشية العسكرية المنضبطة والرماية والعناية ببنادقهم والتدريب على السير الطليق والمناورات. وتَبع ذلك فترة من الخدمة الفعلية ومن ثم العودة مرة أخرى إلى الحياة المدنية. وأسفرت تعبئة هذا العدد من جنود الاحتياط عن تشكيل قوة عسكرية قَوامها 2،9 مليون جندي في أغسطس 1914(1). وعلى الرغم من وجود شكل من أشكال التذمر والرفض لهذا الاستدعاء الإلزامي وخاصة في المناطقِ الريفية التي يمثل فيها جني المحاصيل أولوية عليا، إلا أن عدداً قليلاً جداً من جنود الاحتياط لم يمتثلوا للخدمة العسكرية.

وفي مجتمع كالمجتمع الألماني يحتفى فيه بالقيم العسكرية، قَبلَ معظم الشبان الألمان الالتزام بالخدمة العسكرية برباطة جأش؛ فالالتحاق بوحدات عسكرية معينة كان مرتبطاً بمناطق جغرافية محددة، وعند التحاقِ مجموعة من فئة عمرية بالكامل من منطقة

معينة بالجيش في وقت واحد فإن ذلك يُعتبر مناسبة للاحتفالات المحلية. كما كان من الممكن أيضا للمتطوعِ في الجيش الألماني أن يختار الوحدة العسكرية التي يريد أن يخدم بها، بما في ذلك الوحدة التي كان والده أو أخوه الأكبر قد خدم فيها. وكان متاحاً للشباب المتعلم بعد عام من خدمته في القوات المسلحة نيل رتبة ضابط احتياط، مع ما يرافقها من مكانة مميزة في المجتمع الألماني. ولكن حتى بالنسبة إلى جموع المجندين المنحدرين من مراكز اجتماعية أقل تميّزاً كان يحتفى بإتمامهم الخدمة العسكرية على اعتبار أنهم يدخلون مرحلة جديدة في حياتهم.

وقد هدفت الجرعة الثقيلة من التدريب على المشية العسكرية المنضبطة التي تلقاها المجندون إلى خلق ما يسمّى بـ «الطاعة العمياء» (Kadavergehorsam) الضرورية للاستجابة الصحيحة تجاه الأوامر تحت وطأة القتال. ولم يتطلب خلق رماة مهرة من المجندين الذين يخدمون لمدة عامين أو ثلاثة أي جهد يذكر. وكانت المقدرة على إطلاق النار الكثيف بشكل «مركز ومسيطر عليه» في ظروف المعركة كافية. ومن ناحية أخرى، ركز التدريب الألماني على اللجوء للعدوانية في أوقات الخطر: وكان يُتوقع من جنود المشاة المسلحين «بالحزم الداخلي» (بحسب تعبير قوانين الانضباط لعام 1906)، أن يتابعوا السير قُدماً حتى في وجه نيران العدو. وعكست كُتَيبات التدريب الألماني قدرة هائلة للجنود على استخدام الأسلحة الحديثة بوعي كامل، ولكنها تطلبت من الجنود المدربين تدريباً جيداً أن يتغلبوا على مخاوفهم ويؤدوا أدوارهم في مهاجمة العدو(2).

وكان معظم الجنود الألمان الذين ذهبوا إلى الحرب في أغسطس من عام 1914 في منتصف العشرينات من أعمارهم. ولم تشهد إلا قِلّة قليلة من قادتهم الأكبر سناً الحرب الفرانكو- بروسية[1] التي وقعت بين 1870 و1871. وشاركت مجموعة أكبر، غير أنها تبقى محدودة في الحملات الاستعمارية ضد السكان المحليين في المستعمرات الألمانية في أفريقيا. لذلك لم يكن من مثيل لجموعِ المحاربين المخضرمين ضمن القوات

(1) نشبت عام 1870 بين فرنسا وبروسيا وسرعان ما دخلت ألمانيا الحرب إلى جانب بروسيا وانتهت في عام 1871 بانتصار ساحق للألمان أدى إلى توقيع معاهدة فرانكفورت وسقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية.

المسلحة البريطانية والفرنسية. ومع ذلك، فإن الجندي الألماني العادي في عام 1914 «اعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من مؤسسة تُجسّد كلاً من الاستقامة والثقة والكفاءة المهنية الواضحة». كما منح التدريب الألماني ضباط الصف والجنود «إعداداً نفسياً ومهنياً أهّلهم للاستمرار والصمود في ساحة المعركة الحديثة»، إذ خدموا في جيش أجّج حماستَهم «على الأقل بالتظاهر بمعرفة ما يحدث في ساحة المعركة»(3). وبسبب فداحة الإصابات التي ألمت بالجيش الألماني وكثرتها، التحق جموع الرجال شباباً وشيباً بالخدمة العسكرية. وعلى نحو مشابه أخذ سلك الضباط يبدو مختلفاً. فحتى قبل الحرب، حتم النمو الطبيعي للجيش على القيادة إتاحة الفرصة لقيادات من الطبقة المتوسطة بدلاً من الطبقة الأرستقراطية التي كانت تسيطر على قيادة الجيش. وتواصلت تلك العملية، ومن أجل إيجاد مصدر إضافي من قادة المعركة اضطلع ضباط الصف من المتقاعدين بدرجة متزايدة من المسؤولية.

وكان المجند الألماني الذي يستدعى للخدمة العسكرية أثناء الحرب يتعرّف الحياة العسكرية على أساس انتمائه إلى فوج، وهناك يأتي مدربوه من مصدرين، فهم إما ضباط ورقباء أصيبوا في المعارك وكانوا يتماثلون للشفاء، وإما كادر التدريب المؤلف من الجنود المخضرمين كبار السن الذين تم استدعاؤهم لمثل هذه المهمات. وطبقاً لكتيبات ما قبل الحرب، فإن الاستعداد لمواجهة محنة الخنادق لم يتجاوز أبعد من المشية العسكرية المنضبطة وتدريبات الالتحام بالسلاح الأبيض والمناورات الأولية.

ووجدت الوحدات العسكرية الألمانية المتواجدة على الجبهة الأمامية لخط النار نفسها مضطرة للقيام بتدريباتها الخاصة. ومن أجل إيجاد بدائل جديدة لحقائق حرب الخنادق أنشئت مراكز تجنيد للفرق العسكرية في ألمانيا. وكان المدرّبون في هذه المعسكرات من المخضرمين الجدد في القتال. إلا أن التدريب في هذه المراكز عانى من نقص المساحات اللازمة لمحاكاة نظام قتال الخنادق الموجود على الجبهة الغربية لخط النار.

وقد وصف الصحفي الهولندي ج. م. د. بوفور[1] أجواء إحدى ثكنات التدريب

(1) ج. م. دي بوفور كاتب وصحافي فرنسي له العديد من المؤلفات أهمها «وراء الحجاب الألماني».

التي زارها في مدينة ميونخ عام 1916 حيث تبين له أنه وبعد ستة أسابيع من التدريب، كان المجندون ينفذون كل حركة «بدقة آلية متناهية في كل أعمالهم»، وللتجاوب مع أوامر ضباطهم، كانوا يصرخون «كأنهم يُخاطبون من قِبل رجل يبعد عنهم مسافة نصف ميل». وعندما سأل دي بوفور الضابط المرافق له داخل الثكنات عن السبب، أجابه بأن مثل هذه الممارسة تعلّم المجندين درجة من التأهب العسكري؛ «فالكثير من المجندين عندما يصلون إلى مراكز التدريب يكونون مدللين يتكلمون بنعومة وبطء ويخافون عند مخاطبتهم». وصرّح الضابط الألماني أنه بعد أسبوعين من التدريب، بما في ذلك الصراخ عند الاستجابة للأوامر، تغير«سلوك المجندين وطرائق تفكيرهم»(4).

الجيش الفرنسي

وعلى نحو مماثل، أمضى المجندون الفرنسيون، بداية من سن الثامنة عشرة إلى العشرين، سنتين أو أكثر في الثكنات. غير أن الاستدعاء السنوي للخدمة العسكرية لم يفرز أجواء ابتهاجية مثلما كان الأمر في ألمانيا. وقد أشار أحد المؤرخين إلى أنه بالنسبة إلى الشبان الفرنسيين «كانت الخدمة العسكرية الإجبارية في أحسن حالاتها تمثل إزعاجاً لهم، وفي أسوأ حالاتها كانت تعتبر عبئاً على اقتصاد الأسرة»(5). كما أن القوة البشرية الفرنسية القادرة على الخدمة العسكرية كانت قليلة نسبياً، ولم تحشد سوى زهاء مائتين وخمسين ألفاً إلى ثلاثمائة ألف مجند سنوياً، مما أجبر الحكومة على تمديد الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنوات اعتباراً من 1913. ولولا هذا التغيير، لما حصل الجيش النظامي الفرنسي على أكثر من خمسمائة وأربعين ألفا جندي فقط في مقابل ثمانمائة ألف مقاتل ألماني.

ففي بداية الحرب ضمّ الجيش الفرنسي المجندين الذين تم استدعاؤهم للخدمة في الأعوام 1911 و1912 و1913. وعلى الفور التحق بهم جنود الاحتياط الذين خدموا ما بين عامي 1896 و1910. وفي نهاية العام، تم الإتيان بمجندي العام 1914 الجدد إلى الجيش، كما حمل احتياطيو الأعوام 1892 حتى 1895 السلاح على حد سواء.

وكان المجندون وجنود الاحتياط على حد سواء ينفذون أوامر الرُّقباء ويسيرون

في مسيرات عسكرية لأميال طويلة ويقومون بتنظيف بنادقهم مراراً وتكراراً. ومن وجهة نظر معظم المراقبين، كان الجيش الفرنسي أقل نجاعة من الجيش الألماني في إزالة التوجهات المدنية من عقولِ المجندين. فالهزيمة التي تلقتها فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية عامي 1870 و1871 ما زالت ماثلة في ذاكرةِ الفرنسيين. وعلاوةً على ذلك فإن قضية دريفوس[1] ذلك الضابط اليهودي الذي اتهمه مرؤوسوه ظلماً بالخيانة العظمى، جعلت العديد ينظرون إلى الجيش الفرنسي على أنه جيش متعصب وفاسد ولا يؤمن بالنظامِ الجمهوري. فقد تمرد جنود سلاح المشاة الفرنسي على الأوامر عام 1906 بدلاً من قمع تمرد منتجي النبيذ، كما أن الاستدعاء السنوي للخدمة العسكرية الذي تلا ذلك العام شهد هروب ستة وثلاثين مجنداً من أصل كل مائة مجنّد.

وكان لغياب مفهوم الولاء والطاعة العمياء للأوامر ضمن الجيش الفرنسي، والذي يشكّل فخر الألمان، أثر واضح في الاضطرابات التي حدثت في عشرين حامية للجيش الفرنسي عام 1913. فقد وقعت تلك الاضطرابات عندما نمى إلى علم الجنود أن الخدمة الإلزامية سوف تمدّد إلى ثلاث سنوات بدلاً من سنتين. ومع ذلك، عندما تم استدعاؤهم من الحياة المدنية في العام 1914، فإن 1,3٪ من احتياطيي فرنسا– بدلاً من النسبة المتوقعة 13٪– لم يلتحقوا بوحداتهم. وفي نهاية المطاف أدى 7,8 مليون فرنسي الخدمة العسكرية في زمن الحرب. وشكل هذا ما يقارب خمس العدد الإجمالي للسكان(6).

وقد شدّد قانون السنوات الثلاث[2] الصادر في عام 1913 على أن يقضي المجنّدون عامهم الأول في تدريبات عسكرية تحت إشراف مكثّف. وكان يُتوقع منهم «كجنود في القوات المسلحة» أن يتقنوا «آليات الحركة» فحسب. وفي عامهم الثاني، فإنهم مطالبون بالتدرب على القتال وعلى تعلم «المهمّات الخاصة التي قد يُكلف بها الجندي في ميدان المعركة». وفي العامِ الثالث الذي أضيف حديثاً للخدمة كان متوقعاً أن ينال عدد من المجندين رتبة عريف أو رقيب في الجيش(7). وشدّد هذا التدريب الفرنسي

(1) النقيب ألفريد دريفوس، ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي من أصل يهودي. حكم عليه بالمؤبد بتهمة تسليم أسرار عسكرية عن الجيش الفرنسي للسفارة الألمانية في باريس. ولكن بعد عامين ظهرت براءته.

(2) قانون تمديد الخدمة العسكرية من عامين إلى ثلاثة أعوام.

قبل الحرب على القيام بالأعمال الهجومية ضد مواقع العدو في جميع الظروف. فقد أظهرت صورة فوتوغرافية التقطت للمناورات عام 1913 مشهداً مماثلاً للوحة ظهرت عام 1877 لجنود «يقاتلون في المناطق الريفية المفتوحة ويطاردون أعداءهم فوق سفوح التلال حاملين البنادق ذات الحراب، بتشجيع من ضباط الفرسان». وفي حين شددت تعاليم التدريب على دور كتيبة المشاة في الحرب، فقد قللت من أهمية سلاح المدفعية كما قللت من شأن التكتيكات العسكرية الدفاعية (8). ووفقاً للقواعد التكتيكية التي أُقرت في أبريل 1914، فإن الهجوم اللازم لتحقيق النصر «لا يمكن تحقيقه إلا... ببذل طاقة جسدية ومعنوية هائلة مع التضحية بالدم»(9). ومما لا شك فيه أن كل هذه التدريبات أهّلت الجنود الفرنسيين للحرب– ولكن وفقاً لمجريات الأحداث اللاحقة، ليس للحرب العالمية الأولى.

وربما لم تُفهم الدعوة المشدّدة للتركيز على الأعمال الهجومية تحت شتى الظروف بصورة صحيحة لدى جموع ضباط الصف والجنود. فالحاميات العسكرية الواقعة في الريف والتي تبعد عن تأثير وزارة الحرب لم تحصل على نصيب كاف من الضباط. ومع ذلك فإن السنوات التي سبقت عام 1914 أعطت بعض العُقداء العدوانيين من ذوي الخبرة أمثال جوزيف جوفريه[1] وشارل مانجان[2] وفرانسوا فرانشيه ديسبراي[3] أدواراً مهمة ومؤثرة في الجيش الفرنسي، متبعين حالةً هجومية شديدة الصرامة منذ بدء الحرب فصاعداً.

ونتيجة لدوران رحى الحرب، تغيرت طبيعة الجيش بشكل جذري، فقبل عام 1914 تكوّنت معظم مجموعات ضباط الصف بشكل أساسي من جنود محترفين، ولكن في أثناء الحرب كان العُرفاء والرُقباء بشكل أساسي من المدنيين السابقين. ونظراً لأن الجيش الفرنسي في القرن الذي سبق عام 1914 قام بترقية الرقباء المهرة إلى ضباط، فقد أصبحت

(1) القائد العام للقوات الفرنسية بين 1914 و1916.

(2) كان برتبة لواء في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى وقاد الجيش الفرنسي والأمريكي في معركة ماران الثانية.

(3) قائد فيلق ليل في الحرب العالمية الأولى. وكان يلقب بمارشال فرنسا.

هذه الترقيات معتادة الآن. لذلك لم يكن غريباً ترقية الشاب الأكاديمي مارك بلوخ[1] البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، والذي عمل كرقيب احتياط منذ العام 1907، إلى رتبة ملازم أول في أبريل من العام 1916، بعد تقديمه لخدمة متميزة في الجيش الفرنسي في أكتوبر من العام 1914، ليصل مع نهاية الحرب إلى رتبة نقيب. ولكن الأمر اختلف مع بعض الضباط من ذوي الأصول المتواضعة. فعندما سعى بعض كبار الضباط أمثال اللواء شارل مانجان إلى ترقية ضباط الصف الذين جاءوا من طبقات متوسطة فقط، وجدوا أنه من المستحيل الحفاظ على هذا المعيار بحجة أن البلاد تحتاج إلى رجال لقيادة فصائل وسرايا الجيش أثناء الحرب. «أما على الصعيد السكاني، فإن الطبقات الاجتماعية الدنيا في فرنسا لم تستطع حمل كلفة ترف الطبقات العليا»(10).

حماسة العام 1914

كان معظم الذكور الألمان الذين بلغوا سن التجنيد موجودين أساساً في الخدمة أو في وحدات الاحتياط، ومع ذلك تدفق الكثير من الشبان المتحمسين للالتحاق بالخدمة العسكرية. واندفع الشبان الذين أُعفوا من الخدمة، وأولئك الذين لم يُستدعوا من قِبل وحدات الاحتياط، وكذلك الذين تجاوزا سن التجنيد أو لم يبلغوه بعد، إلى التطوع في الجيش. وعلى الرغم من أن التقارير الصحفية الألمانية تحدثت عن أكثر من مليون متطوع، إلا أنه في الحقيقة تطوع 185 ألف شاب ألماني خلال أغسطس 1914 وحده. وجاء معظم هؤلاء المتطوعين من كافة الطبقات الاجتماعية، بما فيها الطبقة العاملة، ولكن الأغلبية العظمى كانت من الطلاب والتجار ورجال الأعمال(11).

اصطفت طوابير طويلة من الشبان خارج المراكز الرئيسية للفرق العسكرية التي بها متسع للتجنيد. وتطوّع نصف طلاب المدارس الثانوية الألمانية والبالغ عددهم 32 ألفاً، وهي نخبة المدارس الثانوية التي تُعد الشبان للالتحاق بالجامعات. وفي بعض الحالات، ذهبت فصول دراسية بكاملها إلى الحرب في بداية الصراع. وربما قام بالمثل

(1) مارك بلوخ (1886– 1944) ابن أستاذ التاريخ القديم غوستاف بلوخ. عمل ضابطاً في سلاح المشاة في الجيش الفرنسي ورفع إلى رتبة نقيب وحصل على وسام جوقة الشرف. عمل بعد الحرب في منصب أستاذ التاريخ في جامعة السوربون.

نصف طلاب ألمانيا الجامعيين. إذ دفعت مجموعة من الدوافع الكثير من الشباب المتطوعين لارتداء الزي العسكري في بداية الحرب. وبالنسبة إلى بعضهم، كان الشعور بالواجب الوطني هو الأسمى، ولكن كان هناك أيضاً ضغط وتأثير اجتماعي على العائلات المتعلمة والثرية للالتحاق بالجيش. أما الآخرون، الذين ينتمون لطبقات اقتصادية أقلّ ثراءً، فوجدوا في الجيش وظيفة مغرية وذلك لأن البديل الوحيد كان البطالة.

ولم تكن فترة التدريب المطولة في زمن السلم ملائمة لهؤلاء الرجال في المرحلة الأولى من الحرب. إذ اعتُبر أن ستة أسابيع من التدريب كافية لإعداد المجندين لساحة المعركة. فاندفع طالب الحقوق فرانز بلومنفلد[1] من جامعة «فرايبورغ» للالتحاق بالجيش الألماني في المدينة الجامعية في أوائل أغسطس، إذ أنه كان يخشى العودة إلى بيته في مدينة هامبورغ حتى لا تفوته فرصة الالتحاق المبكر بالجبهة. وفي 23 سبتمبر، وجد نفسه في القطار العسكري المتّجه إلى شمال فرنسا(12).

كتب هربرت سلزباخ[2]، ابن العائلة المصرفية الثرية في مدينة فرانكفورت، في دفتر يومياته في الثامن من أغسطس بأنه «كان محظوظاً بدرجة لا تُصدق» لكونه قُبل في الفوج الثالث والستين لسلاح المدفعية الميداني في مدينة فرانكفورت. فقد حاول خمسمائة ألف متطوع الالتحاق بتلك الوحدة في الأيام الأولى للحرب، ولكنّ شخصاً واحداً من أصل سبعة أشخاص قُبلَ. وقد نقل إلى الجبهة الغربية في الثاني من سبتمبر بعدما سماه «مجرد تدريب لأربعة أسابيع فحسب»(13).

وبدوره تلقى الشاب الأمريكي آلان سيغر[3] الذي التحق بالقوات المسلحة الفرنسية في منتصف أغسطس تدريباً لمدة خمسة أسابيع، ومن ثم غادر إلى الجبهة في أوائل أكتوبر. وبوضعه في الخطوط الخلفية للقتال، تدرب مع وحدته على التقنيات القتالية بما في ذلك المعارك الوهمية باستخدام القذائف الفارغة. وفي أواخر أكتوبر

(1) نشرت رسائله إلى عائلته عن الحرب العلمية الأولى في كتاب بعنوان «تحت القصف».

(2) ولد في ألمانيا عام 1894 وتطوع في الجيش الألماني من 1914 إلى 1918. احتفظ بدفتر يومياته عن الحرب العالمية الأولى. ونشرت هذه اليوميات عام 1935 في كتاب بعنوان «خمسون شهراً على الجبهة الغربية للحرب».

(3) شاعر أمريكي (1888– 1916) التحق بالقوات الفرنسية وشارك في الحرب العالمية الأولى وقتل فيها.

كانت فرقته العسكرية تواجه العدو(14).

الجيش البريطاني

كان الجيش البريطاني أصغر جيش بين القوى الأوروبية العظمى. وكانت الدولة تستخدم هذا الجيش، الذي كان يحتمي خلف قوة بحرية هائلة، في المقام الأول للدفاع عن إمبراطورية عالمية. وكان مجموع قوام هذا الجيش تقريباً اثني عشر ألفاً وثمانمائة ضابط بالإضافة إلى مائتين وثلاثين ألف مجند(15)، غير أن هذه القوة الصغيرة كانت تمتلك أفضل المهارات العسكرية على الساحة الأوروبية. ففيالق الضباط كانت تضم صفوة المجتمع البريطاني: أبناء النبلاء وملاك الأراضي وأنجال العائلات العسكرية التقليدية ونسل الرجال المهنيين الطموحين. وعلى الرغم من أن المجندين كانوا من طبقات غير ماهرة وعاطلة عن العمل، إلا أنهم تلقوا تدريباً متقدماً. فالغالبية العظمى وقعت على عقد للخدمة لمدة سبع سنوات (جنود سلاح المدفعية خدموا لمدة ست أو سبع سنوات)، وتلقوا خلالها تدريبات بدنية قاسية وتدريبات على المشية العسكرية المنضبطة ومسيرات عسكرية مكثفة. وأظهر هؤلاء الجنود كفاءة عسكرية واضحة في ميدان الرماية. فالجندي البريطاني العادي في كتيبة الرماة الذي كان يتلقى علاوة تشجيعية على مهارته في استخدام سلاحه، كان قادراً على إطلاق 15 طلقة بدقة متناهية على هدف يبعد ثلاثمائة ياردة خلال دقيقة واحدة. أما الرماة المهرة، فكان باستطاعتهم إطلاق 30 طلقة من مثل هذه الطلقات.

وكانت الكتيبة البريطانية النموذجية العاملة في الهند تقوم بالمسيرة العسكرية السنوية القاسية في كل ربيع لمسافة مائتي ميل من السهول الحارة إلى المناطق الأكثر برودة، مناطق الجبال الوعرة. وهناك خضعت تلك الكتيبة لتدريبات مكثفة من المناوشات والمناورات والربط الداخلي بين الوحدات. كما تدرب الضباط والرجال والخيول العاملة في وحدات المدفعية البريطانية على تركيب بطارية مدفع رشاش بستّ فوهات خلال ثلاث دقائق. فكان المدفع يُنصب ويطلق منه النار قبل أن تتمكن وحدة العدو في خط المواجهة من الرد. وأسفرت التحسينات التي طرأت على الجيش في العقد

السابق لعام 1914 عن مجموعة كبيرة من المدنيين المدربين – الجيش الإقليمي– قادرة على دعم الجنود النظاميين. فهذه القوة العسكرية كانت عبارة عن دمج للوحدات المجمعة محلياً محاكيةً في ذلك الحرس الوطني الأمريكي. إذ تدرب جنودها الوطنيون، البالغ عددهم زهاء مائتين وخمسين ألف ضابط وجندي في بداية الحرب(16)، عدة مرات أسبوعياً وحضروا المعسكر الصيفي السنوي الذي كان يقام لمدة أسبوعين من أجل إجراء المناورات. وعلى الرغم من هذه الإضافات في عدد الجنود، إلا أن عدد الجيش البريطاني لم يتناسب مع عدد القوات المسلحة الفرنسية والألمانية الضخمة.

الإمبراطورية تحتاج إلى رجال!

كان وزير الحرب، المشير هوراشيو كيتشنر[1] يتميز بفراسة نادرة، إذ تنبأ في أغسطس 1914 بحرب طويلة المدى. مما دعاه إلى التخطيط لزيادة القوات المسلحة الوطنية وذلك بحشد ملايين الرجال في قوة جديدة تماماً. وبدأت هذه القوة التي أصبحت تعرف بـ «الجيش الجديد» بالاعتماد في البداية على زيادة عدد المتطوعين، فقد استغلّ وزير الحرب مكانته الشخصية الرفيعة والإحساس الجامح بالأزمة الوطنية في بداية الحرب لإرسال دعوة إلى الشبان للتطوع. وكان عليهم الالتحاق بالفرق المشكلة حديثاً إما للخدمة لمدة ثلاث سنوات وإما على مدار فترة الحرب. وفي غضون ذلك، توسَّع الجيش الإقليمي بفضل مجموعته الخاصة من المتطوعين.

ولمدة سنتين ظل الجيش البريطاني يفي بحاجاته من خلال أولئك المتطوعين الذين بقي عددهم في حالة من المد والجزر، يتناقص ويزداد. كما حفزت الأزمات العسكرية في الأشهر الأولى من القتال الرجال على الالتحاق بالجيش. فعلى سبيل المثال ازداد عدد المتطوعين عندما تواجه الجيش البريطاني لأول مرة مع الجيش الألماني في معركة مونس[2] في أغسطس. وازداد العدد مرة أخرى في أكتوبر ونوفمبر، عندما دارت

(1) ولد في أيرلندا ونشأ في سويسرا. تطوع في الجيش الفرنسي وشارك في الحرب الفرانكو– بروسية. التحق بالجيش البريطاني وخدم في فلسطين ومصر وقبرص. كان يجيد اللغة العربية. ويعود له الفضل في زيادة عدد القوات البريطانية من خلال الحملة التي قادها شخصياً.

(2) قاد الجيش البريطاني في هذه المعركة السير جون فرنش، في حين قاد الجيش الألماني ألكسندر فون كلوك. بلغ تعداد الجيش البريطاني في هذه المعركة 70,000 مقاتل و300 بندقية، في حين بلغت القوات الألمانية 160,000 مقاتلاً و600 بندقية.



ملصق تجنيد بريطاني موجهة للرجال في الإمبراطورية، بموافقة محفوظات معهد هوفر.

رحى معركة إيبر[1] الطاحنة التي قضت على القوة العسكرية البريطانية المحترفة التي كانت موجودة قبل الحرب. ولكن العوامل الشخصية عملت جنباً إلى جنب مع الشعور بالواجب الوطني لدفع الشباب للتطوع. كما دفع حب المغامرة بعضهم، ودفعت قلة فرص العمل – بسبب الكساد الصناعي – الآخرين للالتحاق بالقوات المسلحة. وحتى المجرمون مُنحوا فرصة الالتحاق بالجيش بدلاً من دخول السجن، وكذلك الأمر بالنسبة لخدم النبلاء الذين صدرت لهم الأوامر من قِبل أرباب العمل للالتحاق بالخدمة العسكرية. أما الشبان المدنيون الأصحاء ظاهرياً فوجدوا أنفسهم

(1) خاضت غمار هذه المعركة القوات البريطانية والفرنسية ضد القوات الألمانية. ففقد الجيش البريطاني فيها 58,000 مقاتل والجيش الفرنسي 50,000 مقاتل في حين خسر الجيش الألماني 20,000 مقاتل وجرح 800,00 مقاتل.

يبادرون بالإجابة عن أسئلة العامة في الشارع عن سبب إخفاقهم في الالتحاق بالخدمة العسكرية. وقدمت النساء ريشة بيضاء اللون، رمزاً للجبن، لأولئك الذين أظهروا تردداً في مواجهة الألمان. ويحتمل أن هؤلاء الشبان أنفسهم تعرضوا للتوبيخ والطرد من وظائفهم من قِبل أرباب العمل بسبب حاجة الجيش إلى خدماتهم.

فاق طوفان المتطوعين قدرة سلطات الجيش على التعامل معهم. وكان غياب العناصر المعروفة واللازمة للانضمام للقوات العسكرية مثل - توفير الغذاء من قبل الجيش واستلام الزي العسكري والسلاح والإقامة في الخيام أو الثكنات- واضحاً. ففي بعض الأحيان كان الشبان يقيمون في ملجأ أو في منازل المواطنين المجاورة لعدة شهور، حتى يتسنى إقامة معسكرات التدريب. وبات تدريب الجندي بزي مدني- أو زي أزرق يختلف تماماً عن الزي الكاكي الاعتيادي للجندي البريطاني- مشهداً مألوفاً.

بعض الأفواج كان يحكمه شروط للدخول في الجيش مبنية على خلفية اجتماعية. فقد سمح للشبان الذين جاءوا من طبقات متميزة بالالتحاق بوحدات عسكرية فاخرة مثل فرقة الجامعة والمدارس العامة. وأنشأت السلطات المحلية الكثير من الوحدات التي ضمّت سكان منطقة محددة أو بيئة عمل مشتركة أو خلفية اجتماعية مشتركة. وبالتالي شجع القادة المدنيون من المجتمعات الحضرية مثل مانشستر وليفربول وبريستول الشبان على التطوع في كتائب «الزملاء»[1]. ووعد الجيش هؤلاء المجندين بأن يبقوا سوياً أثناء التدريب وأثناء الخدمة الميدانية. ولم يأخذ أحد بعين الاعتبار أن الخسائر الفادحة في مثل هذه الوحدات المحلية قد يدمر مجتمعات بأكملها.

وفي بعض الأحيان وفّرت السلطات المحلية المأوى للجنود، حتى إنها وفرت أحياناً المعدات التي استخدموها خلال شهورهم الأولى في الجيش. ولكن في بداية العام 1915 فقط بدأت السلطات العسكرية بوضع طوفان المتطوعين تحت السيطرة الكاملة. حيث اجتاز الجنود الآن تدريباً منظماً. وأصبحت المشية العسكرية والتدريبات

(1) كتائب الزملاء في الحرب العالمية الأولى كانت تشكل وحدات خاصة في الجيش البريطاني التي تضم الرجال الذين استعانت بهم في التجنيد المحلي، بهدف تقديم خدمات مدنية للمجتمع المحلي وليس للمشاركة في العمليات العسكرية.

TO THE WOMEN OF BRITAIN.

1. You have read what the Germans have done in Belgium. Have you thought what they would do if they invaded this Country?

2. Do you realise that the safety of your home and children depends on our getting more men NOW?

3. Do you realise that the one word "GO" from you may send another man to fight for our King and Country?

4. When the War is over and someone asks your husband or your son what he did in the great War, is he to hang his head because you would not let him go?

WON'T YOU HELP AND SEND A MAN TO JOIN THE ARMY TO-DAY?

ملصق تجنيد يدعو النساء البريطانيات لإرسال رجالهن للحرب. بموافقة محفوظات معهد هوفر

العسكرية والتدريب على البندقية–العناصر الرئيسية النموذجية لتحويل المدنيين إلى جنود– هي التجربة المألوفة للمجندين. وفّر الشبان من الطبقات الاجتماعية المتميزة بشكل أولي العدد الكبير من الضباط الجدد المطلوبين للجيش الموسع. وافترض الضباط الكبار أن الشاب الذي جاء من مدارس النخبة مثل مدرسة إيتون أو وينشستر لديه الصفات الشخصية والخبرة القيادية لكي يكون ضباطاً مبتدئاً مقبولاً بعد فترة وجيزة من التدريب.

وبحلول شتاء 1915 – 1916، كان تدفق المجندين سواء المتطوعين أو النظاميين غير كافٍ. وبعد نقاش مطوّل وسلسلة من أنصاف الحلول، لجأت الحكومة البريطانية إلى نظام التجنيد الإجباري. ونبع التغيير الثاني من الرغبة في تدريب ضباط مبتدئين جدد من طبقات اجتماعية أوسع. وكان المجندون السابقون من الجيش المحترف أحد هذه

المصادر. وهكذا أصبح المتطوعون في زمن الحرب الذين جاءوا من طبقات متوسطة أو حتى من الطبقة العاملة ممن أظهروا مهارة في القتال مؤهلين ليكونوا «نبلاء مؤقتين».

وكان التدريب يحدث إما في بريطانيا أو على الجبهة، حيث أقامت القوات التي وصلت حديثاً فترة من الوقت في معسكرات القاعدة بالقرب من خط القنال الإنجليزي. وكان أسوأ المعسكرات سمعة هو المعسكر المقام في ميناء إيتابل[1] (الاسم بالنسبة للجنود البريطانيين الذين لا يجيدون اللغة الفرنسية يعني «قضم التفاح» أو «نقر الكعوب»). فهناك، كان الجنود المبتدئون، إضافة إلى القوات التي كانت تُمنح «قسطاً من الراحة» من الجبهة، يخضعون لبرامج مكثفة من التدريب والمسيرات العسكرية التي صممت لتأسيس أو تجديد لياقتهم البدنية استعداداً لحرب الخنادق. وكانت القوات المبتدئة وكذلك الضباط حديثو العهد يتوجهون أولاً إلى مناطق هادئة من الجبهة استعداداً للتوجه إلى الخطوط الأمامية.

جيش الولايات المتحدة الأمريكية

تكونت القوات المسلحة في الولايات المتحدة، مثل نظيرتها البريطانية، من قوة بحرية كبيرة وجيش صغير. وقد دفعت الأزمة التي حدثت مع المكسيك في عام 1916 الحكومة إلى إعلان حالة التعبئة في الحرس الوطني، وكانت النتيجة وجود مصدر من القوة البشرية المدربة التي يمكن مضاعفة حجمها بسرعة معقولة. وبلغ مجموع قوام الجيش النظامي عندما دخلت البلاد إلى حلبة الصراع زهاء 127 ألف ضابط ومقاتل. وأضاف الحرس الوطني 180 ألفاً أو نحو ذلك إلى جمع الرجال المدربين. وكان معظم هؤلاء الجنود الوطنيين لديهم خبرة الخدمة على الحدود المكسيكية(17).

وقد أثار دخول الولايات المتحدة الحرب موجة من التطوع مشابهة لتلك التي حدثت في ألمانيا وبريطانيا في عام 1914. آنذاك كان ويليام لانغر[2] الذي أصبح فيما بعد مؤرخاً أمريكياً متميزاً، معلماً شاباً في إحدى المدارس الإعدادية، عندما استجاب

(1) ميناء فرنسي أسس في القرون الوسطى يطل على مدينة مونتريال.

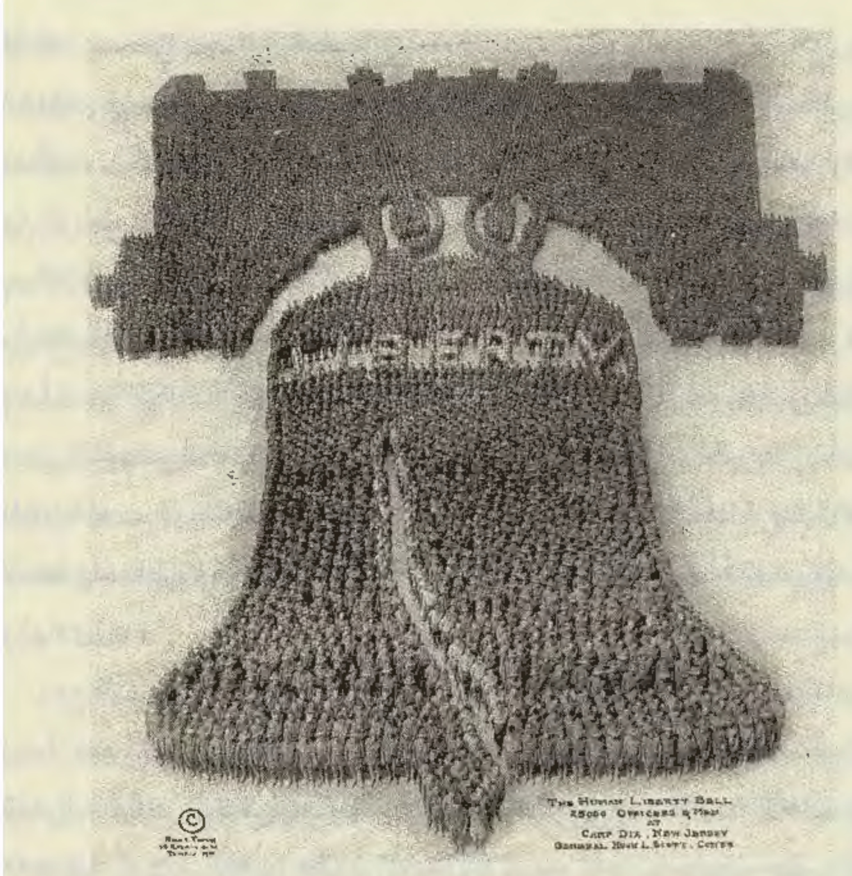
(2) وليام لانغر (1886– 1959) سياسي أمريكي بارز شغل منصب حاكم ولاية داكوتا الشمالية وعضو مجلس الشيوخ من 1940 وحتى 1959.

لإعلان صحفي يدعو إلى التطوع في وحدة المهندسين في الجيش الأمريكي. ولكن التقلبات في مهام الجيش وضعته في السرية E لفوج الغاز الأول، وهي القوة التي تشكلت بالكامل من المتطوعين: «عدد كبير من المنقولين من الجيش النظامي والعديد من خريجي الجامعات... وكبار السن، والفتيان الصغار، والميكانيكيين والباعة، وهلم جرا». وأشار لانغر إلى أن الآلاف من أمثاله التحقوا بالجيش دون تجنيد على الرغم من «الروايات الحقيقية والتفصيلية عن القتال الدامي في السوم[1] وحول فردان[2]، ناهيك عن المعاناة اليومية في حرب الخنادق». وعزا ذلك إلى مجموعة من العوامل. وعلى الرغم من أن هذه العوامل شملت الغضب من ألمانيا الإمبراطورية، إلا أن روح المغامرة لعبت دوراً كبيراً. ووصف لانغر الوضع قائلاً: «كانت هنا فرصتنا العظيمة للمتعة والمخاطرة» قبل الاستقرار والعودة مرة أخرى إلى روتين الحياة اليومية الآمن والهادئ(18).

ومع ذلك، قررت الحكومة أن نظام التجنيد الإلزامي فقط هو الوحيد القادر على زيادة عدد الجيش بشكل يفي بالحاجات القتالية في أوروبا. ويذكر أن السلطات الفدرالية تجنبت المخاطرة باللجوء إلى التجنيد الإلزامي إبان الحرب الأهلية. ولكن هذه المرة، تولى مسؤولون محليون المهمة، ولم يُسمح لأحد باستئجار متطوع ليخدم بدلاً منه. واستمر المتطوعون أمثال ويليام لانغر بتوقيع عقود الخدمة، ولكن تدريجياً تم تقنين التطوع إلى أن أُغلق كلياً في أغسطس وسبتمبر 1918. وبدا التجنيد بالنسبة إلى السلطات العسكرية طريقة أكثر كفاءة في توفير الجنود الجدد، وفي الوقت نفسه لا يحرم البلاد من الرجال اللازمين لشغل المهن المدنية الضرورية. وأُبلغ جميع الذين استدعوا للخدمة العسكرية بأن خدماتهم مطلوبة طوال فترة الحرب. ووفّر هذا المخطط مليونين وسبعمائة وخمسين رجلاً، أي زهاء ثلث العدد الإجمالي ممن خدموا في القوات المسلحة. كما استدعي زهاء 340 ألف رجل للخدمة ولكنهم رفضوا

(1) منطقة تقع شمال فرنسا، دار فيها الكثير من المعارك في الحرب العالمية الأولى وقتل فيها الآلاف من الجنود.

(2) واحدة من المعارك الحاسمة في الحرب العلمية الأولى على الجبهة الغربية. دارت رحاها بين القوات الألمانية والفرنسية في الفترة من 21 فبراير إلى 15 ديسمبر 1916 على التضاريس الجبلية شمال مدينة فردان. وانتهت المعركة دون حسم حيث أسفرت عن ربع مليون قتيل وما لا يقل عن نصف مليون جريح.



جنود أمريكيون في التدريب يشكلون جرس الحرية. بموافقة محفوظات معهد هوفر

الاستجابة للأوامر.

وفي الخامس من يوليو، كان ما يقارب العشرة ملايين شاب، تتراوح أعمارهم بين الحادية والعشرين والثلاثين، من أوائل من سجلوا في المشروع. وفي نهاية المطاف، تبعهم زهاء ثلاثة عشر مليون شخص. حيث مُنح كل رجل رقماً يدل على ترتيبه في التسجيل في لوحة التجنيد المحلية. وفي العشرين من يوليو، قام وزير الجيش بسحب أرقام من وعاء اليانصيب لتحديد أي من الشبان سوف يُستدعى للخدمة الوطنية. واتحد المتطوعون والمجندون لتشكيل ما مجموعه أكثر من أربعة ملايين رجل للخدمة في الجيش بالإضافة إلى نصف مليون آخرين في البحرية وقوات المارينز. حيث خدم

أكثر من مليوني أمريكي خارج البلاد، وكانت الغالبية العظمى منهم في فرنسا(19).

واستُدعي المجندون الأوائل – والبالغ عددهم مائة وثمانين ألفاً– للخدمة في «الجيش الوطني» الجديد في سبتمبر من العام 1917. حيث وضعت آليتان مهدتا الطريق لوصولهم. ففي الشهور التي تبعت دخول أمريكا الحرب مباشرة، درب الجيش آلاف المتطوعين – الكثير منهم من خريجي الجامعات الشبان– للخدمة كضباط مبتدئين. وفي الفترة الممتدة من منتصف مايو إلى منتصف أغسطس من عام 1917، خضع حوالي ثمانية وثلاثين ألف شاب لدورة تدريبية مكثفة، حيث نجح خلالها سبعة وعشرون ألفاً في الحصول على رتبهم العسكرية. ووفّر هؤلاء الملازمون المتخرجون حديثاً وكذلك الذين أكملوا دورات لاحقة قادة مشاة مبتدئين وقادة مدفعية للقوات المسلحة الأمريكية. كما وفرت الدورات التدريبية الغالبية العظمى من النُقباء: 99 ٪ من قادة السرايا في القوات المسلحة الأمريكية أمضوا أقل من سنة في الجيش.

وبعد جهد كبير استطاع قطاع التعمير الوطني إقامة ستة عشر معسكراً ضخماً للجيش الجديد. و يُعد هذا المشروع أعظم مشروع بناء أمريكي منذ إنشاء قناة بنما. وخلال الصراع، عمل مائتا ألف مدني على توفير المسكن لهذا الجيش المتنامي. وعلى الرغم من مصادرها العظيمة، إلا أن الولايات المتحدة واجهت الكثير من المشاكل التي واجهت بريطانيا في مجال إسكان وتدريب المجندين المتدفقين.

وصل المجندون إلى المعسكرات التي لازال عمال البناء يدقون فيها المسامير. فعلى سبيل المثال، اضطرت إحدى وحدات الحرس الوطني في مدينة نيويورك لإزالة جذوع الأشجار قبل أن يتسنى لها إقامة معسكرها الجديد والمريح في كارولينا الجنوبية. ووجد رجال الحرس الوطني من ولايات الوسط الغربي أن محصول القطن السنوي في الأرض المخصصة لإقامة المعسكر في ولاية تكساس، لم يُجن بشكل كامل بعد. كما ذكر أحد جنود الفرقة الثامنة عشرة أن معظم الرجال في وحدته مازالوا في ملابس وأحذية مدنية حتى نوفمبر لعام 1917. وخلال زيارة قام بها وزير الحرب نيوتن بايكر[1] بصحبة مجلس الوزراء أثناء عرض عسكري وجد أن الجنود كانوا يرتدون

(1) شغل منصب وزير الحرب من 1917 وحتى 1921.

«ملابس الصيف الداخلية، وزي العمال الأزرق وأحذية مدنية، ولكنهم لم يرتدوا المعاطف»(20).

ولكن الفرق العسكرية في الجيش النظامي نضبت من الموظفين الضروريين لتشكيل هيكل هيئة القيادة للحرس الوطني المتنامي وكذلك الفرق العسكرية الجديدة التي تشكلت بواسطة المشروع. ومن أجل رفع معنويات الجيش البريطاني والفرنسي، جمعت وزارة الحرب في الولايات المتحدة أربعة أفواج معاً من الجيش النظامي لتشكل فرقة عسكرية يتم شحنها إلى فرنسا في وقت مبكر. وصلت الفرقة العسكرية الأولى في الوقت المناسب وأرسلت كتيبة مشاة سارت في شوارع باريس في الرابع من يوليو وسط فرحة وابتهاج سكان المدينة. وعندما وُضعت هذه القوة التي تبدو محترفة على محك الاختبار أظهرت قصور الاستعداد الأمريكي في مواجهة القوى الأوروبية. فقد كان معظم الرجال المجندين في الفرقة العسكرية حديثي العهد وقليلي الخبرة، وكان ضباطها من جنود الاحتياط، ولم تمتلك وحدات المدفعية والهاون التابعة لها الذخيرة الكافية للمعركة.

وعلى العكس من الدول الأوروبية المتحاربة على الجبهة الغربية، كانت الولايات المتحدة أمة مكونة من عدد كبير من السكان المهاجرين. إذ شكل المجندون المولودون خارج البلاد ما نسبته 18٪ من قوام الجيش، وكان الكثير منهم لا يجيدون اللغة الإنجليزية. لهذا السبب أخذت وحدات خاصة على عاتقها مهمة تعليمهم اللغة الوطنية. وكما ذكر أحد القساوسة في الفرقة السابعة والسبعين، فإن معسكره التدريبي كان يضم آلاف الأجانب الذين كانوا يتحدثون « القليل من اللغة الإنجليزية أو لا يتحدثون بها على الإطلاق عند وصولهم». وأن استغلال المتطوعين المتحمسين، ومن ضمنهم معلمو المدارس الموجودون داخل الكتيبة، في تعليم هؤلاء الأجانب «حققت نتائج ملحوظة» في تعليم «الإيطاليين واليونانيين واليهود الروس الخجولين والراغبين في التعلم»(21).

كان التدريب الأمريكي على القتال يحدث في كل من الولايات المتحدة وخلف جبهة القتال في فرنسا. واستدعى مبدأ التوجيه الذي وضعه الجنرال جون بيرشينغ



جنود أمريكيون يتدربون على القتال بالحربة. بموافقة محفوظات المعهد الوطني

قائد القوات العسكرية الأمريكية، الجنود الأمريكيين الذين كانوا على استعداد لتنفيذ أكثر من مهمة في حرب الخنادق. وتوقع بيرشينغ الخطط الهجومية التي يمكن من خلالها للجيش الأمريكي أن يهزم الألمان في ساحة المعركة، وبالتالي، فإن جنوده كانوا بحاجة لتجهيز أنفسهم ليكونوا رماة ماهرين ومتمرسين على القتال بالحربة، وجاهزين للانتقال من مواضعهم الدفاعية والمضي قدماً بشجاعة. وبعد وصولهم إلى فرنسا، واصلت القوات الأمريكية تدريباتها في المعسكرات المقامة هناك، ودخلت بعض وحداتها إلى الجبهة في قطاعات هادئة إلى جانب وحدات فرنسية خبيرة. وحضر ضباط أمريكيون نظاماً متقناً من التدريبات المتخصصة في فرنسا.

ولكن سرعان ما اصطدمت خطط بيرتشبغ بالحقيقة. فقد ألمح البرت إيتنغر أحد مجندي الفرقة الثانية والأربعين في دفتر يومياته إلى الاستعدادات العسكرية المتسرعة التي تلقاها الكثيرون. ونتيجة للتدريب في معسكر «ميلز» بمدينة نيويورك أصبح إيتنغر خبيراً في مجال الحفر ولكن كغيره من جنود الفرقة الثانية والأربعين وصل إلى أوروبا من دون أن يكون قد أطلق طلقة واحدة بعد(22).

شجّع التدريب القتالي الأمريكي على العدوانية الساذجة. فقد استعرض الأساتذة الفرنسيون الاستعدادات القتالية للقوات الأمريكية في وقت باكر ووجهوا لهم نداءً تحذيرياً. إذ كانت القوات الأمريكية تهاجم بموجات لا يوجد بينها فواصل كافية تفصل بين الجنود كأفراد. ومثل هذه التكتيكات تخاطر بوقوع عدد كبير من الإصابات. وفي الحقيقة، عندما قاتلت القوات الأمريكية للمرة الأولى في معركة مارن[(1)×] في صيف عام 1918 خلفت وراءها صفوفاً من الجثث في ساحة المعركة، وكانت تلك الجثث ملتصقة ببعضها بعضاً في صفوف منتظمة. فقد تم هجومهم الشجاع في تشكيلات متراصة بشكل محكم ضد نيران الرشاشات الألمانية، والتي كانت الوحدات البريطانية والفرنسية الخبيرة تتجنبها قدر الإمكان.

عبرت القوات الأمريكية المحيط الأطلسي بأعداد متزايدة في ربيع وصيف عام 1918. ولكن الحاجة إلى نقل الرجال بسرعة من التدريب ومن ثم إرسالهم إلى خارج البلاد كانت لها الأولوية على التدريب الحقيقي. فالمشكلة التي وصفها ألبرت إيتنغر ما زالت ملحة: ففي صيف عام 1918 تواجدت في فرنسا فرقتان كانتا تضمان أفواجاً غير مدربة. ومن بين كل عشرة جنود كان هناك أكثر من أربعة لم يطلقوا النار من بندقية قط.

الحواشي

1. ريتشارد بسل، «ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى» (أكسفورد، مطبعة كلارندون، 1993)، ص. 5.
2. دنيس شوالتر، «تانينبرغ: صراع الإمبراطوريات» (هامدن، منشورات أرشون، 1991)، ص. 123.
3. المصدر نفسه، ص. 124–125.
4. فاليس دي بوفور، «فيما وراء الحجاب الألماني: سجل رحلة الحج في صحافة الحرب» (نيويورك: شركة دود وميد، 1917)، ص. 68–69.

---

(1) * نهر يقع في شمال شرق فرنسا.

5. ليونارد سميث، «بين التمرد والطاعة: حالة فرقة المشاة الخامسة الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى» (رينستون، مطبعة جامعة برينستون، 1994)، ص.26 .
6. أليستير هورن، «ثمن المجد: فردان، 1916» (نيويورك: هاربر ورو، 1962)، ص. 11؛ بول دي لا جورس، «الجيش الفرنسي: التاريخ العسكري والسياسي»، ترجمة:. كينيث دوغلاس (نيويورك: جورج بلازيرير،1963)، ص. 103.
7. سميث، «التمرد»، ص. 30.
8. لاجورس، «الجيش الفرنسي»، ص. 111.
9. مقتبس من سميث، «التمرد»، ص. 29.
10. مارك بلوخ، «ذكريات الحرب، 1914–1915»، ترجمة وتقديم: كارول فينك (إيثاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، 1980)، ص. 48، 54؛ سميث، «التمرد»، ص. 78–79.
11. جيفري فيرها، «روح العام 1914: النزعة العسكرية، الأسطورة والتعبئة في ألمانيا» (كيمبردج، إنجلترا: مطبعة جامعة كيمبردج، 2000،)، ص. 97–99.
12. ترجمة وتحرير: إ. ف. ويد، «الطلبة الألمان وخطابات الحرب» (نيويورك، إ. ب. داتون، 1929) ص. 17–18.
13.هربرت سلزباخ، «مع المدافع الألمانية: أربع سنوات على الجبهة الغربية، 1914–1918»، ترجمة: ريتشارد ثونجر (لندن، ليو كوبر، 1973)، ص. 23–26.
14. آلان سيغر، «رسائل ويوميات» (نيويورك، أبناء تشارلز سكربنر، 1917)، ص. 1–11.
15. إيان بيكيت، «الأمة في الحرب، 1914–1918»، في «الأمة في الحرب: دراسة اجتماعية للجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى»، تحرير: إيان بيكيت وكيث سيمبسون (مانشستر، إنجلترا: مطبعة جامعة مانشستر)، ص. 2.
16 إيان بيكيت، «القوة الإقليمية»، في المصدر نفسه، ص. 129.
17. راسيل ويغلي، «تاريخ جيش الولايات المتحدة» (نيويورك، ماكميلان، 1967)، ص. 357–358.

18. ويليام لانغر، «اللهب والغاز في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك، ألفريد نوبف، 1965)، ص.10–19.
19. إدوارد م. كوفمان، «الحرب لإنهاء كل الحروب: التجربة العسكرية الأمريكية في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد،1968) ص.29 ؛ أيضاً ويجلي، «جيش الولايات المتحدة الأمريكية»، ص. 356–358.
20. مقتبس من جيمس هـ. هالاس، «الجندي الأمريكي والحرب: القوات الأمريكية المسلحة في الحرب العالمية الأولى» (بولدر، كولورادو، منشورات لين راينر، 2000)، ص. 19.
21. كوفمان، «الحرب لإنهاء كل الحروب»، ص. 64؛ مقتبس من هالاس، «الجندي الأمريكي والحرب»، ص. 22.
22.ألبرت إيتنغر وتشرشل إيتنغر، «الجندي الأمريكي مع الفرقة 69: ذكرى الحرب العالمية الأولى» (شيبنسبرج، بنسلفانيا: 1992 ، وايت مين للنشر، 1992)، ص. 7.

الفصل الثاني

التجهيز والتموين

كافحت جميع الدول التي شاركت في الحرب على الجبهة الغربية لتوفير الأسلحة والعتاد والمواد الغذائية لرجالها المقاتلين. فقد تطلبت الجيوش الموسعة كميات غير عادية من الأسلحة. وعلاوة على ذلك، فإن المفاجآت التقنية للحرب، بما في ذلك المأزق على جبهة القتال، كانت تعني البحث عن أسلحة جديدة أكثر فاعلية. فالجيش الأمريكي الذي كان يضم مائة وسبعة وعشرين ألف مقاتل في أبريل من عام 1917 كان بحاجة إلى آلاف القطع من المدفعية الحديثة، وعشرات الآلاف من الرشاشات والأسلحة الآلية الأخرى، ناهيك عن أكثر من مليوني بندقية على مدى السنة والنصف القادمة. كما دعت الحاجة إلى الخيام والمجارف والأزياء العسكرية بشكل غير مسبوق. وكان الحصول على الغذاء لملايين الجنود شهراً بعد شهر ضرورة لا يمكن لأي حكومة تجاهلها.

ولكن، في ظلّ الصراع المشترك لمجاراة العدو وفي نهاية المطاف سحقه، عانى الجنود الألمان من وضع غير مُؤاتٍ. فبلادهم كانت معزولة ومصادرها محدودة، لذا وجدوا أنفسهم بالكاد قادرين على تدبير أمورهم وخاصة في الحصول على الغذاء للقوات المسلحة.

البنادق

كانت بنادق جنود المشاة هي السلاح الأكثر شيوعاً على الجبهة الغربية. فقد دخل كل جيش الحرب ببندقية مجهزة لحمل العديد من الأمشاط. وكانت البندقية البريطانية التقليدية هي «لي إنفيلد القصيرة» «Lee Short Magazine Enfield»[1]. فلكي تذخّر بالرصاص، كان الرامي يقوم بجذب المزلاج إلى الخلف ثم يضع مشطين من خمس طلقات في البندقية من أعلى، ثم يضغطها إلى أسفل داخل مخزن السلاح. وكان ذلك المخزن موجوداً أسفل الماسورة أمام زناد البندقية. وكان الزنبرك الموجود داخل المخزن يدفع الطلقة الأولى إلى أعلى باتجاه الماسورة بمجرد قفل المزلاج. وبعد إطلاق الرصاصة الأولى، يحتاج الرامي فقط لجذب المزلاج للخلف للتخلص من الخرطوشة الفارغة وإيلاج الطلقة الثانية في موضع الإطلاق. وقد حققت هذه الآلية الدقيقة معدلاً سريعاً من التصويب على الهدف وذلك لأن الجنود البريطانيين المحترفين قبل عام 1914 تدربوا عليها بشكل جيد.

وكان الجندي الألماني المتواجد على الجبهة الغربية مُجهز ببندقية ذات خمس طلقات من نوع «ماوزر جيوهر[2] 98». أما البندقية التقليدية التي اعتمد عليها جيش الولايات المتحدة عند دخوله الحرب فكانت ذات خمس طلقات وتسمّى سبرينغفيلد 1903 Springfield . وكل منهما كان لها مخزن يشبه البندقية «لي إنفيلد». وكانت تعادلهما على الجانب الفرنسي بندقية «ليبيل 8 ملم mm Lebel–8» التي صُممت في 1886، وعُدلت في 1893، وبالتالي سُمّيت « ليبيل موديل 93/86 Lebel Model 93/86»[3]. وكانت تلك البندقية أطول وأثقل من السلاح البريطاني والألماني والأمريكي، وكان لها مخزن أنبوبي يتسع لثماني خراطيش ويقع أسفل ماسورة البندقية. إلا أنها كانت من البنادق الأقل فاعلية من بين تلك التي استخدمها الجنود على الجبهة الغربية وذلك

(1) البندقية الرئيسة التي اعتمد عليها الجيش البريطاني منذ 1895 وحتى 1957. واستخدمت أيضا من قِبل الجيش الأسترالي والنيوزلندي والكندي والجنوب أفريقي. طورت في 1888 واستمرت في الخدمة حتى عام 1960.

(2) صممها الأخوان باول وفيلهلم ماوزر. كانت تطلق النار لمسافات بعيدة وتعتبر أفضل بندقية استخدمت في حرب الخنادق.

(3) بندقية يدوية من عيار 8 ملم تتسع لثماني طلقات. دخلت الخدمة في عام 1887 وتميزت بكونها أول بندقية عسكرية صُممت لاستخدام النتروسليلوز.

لصعوبة حشوها بسرعة.

وكانت كل البنادق أمثال ماوزر وليبيل وسبيرنغفيلد تعمل بالمبدأ نفسه الذي عمل به السلاح البريطاني. فبعد إطلاق أول رصاصة، يقوم الرامي بجذب المزلاج للخلف للتخلص من الخرطوشة الفارغة، ثم يحرك المزلاج إلى الأمام. وبالتالي يدفع رصاصة جديدة إلى حجرة إطلاق النار، فيصبح السلاح جاهزاً للإطلاق مرة أخرى. وفي جميع الدول المتحاربة، كانت الوحدات خلال فترة التدريب وتلك الملقى على عاتقها حراسة الجبهة الداخلية تلقى أولوية قليلة وكثيراً ما وجدت نفسها مزوّدة بأسلحة قديمة.

أثقلت صعوبة إنتاج كميات كبيرة من البنادق كاهل ألمانيا على نحو خاص، وفيما بعد الولايات المتحدة. لذلك فإن أحد الحلول المهمة بالنسبة إلى الجيش الألماني كانت الكف عن صناعة الأسلحة باستخدام القطع المعتمدة تقليدياً. فعلى سبيل المثال، مُيزت البندقية الجديدة ستيرن جيوهر Stern Gewehr بنجمة دلّت على أنها صُنعت من أجزاء أُنتجت من قِبل عدد من المقاولين الفرعيين. فعلى الرغم من أن البندقية الأصلية كانت تعتبر موضع ثقة، إلا أنه لا يمكن نقل قطعها بشكل آمن إلى سلاح آخر. أما على الناحية الأخرى، فإن أمريكا لم تكن قادرة على إنتاج كميات كافية من بنادق سبرنغفيلد لتزود بها جيشها الضخم الذي تشكل في عامي 1917 و1918، فالقوات الوحيدة التي زودت بهذا النوع من البنادق كانت طلائع الكتائب التي وصلت إلى فرنسا. فكان الحل في استخدام نسخة معدلة من البنادق البريطانية «لي إنفيلد» (لي أنفيلد الأمريكية) التي توفرت بأعداد كبيرة في المصانع الأمريكية والكندية حيث تركز الطلب على الأسلحة البريطانية. هذا وقد اعتبرت القوات القليلة التي حصلت على بنادق سبرنغفيلد نفسها محظوظة. فقد وصف ملازم أول في قوات المارينز تلك البندقية بالقول: «إنها سلاح عظيم، ليست دقيقة فحسب إنما أعطالها نادرة». وقال أيضاً: «يبدو أنها تمتص الأوساخ– كنا دائماً نعيش في الأوساخ– ومع ذلك فقد واصلت العمل»(1).

المدافع الرشاشة

لعب المدفع الرشاش دوراً حيوياً وغير متوقع في حرب الخنادق. فقبل العام 1914، اعتبر هذا السلاح مساوياً لقطع المدفعية الخفيفة، ووجد الكثير من القادة العسكريين أنه مفيد بصورة هامشية فحسب. وفي بداية الحرب، كانت كل كتيبة من كتائب الدول المتحاربة تمتلك مدفعين رشاشين فقط، إلا أن الألمان عملوا على زيادة عددها إلى ستة مدافع لكل كتيبة. وخلافاً لما كان عليه الأمر في السابق، لم تتطلب الأسلحة متعددة الطلقات مثل المدفع «جاتلينغ» الذي اخترعه هيرام ماكسيم في الثمانينيات من القرن التاسع عشر وجود جهاز تحريك لإطلاق سيل من الرصاص على العدو. وبدلاً من ذلك كان يُدار آلياً بمجرد أن يجذب الجندي الزناد أو يضغط على زر ليبدأ إطلاق النار.

وقد مكنت المدافع الرشاشة جنباً إلى جنب عوائق الأسلاك الشائكة، مجموعة صغيرة من الجنود من إيقاف هجوم العدو وذلك بإلحاق خسائر فادحة في صفوفه. وادعت تقديرات متعددة أن قوة النيران المنبعثة من مدفع رشاش واحد كانت تعادل ما يطلقه قُرابة ثلاثين أو ربما ستين من حملة البنادق منفردين. كما أن وضع المدفع الرشاش في مكان ثابت، مكّن طاقمه من حساب المجال الذي يغطيه السلاح مقدماً. وحتى في وسط هجوم مباغت، كان في استطاعة طاقم مدرب تفعيل السلاح خلال أربع دقائق وتسديد نيران مدمرة. وكان المدفع الرشاش نفسه يمثل هدفاً صغيراً لنيران العدو المضادة.

وقد تعرضت القوات البريطانية والفرنسية والأمريكية لنيران المدفع الرشاش الألماني «أم جي 08»[1]. فقد استخدم الجيش الألماني اثنين وسبعين ألفاً من هذه الأسلحة الفتاكة على الجبهتين الشرقية والغربية معاً. وكان هذا الرشاش المبرد مائياً يُزّود بطلقات محمولة على حزام من القماش وكان باستطاعته إطلاق أربعمائة وخمسين طلقة في الدقيقة الواحدة. ولكن من عيوبه أنه كان يرتكز على زلاجة ثقيلة نظراً لثقل وزنه

(1) أُخترع عام 1908 وكان قادراً على إطلاق ما يصل إلى 450 طلقة في الدقيقة الواحدة. واستمر هذا الرشاش في الخدمة حتى عام 1945.



الرشاشات الألمانية المستخدمة في الخنادق. محفوظات بيتمان

الذي وصل إلى سبعين رطلاً، غير أنه مع استمرار الحرب طُورت ركائز أقل وزناً من سابقتها. أما السلاح البريطاني الذي عادله وكان أيضاً ثقيلاً بصورة متساوية فهو «فيكرز 303»[1].

وقد دفعت الهجمات على الجبهة الغربية المتحاربين إلى تطوير مدافع رشاشة أخف وزناً يمكن حملها إلى الأمام بواسطة القوات المتقدمة. ونتيجة لهذا الجهد أنتجت بريطانيا المدفع المُبرّد هوائياً «لويس Lewis»[2]، الذي كان قابلاً للحمل بسهولة لأنه يزن سبعة وعشرين رطلاً فحسب. وقد أعفى هذا السلاح المفيد الجنود من المعدات الضخمة التي احتاجت إليها المدافع المبردة مائياً. واستخدم هذا المدفع مخزن ذخيرة يتسع لسبع وأربعين أو سبع وتسعين رصاصة بدلاً من حزام القماش الثقيل. كما حل هذا المدفع بدلاً من فيكرز 303 حيث زودت به كتائب المشاة، ونُقل المدفع فيكرز إلى سرايا خاصة بوحدات الأسلحة الرشاشة. وحذت القوات الألمانية والفرنسية حذو

(1) أُخترع عام 1912 وظل في الخدمة حتى عام 1968. كان قادراً على إطلاق 450 طلقة في الدقيقة الواحدة ويصل مداه الفعال حتى 2200متراً.

(2) كانت القوات البريطانية أول من استخدمت هذا السلاح في الحرب العالمية الأولى. صُمم عام 1911 على أيدي صموئيل ماكلين والعقيد إسحق نيوتن لويس. وأُنتج عام 1913 بواسطة شركة برمنجهام للأسلحة الصغيرة والمحدودة.

القوات البريطانية. فكان المدفع الرشاش الألماني الخفيف «جي أم 08/ 15 «15/MG08 يزن تسعة وثلاثين رطلاً. وكما هو مبين من اسمه، فهو نسخة معدلة من الرشاش آنف الذكر: عطل هذا المدفع الخفيف استخدام الطراز القديم «جي أم 08» الذي كان يعمل بنظام التبريد المائي وحزام الذخيرة.

وكان الفرنسيون أقلّ نجاحاً في تلبية الحاجة إلى سلاح خفيف من النوع الرشاش ذي قوة نيران كبيرة. فقد كان سلاحهم من طراز 8 ملم الذي أُنتج عام 1915 أو كما يسمى «شوشات Chauchat»[1] والذي يتسع خزانه لعشرين طلقة، سيّئ السمعة لأنه كان يتعطل في منتصف المعركة، وكانت الأسلحة خفيفة الوزن والمبردة هوائياً– لا تزيد عن عشرين رطلاً– قليلة التعويض بالنسبة إلى الجنود في حال الخطر بسبب انعدام الثقة بها. كما أن إطلاق النار بمعدل بطيء نسبياً زهاء مائتين وخمسين طلقة في الدقيقة الواحدة فقط جعل هذه الأسلحة غير مرغوب فيها، وخاصة مع القوات الأمريكية التي أثقلت بهذا السلاح.

المدفعية

في 1914، تراوحت المدفعية ما بين الأسلحة الميدانية الخفيفة التي صُممت لمرافقة القوات المتقدمة إلى الأسلحة الثقيلة التي تعمل من مواقع ثابتة. وكان لدى رجال المدفعية في كل جيش نوعان رئيسيان من المدافع: المدافع القاذفة والمدافع الرشاشة. فقد سمحت لهم المدافع القاذفة، بمواسيرها القصيرة نسبياً، والتي تطلق القذائف في الهواء بزاوية حادة– وبمسار عال– بتوجيه الضربات من أعلى حتى لقوات العدو المتحصنة في الخنادق. أما المدافع الرشاشة، بمواسيرها الأطول من المدافع القاذفة، فكانت تطلق القذائف مباشرة باتجاه العدو– بمسار أفقي– وبسرعة عالية. ومع ذلك، كانت المدافع القاذفة محدودة بمداها المتوسط. وكانت الكثير من المدافع وخاصة تلك ذات العيار الأثقل هي في الأصل مطورة عن طراز المدافع القاذفة والرشاشة.

---

(1) مدفع آلي خفيف، استخدم من قبل الجيش الفرنسي. صُمم عام 1907 وأُنتج عام 1915. يزن 9،7 كغم ويطلق 240 طلقة في الدقيقة الواحدة.



المدفعية الألمانية في الميدان. بموافقة الأرشيف الوطني

بدايةً استخدم رجال المدفعية نوعين مختلفين من القذائف. فاحتوى النوع شديد الانفجار على حشوه كبيرة معدّة للانفجار بمجرد لمس القذيفة للأرض. في حين احتوت القذائف الانشطارية على شظايا مضادة للأفراد مثل الكرات الحديدية وقد صُممت لتنفجر في الجو فوق قوات العدو. وحتى عام 1914 كان ما زال معظم رجال المدفعية يعتبرون القذائف الانشطارية إلى حدّ ما أكثر فائدة في المعركة من القذائف شديدة الانفجار. كما ظهر نوع ثالث من القذائف المحملة بالغاز في وقت لاحق من الحرب.

وبحلول 1914، طور أغلبية المتحاربين على الجبهة الغربية قطع المدفعية على أساس المدفع الفرنسي الرشاش عيار 75 ملم. وسرعان ما أصبح هذا المدفع هو الأكثر شهرة في العالم، فهو يحشى من الخلف، وتستوعب قوته الارتدادية بالنظام الهيدروليكي. وقد سمحت مثل هذه المميزات لهذا المدفع بأن يظل ثابتاً على الأرض، موجهاً نحو الهدف المنشود، وقادراً على الإطلاق بمعدل منقطع النظير

زهاء عشرين قذيفة أو أكثر في الدقيقة الواحدة.

ولكنّ بعض الجيوش كانت أفضل تجهيزاً لحرب الخنادق من غيرها. فقد خطط الجيش الفرنسي لحرب متنقلة يتمكن من خلالها جنود المشاة من حمل مدفعهم عيار 75 ملم خلال تقدمهم. وقد أثبتت هذه الأسلحة جدوى كبيرة في الأسابيع الأولى من الحرب، إذ كانت تطلق القذائف لمسافات أكبر من نظيرتها الألمانية. ولكن الفرنسيين أهملوا بناء مخزون وافر من الأسلحة الثقيلة. وكان الألمان أكثر جاهزية لحرب المدفعية والتي من خلالها كان كلا الطرفين يطلقان القذائف على خنادق الطرف الآخر. وكان مدفعهم من عيار 77 ملم يقارب إلى حدٍ كبير مميزات نظيره الفرنسي من عيار 75 ملم. ولكنهم بذلوا جهداً كبيراً في العقد الذي سبق الحرب لتعزيز مخزون جيشهم من المدافع الثقيلة عيار 155 ملم تماماً مثل قطع المدفعية المتوسطة (المدافع القاذفة عيار 105 ملم). وبالتالي، عندما بدأت الحرب، حقق الألمان غلبة واضحة، إذ وجد الجنود الفرنسيون الذين هاجموا الدفاعات الألمانية في السنوات الأولى من الحرب أن مدفعيتهم خفيفة الوزن لا تقدّم لهم إلا القليل من الدعم. ولم يبدأ الجيش الفرنسي بمجاراة الأسلحة الألمانية الثقيلة إلا في العام 1916.

كما كان الجيش البريطاني في عام 1914 أفضل تجهيزاً من نظيرة الفرنسي لجهة سلاح المدفعية المعدّ لحرب الخنادق. فقد امتلكت القوات المسلحة البريطانية التي قاتلت في الشهور الأولى من الحرب مدفعاً يعادل المدفع الفرنسي من عيار 75 ملم، يزن ثمانية عشر رطلاً وطوله 3،3 بوصة. كما كانت مجهزة بمدفع قاذف طوله 4،5 بوصة يعادل نظيره الألماني من عيار 105 ملم. وامتلك البريطانيون أيضاً بعض المدافع الثقيلة من عيار (120 ملم) التي تزن ستين رطلاً. ومع ذلك لم يلحقوا بركب الجيش الألماني الأكثر تجهيزاً.

بيد أن النقص في القذائف الذي ابتليت به جميع الجيوش، خاصة البريطانية والفرنسية في شتاء 1914 و1915، كان يمثّل المشكلة الرئيسة لقوات المدفعية. كما خلقت معالجة هذه المشكلة عبر رفع الإنتاج صعوباتها الخاصة. فقد كانت القذائف الانشطارية تُنتج بسرعة وبشكل آمن وسهل نسبياً، كما كانت فعالة ضد الجنود

الذين يتعرضون لها في الأراضي الجرداء والمفتوحة. ولكن أظهرت حرب الخنادق أن توقعات ما قبل عام 1914 بشأن نيران المدفعية كانت خاطئة. وذلك لأن الجيوش احتاجت إلى كميات هائلة من القذائف شديدة الانفجار القادرة على تدمير تحصينات العدو. كما تطلب إنتاج مثل تلك القذائف مستوى عالياً من المهارة نظراً لأنها تشكل خطراً على عمال الأسلحة. إضافة إلى أن الإخفاق في حل مسألة مراقبة الجودة عطل عمليات الإنتاج. فعلى سبيل المثال، أضعفت الكميات الكبيرة من القذائف «الفاشلة dud» التي لم تنفجر والتي أنتجتها المصانع البريطانية من السند الناري الهام الذي سبق معركة «سوم» في يوليو من عام 1916.

لهذا سعت الأطراف المتحاربة إلى توفير أكبر قدر ممكن من قطع المدفعية بعد أن يئست من اقتحام خطوط العدو. فقد صنعت مدافع على غرار تلك المحملة على السفن الحربية كما استعارت تلك المدافع المستخدمة في وحدات المدفعية الساحلية. وكانت هذه الأسلحة تزن مئات الأطنان، وكانت تُحمل فقط على عربات السكة الحديد. كما كان بعضها يُشغل بواسطة رجال المدفعية البحرية ذوي الخبرة. ومع بداية معركة فردان في عام 1916، استخدم كل من الجيش الألماني والفرنسي «مدافع السكة الحديد railway guns ». وأحضر الأمريكيون عدداً لا بأس به من قطع المدفعية الساحلية من الولايات المتحدة جنباً إلى جنب أطقم مدربة لهذه الأسلحة. وقام رجال مدفعية الساحل في القوات العسكرية الأمريكية باستخدام الأسلحة الأمريكية والمدافع العملاقة الأخرى التي زودهم بها الفرنسيون في ضرب مؤخرة القوات الألمانية في أثناء الهجوم على «ميوز–آرجون» في 1918.

على وجه الإجمال وجد الجيش الأمريكي نفسه قاصراً من حيث الأسلحة الثقيلة وذلك لأن معظم مدفعيته كان يحصل عليها من الفرنسيين والبريطانيين. فقد اعتمدت القوات المسلحة الأمريكية على الإمدادات التي حصلت عليها من المدافع الفرنسية من عيار 75 ملم والقطع الميدانية خفيفة الوزن. كما شكلت المدافع القاذفة الفرنسية من عيار 155 ملم معظم قوة النيران الكثيفة التي تمتّع بها الجيش الأمريكي. إضافة إلى أن معظم رجال المدفعية الأمريكية تلقوا تدريبهم

على أيدي المدربين الفرنسيين ذوي الخبرة.

وتطلبت عمليات المدفعية الفعالة نظاماً معقداً من الدعم. لذلك وّحد مراقبو المدفعية المتقدمين والراصدون الجويون جهودهم مع تلك الأعداد الكبيرة من المساعدين الموجودة في الميدان. فقد وصف أحد رجال المدفعية البريطانية سلاحه بأنه: «مستبد وقديم ووقور» مع «مجموعة من الخدم والمرافقين». إذ احتاجت سريته المدفعية المكونة من أربعة مدافع قاذفة إلى طاقم مكون من ستة ضباط على الأقل ومائة وعشرين مجنداً لخدمة المدفع، ويبقى بحاجة إلى مزيد من الرجال للجرارات الثقيلة الأربعة والخمس عشرة شاحنة التي تزن الواحدة منها ثلاثة أطنان، والتي تستخدم في نقل السرية من مكان إلى آخر(2).

وبعد انتهاء المرحلة الأولى من الحرب، عمل جنود المدفعية من الطرفين في المناطق الخلفية للقتال. وعبّر جنود المشاة في كل الجيوش عن النقمة والغيرة تجاه رماة المدفعية الذين بدوا وكأنهم بعيدين عن خط المواجهة. إلا أن تدبير السلامة الظاهري هذا كان مجرد وهم. فقد وضعت التكتيكات المتطورة لتحديد مرابض مدفعية العدو وقصفها (النار المضادة للبطاريات) رماة المدافع في خطر أكبر.

الهاون

أسبغت الحاجة إلى طرد القوات التي حفرت خنادق وتحصنت بداخلها على سلاح الهاون دوراً مهماً في الحرب على الجبهة الغربية. فقد جعل إطلاق قذيفة «هاون» عالياً في الهواء، تماماً مثل المدافع الثقيلة والكبيرة، من الممكن ضرب العدو المتحصن من أعلى. فكان مدفع الهاون البريطاني من نوع «ستوكس»[1] لا يزيد عن أنبوبٍ خفيف له مسمار في قاعدته. وكانت القذيفة، المحتوية على حشوه لدفعها، تُسقط داخل الأنبوب، فترتطم بمسمار الإطلاق، ثم تندفع إلى الخارج باتجاه العدو. وقد طليت قذائفها التي أُعدت ليصل مداها إلى ثلاثمائة ياردة باللون الأخضر في حين وصل مدى ذات اللون الأحمر إلى أربعمائة وخمسين ياردة، كما استطاع الطاقم

(1) ستوكس جندي بريطاني خدم في الجيش عام 1917 واخترع مدفع الهاون الذي سمي باسمه.

المدرب إطلاق قذيفة كل ثلاث ثوان. وعبر أحد الجنود الألمان الذي كان لديه بلا أدنى شك خبرة في مدفعية العدو ونيران المدافع الرشاشة عن مشاعره موضحاً أن قذائف الهاون التي استخدمت في حرب الخنادق كانت أسوأ سلاح واجهه. قائلاً: « إنها تنفجر دون صوت والقذيفة الواحدة كثيراً ما تقتل ما يقارب الثلاثين رجلاً. وأثناء وجود الشخص داخل الخندق، وفي أية لحظة ينفجر شيء من هذا القبيل»(3).

كما أصبحت قذائف الهاون متاحة بأشكال أكبر حجماً وأبعد مدى. ففي عمليات الخنادق، احتوت قذائف الهاون الألمانية (Minenwerfer) عيار 170 ملم على أكثر من مائة طن من المتفجرات والقطع المعدنية. وقد كانت تُشاهد بوضوح وهي تهبط نحو خطوط العدو، لأنها تطلق عالياً في الهواء.

القنابل اليدوية

جعلت الحقائق التي خلقتها حرب الخنادق القنابل اليدوية أداة مفيدة لجنود المشاة. ولكن الجيش البريطاني لم يَرَ حاجة لمثل هذه الأسلحة في الحرب المتنقلة التي ميّزت الصراعات الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر. ولعدم توافر القنابل اليدوية اضطر الجيش البريطاني للارتجال في العام 1914 وأوائل العام 1915، صانعاً قنابل متفجرة صغيرة من مواد الخنادق العادية مثل المعلبات المعدنية. أما الألمان فقد كانوا على النقيض تماماً، إذ دخلوا الحرب مزودين بقنابل يدوية فعالة كتجهيز أساسي للجيش.

ولكن بحلول الذكرى السنوية الأولى للحرب، زُودت القوات البريطانية بقنابل «ميلز»[1] الفعالة. والتي أمكن إلقاؤها من فوق حدود الأسلاك الشائكة باتجاه حصون العدو، لأنها احتوت على كمية صغيرة من المتفجرات في غلاف معدني. وكانت توقّت للانفجار في غضون ثوان من إطلاقها. كما أمكن أيضاً إطلاق القنابل من بنادق مجهزة بجهاز إطلاق خاص. وقد كتب أحد الجنود البريطانيين رسالة إلى أسرته في عام 1916 تحدث فيها عن فاعلية هذا السلاح قائلاً: «الجندي الألماني نشيط جداً

(1) صُممت عام 1915 بواسطة وليام ميلز. تزن 765 غم. تنفجر بعد 7 ثوان من قذفها.

ويطلق على الأرض مجموعات كبيرة من قنابل البنادق على أكثر الأماكن والساعات إزعاجاً.... إنني أكره بنادقهم القاذفة اللعينة. فهي أكبر خطراً من القذائف ولديهم كميات كبيرة منها»(4).

وبما أن القنبلة اليدوية سهلة النقل، وتُحمل باليد، فإنها تشكل التهديد الأكثر خطورة على حياة الجندي الذي يستخدمها أكثر من أي سلاح آخر. كما أنها أيضاً تهدد أولئك المحيطين به. وقد عُرِفَ أنها تنفجر مباشرةً بيد قاذفها، وأن القنبلة الملقاة يمكن أن تجرح مجموعة من الرجال في الجوار القريب. وأحياناً، وبسبب ظروف المعركة يكون من المستحيل رمي قنبلة يدوية. فقد وصف أحد الجنود الألمان القتال مع القوات الفرنسية والتي قام خلالها أحد رفاقه في السلاح «بسحب صاعق القنبلة، ثم رفع قنبلته، وكان على وشك أن يلقي بها» ولكن المشهد تغير. «في هذه اللحظة الحرجة دخل مجموعة من رفاق السلاح الألمان بينه وبين هدفه. فلم يستطع إلقاء القنبلة دون إصابتهم؛ لذا أبقاها بيده، وخلال ثوان قليلة انفجرت، ومزقته إرباً إرباً»(5).

قاذف اللهب والحربة

أثار كلٌ من قاذف اللهب والحربة ذعراً خاصاً في صفوف الضحايا المحتملين، وذلك لأن هذه الأسلحة كانت تقتل من مسافات قريبة، وخاصة الحربة التي تكون المواجهة خلالها وجهاً لوجه. كما خلق الذعر من الموت حرقاً بقاذف اللهب رعباً لا يمكن تخيله. فقد طور الألمان قاذف لهب عملياً في السنوات التي سبقت الحرب وأدخلوه للخدمة في ساحة المعركة في العام 1915، وفي الحال قام جميع المتحاربين على الجبهة الغربية بتبنيه. وأصبح الجيش الألماني بارعاً بشكل خاص في الهجوم باستخدام هذا السلاح، مُخصصاً فريقاً مكوناً من جنديين لاستخدام هذا السلاح في تمهيد الطريق أمام وحدات الهجوم البري. وتطلب هذا السلاح قيام أحد الجنود بحمل الأنبوب الذي ينبعث منه اللهب، في حين يقوم زميله بحمل الخزان الذي يحتوي على السائل الحارق والغاز الدافع. وبطبيعة الحال، كان الهجوم بقذائف اللهب يتبعه على الفور تقدم قوات المشاة.

أخافت النار المنبعثة من قاذف اللهب حتى القوات التي استخدمته. ولتبديد تلك المخاوف، أرسلت الأركان العامة الألمانية تعليمات للقوات المهاجمة مفادها: «لا داعي لخوفهم من اللهب والدخان» لأن الصنبور المثبت على القاذف يمكن إغلاقه قبل أن يدخلوا إلى خنادق العدو. وبالتالي، «يمكنهم التقدم مباشرةً دون أدنى خطر بعد توقف النار، لأن الانفجارات الصغيرة للهب على الأرض... سوف تنطفئ في الحال، وكمية النار الضئيلة الموجودة على الأرض سوف تنطفئ على الفور بمجرد الدوس عليها»(6).

كانت كل الجيوش مجهزة ببنادق تحمل حراباً أسفل ماسورتها. وكان الهدف من الهجوم بالحربة هو أن يدافع الجندي عن نفسه ضد الاحتمال المخيف من اختراق نصل معدني بارد لجسده. وكانت البندقية الفرنسية من نوع «ليبيل» تحمل نصلاً معدنياً طويلاً خاصاً. وكان شكلها مخيفاً، إلا أنها كانت عرضة للكسر في المعارك الحقيقية. أما الحربة الألمانية ذات النصل العريض المسماة «حربة الجزار» فقد تميزت بأسنان المنشار على طول حدّها، التي ربما تكون قد صممت خصيصاً ليكون لها تأثير على معنويات أولئك الذين يواجهونها. كما شكّلت القوات المهاجمة وحرابها مشرعة صورة مخيفة لأولئك الذين يقفون قبالتهم على خط النار.

وقد أكد التدريب العسكري البريطاني والألماني على الهجوم بالحربة قدر الإمكان لغرس موقف عدائي في نفوس القوات وتجهيزهم للقتال الحقيقي. كما تطلب القتل بالحربة، الذي يحدث أساساً في الهجمات المباغتة والاعتداءات الليلية، التحاماً مباشراً مع العدو. وتذكر الجنود البريطانيون ما شعروا به عندما طعنوا أحد جنود العدو: إنها تشبه غرس السكين في الزبدة. لأن لحم الضحية وعضلاته تنكمش وتضيق عند موضع الطعن، وقد تعلم الجنود عملية من ثلاث خطوات: اغرس الحربة، ثم اثنِ البندقية لتحررها، ثم أخرج النصل(7).

الأزياء العسكرية والخوذ

تنقّل المتحاربون في الحرب العالمية الأولى في أرض المعركة بزيّ صمم لمساعدتهم

على الاختفاء من الأعداء، باستثناء الجيش الفرنسي الذي ظلّ يرتدي البزة الزرقاء والحمراء الزاهية العائدة إلى القرن السابق. ولكن بعد مذابح عام 1914، قبل الفرنسيون أيضاً الحقيقة وهي أن ظهورهم بشكل واضح للعدو لا يثير الخوف في صفوف الخصم بقدر ما يقدّم له ثروة من الأهداف المغرية.

أما على الجهة المقابلة فإن الجندي الألماني هو أول من ارتدى الزي الميداني الرمادي بسماته التمويهية وأُضيف إليه القليل من الصبغة الخضراء الداكنة. كما ارتدى الجزم النصفية وحقيبة ظهر تزن سبعين رطلاً وحزاماً من الذخيرة يطوق خاصرته. وكذلك الخوذة الحديدية المتميزة التي غطيت بدرع للتمويه. ففي حرب الخنادق، كان رأس الجندي هو الجزء الأكثر عرضة للخطر في جسده، لذا ثبت أن الخوذ المصنوعة من الجلد وأغطية الرأس الناعمة تمثل خطراً عند ارتدائها. وقد ظهرت الخوذة الألمانية الحديدية المعروفة التي لها امتدادات من ثلاثة جوانب لحماية الأذن والرقبة، للمرة الأولى في معركة فردان عام 1916 قبل أن تُعتمد للخدمة العامة. أما الفرنسيون فاستخدموا خوذة أقل قدرة على الوقاية من نوع «أدريان Adrian» وكذلك استخدم البريطانيون والأمريكيون الطراز البسيط المسطح الذي يحمي بصورة أساسية الجزء العلوي من الرأس. وبصورة عامة هدف استعمال الخوذ إلى حماية الرأس من الشظايا المتطايرة، غير أن الكثيرين من الجنود اكتشفوا أن الرصاصة التي تنطلق بسرعة شديدة يمكنها اختراق الخوذة والتسبب بمقتل من يعتمرها.

الحصص الغذائية

حاولت جميع الجيوش على الجبهة الغربية تزويد جنودها بوجبات منتظمة حتى ولو على حساب نقص الأغذية على الجبهة الداخلية. وبالإضافة إلى هذه الوجبات، حمل الجنود معهم مواد غذائية أساسية أو «صلبة» مثل بسكويت البحر (بسكويت رقيق، هش وجاف) واللحوم المحفوظة. فهذه الأغذية لا تفسد ولا تحتاج إلى طبخ، وتظل متاحة للاستخدام في حالات الطوارئ. وعادةً ما اضطر الجندي لانتظار أوامر من رئيسه لفتح هذه الحصص التموينية المعدّة لحالات الطوارئ. أما فيما يتعلق

بالقوات المشاركة في القتال فكانت حصص التموين الغذائية الطارئة هي الغذاء الوحيد المتاح.

وقد حظيت القوات الموجودة في الخطوط الأمامية بالأولوية في الحصول على الغذاء المتوافر للجيش. فزود القادة في كل مكان الجنود والوحدات العاملة في الخطوط الخلفية بالمؤن وبوجبة يومية تتراوح ما بين مائتين إلى سبعمائة سعر حراري، وكانت هذه الكمية أقل مما كان يلتهمه الجندي الموجود في الخنادق. وكانت القوات المقاتلة في الجيش البريطاني تقتات على وجبة غذائية يومية تقدر بأكثر من كيلوجرام من اللحم وكيلوجرام وربع من الخبز. وكان لحم الخنزير المقدد والمربى أيضاً من مكونات الحصص الغذائية طوال فترة الحرب(8). هذا وسُجلت شكوى عامة ظهرت في رسومات الجيش الكاريكاتورية تبيّن الاشمئزاز من نكهة المربى: كان دائماً بطعم الخوخ والتفاح، ولاسيما بين الجنود البريطانيين. وكثيراً ما تكونت الوجبات الغذائية من حساء اللحم والخضراوات المعلب غير الشهي والذي سمّي «ماكونشي» على اسم الشركة المصنعة.

بدأ الألمان الحرب بوجبة غذائية يومية مماثلة للجندي المقاتل تكوّنت من رطلين من الخبز تقريباً، وأقل من رطل من اللحم بالإضافة إلى كمية سخية من البطاطا. كما تلقى الجنود الألمان النبيذ أو الجعة وفقاً لما يرتئيه الضابط المشرف عليهم. وبخلاف الجنود على الطرف الآخر من خطوط القتال، شعر الجنود الألمان بمعاناة بلادهم من نقص التموين وخاصة في ظل انخفاض حصص اللحوم. وابتداءً من يونيو 1916، اضطرت القوات للتكيف مع يوم واحد بلا لحوم في الأسبوع. وفي أبريل 1917، انخفضت أيضا حصة التموين من الخبز. كما استمر تناقص حصص اللحوم مع استمرار الحرب. وفي السنةِ الأخيرة من الحرب، كان الجندي الذي لم يكن ضمن القوات المقاتلة يتلقى حصته من اللحم كل ثلاثة أيام(9). كما أن الخيول الميتة التي كانت تترك لتتعفن في ساحة المعركة، أو يغطيها الكلس في عام 1914، أصبحت تُقطع بسرعة إلى شرائح لإكمال الحصص الغذائية الرسمية.

وقد تلقى الجنود البريطانيون أيضاً حصة يومية من شراب الرّم، وذلك بعد موافقة



عمال المخبز الميداني البريطاني. أرشيف بيتمان.

«كارو» على الخبز كحلوى. وعلق كل من الضباط والرجال المتطوعين على ذلك بالقول إن كمية الطعام، على الأقل عندما تكون القوات في مواقع ثابتة، كانت أكثر من كافية. وكان اللحم «البقري المعلب البارد» وسمك السلمون المعلب «السمكة الذهبية» إضافة إلى البسكويت من الدعائم الأساسية في الحمية الأمريكية سواء في أثناء القتال أو خلال التدريب. ولكن أثناء الهجوم في معركة «ميوز–آرجون» في خريف 1918، وبسبب صعوبة إيصال المواد الغذائية، تركت القوات على الجبهة الأمامية بلا أي إمدادات سوى حصص الطوارئ. وخلافاً لغيرهم من المحاربين، فإن القوات الأمريكية لم تتلق أي حصص من الكحول(11).

وقد أظهرت القدرة القتالية للجيش الألماني انهياراً بالغ الخطورة بسبب تدهور جودة الطعام. فالقوات التي هاجمت الخطوط البريطانية في أواخر مارس من عام 1918 في محاولة يائسة لكسب الحرب اعتادت على كمية ضئيلة من القهوة الصباحية المصنوعة من اللفت. كما حصلت أيضاً على وجبة غذائية ضئيلة على شكل حساء شفاف مصنوع من اللفت أو الخضراوات الجافة. ولم يكن يحتوي هذا الحساء على



القوات الأمريكية تتناول الطعام في الخنادق الأمامية للجبهة. بموافقة الأرشيف الوطني

أي نوع من اللحم بقدر ما تمّ تكثيفه بشرائح البطاطا. أما العشاء فتكوّن من الخبز و«الشاي» المصنوع من اللفت فحسب. وفي هذه المرحلة من الحرب، كان الخبز مازال مستساغاً، على عكس القليل جداً مما عداه. عثر الجنود الألمان الذين اجتاحوا المواقع البريطانية على كميات غير عادية من المواد الغذائية بما في ذلك الشوكولا ولحم البقر الذي لم يتذوقوه منذ سنوات. وكانت القوات الجائعة تتوارى عن أعين الضباط لنهب مستودعات الأغذية البريطانية.

الحواشي

1. مقتبس من كتاب هنري بيري، «اجعل القيصر يرقص» (جاردن سيتي، نيويورك، شركة دو دبليو بليدي، 1978) ص. 92.
2. تريفور ويلسون، وجوه الحرب المتعددة: بريطانيا والحرب العظمى، 1914–1918 « (كيمبردج، إنجلترا، مطبعة بوليتي، 1986)، ص. 468.
3. مقتبس من كتاب ستيفن بول، «العاصفة: هجوم جنود النخبة الألمان» (لندن: نيوز

الضابط المشرف على وحداتهم. ولكن في الأول من يوليو وفي الساعات التي سبقت الهجوم على منطقة «سوم» رفض أحد الضباط المعروفين منح الجنود نصيبهم من هذا الشراب بحجة أنهم يجب أن يكونوا جاهزين لملاقاة الله وهم غير ثملين. كما حصلت القوات الفرنسية على نصيبها من الكحول بشكل منتظم. وكانوا يتلقون حصة يومية من النبيذ الأحمر «لو بينار» إلى جانب حصة من شراب البراندي.

في البداية، تناولت جميع القوات في الخطوط الأمامية الطعام البارد. وعندما دخلت الحرب عامها الثاني، حاولت الجيوش تزويد جنودها في الخنادق بوجبة مسائية من الطعام الساخن. وكانت إحدى المهام الأساسية لبعض جنود المشاة نقل الطعام إلى الخطوط الأمامية من المطابخ الميدانية («مطبخ المدافع» في لغة الجنود الألمان العامية، و«حساء المدافع» في لغة الأمريكيين). غير أنه لم يكن ممكناً دوماً إيصال الطعام الساخن، فكانت معظم الوجبات تصل فاترة أو في حال سيئة بعد ساعات من طهيها.

وغدا الإخفاق في تزويد الجنود بالطعام الجيد أو على الأقل الحار، أزمة في صفوف الجيش الفرنسي الساخط في 1917. ففي قائمة من المظالم، تقدّم بها أحد جنود الأفواج المتمردة في يونيو حلّ الطعام «المخزي» حسب وصفه رابعاً، ولم يسبقه سوى المطالبة بإحلال السلام ومنح الجنود إجازة كافية ووقف المجازر. كما اشتكى جندي آخر بشكل خاص من الإخفاق في تزويد وحدته بالطعام الحار لمدة خمسة وأربعين يوماً في إحدى القطاعات النشطة على الجبهة، لأن المطابخ كانت بعيدة في المؤخرة(10). وقد كان تحسين الغذاء واحداً من أول التدابير التي اتخذها اللواء فيليب بيتان لاستعادة النظام والروح المعنوية في الجيش الفرنسي في أعقاب أعمال التمرد في ربيع عام 1917.

وبما أن المجتمع الأمريكي هو الأكثر ثراءً في العالم، فقد تناول الجنود الأمريكيون، وكما هو متوقع، وجبات يومية جيدة تقدر بخمسة آلاف سعرة حرارية. كما تلقى الجنود المتحصنون في الخنادق وجبة رئيسة تكونت بشكل ثابت من الخبز والزبدة واليخنة والقهوة بالسكر والخبز الأبيض والمربى. ووضع كثير من الجند شراب الذرة

للنشر، 1999)، ص. 13.

4. بيتر ليدل، «حرب الجندي، 1914—1918» (لندن: منشورات بلاندفورد، 1988)، ص. 59.

5. مقتبس من كتاب بول، «العاصفة»، ص 20.

6. المصدر نفسه، ص. 25.

7. دينيس وينتر، «موت الرجال: جنود الحرب العظمى» (لندن: منشورات بنغوين، 1978)، ص. 110. وبالنسبة إلى التدريب على الحربة الأمريكية، انظر جيمس هالاس، «حرب الجندي الأمريكي: القوات المسلحة الأمريكية في الحرب العالمية الأولى» (بولدر، كولورادو: لين راينير، 2000) ص. 53—54.

8. فيليب هايثرونويث، «مرجع الحرب العالمية الأولى» (لندن: صحافة الأسلحة والدروع، 1992)، ص. 380—381.

9. المصدر نفسه.

10. ليونارد سميث، «بين التمرد والطاعة: حالة فرقة المشاة الفرنسية الخامسة خلال الحرب العالمية الأولى» (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 1994)، ص. 188و266.

11. هالاس، «حرب الجندي الأمريكي»، ص. 183—184، ص 209.

الفصل الثالث

حياة الخنادق

ظهور حرب الخنادق

ظهرت الخنادق نتيجة للتحول المدهش الذي شهدته الحرب خلال الأشهر القليلة الأولى. كانت نتاجاً للإخفاق: الهجوم الفرنسي الفاشل على «اللورين» وإخفاق الألمان في التقدم جنوباً تجاه مدينة «مارن» وإخفاق سباق القوات البريطانية -الفرنسية والألمانية في تطويق العدو بين مدينة باريس وبحر الشمال. فقد تركت كل هذه الجهود أعداداً كبيرة من القوات غير المتحصنة لمواجهة خصومهم فيما بات حرب مواقع.

امتدت خطوط القتال لأكثر من أربعمائة وخمسين ميلاً من الساحل البلجيكي إلى الحدود السويسرية. وفي بعض المناطق، لم يكن هناك خنادق. ففي أقصى المنطقة الشمالية، حالت رطوبة التربة دون إمكانية الحفر، لذا زودت الحواجز الجنود بالحماية. وفي منطقة «فوسجس Vosges»[1] حيث تمتد سلسلة من الجبال في الجزء الشمالي من الجبهة، واجه الألمان الجنود الفرنسيين ببناء حصون قوية في مجموعة من القرى والمناطق الريفية. ولكن في معظم المناطق على الجبهة الغربية، حفر الجنود في الأرض، ومع مرور الوقت، بنت كافة الجيوش خطوطاً طويلة من الخنادق.

وقد واجه الفرنسيون العدو على ترابهم الوطني وألزموا أنفسهم بإخراجه في أسرع وقت ممكن. لذا شيدوا خطوط قتال تمكنهم من شن هجمات في المستقبل

(1) سلسة جبال تقع في شمال شرق فرنسا.

القريب. ونتيجةً لذلك، كانت الخنادق الفرنسية أقلّ كثافة من تلك التي أنشأتها بقية الدول المتحاربة. كما كان النظام البريطاني أكثر تنظيماً وتطوراً.

وخلافاً للجيوش الأخرى، استفاد الجيش الألماني من دراسته لحرب «البوير BoerWar»[1] (1899–1902) والحرب الروسية اليابانية (1904–1905) حول قيمة التحصينات الميدانية. فتطوير نظام الخنادق كان جزءاً من المناورات الألمانية منذ عام 1906. وإضافة إلى تصميمهم على عدم التخلي عن المساحات الشاسعة من الأراضي التي احتلوها في بلجيكا وشمال فرنسا، فقد واجهوا أيضاً عبء القتال على الجبهة الشرقية ضد روسيا. لذا أنشأ الألمان نظام خنادقهم الأول في منتصف سبتمبر 1914 حمايةً لأجنحة الجيش في مدينة «ريم Rheims»[2]. كما دفعهم قرارهم بالبقاء في مواضع دفاعية على الجبهة الغربية لفترات طويلة من الحرب إلى بناء النظام الأكثر شمولية، بل الأكثر راحة. وعلى معظم خطوط القتال، تمكّن الألمان من اختيار مواقعهم الدفاعية متجنبين التضاريس الصعبة مثل المناطق المعرضة للفيضانات في الطقس الماطر.

الوصول إلى الجبهة

أن يخدم الجندي على خطوط القتال في الجبهة الغربية يعني دخوله إلى عالم لا يمكن لمعظم المدنيين تصوره. وربما كان عمال المناجم من منطقة «رور Ruhr»[3] أو عمال المزارع في المناطق الريفية الأسكتلندية أقلّ شعوراً بالصدمة فيما يخصّ قسوة الخنادق من أولئك الذين جاءوا من طبقة اجتماعية حضرية متوسطة. وحتى بالنسبة إلى أكثر الجنود احترافاً، لم يكن ثمة في حياتهم ما قبل الحرب، ما يعدّهم للطابع الخاص لحياة الخنادق.

في بداية القرن العشرين كانت السكة الحديد هي وسيلة المواصلات الأوروبية لمسافات طويلة. ومنذ بداية الحرب، كان الانتقال إلى الجبهة يبدأ برحلة في القطار.

(1) نشبت هذه الحرب بين الإمبراطورية البريطانية وقبائل البوير في جنوب أفريقيا التي كانت تسعى للاستقلال عن الإمبراطورية البريطانية.

(2) مدينة فرنسية تقع على بعد 80 ميلاً جنوب شرق باريس.

(3) منطقة ريفية تقع في شمال ألمانيا.

فقد سافر الجنود من جميع الدول المتحاربة إلى الجبهة متراصين في عربات الماشية- إشارة إلى عربات السكة الحديدية الفرنسية التي قيل إنها تكفي لزهاء ثمانية خيول أو أربعين جندياً - ولكن في معظم الأحيان ببطء شديد. ولكن الأولوية كانت للقطارات المحملة بالذخيرة، وربما كانت الرحلة نحو منطقة القتال طويلة ويرافقها الكثير من التأخر. كما كان مألوفاً منظر القطارات المُحِبط الذي يغصّ بالجرحى والآتي في الاتجاه المعاكس. وبالنسبة إلى الجنود الفرنسيين، ثم بعض الأمريكيين، كانت الخطوة الأولى من الرحلة تبدأ بباخرة القتال المتجهة إلى ميناء مثل «بولوني Boulogne»[1]. وكثيراً ما قابلوا الجنود البريطانيين الجرحى الذين ينتظرون الإخلاء على أرصفة الموانئ حيث وصلوا.

وحيثما تنتهي وسائل النقل، يضطر الجنود إلى السير على الأقدام إلى الجبهة قاطعين مسافة لا تقلّ عادة عن عشرة أميال. وسرعان ما دمر القتال الأولي مساحات شاسعة من الأراضي في شمال غرب بلجيكا وشمال شرق فرنسا. فقد مر الجنود في أثناء توجههم للجبهة بقرى ومدن كانت مسرحاً لمعارك ضارية في أثناء الحرب المتنقلة في عام 1914. و شهد جندي بريطاني خلال سيره إلى الجبهة في بلجيكا في مايو 1915 مثل ذلك المنظر في ضواحي مدينة «إيبر»: «لاح لنا فوق جسر القنال عربة لنقل جذوع الأشجار وجوادان ممزقان أشلاء، وسرنا على دماء هذه الحيوانات النبيلة عندما مررنا بها على الطريق. ونحن الآن في قلب المدينة- وأينما نظرت لا تجد سوى الدمار- فليس من منزل لم يتعرّض للقصف أو لم تأت عليه النيران»(1).

كان الاقتراب من الجبهة يعني دخول الجنود إلى منطقة معرضة للقصف من قبل مدفعية العدو. وقبل الوصول إلى الخندق بمسافة كبيرة، كان الجندي يشعر بالخطر المحتمل من الأسلحة الحديثة. وقد تذكر الجندي الألماني الشاب إرنست يونغر وصوله إلى قرية خلف خطوط القتال عند قصفها بمجموعة من القنابل في وقت الإفطار: «طغى عليّ شعور بأنني لا أعيش واقعاً... لاسيما عندما حدقت في شخص غارق بدمائه وقد تمزّقت أطرافه وكان يصرخ بشكل متواصل طلباً للمساعدة وكأن الموت

(1) ميناء يقع في شمال فرنسا.

يشدّ على خناقه»(2).

كان الجنود يصلون عادة إلى الخطوط الأمامية خلال الليل عبر شبكات من الطرق والخنادق، متحرّكين تحت جنح الظلام على طول ممرات ضيقة محتشدة غائرة في الأرض، وهذا أمر تعود عليه جنود جميع الجيوش في هذا العالم الخاص. وقد عبّر أحد الجنود البريطانيين عن شعوره تجاه هذا الأمر قائلاً: «كانت عبارة عن ميلين من المشي الطويل المُجهِد في الخنادق الضيقة نحو خط الجبهة، ولم يصفْ أي مراسل حربي مثل هذه المسيرة؛ فهي ليست مدرجة رسمياً في عداد «ويلات الحرب» إلا أن هذا النوع من المعاناة أفظع من المعركة أو الدم الذي ينهك روح جندي المشاة ويصبح جزءاً من حياته.... فهو لا يشعر إلا بالأوزان القاتلة التي يحملها، وبحمّالات حقيبته تنحفر عميقاً في كتفيه، وبالظمأ والعرق الذي يتصبب من جسده والتوق إلى الاستلقاء والنوم. وعندما كنا نتوقف كان يغلب النعاس الجنود وهم واقفون وكانوا يشتمون عندما يُنهرون من الخلف لمواصلة المسير»(3).

بنية نظام الخنادق

تكونت جميع أنظمة الخنادق من خطوط متوازية من التحصينات. وكانت الخنادق المتقدمة تجاور «الأرض المحايدة» وهي الأرض غير المحتلة التي تفصل بين الجانبين، وعادة ما تكون الأكثر عرضة للهجوم من قبل العدو. وهنا قد يدخل العدو ويطلق النار على طول الخندق بأكمله، أو ربما تسقط على الخندق قذيفة مدفعية فتتطاير الشظايا المعدنية المميتة في داخله. ولتجنب مثل هذه الأخطار، شيدت الجيوش «طُرق» الخنادق التي بُنيت بأنماط متعرجة. وكان على أي جندي يتحرك في مثل هذا الخندق أن ينحني بشدة حينما ينتقل إلى الخندق الآخر.

ناظراً إلى الخارج من داخل الخندق الأول، كان الجندي يرى مساحات شاسعة من الأسلاك الشائكة التي تحمي موقعه. فالقطاع الواحد من الأسلاك الشائكة يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام، ويوضع على الأرجح مباشرةً على مشارف المنطقة المحايدة. كما وضعت عادة مجموعة إضافية من الأسلاك الشائكة المتشابكة على بعد خمسين ياردة

أخرى تقريباً من المنطقة المحايدة. وفي نهاية المطاف، أُقيمت مجموعة من خطوط الأسلاك الشائكة بكثافة خمسين ياردة، وأحياناً أبقى كلا الجانبين على نظام السلك الشائك المنفرد أو «الدولي» كحدٍ فاصل بين القوات.

وكانت جميع الأنظمة الدفاعية لديها على الأقل خط خندق إضافي واحد لكي تتمكن القوات من التمركز فيه لدعم الموقع الأمامي. وهنا حفر شاغلو الخنادق تحصينات داخل الجدار الأمامي للخندق، وقد وفرت هذه التحصينات مأوىً إضافياً ونوعاً من الحماية ضد نيران القنابل. وفي أغلب الأحيان كانت تحصينات الضباط داخل الخنادق تتمتع ببعض السعة. علماً أنها على الجانب الألماني كانت أكثر اتساعاً، في حين أن التحصينات الفرنسية والبريطانية كانت أشبه بالكهوف الموسّعة. أما مخابئ الجنود فقد حفرت في أجزاء من الخنادق التي يتمركزون فيها، وعلى الأرجح لم تكن تغوص عميقاً في جدار الخندق. وفي بعض الحالات امتدت خطوط خنادق القوات المتحاربة داخل القرية الواحدة، وأحياناً أخرى كان الخندق يمر عبر أحد المنازل الذي احتلت قوات معينة جزءاً منه، واحتل أعداؤهم الجزء الآخر.

وقد تميز نظام الخنادق الألماني ببناء ملاجئ عميقة قادرة على مقاومة نيران المدفعية. ففي معركة «سوم» في 1916 وصلت التحصينات إلى عمق ثلاثين قدماً تحت الأرض. ولكونها حُفرت لتصمد طويلاً، فقد مدّ الألمان الممرات الخشبية على أرضية الخندق. كما دعمت مرابض المدافع الرشاشة التي شُيدت من الأسمنت والحديد والخشب خطوط الخنادق الألمانية. وغالباً ما شُيد الخط الألماني الثاني على المنحدر الخلفي من التل الذي جعلوا فيه موقعهم الأمامي، وهكذا كانت تصعب مهاجمته من قبل مدفعية العدو. وبحلول منتصف عام 1917، تكونت المواقع الألمانية في منطقة «فلاندرز» من مزيج من الخنادق والمواقع المساندة التي تصل إلى عمق تسع طبقات.

أما الفرنسيون فقد فضلوا النظام الذي شكلت فيه نقاط الدعم القوية بصورة متبادلة، والمتصلة ببعضها بالأسلاك الشائكة، خطوط القتال الأمامية. كما امتدت مجموعة قوية من الأسلاك الشائكة على طول الجبهة الأمامية بكاملها، وخلف الخطوط الأمامية تمركزت معظم القوات الفرنسية في الخط الثاني الاحتياطي. وقد صمّم مثل



الجنود البريطانيون في الخنادق. محفوظات مجموعة هلتون

هذا التدبير لتقليل الخسائر في الخطوط الأمامية.

غير أن القليل من الخنادق التي شيدت خلال عامي 1914 و1915 بقي على حاله حتى نهاية الحرب. فقد أدّت الأمطار والفيضانات إلى انهيار جدرانها، مما استلزم إصلاحاً وإعادة بناء مستمرين. وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من أن شكل الجبهة الغربية ظل ثابتاً، إلا أن خطوط الخنادق في بعض الأحيان كانت تُحتل بشكل دائم من قبل العدو، الذي كان بدوره يجري عليها التغييرات وفقاً لمواصفاته الخاصة.

روتين الخنادق

بات الجندي في الخنادق أسير إيقاع حياة منهك، معاكس تماماً لنمط العيش اليومي الطبيعي. وقد وصف عازف الكمان الأسترالي فريتز كيسلر الذي خدم على الجبهة الشرقية كيف جعلت الخنادق الجنود ينحطون إلى مستوى بدائي من الوجود يصعب على أيّ فرد تخيّله. فالكثير من الواجبات في الحرب مثل إصلاح الخنادق والحواجز والأسلاك الشائكة التي تفصل خنادقك عن خنادق العدو، وتوصيل الإمدادات– كان يجب أن يتمّ ليلاً.



طبيب أسنان أمريكي يفحص جندياً على الجبهة. بموافقة محفوظات معهد هوفر

وقد أسبغت حالة التأهّب (أو حشد القوات) التي تتمّ عند الفجر وعند الغسق، أي في الأوقات التي تغدو فيها هجمات العدو أكثر ترجيحاً، بعض الشكل لنهار الجندي. أما باستثناء ذلك، وإذا لم يكن الجندي في مهمة حراسة أو أوكلت له مهمة خاصة، فقد كان يحاول الحصول على أكبر قسط من النوم نهاراً، قبل أن يعود لمزاولة أنشطته الليلية. وقد وجد يونجر بعد وصوله إلى مقاطعة «شامبانيا» في عام 1914، أمامه يوم عمل يبدأ قبل الفجر؛ فالحاجة إلى حراسة الخندق ومواصلة البناء فيه، لم تمنحا الجندي أكثر من ساعتين من النوم ليلاً. وكان أي هجوم للعدو كفيل بحرمان الجنود تماماً من النوم.

الاقتراب من الموتى

انتشرت جثث الجنود القتلى من المعارك السابقة في كل مكان. وكانت الجثث المعلقة بالأسلاك الشائكة في الأرض المحايدة بمثابة تذكرة مروعة بالهجمات الفاشلة. وقد ساهمت تلك الجثث الممزقة والملقاة على الأرض بين خطوط القتال في أماكن

جعلت من إجلائها أمراً في غاية الخطورة، في إضفاء المزيد من الرعب على الأجواء. يتذكّر إرنست يونجر أنه في أثناء التقدم نحو الأرض المحايدة في عام 1915: «لفتت انتباهي رائحة كريهة وصرّة معلقة على الأسلاك الشائكة... وجدت نفسي أمام جثة مكومة لجندي فرنسي، وقد لمع لحمه المتعفن، مثل لحم السمك الفاسد، من بين أشلاء زيه العسكري، بلون أبيض مائل إلى الخضرة»(4).

دُفنت الجثث بالقرب من الخنادق أو حتى في داخل جدرانها. وعندما تتحرك التربة، قد يصادف الجندي قدماً متحللة جزئياً أو يداً بارزةً من الناحية الأخرى للخندق. وذكر عريف أمريكي في الفرقة السابعة والعشرين – خدم في إحدى القطاعات التي أخلاها الجيش الفرنسي قبل أكثر من عام– «عائقاً ينبثق من جدار الخندق» لم يكن من السهل تبيّن ماهيته بسبب الظلام. ولكن عند بزوغ الفجر، تبيّن أنه «قدم جندي فرنسي دُفن هناك بفعل قذيفة»(5).

الخنادق والحرب الجوية

صُدم الجنود منذ المراحل الأولى للحرب بوجود طائرات ترصد حركتهم من السماء. وقد سجلوا في مذكراتهم الإحساس بالهشاشة الذي شعروا به بسبب طائرات العدو التي تحوم فوق خطوط الخنادق. ففي السنوات الأولى من الحرب، ساعدت الطائرات على توجيه نيران المدفعية. ومع بداية عام 1916 واجه الجنود على كلا الجانبين تهديد الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة وتشن هجمات عنيفة.

وكان في وسع الجنود المقيّدين في خنادقهم مشاهدة مبارزات جوية تدور رحاها فوق رؤوسهم. وقد سجل هربرت سلزباخ، الملازم أول في المدفعية الألمانية، مثل هذا الحدث في دفتر يومياته، حيث كان مختبئاً مع خمسة من رفاقه، «وتمكّنت من مشاهدة عدد من المعارك الجوية، وأُعجبت بطريقة أداء طائراتنا ثلاثية الأجنحة التي ناورت ببراعة وحيوية وسرعة فائقة، حيث كانت ترتفع بصورة عموديّة لكي تباغت طائرات العدو الواحدة تلو الأخرى... وتجري هذه المعارك الجوية خلال فترة بعد الظهر، وقد أسقط سرب طائراتنا خمس طائرات للعدو على مدار اليوم فوق قطاعنا وحده»(6).

القناصة وقذائف الهاون ونيران المدفعية

واجه الجنود على الجبهة الغربية الخطر الذي يفرضه قناصة العدو بصورة يومية. ومنذ نشأة خطّ الخنادق، بدأ الرماة يبحثون عن أهداف للقنص من بين جنود الأعداء المُهملين الذين لا يتوخون الحذر ويعرضون أنفسهم للخطر. ومع استمرار الحرب، أصبح القنص عمل الرماة المدربين تدريباً خاصاً. وكان مجرد بروز الجزء العلوي من الجسد، ولو لثانية واحدة، يستدعي رصاصة قاتلة من جندي متربص من داخل خطوط العدو أو في المنطقة المحايدة. ومثالاً على ذلك شَهد أرنست يونجر مقتل أحد رجاله بهذه الطريقة في نوفمبر 1915. فالجندي الألماني «تسلق إلى إفريز في أعلى الخندق ليجرف كومة من التراب هناك، ولم يكد يبرز جسده حتى أصيب بطلقة... في الرأس طرحته صريعاً على أرض الخندق»(7). وثمة حالات، أطلق فيها العديد من قناصة العدو النار على أحد الجنود المكشوفين في غضون ثوان، وحتى بعض كبار الضباط لقوا حتفهم على أيدي قناصة العدو أثناء قيامهم بجولاتهم التفقدية. وعندما كان هؤلاء القناصة يعملون كفريق –جندي يقوم بالرصد وآخر يقوم بالقنص – فإنهم يحصلون على إصابة دقيقة بشكل خاص.

وفي بعض الأحيان كان القناصة يمركزون بنادقهم في مواقع ثابتة، ويضعونها فوق ملازم، وذلك لتغطية منطقة من المؤكد أن العدو يرتادها: مدخل المرحاض، أو نقطة مكشوفة على خطّ الخندق. وهذا سمح للقناصة بإطلاق النار حتى ولو لم يكن الهدف واضحاً لهم. إذ أن مجرد إطلاق النيران عشوائياً من موقع ثابت أعطى فرصة جيدة لضرب العدو. ففي معركة «أوبير»[1] أعدّت بندقية ألمانية لتطلق النار كل دقيقتين باتجاه القوات البريطانية المقابلة.

وعلى الرغم من قدرة الجنود على توخي الحذر لحماية أنفسهم من نيران القناصة، إلا أنه لم يكن هناك دفاع فعال ضد القصف المدفعي العشوائي أو قذائف الهاون. فالقذائف المدفعية التي كانت تصيب خندقاً ما أو تنفجر فوقه مرسلة شظاياها المتناثرة

(1) مدينة تقع شمال فرنسا.

إلى داخله، كان يمكن أن تؤدي إلى حصيلة رهيبة من الضحايا. وقد تذكّر رقيب بريطاني صدمة هجوم مدفعي تعرضت له مدينة «فلاندرز» في مايو 1915، وخرق حالة الهدوء التي كانت سائدة في ذلك الصباح:

«هزّ المكان فجأة انفجار هائل، تبعه صمت مميت وكأن الجميع أُصيب بالشلل، وتبع ذلك صرخات الخوف والآهات وشهقات الموت... فقد سقطت قذيفة ألمانية شديدة الانفجار مباشرة داخل جزء واسع من الخندق حيث كان يقبع الكثير من الرجال. وتبع ذلك منظر الجرحى النازفين وصرخاتهم المتألمة....أسفرت هذه القذيفة التي انفجرت مباشرة داخل الخندق عن مقتل ما مجموعه خمسة وعشرين جندياً. وكشف الخندق بعد إجلاء القتلى والجرحى عن منظر مروع– كان لونه أحمر وكأنه غرفة كُسيت بالورق الأرجواني بينما المعدات متناثرة في كل مكان»(8).

كان في مقدور جندي الهاون، عندما يطلق قذيفة في الهواء بزاوية حادة وإسقاطها بشكل مباشرة داخل خطوط العدو. وعلى الرغم من أن الصوت الناتج عن إطلاق قذيفة يُعطي نوعاً من التحذير، إلا أن أحداً لا يمكنه التأكد من قدرته على الهروب عندما تضرب مثل هذه القذائف الخندق الذي يتواجد فيه. إنما الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن جنود الهاون لديك سوف يردون على هذه الضربة.

القصف المدفعي

فرضت قذائف المدفعية والهاون خطراً مفاجئاً، إلا أن الجنود واجهوا القصف المديد من حشود مدفعيات العدو الثقيلة. وكانت النتيجة النفسية لمثل هذه التجربة فادحة، وقد صف الجنود من كلا الجانبين مشاعرهم بغرابة متناهية. فشهد هنري دي ليكلوز، وهو رقيب في الجيش الفرنسي، قصفاً لمنطقة فوج «استمرّ 12 ساعة خلال خريف العام 1915. واعتبره أسوأ تجربة مر بها خلال الحرب بكاملها، و«يوماً بغيضاً» سوف تطارده ذكراه طوال حياته: «تواصل انهمار القذائف الألمانية – التي يحتوي بعضها على الغاز المسيل للدموع – علينا دون انقطاع. وكان الكثير منها من العيار الثقيل، على الأقل 105 ملم. وكانت تنهمر فوقنا مباشرة، وأحياناً بالقرب منا، أمامنا أو

خلفنا، فنلوذ بالجدران بصمت مترقّبين الموت وقد تصلبت وجوهنا من شدّة الخوف، وقد أحاطت بنا صرخات الاستغاثة والألم وتأوهات الجرحى الذين أُصيبوا إصابات قاتلة، وكانت تنهمر علينا كالمطر شظايا الحجارة وركام التربة، أما الدخان فيصيبنا بالاختناق والعمى»(9).

مغادرة الجبهة

كان يستحيل، في مواجهة هذا النوع من الضغط الهائل، على أيّ مجموعة من الجنود البقاء في الخنادق إلى أجل غير مسمى. لهذا طورت جميع الجيوش نظاماً للتناوب. ففي أثناء وجودهم على خطّ الجبهة، تمضي وحدات من كتيبة المشاة بضعة أيام في الخندق الأمامي، قبل ان تنسحب مخلية موقعها لمجموعة أخرى، وتضطلع بمهمة أخرى على خط الاحتياط. وبعد أن تقضي وحدة بكاملها على الجبهة الفترة المحددة لها، فإنها تنسحب عدة أميال إلى الخلف. وقد اختلفت مدة البقاء في الخنادق من جيش لآخر. وعندما لا يكون الجندي مشاركاً في معركة رئيسية، فمن المتوقع منه أن يقضي مدة تتراوح من أربعة إلى ثمانية أيام على الخط الأمامي، تتبعها أربعة أيام في خنادق المؤازرة في المنطقة الخلفية.

التربة والطين

كان العيش في خندق حُفر في الأرض يعني أنه، في أحسن الأحوال الجوية، سيتلطخ الجندي بالأوساخ. وقد أضاف تساقط الأمطار والثلوج عند اشتداد البرد متاعب إلى متاعب الجنود. وعملت الأمطار شبه الدائمة في شمال غرب أوروبا على تحويل الخنادق إلى مستنقعات موحلة. ولم يقدم وضع ألواح خشبية في قاع الخندق إلا حلاً جزئياً، لأن الجنود ظلوا ينزلقون في أثناء تحركهم.

كما جعل الطين المتراكم داخل الخنادق وفي العراء حركة الجنود وحيوانات الجرّ أمراً في غاية الصعوبة. أما الملابس الثقيلة التي ارتداها الجنود، وبدلاً من أن تخفّف أعباء حرب الخنادق، فإنها زادت من صعوبتها. وتحول المعطف الذي يزن 7كغم إلى

عبءٍ يتجاوز وزنه 30 كغم متى تبلل بالماء وغُطي بالطين. كما عَرض الوقوف في خندق مشبع بالماء لعدة أيام في كل مرة الجنود للخطر في أثناء السير بداخله. وسبب المرض الذي يشبه قضمة الصقيع إصابة القدم بالتخدّر وتحولها إلى اللون الأحمر أو الأزرق. وإذا ما تفاقم هذا المرض إلى غرغرينا، فقد يفقد المصاب أصابعه أو قدمه بأكملها.

بسبب التعب أو الإصابة كان الجنود يغرقون أحياناً في الوحل، وهو أمر أصاب ستة عشر جندياً من كتيبة بريطانية خلال معركة «سوم» في نوفمبر 1916. ووصف جندي فرنسي ذلك قائلاً: «امتلأت خنادق الاتصالات التي ليست إلا مجروراً فيه مزيج من الماء والبول». وفي مثل هذه البيئة، لم تكن الخنادق «سوى شريط من الماء» وتحول الجنود أنفسهم إلى «تماثيل من الصلصال، يغطي الطين الواحد منهم حتى فمه»(10). وذكر يونجر القتال الذي دار في معركة فلانديرز في عام 1918 عندما قال: «في ظل معرفتنا بأن الإصابة يمكن أن تغرق صاحبها بكل تأكيد في حفرة الطين، دل منظر الدماء المنتشرة فوق الحفر التي أحدثتها القذائف هنا وهناك على أن الكثير من الجنود قضوا بهذه الطريقة»(11).

القمل والجرذان

يؤدي العيش في بيئة مفتوحة وغير نظيفة حتماً إلى الإصابة بالقمل، أو ما يسميه البريطانيون «chats» و«gerybacks») أما الأمريكيون فيستخدمون كلمة «cooties»، كانت هذه الحشرات الصغيرة تستقر في ملابس الجنود وخاصة في الثنايا، وعلى الرغم من الجهود المضنية التي تبذل أحياناً للتخلص منها إلا أنها تحافظ على وجودها. كما تسبب لدغاتها حكة لا تحتمل وكذلك القروح والجرب. وكان الحل الوحيد لإراحة الجنود ولو بشكل مؤقت، هو إخراجهم من الخنادق والسماح لهم بالاغتسال، وكذلك الأمر بالنسبة للملابس التي كانت تُغسل أو تُستبدل.

وكانت حشود الجرذان المنتشرة في كل مكان من أكثر الأمور ترويعاً بالنسبة للجنود الذين خدموا في ظروف مزرية في الخنادق، حيث كانت تسمن على جثث

القتلى، وفي بعض الأحيان تكبر حتى تصل إلى حجم القطط. كما أنها اعتادت على العيش مع البشر، وتلاشت أي مخاوف لديها من التماس مع الناس. وكثيراً ما كان الجنود يستيقظون من نومهم ليجدوا الجرذان تزحف على أجسادهم، وفي أحيان أخرى يجدونها تقضم لحمهم.

المراحيض

وقد زادت الحاجات البيولوجية الأساسية من بؤس الحياة في الخنادق. لم يكن يكتمل الخندق إلا بوجود مرحاض بدائي ما. ففي الجيش البريطاني كان من الشائع بناء المرحاض في أحد أطراف الخندق. وكانت هذه المراحيض على الورق مصممة بطريقة متقنة، ولكن بخلاف الواقع كانت موجودة في منطقة صغيرة مقابل الخندق الرئيسي بداخلها أوعية صغيرة مثل معلبات الأغذية القديمة لاحتواء البراز. وكانت هناك وحدات خاصة مهمتها إزالة مخلفات الجنود كل ليلة ورش كلورايد الكلس كمطهر، والذي كانت رائحته من أكثر الذكريات التي بقيت حية في ذاكرة الكثير من الجنود الذين نجوا من القتال على الجبهة الغربية.

الأرض المحايدة ومهاجمة الخندق

كانت المنطقة الواقعة بين خطي المواجهة تسمى المنطقة المحايدة لأنه من الخطر على أي وحدة التمركز فيها. وكانت هذه المسافة الفاصلة بين المتحاربين عادة ما يصل عرضها إلى عدة مئات من الأمتار. وفي بعض الظروف، كانت كبيرة لدرجة تصل إلى آلاف الأمتار أو، طبقاً لما تفرضه التضاريس، كانت المسافة في خطوط أخرى لا تتعدى خمسة إلى عشرة أمتار. وكان القناصة يتحركون انطلاقاً من المنطقة المحايدة، كما كانت المنطقة مثار نزاع سعى كل طرف للسيطرة عليها ولو لفترة مؤقتة.

وعلى الرغم من أن المعارك الكبيرة كانت نادرة إلا أن أحداثاً مثيرة ومناوشات على نطاق ضيق كانت تدور دون انقطاع بين الجنود المتحصنين في الخنادق. واعتادت مجموعات الجند أن تتقابل وتتقاتل بصورة يومية في المنطقة الواقعة بين خطي الخنادق،

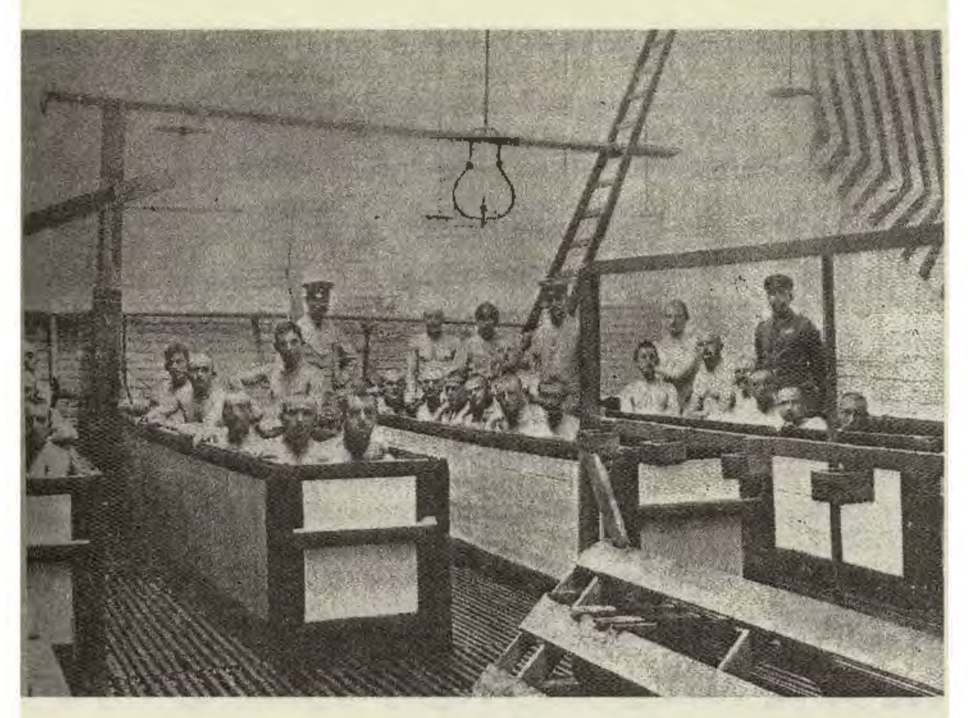


جنود أمريكيون يتخلصون من القمل العالق في ملابسهم. بموافقة محفوظات المعهد الوطني

سعياً للسيطرة على المنطقة المحايدة لأن القدرة على القيام بدورية تصل إلى حافة خطوط العدو تزود الجنود بمعلومات مهمة عن دفاعاته بالإضافة إلى نواياه المستقبلية. كما كان الصدام بين الدوريات، عادة أقل من دزينة من الجنود في كل دورية، يعني صخباً ثابتاً من إطلاق النار ليلاً، وسيلاً ثابتاً من الضحايا والجرحى.

وكان لإرسال القوات إلى الأمام بهذه الطريقة دوافع نفسية تتجاوز الفوائد المادية التي تحققها مثل هذه الدوريات العدوانية. وبالنسبة إلى كبار الضباط البريطانيين مثل الجنرالات المسؤولين عن الفيالق العسكرية، رفعت الدورية العدوانية الروح المعنوية القتالية لدى وحداتهم العاملة في الخطوط الأمامية للجبهة. ولأن المواجهات واسعة النطاق كانت قليلة نسبياً على وجه التحديد، فقد اعتبر الحثّ على مثل هذه المعارك الصغيرة مفيداً.

وإضافة إلى المناوشات التي وقعت في المنطقة المحايدة، فإن الهجوم على الخنادق سبّب أيضاً فصولاً عنيفة في حياة الجنود على الجبهة. ففي الإغارة على أحد الخنادق، تقوم قوات أحد الجانبين باقتحام دفاعات العدو والاستيلاء على جزء من خندقه على



جنود ألمان يستحمون بالقرب من الجبهة. بموافقة محفوظات معهد هوفر

الأقل لبضع دقائق. وتعطي هذه الغارات فرصة لقتل عدد من جنود العدو وأسر عدد آخر للاستجواب. وأول من ابتدع هذا الأسلوب كان البريطانيون، وسرعان ما حذا الألمان حذوهم، وفي النهاية الأمريكيون. أما الجيش الفرنسي فكان على النقيض تماماً إذ فضل تجنب مثل هذه الأعمال لأنها تستنزف القوة البشرية.

وكثيراً ما شاركت مجموعات من المتطوعين في غارات الخنادق. واحتاج هذا الطابع المعقد من غارة الخندق إلى تخطيط دقيق وعدة أيام من التدريبات التجريبية ضد دفاعات بُنيت لمحاكاة دفاعات العدو. وقد تبدأ الغارة بوابل من القصف المدفعي بهدف عزل جزء من خط العدو عن خنادق الاحتياط، وبالتالي حرمان المنطقة المستهدفة من الإمدادات. وكانت وحدات الهندسة تقوم بقطع الأسلاك الشائكة وغيرها من الموانع الدفاعية للسماح للقوات المغيرة بدخول الخندق. وفي النهاية، تقوم القوات المغيرة نفسها- التي طلا الجنود فيها وجوههم باللون الأسود والمجهزة بأسلحة خاصة مثل الهراوات والقنابل اليدوية التي صنعت خصيصاً للاستخدام عند

الالتحام المباشر مع العدو- بشن الهجوم على الخندق في الوقت المناسب.

وقد وقع مثال حيّ على هذا الطراز من الهجوم في خريف 1917 عندما قامت وحدات ألمانية بالهجوم على طلائع القوات الأمريكية لاحتلال جزء من جبهة القتال. واستخدم الألمان وبمهنية عالية سداً من النيران لفصل القوات من الفرقة الأولى لكتيبة المشاة السادسة عشرة التي تمركزت شرق مدينة فردان، والتي حُوصرت بوابل من نيران تسعة وستين جندياً ألمانياً، وفي هذا الهجوم واجه الجنود الأمريكيون المبتدئون قوات من الجنود المحنكين من الكتيبة السابعة «Bavarian Landwehr» الذين تحركوا بسرعة عبر المنطقة المحايدة واقتحموا مواقع الجنود الأمريكيين وانسحبوا خلال دقائق معدودات.

وكان سقوط ثلاثة قتلى وأكثر من سبعة أسرى في صفوف الأمريكيين خير دليل على أن هذه المناورة تمت بطريقة منسقة وبسلاسة شديدة. ومما لاشك فيه أن الألمان أخضعوا الأسرى للاستجواب، ولكن بالقدر نفسه من الأهمية، أنهم بذلوا جهداً فعالاً لاكتساب التفوق المعنوي على القوات الأمريكية الواصلة حديثاً(12).

القيود على عنف القتال: عش ودع الآخرين يعيشون

أخذاً في الاعتبار مخاطر حياة الخنادق، والمواقف العدوانية لكبار القادة، كان يفترض أن يتسبب القتال بخسائر فادحة حتى في الفترات الزمنية المتباعدة بين المعارك الكبرى. وبالمثل، كان ينبغي أن تخلق جميع أجزاء جبهة القتال سلسلة متصلة من الرعب. ولكن عدم حدوث ذلك قاد بعض المؤرخين أمثال توني أشوورث وليونارد سميث إلى التركيز على القيود التي وضعها الجنود أنفسهم على قتال الأعداء(13).

ومنذ الشهور الأولى لبداية الحرب، أدت الاتفاقات غير الرسمية وغير المعلنة إنما الفعالة، بين الوحدات المتقابلة لوضع قيود على سفك الدماء. واعتمدت مثل هذه الاتفاقات على عوامل متعددة، فلا تكون أي وحدة تدخل إلى ميدان المعركة متيقنة من أنها ستطبق مثل هذا القيد. فقد كانت مواجهة وحدة خاصة من وحدات العدو أو أي وحدة عدو تحت إمرة قائد عدواني أو وحدة خاضعة لمراقبة مشددة من سلطة

عليا، كفيلة بمنع مثل هذه الهدن الجزئية من الحدوث.

ومع ذلك، وجد الجنود على كلا الجانبين من الأرض المحايدة السبب والفرصة لعقد مثل هذا الحلف الهادئ مع العدو. فكل جندي كان يدرك أن قصف خنادق الاتصالات التابعة للعدو وشبكة الطرق المجاورة، خصوصاً في أوائل المساء، يعرقل وصول الغذاء لوحداته. وكان من حكم المؤكد أن هذا الأمر يثير ردود فعل انتقامية لعرقلة إمدادات الجانب الآخر. وكان ذلك الأمر يُعد سهلاً من خلال الامتناع عن إطلاق نيران من مثل هذا القبيل. كما كان إطلاق النار على مواقع العدو في ساعات ما بعد الفجر يعرض الجنود الذين يذهبون إلى المراحيض للخطر؛ وبالتالي تجنب منع العدو من تلبية احتياجاته الشخصية يجبره أن يظهر لك الاعتبار نفسه. كما أن مهاجمة الخنادق بقذائف الهاون والقنابل اليدوية، يقابلها حكماً رد فعل مماثل؛ وبالتالي، كان هناك حافز لدى الجنود لعدم بدء التصعيد بأعمال عنف من هذا القبيل. وعلى نحو مماثل، واجهت وحدات المدفعية العاملة خلف الجبهة والتي قصفت مواقع العدو بعدوانية شديدة، رداً شديداً مماثلاً.

وفي بعض الأوقات، فرضت ظروف المناخ القاسية والتضاريس الجغرافية أن يغضّ أحد الأطراف النظر عن العدو غير المحصن. فعندما تنهار بعض الخنادق تحت وطأة الأمطار والطين، كان الجنود على طرفي الأرض المحايدة يخرجون منها، ربما للجلوس في العراء فحسب، وربما لإصلاح الضرر تحت مرأى العدو.

كان وقف الأعمال العدائية تماماً أقلّ شيوعاً من الاتفاقات الضمنية على إطلاق أعداد محدّدة من الطلقات (من نيران البنادق أو قذائف الهاون أو المدفعية) في أوقات متفق عليها. فعلى سبيل المثال، كان إطلاق بضع قذائف مدفعية بعد الغذاء أو العشاء من الأمور المألوفة على الجبهة الغربية. فقد ذكر وليام تريلت، الرقيب في الفرقة الأمريكية الخامسة والثلاثين، كيف وصف قائد سريته وضعهم على الجبهة في منطقة «الإلزاس» في ربيع عام 1918. كان القطاع من المناطق الهادئة، ولكن شعر كلا الجانبين أنهما يجب أن يتصرفا كمحاربين. «لذا كان الألمان يقصفون بلدة ثان كل يوم عند الساعة الثانية عشرة بأربع قذائف مدفعية، فيردّ الفرنسيون بقصف أربع بلدات ألمانية تقع على

نهر الراين بعدد مماثل من القذائف. وكان الكل يعرف الجدول الزمني للقصف، لذا لم تكن تقع إصابات في أغلب الأحيان»(14).

وقد اعتاد الألمان المتعلمون على تعلم اللغة الفرنسية والإنجليزية. فقد عمل كثيرون منهم ممن تحدروا من أصول اجتماعية متواضعة نادلين في المطاعم في بريطانيا العظمى. ونظراً لاقتراب الخنادق الشديد على خطوط المواجهة من بعضها بعضاً كان يمكن لجندي أن ينادي العدو، ويتبادل أطراف الحديث معه عبر خط المعركة أو حتى تبادل أغنية مليئة بالعواطف معه في المناسبات البهيجة مثل أعياد الميلاد.

القيود على العنف: الهدن

كان أقوى القيود على العنف عبارة عن هدنة صريحة يقرّر فيها الجنود من الطرفين الاجتماع بطريقة ودية. وقد وقعت الهدنة الأكثر شهرة صبيحة عيد الميلاد في عام 1914، حيث ترك الجنود من الطرفين خنادقهم، بعد أن تبادلوا التحيات الصارخة، والتقوا في وسط منطقة محايدة. وهنا سجل المراقبون مشاهد رائعة لمراسم الدفن التي عمل بها الطرفان جنباً إلى جنب، مثل قداديس الدفن المشتركة، كما ارتجلوا مباريات في كرة القدم. وفي أحد المواقع، سمح الألمان للجنود البريطانيين باستعارة أدوات حفر الخنادق الألمانية الأكثر شهرة.

ولكن مثل هذه الهدن حدثت في أوقات مبكرة من الحرب. وعلى الرغم من تحذيرات القيادات العليا، إلا أنها استمرت في الحدوث مع تواصل الصراع. وكثيراً ما كانت تبدأ بمحادثة صارخة بين خطي الخندق، واشتملت تلك الهدن على الجنود من كلا الجانبين الذين تقابلوا على الأرض المحايدة أو حتى قاموا بزيارة تحصينات الجانب الآخر. وكانت مقايضة بعض الملابس والأطعمة وتبادل العناوين وحتى المشاركة في لعبة كرة القدم من سمات تلك اللقاءات الاستثنائية بشكل واضح.

دان وجود بعض القطاعات الهادئة بالكثير لهذه الاتفاقات الضمنية للتقليل من عنف الحرب. وكان وصول وحدات جديدة وأكثر عدوانية– أو شديدة العدوانية– يؤدي دوماً إلى احتمال تمزيق مثل هذا النموذج. فقد كانت بعض الوحدات من



قوات فرنسية تتناول الطعام في الميدان. بموافقة محفوظات معهد هوفر

الجيش البريطاني مثل الكتيبة الأولى والثانية من «ويلز فوزيلرز»[1] مشهورة بعدوانيتها تجاه العدو. ولكن عندما كانت تستبدل الوحدات التي وافقت على شعار (عش ودع الآخرين يعيشون) كانت دوماً تسلم مواقعها لوحدات لها فكر مُشابه. ولأن الوحدات لا تدخل إلى قطاع جديد من الجبهة الغربية إلا بعد توجيهات تحصل عليها تدريجياً من أولئك الذين سبقوهم في الخدمة، فقد كانت هناك فرصة وافرة للقادمين الجدد لاكتشاف الطريقة التي تُدار بها الأمور هناك وقبولها.

الحواشي

1. مقتبس من كتاب مالكولم براون، «تومي يذهب إلى الحرب» (لندن: دنت فاليس، 1978) ص. 61.
2. إرنست يونجر، «عاصفة من الصلب: من يوميات ضابط من قوات العاصفة الألمانية

(1) تكونت من كتيبتين، الأولى كتيبة مشاة خفيفة والثانية كتيبة مدرعة. وكانت تحت قيادة العقيد جون رودريك.

على الجبهة الغربية» (نيويورك، هـ. فرتيج، 1975)، ص. 2–3.

3. مقتبس من جون إليس، «عين في أعماق الجحيم: حرب الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى» (نيويورك، منشورات بانثوين، 1976)، ص. 33.

4. يونجر، «عاصفة من الصلب»، ص. 21.

5. جيمس هالاس، «حرب جندي أمريكي: القوات الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى» (بولدر، كولورادو، لين راينر، 2000)، ص. 63–64.

6. هربرت سلزباخ، «مع المدافع الألمانية: أربع سنوات على الجبهة الغربية، 1914–1918» (ترجمة ريتشارد ثونجر، لندن: ليو كوبر، 1973)، ص. 159.

7. يونجر، «عاصفة من الصلب»، ص. 48.

8. مقتبس من براون، «تومي يذهب إلى الحرب»، ص 73.

9. هنري دي ليسلوز، «رفاق سلاح: الحرب العالمية الأولى مذكرات النقيب هنري دي ليسلوز، الكونت دي ترافيدال، تحرير روي ساندستروم، ترجمة جاك دوبوا (كينت، أوهايو: مطبعة ولاية كينت، 199)، ص. 83 – 84.

10. إليس، «عين في أعماق الجحيم»، ص. 45 و47.

11. يونجر، «عاصفة من الصلب»، ص 216.

12. هالاس، «حرب جندي أمريكي»، ص. 67–70 ؛ أيضاً كتاب بايرون فيرويل، «هناك : الولايات المتحدة في الحرب العظمى» 1917–1918(نيويورك: نورتن، 1999) ص. 11–13.

13. توني أشوورث، «حرب الخنادق، 1914–1918: نظام عش ودع الآخرين يعيشون» (لندن: ماكميلان، 1980)؛ ليونارد سميث، «بين التمرد والطاعة: حالة فرقة المشاة الخامسة الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى» (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 1994).

14. ويليام تريل، «شباب في ميوز– آرجون: مذكرات» 1917–1918، تحرير: روبرت فيريل، (كولومبيا مطبعة جامعة ميسوري، 2000)، ص 83.

الفصل الرابع

تجربة القتال

شهد القتال الأولي على الجبهة الغربية جيوشاً ضخمة تناور ضد بعضها بعضاً، مع اجتياح القوات الألمانية بلجيكا وشمال فرنسا. وبحلول نهاية العام، استقرت الأمور على الجبهة. فتواجهت ألمانيا وأعداؤها عبر خط من الخنادق يمتد من القنال الإنجليزي إلى سويسرا. وبالنسبة إلى الجنود، فإن تجربة القتال التي اكتسبوها على المدى الطويل للصراع جاءت نتيجةً للهجمات التي أخذ يقوم بها طرف ضد الطرف الآخر لكسر حالة الجمود على خط الخنادق وحسم نتيجة الحرب لصالحه. وقد وقعت معارك كبرى في كل عام من الأعوام 1914، 1915 و1916 واستمرت لعدة أسابيع أو حتى أشهر.

وكانت بعض العوامل التي شكلت المعارك القادمة تقع ضمن سيطرة الإنسان. فقد استطاع القادة الكبار تقدير كمية قذائف المدفعية الثقيلة التي يمكن استخدامها لدعم الهجوم، وذلك بالرغم من عدم توافر قطع مدفعية وأطقم مدربة بشكل كاف حتى بعد مرور وقت طويل على بدء الحرب. إلا أنهم استطاعوا حسم أسلوب الهجوم– باستخدام موجات من جنود المشاة المصطفين بعناية أو باستخدام القوات المتفرقة المتشبثة بسطح الأرض. كما أن موضع الهجوم كان يخضع لتخطيط واع: كالأرض

المنخفضة في منطقة « فلاندرز» والأراضي الجيرية في «بيكاردي» والمرتفعات فوق نهر «أيسين Aisne» في منطقة «شمبانيا» وكذلك المداخل المؤدية إلى «فردان» المحصنة. وقد تُرك قرار التعامل مع حالة طارئة في أيدي قادة الألوية، الذين قد يتخذ الواحد منهم خطوة حاسمة بإرسال نصف القوات المدربة إلى جحيم المعركة.

أما العوامل الأخرى فقد تجاوزت من بيدهم القرار. ومنها الطين الذي من المعتاد أن يتراكم في منطقة «فلاندرز» كل سنة مع هطول الأمطار في فصل الربيع وأواخر فصل الصيف. كما لعب الضباب دوراً بالغ الأهمية في الهجوم الذي شنّه الألمان في مارس 1918، وهذا أيضاً من قوى الطبيعة. وكذلك لعب اتجاه الرياح وتأثيرها على استخدام الغاز في دعم هجوم بري دوراً بارزاً. وكان وباء الأنفلونزا الذي انتشر بين الجيوش المتحاربة في صيف وخريف عام 1918 بالمثل من قوى الطبيعة المؤثرة في المعركة. وقد نجح القادة في التعامل مع مثل هذه العوامل الطبيعية، من قبيل إيقاف المشير دوغلاس هيغ الهجوم الذي شنه في 1917 على منطقة «باشيندال» إذعاناً لطبيعة الأرض الموحلة، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على هذه العوامل.

الأمر بالهجوم

انتشرت الشائعات بين الوحدات العسكرية كانتشار النار في الهشيم. حيث تعلم جميع الجنود توقع المعارك الكبرى مع اقتراب فصل الربيع. كما كان يسهل ملاحظة الدلائل على وقوع هجوم وشيك حتى بالنسبة إلى المدنيين. ويُذكر أن راعي الأبرشية أ. فان فلغهيم، الكاهن المحلي في مدينة «إيبر» والمراقب الذكي للأحداث، سجل في دفتر يومياته في صيف 1917 أن أمراً كبيراً على وشك الحدوث. فقد دون أن البريطانيين ينشئون خطوط سكة حديدية جديدة وأن مستودعات ذخيرتهم آخذة في التزايد. وحتى المزارعون توقعوا ما هو آت فاستعدوا لإجلاء مواشيهم من منطقة الخطر(1).

وكثيراً ما وقعت هجمات واسعة النطاق بعد تحرك القوات من خط المواجهة إلى مسافات أطول من المعتاد. وهذا التغير في الروتين المعتاد قد يصاحبه تحسّن في الغذاء. وقد لاحظ الموظفون والممرضون المتواجدون في الألوية ومقرات الكتائب الرئيسية

زيادة في تدفق البرقيات القادمة من مستويات القيادة العليا. كما أن طواقم الضباط ـ الواضحة بشكل جلي في الجيش البريطاني بسبب الشارات الحمراء التي يرتدونها ـ شُوهدت على نحو متزايد عند وصولها وهي تنقل رسائل شفوية من الضباط الكبار المخططين لعملية ما.

وكان الجنود البريطانيون قبل القيام بهجوم كبير يجدون أنفسهم مصطفين أمام الكولونيل الذي يقود كتيبتهم. فيؤكد لهم نجاح العملية، ويذكرهم بالشجاعة التي تميزت بها وحدتهم في مواجهة نيران العدو. وعندئذ، يقدم القائد المساعد الرسالة الأكثر قسوة التي مفادها أن أي هروب من مواجهة العدو أو أي تقصير في أداء الواجب سوف يلقى أشد العقوبات. وفي بعض الأحيان، يتلو قائمة بأسماء الجنود الذين أعدموا أخيراً مع ذكر الجريمة التي أُدينوا بها.

أفكار ما قبل المعركة

أعطت مشاهدة التجهيزات لهجوم كبير الجنود على كلا الجانبين فرصة للتفكير ملياً في المخاطر التي قد يواجهونها. وكان دوماً على الجنود الجاهزين للتحرك عبر الأرض المحايدة الانتظار لفترة من الوقت في مناطق متاخمة للجبهة. كما أدرك أولئك المتواجدون على الخط المقابل على الجبهة أيضاً أنه ليس أمامهم سوى فترة محدودة قبل أن يواجهوا الموت. وفي مثل هذه الظروف، تحدى الجنود المخاوف والآمال والتوقعات. وسجل الكثير من الجنود المتعلمين والبليغين تأملاتهم في رسائلهم إلى ذويهم وفي دفاتر يومياتهم.

وقد شعر الملازم ليونيل سوثبي بقلق كبير من إمكانية بقائه على قيد الحياة لدرجة أنه أرسل وصية إلى محامي أسرته قبل مغادرته فرنسا في نهاية العام 1914. وفي رسالة أخيرة أرسلها إلى والده في سبتمبر 1915، وقبل اندلاع معركة «لوس»، أرسل الشاب الإنجليزي البالغ من العمر عشرين عاماً رسالة تفاؤل ممزوجة بتوقعات واقعية، فبدأ رسالته بالقول: «سنتوجه غداً صباحاً إلى المتاريس، وسأكون في خط المواجهة... كلنا فرحون ويحدونا الأمل على الرغم من جهلنا بما ينتظرنا». وأورد في مقطع معبّر



فون هندنبرغ والجنود الألمان الشبان. بموافقة محفوظات معهد هوفر

من رسالته: «لا أعاني من الهزات المضطربة التي يعاني منها الفرد في الليلة التي تسبق الهجوم الأول له، وأفترض أن ذلك عائد جزئياً إلى أن جدّة الأمر قد انتهت، وإلى أن نية الخروج سالماً من الحرب غدت أقوى وأكبر إلى حد ما». ويقول أخيراً: «الروح المعنوية للجميع جيدة وتبشر بالخير لصالحنا»(2).

كما أرسل جندي ألماني محكوم بالهلاك، على وشك أن يهاجم الموقع الفرنسي في «ليه إبارج» في أبريل 1915 رسالة عادية عبر فيها عن امتنانه لعائلته، قائلاً: «تعرفون أنني شاكر لثلاثتكم على كل شيء طيب فعلتموه من أجلي... وعلى كل البهجة والسعادة في حياتي. إذا مت، فسوف يكون ذلك ببهجة وامتنان وسعادة»(3). وبطريقة مماثلة انتهز ملازم أمريكي كان في طريقه للحرب في منطقة «آرجون» في 1918 – في هجوم لم ينجُ منه أيضاً – الفرصة ليشكر والديه على التربية الرفيعة التي منحاه إياها وانه مهما حدث فإنه متأكد أنه سيجتمع بهما «على الرمال المشرقة في الجانب الآخر»(4).

وأفصح الكثير من الجنود عن مزيج من المشاعر الوطنية والدينية. وتجلى ذلك بوضوح في رسالة أرسلها شاب ألماني لوالديه تنبأ خلالها بموته الوشيك في أثناء

مهاجمة موقع فرنسي في مطلع يونيو 1916. وناشدهم فيها ألا يحزنوا لأنه وبكل فخر سيموت في سبيل «واقع جديد أفضل وأعظم لأرض الأجداد» وشعر أنه سيكون آمناً «بين يدي الله» وتمنى فقط أن يعرف أهله أنه يستجدي مغفرتهم عن «الأيام الماضية التي كدّرتهم وآلمتهم فيها»(5).

وكثيراً ما تضمنت الرسائل التي يتلقاها الأهل المتلهفون نصائح مؤثرة لهم حول كيفية تحمّلهم المصاب في حال قُدر لكاتبها الموت. وأخبر أحد الجنود البريطانيين والده بأن رسالته ستصله في حال موته فحسب: «أبي العزيز، أعلم أنك سوف تتحمل الصدمة بشجاعة كما تحملت دوماً آلام وجودي في هذا المكان... فالمجهول لا يشكل أيّ رعب لي. وأنا مقتنع تماماً بالموت في سبيل القضية التي منحتها نحو ثلاث سنوات من عمري، وكل رجائي بأن أواجه الموت ببسالة مثلما رأيت بعض الجنود في الميدان يفعلون من قبل»(6). وكتب جندي ألماني قبل يوم واحد من إصابته إصابة قاتلة في معركة فردان في فبراير 1916 مطالباً والديه وإخوته بالقول: «أبقوني في قلوبكم المحبة المخلصة»، وحاول مؤاساتهم بخسارتهم الوشيكة طالباً منهم التفكير في أنه بمواهبة المتواضعة «ما كنت على الأرجح لأحقق السعادة والرضى الكاملين». وأنه سوف يشعر بالسلام حينما «ينطفئ مصباح حياته عشية هذه المعركة الرهيبة»(7).

ويمكن للأفكار الخاصة أن تتحول إلى حسابات كئيبة في فرص صاحبها في النجاة. فيتذكر أحد الجنود البريطانيين: «لم يغمض لي جفن طوال تلك الليلة. وكانت معدتي تصرّ على الارتفاع حتى حلقي لتخنقني في كل مرة أفكّر فيها في بعض الاحتمالات الرهيبة». واستطرد قائلاً: «هناك ربما فرصة من أصل ثلاث لأن يقتل المرء. وفرصة من أصل أربع لأن يصاب، الأمر الذي يعني إرجاء، وفرصة من أصل أربع لأن يؤسر- وهو ما يساوي تماماً الخروج معافى من المعركة»(8). وأخذ رقيب فرنسي في طريقه للقتال في فردان يتأمل حالة جسده السليم مقدّراً ما يمكن أن يحدث له: «يا له من أمر بغيض؛ أن تخاطب نفسك، في هذه اللحظة، أنا الآن ذاتي؛ ودمي يجري وينبض في شراييني؛ لي عينان سليمتان، وكل جلدي سليم، ولست أنزف في الوقت الراهن»(9).

وقد هيمن على بعض الجنود الأمل ببقاء ذكراهم. فيذكر جندي بريطاني كان ينتظر

الهجوم الألماني في مارس 1918 اتفاقاً عقده مع أحد رفاقه بأنه «إذا فُقد أي منهما، فعلى الآخر أن يبذل قصارى جهده للبحث عنه، أو معرفة ما حدث له». وعلى الجانب الآخر من جبهة القتال، فكر جندي ألماني شاب، عاجز عن النوم، بمحطات مهمة في حياته لم يخضها بعد: «لم أخطب بعد، وليس من قلب رؤوم يحنو عليّ، كنت في العشرين من عمري فحسب، ولم أعاشر أيّ امرأة، أريد البقاء على قيد الحياة حتى أخوض تلك التجربة»(10).

الذهاب إلى الحرب: الرجال في ساحة المعركة

منذ بداية 1915، كشفت معظم المعارك الكبرى التي شهدتها الجبهة الغربية عن مجموعة من العناصر التي شكلت تجربة المقاتلين. وشملت هذه العناصر القوة المدمرة للمدفع الرشاش، والتأثير الساحق للقصف بالمدفعية الثقيلة طويلة المدى، والصعوبات الناجمة عن القتال في الوحل والمطر. وفي كثير من الأحيان، كان ميدان المعركة مسرحاً لهجمات الغاز، وأحياناً أخرى كان تفجير الخنادق والهجوم بالدبابات جزءاً من الجهود الدموية لإنهاء حالة الجمود وكسب المعركة. وفي مناسبات نادرة، كانت القوات قادرة على اختراق خطوط العدو وضعضعة وسائله الدفاعية.

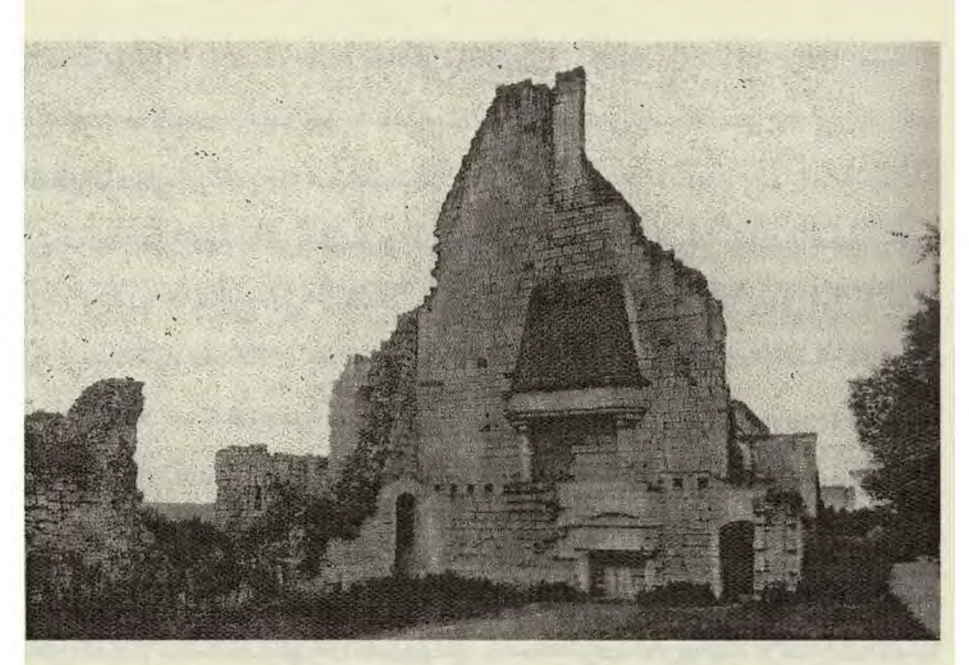
وكثيراً ما وجدت الوحدات المقاتلة نفسها تشارك في قتال مرير لأسابيع متواصلة. ففي معركة فردان، على سبيل المثال، تعرضت سرية الملازم هنري ديسانيو للقصف المتواصل طوال ما يربو على الأسبوعين. وعلى حد تعبيره: «لم نغتسل أو ننم منذ ستة عشر يوماً. وقضينا أوقاتنا بين القتلى والجرحى المحتضرين، وواجهنا شتى الصعوبات والآلام المتواصلة»(11).

تجربة القتال

المدفع الرشاش

كانت مواجهة القوة المدمرة لنيران المدافع الرشاشة تجربة لم يألفها الجنود الأوروبيون. فالمذابح التي تسبّبت بها الرشاشات، بنطاقها الذي يصل من ثلاثمائة إلى أربعمائة ياردة، كانت جلية منذ المذابح التي ارتُكبت في الحرب الأهلية الأمريكية والحرب الفرنسية البروسية، كما بدأ المخططون العسكريون الأوروبيون أيضاً في حساب آثار المدفعية الحديثة الفتاكة. ولكن قوة المدافع الرشاشة جاءت بمثابة مفاجأة. فهذه الأداة العسكرية شديدة القوة أعطت بعض الجنود أو حتى جندياً واحداً القوة التي تمكنه من إطلاق وابل من الرصاص على العدو المتقدم. ولكن حتى ذلك الحين لم تكن تلك الأسلحة قد أظهرت فاعليتها في ساحة الحرب الأوروبية. الإشارات الأولية لما يمكن أن يفعله هذا السلاح، والتي ظهرت بشكل خاص في الحرب الروسية اليابانية عامي 1904 و1905، لم تعلق في أذهان معظم العسكريين المحترفين.

وقد أخفقت الهجمات الضخمة التي شنها جنود المشاة، رغم أنه كان يسبقها تمهيدٌ مكثفٌ بقذائف المدفعية، لأن طواقم المدافع الرشاشة داخل خطوط العدو، التي نجت من القصف، فتحت النار باتجاههم. بل إن عدداً قليلاً من الرشاشات كان قادراً على مقابلة القوات المتقدمة بإطلاق وابل من الرصاص الفتاك. وغدت إمكانية وقوع مجزرة بواسطة نيران المدافع الرشاشة جلية خلال الهجمات واسعة النطاق التي وقعت في 1915. وقد صُدمت الجيوش المتقدمة مستعينة بالقصف المدفعي بما كانت تعتقد أنه خصم متضعضع القوى. ففي هجمات الربيع الدامية على منطقة «نوف شابيل» ومن ثم على «إيبر»، بدأ البريطانيون أولاً ومن ثم الألمان يدركون هيمنة المدفع الرشاش على ساحة المعركة. فقد انتهت الهجمات الفرنسية على «أرتوا» وكذلك على «شمبانيا» بفاجعة مؤلمة. وتذكر جندي فرنسي المجزرة التي وقعت في «أرتوا» والتي شنّ فيها ثلاثمائة من جنود كتيبته هجوماً ميؤوساً منه: «مع انطلاق أول صفير للرصاص، صرخ الضابط على الجنود لكي ينظموا صفوفهم، فمضوا جميعاً إلى حتفهم وكأنهم



حطام نصب تذكاري وطني فرنسي يرجع إلى عصر جان دارك. بموافقة محفوظات معهد هوفر

في استعراض»(12).

عانت بريطانيا من التأثير الكامل لقوة النيران الآلية في معركة «لوس» في سبتمبر 1915. كان قد مضى على الحرب أكثر من عام. وقد بدأ الألمان في يجبرون القوات الروسية–حليفة بريطانيا– على التقهقر بشكل مذلّ على الجبهة الشرقية، ولهذا اعتبرت القيادة البريطانية العليا أن توجيه ضربة في مكان ما على الجبهة الغربية أصبح أمراً ملحّاً، وتمنّوا استخدام الغاز السام على نطاق واسع لضعضعة الخط الألماني. وسار التقدم الأولي بشكل جيد في بعض القطاعات، ولكن ما إن دار القتال حول بلدة التعدين الفرنسية الصغيرة تلك، حتى أوقعت المدافع الرشاشة خسائر فادحة على كلا الجانبين.

وفي 25 سبتمبر، تقدمت القوات البريطانية خلف منطقة «لوس» وزحفت نحو التلال باتجاه الشرق. ومع ذلك، شنّ الألمان سلسلة من الهجمات المضادة الجريئة. ووصف جندي مشاة اسكتلندي كيف أن نيران المدافع الرشاشة البريطانية المتمركزة فوق تلك السلسلة من التلال «سحقت الجنود الألمان» خلال هجومهم الأولي

المضاد، وعندما عادوا «صرعناهم مرة أخرى». وفي هجوم ثالث «واصل الجنود البريطانيون إطلاق النيران من المدافع الرشاشة وكان منظر الجثث الألمانية المتكدسة مثيراً للاشمئزاز. فقد كانوا يهاجمون بكتل بشرية متراصة، تاركين خلفهم مئات من جثث القتلى والجرحى المتكدسة»(13).

وفي صباح اليوم التالي زحف عشرة آلاف جندي من كتيبتين بريطانيتين حديثتي التشكيل بشكل استعراضي مسافة ميل تقريباً إلى بلدة مفتوحة مليئة بشبكة قوية من التحصينات الألمانية ومرابض المدافع الرشاشة. وقد وقع هؤلاء الجنود أيضاً ضحايا بجزرة متوقعة خسروا خلالها زهاء ثمانية آلاف جندي بين قتيل وجريح. ووصفت رواية ألمانية شهدت هذه اللحظة الدموية كيف أن «جنود المدافع الرشاشة لم يكن لديهم يوماً عملاً أكثر مباشرة ليؤدّوه، وبمثل هذه الجدارة. فقد أداروا مدافعهم الرشاشة شمالاً ويميناً باتجاه قوات العدو... ولأن ميدان إطلاق النار بأكمله كان مغطى بمشاة العدو، جاءت الحصيلة مدمرة، وشوهد الجنود وهم يتساقطون بالمئات بين قتيل وجريح»(14).

كما ظهرت المقدرة الكاملة للمدافع الرشاشة على إراقة الدماء خلال معركة «سوم» في يوليو 1916. كانت القيادة العليا البريطانية تتوقع سحق المقاومة الألمانية من خلال القصف المدفعي المركز على مدار الأسبوع. وفي تلك المعركة، كان معظم الجنود البريطانيين من المتطوعين، وكان معظمهم في وحدات «الجيش الجديد». وكانت هذه الفرق التي شكلت حديثاً مليئة بالرجال الذين لبوا نداء كيتشنر للتطوع. وقد تلقوا الأوامر بالتحرك في ساحة القتال في خطوط متراصفة ومتقاربة. وذلك لأن كبار الجنرالات لم يرغبوا بفقد السيطرة على ساحة القتال بسبب هذه القوة الكبيرة من الجنود المدربين على عجالة. وكان كل واحد من جنود المشاة البريطانيين يحمل ستة وستين باونداً من التجهيزات أثناء الهجوم. وقيل للجميع أن يتوقعوا تقدماً سهلاً في اليوم الأول؛ فقد كان على القوات البريطانية أن تحتل خطوط العدو الأمامية المحطمة، ومن ثم تتقدم عدة أميال إلى ما وراء هذه الخطوط. بيد أن الدفاعات الألمانية كانت قد حُفرت بعمق كافٍ يسمح لأغلبية جنودهم بالنجاة من وابل القصف المدفعي. كما



ضحية من ضحايا الحرب: جندي ألماني مقتول بسلاح الرشاشات. بموافقة المحفوظات الوطني

عانت نيران المدفعية البريطانية من نقص القذائف شديدة التفجير، وكان جنودها على الجانب البريطاني مبتدئين مثل رفاقهم من جنود المشاة، موجّهين الكثير من قدرتهم النارية بشكل غير دقيق. وعندما انطلقت الصافرات في الساعة السابعة والنصف من صباح 1 يوليو 1916، لاستدعاء جنود المشاة البريطانيين للخروج من خنادقهم والتقدم، كان في الجهة المقابلة ما لا يقل عن مائتي مدفع رشاش ألماني جاهزة لملاقاة العدو. وكانت النتيجة رعباً لا مثيل له، حتى بمقاييس الحرب العالمية الأولى. ففي غضون يوم واحد- ولاسيما في الساعة الأولى- خسر الجيش البريطاني زهاء ستين ألف جندي، من بينهم عشرون ألف قتيل، فقد حصدت المدافع الرشاشة، بمساعدة المدفعية الألمانية، جنود المشاة الذين كانوا يتقدمون ببطء وبصورة واضحة للعيان، كما لو كان المشهد ميداناً ضخماً للتدرّب على إطلاق النار. وكانت خسائر ذلك اليوم الأسوأ بالنسبة لأي جيش شارك في الحرب العالمية الأولى، بل كانت الخسارة الأعظم في تاريخ الجيش البريطاني برمته.

ويتضح بصورة جلية الفرق بين التمترس في الخطوط الدفاعية، والهجوم في مواجهة رماة المدافع الرشاشة المتخندقين، لدى مقارنة الخسائر على الجانبين. فقد تكبد الجيش الألماني إصابة واحدة مقابل كل سبع إصابات على الطرف البريطاني. وفي تلك المواجهة بين الكتيبة الثامنة البريطانية والكتيبة 180 الألمانية قتل أو جرح ثمانية عشر بريطانياً في مقابل إصابة ألمانية واحدة(15).

ويوضح المشهد من الجانب الألماني كيف وصل الرقم إلى هذه الحصيلة المروعة. فيتذكر جندي ألماني: «فوجئنا بهم يمشون، فنحن لم نَرَ مثل هذا من قبل». كان الضباط البريطانيون هدفاً يسهل تعرفه: لقد اتخذوا مواقع متقدّمة ضمن وحداتهم، حاملين عصي المشي، ومرتدين بزات عسكرية صمّمت على أحدث طرز، وتميّزت عن بقية الجنود. وكانت النيران الألمانية مدمرة مثلما هو متوقع، «عندما بدأنا بإطلاق النار كان علينا فقط أن نفرغ المدافع ونعاود حشوها. وكان الجنود البريطانيون يتساقطون بالمئات. ولم نكن مضطرين إلى التصويب بدقة، أطلقنا النار باتجاههم فحسب»(16).

وروى جندي بريطاني القصة نفسها من الميدان من أمام تلك المدافع. وقد مر هذا الجندي العريف التابع لفرقة «نورثمبرلاند فيوزليرز» السادسة والعشرين، بتجربة قصيرة المدى ولكنها مروعة بمجرد أن خرج من الخندق: «كنت أرى، بعيداً عن يميني أو يساري، طوابير طويلة من الجنود... ولكن وبمرور الوقت وعندما تقدمت لمسافة عشرة ياردات ونظرت حولي وجدت أن عدداً قليلاً من الجنود بقي حولي، وعندما تقدمت لمسافة عشرين ياردة أخرى وجدت نفسي بمفردي». وقبل أن يتقدم مسافة أكبر، سبقته رصاصة أطاحته أرضاً هو الآخر(17).

كما واجهت القوات الأمريكية المتقدمة صوب «غابات آرجون» في خريف 1918 الرعب نفسه المتمثل في نيران المدافع الرشاشة الضخمة. فقد كان الأمريكيون يُقتلون بمدافع رشاشة موّهت بعناية وكانت تطلق النار كلما اقترب الجنود الأمريكيون منها. وبما أن رماة المدافع الألمان كانوا يطلقون النار على مستوى منخفض فقد أصابوا الجنود في أقدامهم، ثم أجهزوا عليهم لدى سقوطهم أو رقادهم على الأرض المكشوفة. وكان تقدم القوات الأمريكية يتواصل فقط عندما تتمكن من الوصول إلى طواقم

المدافع الرشاشة الألمان وإطلاق النار عليهم مباشرةً أو طعنهم بالحراب. وفي أعقاب المعركة، تناثرت الجثث الأمريكية على الأرض.

دفع الجنرال جون بيرشينغ، القائد العام للقوات المسلحة الأمريكية، قادة فرقته العسكرية إلى الأمام، فواجه الجنود على جبهة القتال صفاً فتاكاً من الرماة الألمان المسلحين بالمدافع الرشاشة القاتلة. ووصف جندي متطوع في فوج المشاة 305 هجوماً على سلسلة من التلال في منطقة «بوا دو لا نازا» والتي أسماها رفاقه «تلة المدفع الرشاش» أو «تلة الانتحار». لقد جوبِهَ تقدم وحدته بمقاومة ألمانية شديدة على الفور. «سقطنا في الحال تحت التهديد المباشر لنيران المدافع الرشاشة؛ ولكن الأسوأ من ذلك، أن الهواء بدا وكأنه مليء بالرصاص إلى درجة أن الجندي لا يمكن أن يتحرك من دون أن يُصاب بالرصاص. والجندي الذي يقف منتصباً سيمزق من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه» وقد ازدادت حدّة هذه التجربة المروّعة بسبب الطبيعة الخفية للعدو، وفي الحال، تضاءلت السرية الأمريكية من سرية كبيرة إلى مجموعة من الجنود في حجم فرقة»(18).

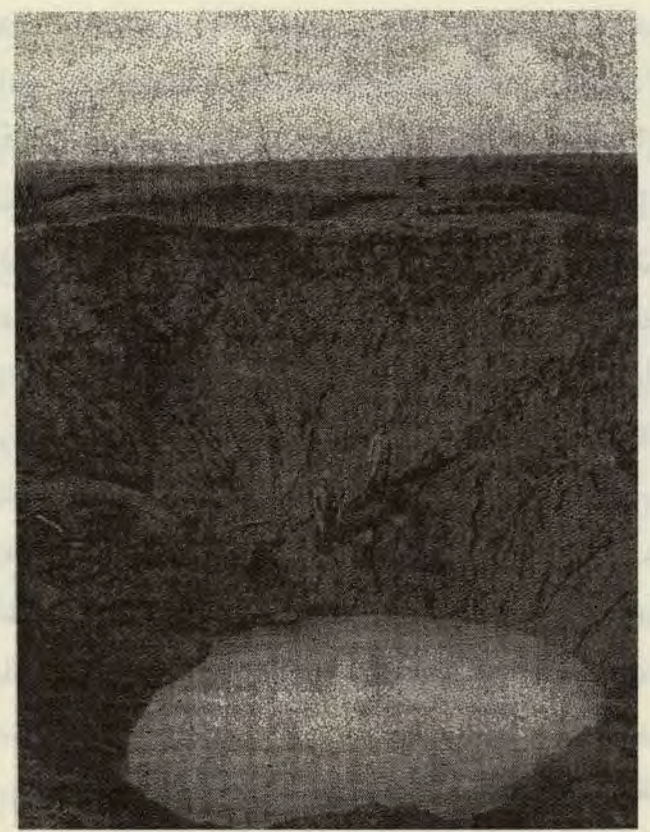
وحتى العدو المتقهقر كانت لديه القدرة على إعاقة من يطارده باستخدام عدد قليل من أطقم المدافع الرشاشة، وشهدت فترات كثيرة من الحرب حالات لم تتمكن فيها القوات المنتصرة من استغلال تقهقر عدوّها. ففي مارس 1918، وجدت القوات الألمانية المتقدمة لمواجهة الفرقة الخامسة الممزقة التي قادها الجنرال هربرت غوف في منطقة «بيكاردي» أن الرشاشات البريطانية تقف عائقاً قوياً في طريق تقدمها. وتذكر الجندي سي هـ سومرست من سرية الرشاشات التاسعة تلك اللحظة قائلاً: «كان هناك مشاة ألمان شجعان، يتقدمون بكل هدوء وشجاعة نحو نيران رشاشاتنا الفتاكة... ولم يكن أمامنا إلا أن نُعجب بهم... وما إن نصرع موجة منهم، حتى تظهر لنا موجة أخرى». واستمر سومرست يقاتل في المؤخرة لمدة عشرة أيام قبل أن يُصاب ويُخلى من ساحة القتال(19).

المدفعية الثقيلة

تجاوز نطاق نيران المدفعية وكثافتها خلال الحرب العالمية الأولى كل ما خبره المقاتلون قبلاً. فقد أنتجت مصانع الدول المتحاربة مدافع ذات أعيرة أكبر مما سبق. وكان لدى الجيش الألماني وفرة من الأسلحة الثقيلة والذخيرة منذ بداية الحرب. أما بريطانيا وفرنسا فوجدتا نفسيهما في موقف هشّ تمثل في «أزمة القذائف» في مطلع العام 1915. ففي معركة «إيبر» الثانية في أبريل 1915، واجه رجال المدفعية البريطانية قيوداً شديدة بشأن عدد القذائف التي يُسمح لهم بإطلاقها في اليوم الواحد. ومع ذلك، وبحلول السنة الثانية، توافرت كميات هائلة من قذائف المدفعية للمتحاربين على جانبي خط القتال.

وبحلول العام 1916، غدت قطع المدفعية الثقيلة والمتوسطة، جنباً إلى جنب المدافع الرشاشة، الأسلحة المهيمنة على ساحات القتال في الجبهة الغربية. وكان يمكن سماع دويّ نيران المدفعية الضخم الذي يسبق أي هجوم كبير من مسافات بعيدة مثل مدينة لندن. ففي معركة «السوم»، لم تمهد نيران المدفعية ساحة المعركة للهجوم البريطاني فحسب، بل رافقت وقائع القتال نفسه. وفي معركة «فردان»، دار معظم القتال بين وحدات المدفعية المتبارزة في حين تحرّكت قوات المشاة تحت عاصفة من النيران. وفي البدايات الأولى للحرب، وعلى الرغم من المذابح التي أوقعتها المدافع الرشاشة، إلا أن معظم ضحايا ساحة القتال جاء نتيجة لنيران قذائف المدفعية. ومثل هذه الخسائر صدمت حتى المخضرمين من المحاربين. وعبر عن ذلك المؤرخ أليستر هورن بقوله: «حديد القذائف الخام في الحرب العالمية الأولى... قُطع إلى أجزاء كبيرة وخشنة لدرجة أنه في بعض الأحيان كان يصعُب على رجلين حمله»، و«لك أن تتخيل تأثير هذه الشظايا حين تخترق الدرع البشري الطري»(20).

ويمكن لنيران المدفعية أن تخدم أغراضاً متعددة في أي هجوم كبير سواء بالنسبة إلى القوات المهاجمة أو المدافعة. فقد كان المدفع بعيد المدى يقصف مستودعات المؤن ومراكز الطرق خلف خطوط العدو. أما الأسلحة قصيرة المدى فكانت تقصف الطرق المؤدية إلى الخنادق؛ وبالتالي كانت قذائفها تقصف التعزيزات التي تتحرك لكي تصل



حفرة ناتجة عن قذيفة على الجانب الفرنسي من الجبهة الغربية. بموافقة محفوظات معهد هوفر

إلى مناطق القتال النشطة.

بيد أن المدفعية يمكن أن تقدم خدمات مختلفة أخرى لكلا الجانبين. فقد استخدمت القوات المهاجمة المدافع في قصف تحصينات خنادق العدو، وإرباك القوات المقابلة وتقطيع أسلاكهم الدفاعية الشائكة. وكثيراً ما قُرِرَ لمثل هذا القصف بالاستمرار لفترات زمنية يمكن التنبؤ بها، وعرف ذلك باسم «الهجوم المتدحرج». وسمح هذا على الأقل من الناحية النظرية، للقوات بالتقدم خلف ساتر ثابت من القصف المدفعي. أما على الجانب الدفاعي، فكان هناك إجراء مشابه تمثل في قصف المنطقة المحايدة من أجل تدمير العدو المتقدم قبل أن يتمكن من العبور.

هذا وقد جمع القتال على «السوم» بين مناوشات المشاة المكثفة ونيران بطاريات المدفعية القاتلة. وتذكر الرقيب غوتفريد كريبم من فرقة الحرس الثالثة الألمانية عدة أيام في الأسبوع الثاني من المعركة الضخمة. فعندما حاولت وحدته الانتقال إلى موضع دفاعي في منطقة «هاي وود»[1] وقعت تحت وابل من القصف المدفعي «المسعور جداً». فقد قُصف خندقه مراراً لدرجة أن مجموعة من رفاقه دفنوا أحياء في حين تشظى بعضهم الآخر في الهواء. وفي حادثة أخرى، ضربت قذائف من العيار الثقيل جميع أرجاء القطاع الذي خدم فيه على الجبهة: تطايرت سخانات الماء عن الأرض لمئات الأقدام... وكانت الأرض تهتز وترتفع مع كل انفجار». وعند سماعه لقذيفة تتجه مباشرة نحوه، غطى رأسه، ثم نظر إلى أعلى فوجد قذيفة لم تنفجر هبطت على مسافة تبعد عنه أقل من ياردتين. ووصف ذلك القصف بكامله قائلاً: «كانت الساعات العشر هي أكثر الساعات رعباً في حياتي»(21).

وتُعد معركة «فردان» التي دامت من فبراير 1916 وحتى نهاية العام، المعركة الأطول في التاريخ، كما تميزت بكونها أعظم مبارزة بالمدفعية في الحرب برمتها. فقد أوكل الجنرال إريك فون فالكنهاين لجنوده وضباطه مثل روبرخت ولي عهد بافاريا، قائد الجيش السادس، بمهمة مهاجمة فردان. ونظراً لكونها واقعة ضمن جزء بارز من خطوط الدفاع الفرنسية، فقد أمكن مهاجمتها من عدة جوانب. وفي الوقت نفسه، كان الرأي العام الفرنسي ينظر إليها على أنها واحدة من القلاع التاريخية على طول الحدود، وأنه حصن لا يمكن السماح له بالسقوط في أيدي العدو. وفي الواقع تصور فالكينهان أنه قادر على تحطيم الجيش الفرنسي من خلال إجبار الضباط الفرنسيين على تشجيع قواتهم لخوض معركة دموية للسيطرة على فردان.

ونظراً لأن الألمان والفرنسيين ركزا قواتهم بكثافة للقتال في الطرق الضيقة للمدن، فإن مدفعية العدو كان أمامها عدد وافر من الأهداف العاجزة عن تحقيقها. ودأبت الوحدات العسكرية على احتلال الخنادق ومغادرتها مراراً وتكراراً من دون أن

(1) غابة صغيرة تقع في منطقة السوم شمال فرنسا. وكانت مسرحاً لقتال عنيف استمر لمد شهرين من 14 يوليو وحتى 15 سبتمبر 1916.



أمريكيون يزورون قرية فرنسية مدمرة. بموافقة محفوظات معهد هوفر

تواجه عدواً واضحاً، وفي هذه الأثناء أهلك القصف المدفعي المتبادل معظم الوحدات العسكرية الواحدة تلو الأخرى. ففي البداية كانت السيادة للمدفعية الألمانية. ولكن وبمجرد أن جاءت قوة المدفعية الفرنسية لتباري نظيرتها الألمانية، وصلت المعاناة على جانبي خط القتال إلى معدل مرعب. وفي يونيو وصف جندي مشاة ألماني هذه المعاناة بقوة وحشية: «كان عذاب الاضطرار للرقود بلا حول ولا قوة وسط القصف المدفعي شيئاً لا يماثله شيءٌ آخر على الأرض»(22).

وفي الشهر نفسه أُرسل ضابط مشاة فرنسي كان قد وصل حديثاً يدعى هنري ديسانيو إلى الجبهة الأمامية لقيادة سرية تحاول السيطرة على خط الخنادق. ولكن سرعان ما وجدت السرية نفسها في خندق كان قد تعرض للقصف مراراً وما زال يحتوي على أشلاء الجنود السابقين، «أرجل وأذرع بارزة من الأرض». وكانت «معركة الإبادة» هذه بالنسبة لديسانيو «رجلاً ضد المدفع». إذ استمر القصف لمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة. ولم يكن في مقدور الرجال التبرز إلا باستخدام صفيحة معدنية أو مجرفة يجرفون بها فضلاتهم ويلقون بها فوق الحفر التي سببتها القذائف



ضحايا المعركة. محفوظات مجموعة هلتون

والتي وجدوا فيها شيئاً من الملاذ(23).

القتال في الطين والمطر

زاد الطين والمطر من عذابات الجنود في الخنادق خلال معظم فترات الحرب. وكان الطقس في شمال غرب أوروبا كفيلاً بأن يعرض الجنود الذين يعيشون في الخلاء لعوامل الطقس القاسية معظم فترات السنة. فمجرد ملامسة الأرض في مثل تلك الظروف كان ينهك الجنود. وفي بعض المعارك مثل معركة «إيبر الثالثة» التي وقعت في أواخر صيف وأوائل خريف عام 1917، كان يتوقع الجنود خوض معارك كبيرة في حين تعوّق حركتهم وأحياناً تشلّها مثل هذه العوامل.

وبعد بدء الهجوم البريطاني بفترة قصيرة في أواخر عام 1917، حولت أمطار يوليو ذات القوة ومدة الهطول النادرين أرض المعركة إلى مستنقع. بل عادت الأمطار بكثافة أكبر في أكتوبر ونوفمبر. وبات خط دفاع «إيبر» بكامله عبارة عن مستنقع يقع تحت مستوى سطح البحر ولكنه جف على مدار القرون وتحول إلى أراض زراعية خصبة. هذا وقد دمر القصف المدفعي المتبادل بين الجانبين أنظمة الصرف الصحي المصانة

بعناية. وحاولت القوات البريطانية الانقضاض على العدو فوق حقول من الطين. ولكن عجزت القوات التي تحركت لدعم الهجوم وكذلك أرتال التجهيزات التي تحمل الغذاء والذخيرة عن مواصلة التقدم بشكل يائس. كما غرق الجنود التعسون الذين تعرضوا للإصابات في مثل هذه الظروف، وأحياناً غرقوا في الطين. وكذلك الحال بالنسبة إلى بعض الجنود الذين لم يصابوا لكنهم كانوا منهكين، فغرقوا في برك الماء.

وجدت القوات البريطانية المتقدمة ببطء نفسها في مواجهة الألمان المتحصنين داخل الخنادق المدعمة بالتحصينات الخرسانية حتى باتت أشبه بقلاع مصغّرة. وقد حمت هذه القواعد الخرسانية التي وُضعت بعناية واحتوت على عدة مدافع رشاشة، قاطنيها من المطر ومنحتهم قاعدة يمكنهم من خلالها قتل المهاجمين. ووصف أحد الضباط البريطانيين إحدى هذه الهجمات، التي دُعمت خلالها القوات لفترة من الوقت بالقصف المدفعي، «ولكن لم تكن هناك فرصة لعبور قوات المشاة، وشاهدتهم يحاولون تدريجياً شق طريقهم قُدماً، ويكافحون مثل ألسنة اللهب خلال هذا المستنقع المخيف للوصول إلى الألمان». إلا أن مثل هذا الجهد لم يفلح في تلك الظروف، لأنهم «كانوا غارقين في الطين حتى ركبهم»، وحينما يصلون إلى منتصف الطريق نحو خطوط العدو، «كان من شبه المستحيل بالنسبة إليهم التحرك إلى الأمام أو الخلف»، فحصدت الرشاشات الألمانية جنود المشاة المحاصرين بسهولة(24).

وفي بعض الأحيان غرق الجنود البريطانيون المتعثرون في الطين حتى أكتافهم. وتلك كانت تجربة أحد جنود الرماة المدعو جي أي ينتربورن، والذي كان محظوظاً بما فيه الكفاية، وعثر عليه اثنان من رفاقه من موجة المهاجمين الثانية، ونجحا في إخراجه من الطين، ولكن ينتربورن نفسه صادف جندياً آخر ظلّ عالقاً في الطين لمدة خمسة أيام قبل أن يتم إنقاذه(25).

وفي بعض الأحيان كانت النجدة أمراً مستحيلاً. فقد دَوّن الرائد سي إ. بيل من «كتيبة وارويكشاير الملكية» كيف عثرت القوات البريطانية على جندي بريطاني عالق في طبقة سميكة من الطين لدرجة أن أربعة من الجنود لم يستطيعوا إخراجه. ولأنهم

كانوا مجبرين على المضي قُدماً، عادوا بعد يومين. آنذاك، وجدوا الجندي قد غرق من ركبتيه وحتى أعلى عنقه «وكان يهذي بجنون»(26). وسجل نقيب في «فرقة البنادق» كيف وقف ينظر بعجز بينما يغرق أحد رفاقه تدريجياً في الطين نحو حتفه. وذكر الرقيب: «ظل يستنجد بنا لإطلاق النار عليه، ولكن لم يجرؤ أحد منا على فعل ذلك... وبقينا معه، نراقبه وهو يغرق في الطين»(27).

وقد تمثّل الجهد الأصعب من الهجوم في الوحل في محاولة حمل جندي مصاب إلى مكان أكثر أمناً. فقد عانى حاملو النقالات من صعوبة الحركة في هذه البيئة الشاقة. وبدلاً من قيام رجلين بحمل نقالة واحدة، كان يتحمل هذا العبء ستة رجال. وكان السير لبضع مئات من الياردات في هذه الظروف يستغرق بضع ساعات.

عمليات الأنفاق والألغام

في 1914، تراجع القادة العسكريون الألمان كلما أمكن إلى الأراضي المرتفعة. وبالتالي، أصبح لقواتهم ميزة الإشراف على خطوط أعدائهم. ولكن فوائد مثل هذه الاستحكامات صاحبها خطر مميت. فقد واجه الجنود الألمان المتحصنون في قطاعات مرتفعة من الجهة الغربية وبشكل مخيف إمكانية قيام العدو بالحفر ونصب الألغام مباشرة تحت مواقعهم. وعندما كانت هذه التجويفات تملأ بالمتفجرات ويتم تفجيرها، فإنها كانت تقتل أولئك الجنود المتمترسين فوقها وتشوههم وتصيبهم بالذهول. ومثل هذه الانفجارات الضخمة، كتلك التي فجرتها القوات البريطانية في معركة «مسين»[1] جنوب «إيبر» في 1917، وقعت في بداية الهجمات النشطة فوق الأرض.

ولكن لم يكن بمقدور أي جندي من جنود الحلفاء الذين حفروا تحت المواقع الألمانية التنفس بسهولة، وذلك لأن العدو اتخذ إجراءات مضادة قاتلة. فقد حفر الألمان أنفاق ألغام خاصة بهم لاعتراض الأنفاق البريطانية، ولم يكن أحياناً يفصل بين تلك الأنفاق

(1) معركة مسين في الجبهة الغربية بدأت في السابع من يوليو 1917عندما قام الجيش الثاني البريطاني تحت قيادة الجنرال هربرت بلومر بشن هجوم على سلسلة تلال مسين في فلاندرز الغربية ببلجيكا وتم في هذه المعركة تفجير 19 لغماً قبل بداية الهجوم وهو التكتيك الجديد الذي عطل الدفاعات الألمانية وسمح للقوات البريطانية بالتقدم وتحقيق أهدافها بسرعة.



ضباط أمريكيون مع دباباتهم. بموافقة محفوظات معهد هوفر

المتحاربة سوى بضعة أقدام. وكثيراً ما اعتمد نجاح عملية الحفر وسلامة زارعي الألغام على مسألة التوقيت: أي طرف هو الذي استطاع زرع متفجراته وتفجيرها أولاً. ومع ذلك، ظلّ البريطانيون قادرين على إدارة عمليات الألغام بنجاعة عالية. ففي معركة «مسين»، مَثل الجنود البريطانيون الذين كانوا عمال مناجم في الحياة المدنية أحد موارد حافري الأنفاق. وفي بعض الأحيان عمل عمال المناجم المدنيون الذين يرتدون الزي العسكري، ولكن غير المدربين للقيام بأي مهمة عسكرية، جنباً إلى جنب مع الجنود تحت الأرض.

وفي بداية 1916، حفر المهندسون البريطانيون واحداً وعشرين نفقاً تحضيراً لهجوم على مدينة «مسين ريدج». وعندما وقع الهجوم في السابع من يونيو 1917، شهد المراقبون مشهداً مثيراً للعجب، تبعه نجاح فذ غير دموي لقوات الحلفاء على الجبهة الغربية. ووصف المراقبون كيف «بدت الأرض وكأنها انشقت وارتفعت إلى السماء». وغمر اللهب التلال بأكملها، «وبدا وكأن العالم بأسره يرتفع في الهواء». فجرّ الجنود

الألمان المذهولون المرعوبون أنفسهم إلى خارج خنادقهم وهبطوا التل مترنحين لكي يستسلموا لقوات المشاة البريطانية المتقدمة(28).

هجوم الدبابات

بالنسبة إلى القوات الألمانية، جاءت السنوات الأخيرة للحرب بعدو جديد مخيف إلى ساحة القتال؛ فقد راقبوا برعب وفزع العربات المدرعة التي عرفت باسمها الرمزي «دبابة» وهي تقعقع وتهز الأرض بعنف في ساحة المعركة. وعلى الرغم من أن عدداً قليلاً من الدبابات الألمانية قد شارك فعلاً في هجوم الربيع في عام 1918 إلا أن ألمانيا لم تستطع زيادة مواردها بما يسمح لجيشها الاستثمار بشكل كبير في مثل هذه الأداة. وقد قعقعت الدبابات البريطانية والفرنسية والأمريكية عبر مدينة «فلاندرز» وشمال شرق فرنسا لمواجهة عدو لم يكن قادراً على مُجاراتها، ولكن كان مضطراً لإيقاف هذا التهديد الجديد.

كانت دبابات الحرب العالمية الأولى ينقصها السرعة والقوة الضاربة مثل تلك التي ظهرت بعد عقدين من الزمن. ولم يكن لدى قادة الألوية في هذه الحقبة الباكرة من العصر رؤية واضحة حول كيفية توظيفها. ومع ذلك، فإن سلاحاً لم تستطع الرشاشات ولا الخنادق ولا الأسلاك الشائكة إيقافه ترك تأثيراً عميقاً في نفسية العدو. فقد ذكر أحد الجنود الألمان الذين واجهوا هذه الدبابات في «كامبري» في نوفمبر 1917 بكل صراحة ووضوح قائلاً: «كان الواحد منا يحدق ويحدق وكأنما شلت أطرافه». فقد بدت هذه الدبابات بطيئة إلا أنها كانت أشبه بوحوش يستحيل وقفها. «وصرخ أحد الجنود من داخل الخنادق: الشيطان قادم، فانتشرت الكلمة على طول الجبهة بسرعة النار في الهشيم»(29).

أما في داخل الوحش المدرّع نفسه، فقد عانت الأطقم من أنواع مختلفة من الآلام. فالجنود الأربعة الذين كانوا يشغلون الدبابة والأربعة الآخرون الذين يوجهون أسلحتها بالكاد استطاعوا تدبر حيّز في هيكلها الداخلي الضيق. كما أن ضجيج المحرك المزعج جعل الحديث مستحيلاً؛ فكان قائد الدبابة ينقل أوامره لطاقمه بإشارات اليد. كما

تسبّب الحرّ الشديد والرائحة التي كانت تفوح من محركها بالمزيد من المشقة والإزعاج. ولم يكن في مقدور أي عضو من طاقم الدبابة أن ينسى أنه يبعد بوصات قليلة فحسب عن أربعين جالون من وقود المحرك شديد الاشتعال ومخزن مليء بقذائف المدفعية شديدة الانفجار.

وقد ظهر الإجهاد من الحرب المدرعة بشكل حيّ في دراسة رسمية صادرة عن الجيش البريطاني بعد وقت قصير من الهجوم الناجح على الخطوط الألمانية في «أميان» في 8 أغسطس 1918. فـ «إنهاك الطواقم» لم يكن مجرد تعب بل اعتلالاً جسدياً ونفسياً. «فقد قِيست نبضات أحد أفراد الطواقم بمجرد خروجه من الدبابة؛ فَوجِد أن متوسط الضربات وصل إلى مائة وثلاثين نبضة في الدقيقة أي أسرع من المعدل الطبيعي بمقدار الضعف»، وكانت الأدلة على الضغط النفسي الواقع على أطقم الدبابة واضحة: «فقدَ جنديان من طاقم واحد بشكل مؤقت قدراتهما العقلية وكان لزاماً كبحهما بالقوة، كما أُصيب أحد قادة الدبابات بالهذيان». ولم يكن الأمر متوقفاً على الأطقم التي تأثرت بذلك فقط. «ففي بعض الحالات، فقدَ جنود المشاة الذين كانوا يُنقلون في الدبابات الوعي بعد مرور ثلاثة أرباع الساعة من الانطلاق»(30).

وعلى الرغم من المظهر المخيف جداً الذي أظهرته الدبابة للجيش الألماني إلا أنها كانت غير موثوق بها وكان من الصعب ممارسة المناورات بها. فعلى الرغم من أن هذا السلاح رفع الآمال في تحطيم أسلاك العدو الشائكة بأقل كلفة بشرية، إلا أنه كثيراً ما كانت هذه الدبابات تتعطل قبل وصول قوات المشاة إلى خط المغادرة الخاص بهم. ففي معركة «باشيندال»، رافقت الدبابات هجوم المشاة الأول، ولكنها سرعان ما غاصت في الوحل. وحتى في هجوم الحلفاء في صيف عام 1918، عندما استُخدمت الدبابات بشكل كبير، استمرت بكونها غير موثوق بها من الناحية الميكانيكية. ولأنها كانت الهدف الأكثر وضوحاً في ساحة المعركة، فإنها أيضاً تلقت النصيب الأكبر من نيران العدو الثقيلة، والتي كانت شديدة الفعالية.

الهجوم بالغاز السام

كان الجنود كذلك عرضة للإصابة أو الموت بالغاز. فعلى الرغم من أن الهجمات بالغاز استخدمت لإنهاك الجنود بصورة يومية، فإنها غدت دارجة بشكل كبير كجزء من هجوم رئيسي. وكان الغاز ربما يصل إلى الجندي بفعل الرياح الثابتة أو ربما من خلال قذيفة مدفعية. وقد تعرّض الجنود الذين كانوا يشغلون الخنادق للإعاقة المؤقتة بواسطة الغاز المسيل للدموع. كما قتلت غازات أخرى مثل الكلورين والفوسجين ضحاياها بتعطيل أنسجة الجهاز التنفسي. أما غاز الخردل فسبب الحروق وتقرحات الجلد كما سبب أيضاً العمى المؤقت، وإذا ما استنشق فإنه يكون قاتلاً. ومن السمات المرعبة لغاز الخردل أنه يبقى فوق سطح الأرض لفترات طويلة من الزمن. أما غاز الفوسجين فله تأثيرات طويلة المدى: إذ يمكن أن يسبب الموت المفاجئ لضحية مطمئنة بعد يومين من الاحتكاك المباشر به.

تدرب الجنود على بعض الإجراءات الاحترازية منذ الاستخدام واسع النطاق الأول للغاز من قبل الألمان في «إيبر» 1918. أدت الطرق البدائية مثل وضع حشية نقعت في البول على وجه الجندي إلى فتح المجال أمام استخدام أقنعة وأغطية تحتوي على أجهزة التنفس الصناعي. فقد منعت هذه الأقنعة والأغطية الغاز من الوصول إلى الجهاز التنفسي، ولكنها لم تكن قادرة على منع غاز الخردل من إصابة الجلد بالتقرحات. إلا أن هذه الأقنعة سببت صعوبات لمستخدميها. فأحزمتها سببت الحكة والحروق والأنبوب المطاطي الذي يوضع في فم الجندي لم يسبب حكاكاً في الفم فحسب، بل جعل لعابه يسيل مثل الرضيع. وأي حركة من قبيل الركض كانت تُجبر مرتدي هذا القناع على اللهث طلباً للأكسجين.

تدمير دفاعات العدو

في لحظات نادرة شعر الجنود بالإفلات من حدود الحرب الجامدة. ويعدّ التحرّك بسرعة في ساحة حرب مفتوحة من صور الحرب التي تذكرها الجنود وأملوا بعيشها مرة أخرى. ولكن في النهاية، تلاشت معظم هذه الآمال.

بيد أنه بالنسبة إلى الجنود الألمان الذين خاضوا معركة «سوم» في 1918، فإن الانطباع كان قوياً. فقد بدأ الهجوم في صباح 21 مارس وسمح توقف القتال على الجبهة الروسية للألمان بتركيز جهودهم في فرنسا وبلجيكا. وفي مناطق على الجبهة الغربية، فاق الألمان البريطانيين بنسبة الضعف. وقد صدم الاستخدام المحنّك لقذائف الغاز والقصف المدفعي قصير المدى والمركز الجيش الخامس االبريطاني بقيادة الجنرال هربرت غوف. ومزّق الهجوم المتواصل مواقع القيادة البريطانية، كما عانت شبكة الإمدادات والاتصالات التي تدعم الخطوط البريطانية الأمامية من أضرار شديدة. وتمكنت الفرق الألمانية المدربة تدريباً خاصاً عبور الأرض المحايدة بمساعدة الضباب الكثيف. وكانت لديهم أوامر باجتياز نقاط القوة البريطانية والضرب بعمق في مؤخرة العدو كلما أمكن ذلك. ثم تبع ذلك دخول قوات قليلة متنقلة لتطهير الدفاعات البريطانية الباقية.

ونتيجة لذلك الهجوم الألماني الضاري والمفاجئ فقدت القوات البريطانية توازنها وانهار العديد من وحدات الجنرال غوف، وألقى واحد وعشرون ألف جندي سلاحهم ليصبحوا أسرى في يد القوات الألمانية. أما باقي قواته فتراجعت باتجاه الغرب، واندفعت القوات الألمانية قدماً بطريقة لم يسبق لها مثيل على الجبهة الغربية منذ عام 1914. ففي يوم واحد تقدمت تلك القوات مسافة أربعة أميال ونصف وسيطرت على ما يقرب من مائة ميل مربع من الأراضي.

وقد عبر رقيب ألماني عن شعوره بالنشوة والحرية جراء تلك النجاحات التي تحققت في ذلك اليوم. «كانت الجبهة بكاملها في حركة دائبة، والكل يسير في اتجاهٍ واحد... لم نسمع أي طلق ناري... وظللنا نتساءل أين هم الإنجليز؟ ولكن لم يعرف أحد. اعتقدنا أننا أخيراً حققنا تقدماً على الجبهة الإنجليزية وأن اللحظة التي كان الجميع ينتظرها على مدار الحرب قد حانت. كان في وسعنا إنهاء المسألة. لقد كانت لحظة مثيرة»(31).

واستمر نجاح الألمان لأكثر من أسبوع مع تقدّم قواتهم أربعين ميلاً غرباً إلى مشارف مدينة «أميان». وقد هدد سقوط تلك المدينة الموقف البريطاني برمته على الجبهة الغربية.

ولكن في نهاية المطاف، استطاعت قوات الحلفاء استعادة خطوطها، وتعثر الزحف الألماني، وأصبح المسرح مهيأً للهجوم الأنجلو-فرنسي والأمريكي النهائي في صيف وخريف 1918.

الخوف المذل

واجه المحاربون في الحرب العالمية الأولى ضغوطاً لم تهيئهم لها أي تجربة في الحياة المدنية. وفي مثل هذه الظروف، اختفت القيود العادية التي يضعها المجتمع المحلي على أفراده البالغين.

فقبل الهجوم الألماني على الخطوط البريطانية في مارس 1918، قصفت المدفعية الألمانية العدو بما يقرب من ستة آلاف وخمسمائة مدفع. وكان ذلك أكبر تركيز لقطع مدفعية في جبهة واحدة من أي وقت مضى. إذ دَكت أكثر من مليون قذيفة الخطوط البريطانية خلال قصف دام لأكثر من خمس ساعات. فاحتشد الرجال في حالة من الخوف تحت وطأة ذلك الهجوم الضاري. وكما يتذكر جندي بريطاني: «أول المتأثرين كانوا الشبان الذين وصلوا تواً، فكان الواحد منهم يتجه نحو رفيق يكبره سناً – وأقدم منه في الخدمة– وربما يلقي نفسه في أحضانه وينخرط في البكاء»(32).

وفي معركة «مونديديه Montdidier»، فقد جندي أمريكي شاب من الفرقة الأولى صُدم جراء قذيفة قتلت اثنين من رفاقه كانوا على مقربة منه، السيطرة على نفسه تحت وابل القصف المدفعي. ووصف ملازمه كيف أن هذا الجندي: «بدأ يرتجف بلا توقف» ثم «انبطح على بطنه في الطين والماء داخل الخندق وانخرط في بكاء شديد»(33).

كما صادفت القوات الأمريكية قليلة الخبرة أثناء تحركها في غابة «آرجون» في خريف 1918 خندقاً جُمعت فيه زهاء مائتي جثة. ونتيجة لتيبس أجساد الجنود القتلى، فقد التوت أطرافهم وتشوهت بطريقة فظيعة. فأبقى الجنود على القتلى في مكانهم وحرفوا مسارهم إلى الجانب الآخر من الطريق لكي ينأوا بأنفسهم عن رؤية ذلك المنظر البشع. وذكر جندي من الفرقة السادسة والعشرين في غابة آرجون كيف أنه فقد السيطرة على جسده: «انتاب معظمنا فزع شديد، لدرجة أن بعض الجنود أصيبوا

بالإسهال... وسرعان ما بدأنا نشم رائحة الغائط تفوح من بعضنا بعضاً. ولم يكن في تلك التجربة ما يُخجل لأنها حدثت لنا جميعاً، وسيان إذا كنت ضابطاً أو جندياً، لكننا تردّدنا جميعاً في الإتيان على ذكر الأمر»(34).

الحواشي

1. لين ماكدونالد، «يدعونها باشيندال: قصة المعركة الثالثة في إيبر والجنود الذين قاتلوا فيها» (لندن، مايكل جوزيف، 1978)، ص. 83–84.
2. ليونيل سوثبي، «الحرب العظمى: يوميات ورسائل من الجبهة الغربية» حررها وكتب مقدمتها دونالد ريختر (أثينا: مطبعة جامعة ولاية أوهايو، 1997)، ص. 133.
3. ترجمة وتحرير، فيلب ويد، «رسائل الطلبة الألمان في الحرب» (نيويورك: داتون، 1929)، ص. 70.
4. مقتبس من روبرت فيريل، «وودرو ويلسون والحرب العالمية الأولى، 1917–1921» (نيويورك : هاربر ورو، 1985) ص. 81–82.
5. مقتبس من ويد، «رسائل الطلبة الألمان في الحرب»، ص. 195.
6. مقتبس من دينيس وينتر، «موت الرجال: جنود الحرب العظمى» (لندن: منشورات بنغوين، 1978)، ص. 172.
7. مقتبس من ويد، «رسائل الطلبة الألمان في الحرب»، ص. 242–243.
8. مقتبس من وينتر، «موت الرجال»، ص. 173.
9. مقتبس من جون إيليس، «عين في أعماق الجحيم: حرب الخنادق في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك: منشورات بانثوين، 1976)، ص. 97.
10. مقتبس من مارتن ميدل بروك، «معركة القيصر: 21 مارس 1918: اليوم الأول لهجوم الربيع» (لندن: ألين لين، 1978، ص. 144–145.
11. هنري ديسانيو، «يوميات جندي على الجبهة الفرنسية، 1914–1918»، المحرر. جان ديسانيو، ترجمة. غودفري جون آدامز (مورلي، يوركشاير، إنجلترا: إلمفيلد

برس، 1975)، ص. 30.

12. مقتبس من أليستير هورن، «ثمن المجد: فردان، 1916» (نيويورك: هاربر ورو، 1962)، ص. 25.

13. مقتبس من تريفور ويلسون، «وجوه الحرب المتعددة: بريطانيا والحرب العظمى، 1914—1918» (كيمبردج، إنجلترا: بوليتي برس، 1986)، ص. 261.

14. مقتبس من إيليس، «عين في أعماق الجحيم»، ص. 93.

15. مارتن ميدل بروك، اليوم الأول في السوم: 1 يوليو 1916» (نيويورك: نورتن، 1972)، ص. 245.

16. مقتبس من إيليس، «عين في أعماق الجحيم»، ص. 94.

17. مقتبس من جون كيغان، «وجه المعركة» (نيويورك: فايكينغ برس، 1976)، ص. 245.

18. مقتبس من فرانك فريدل، «هناك: قصة أول حملة أمريكية كبرى ما وراء البحار»، ومراجعة و تحرير (فيلادلفيا: مطبعة جامعة تيمبل، 1990)، ص. 170—171.

19. مقتبس من ميل بروك، «معركة القيصر»، ص. 349.

20. هورن، «فردان»، ص. 65.

21. مقتبس من لين ماكدونالد، «1914—1918: أصوات وصور من الحرب العظمى» (لندن: مايكل جوزيف، 1988)، ص. 161—162.

22. مقتبس من هورن، «فردان»، ص. 178.

23. ديسانيو، «يوميات جندي على الجبهة الفرنسية»، ص. 22—26.

24. مقتبس من ماكدونالد، «باشيندال، ص. 143.

25. المصدر نفسه، 138—139.

26. مقتبس من ويلسون، «وجوه متعددة»، ص. 473.

27. مقتبس من ماكدونالد، «باشيندال»، ص. 200.

28. المصدر نفسه، ص. 41—45.

29. مقتبس من مالكولم براون، «تومي يذهب الى الحرب» (لندن: دنت فاليس،

1978)، ص. 260.

30. مقتبس من جون تيران، «لكسب الحرب: 1918، عام من النصر» (لندن: سيدويك وجاكسون، 1978)، ص. 116–117.

31. مقتبس من ميدل بروك، «معركة القيصر»،ص. 221–222.

32. المصدر نفسه، ص. 161.

33. مقتبس من جيمس هالاس، «حرب الجندي الأمريكي: القوات المسلحة الأمريكية في الحرب العالمية الأولى» (بولدر، كولورادو: منشورات لين راينر، 2000)، ص. 79.

34. المصدر نفسه، ص. 274–275.

الفصل الخامس

الحرب البحرية والجوية

خدم معظم الجنود الذين حاربوا على الجبهة الغربية في القوات البرية. وحتى القوى البحرية التقليدية مثل بريطانيا العظمى كانت ترى أن حجم قواتها البرية يعيق تنامي الأعداد في فروع القوات المسلحة الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، خدمت أعداد كبيرة في الأساطيل التي أُنشئت قبل الحرب والتي تم توسيعها في تلك الآونة لتلبي المتطلبات الجديدة، كما التحق المزيد بالوحدات الجوية حديثة التكوّن. وفي بريطانيا، وفي حين تكوّن الجيش من ثلاثة ملايين ونصف مليون جندي في نهاية الحرب، فقد خدم أربعمائة وخمسة عشر ألفاً في الأسطول البحري في ذلك الوقت وزهاء ثلاثمائة ألف جندي في القوة الجوية(1).

وخاض الجنود في الأسطول البحري والقوة الجوية حرباً مختلفة عن تلك التي خاضها رفاقهم في الخنادق. فكان أمام الجندي البريطاني العادي فرصة من اثنتين، إما أن يُقتل أو يصاب خلال الخدمة الطويلة على الجبهة الغربية. وفي المقابل، قلما واجه البحارة في الأساطيل نيران الأعداء. وعلى الرغم من الازدحام على متن السفن البحرية، إلا أن معظم البحارة تمتعوا بترتيبات تتعلق بالأكل والنوم تفوق أكبر توقعات نظرائهم في الجيش. وكان جميع المنتسبين للوحدات الجوية يتوقعون النوم على أسرة في الليل وأن يُزودوا بوجبات منتظمة. كما قدمت الطواقم الأرضية الكبيرة الدعم

والإسناد لطياري السرب الجوي الذين واجهوا الخطر بصورة رئيسية لدى تعرّض مطاراتهم للقصف.

بيد أن القوات البحرية والجوية عانت صعوبات من نوع آخر. فقد وجد البحارة أنفسهم، ولاسيما في الأسطول البريطاني، في قواعد نائية وفي ظروف ملاحية قاسية لفترات طويلة. كما واجه جميع البحارة الذين خدموا على متن السفن في عرض البحر إمكانية الغرق بسفنهم. وفي مثل ذلك الموقف، كانت فرص النجاة حتى لجزء صغير من الطاقم تكاد تكون معدومة. وكانت الخدمة في الغواصات محفوفة بمخاطر تفوق ما يمكن أن يواجهه الجندي العادي. وواجه الطيارون نيران الأعداء كثيراً - وأحياناً مرات عدة في اليوم- ومن مسافات قريبة. وكانت فرص نجاتهم في حال تعرّض طائراتهم للإصابة، ضئيلة جداً.

البحرية السطحية

خدم معظم البحارة على متن السفن الحربية السطحية خلال الجزء الأول من الحرب. وخطط قادة البحرية فور بدء الحرب لمعركة محيطية كبرى بين الأسطول الإنجليزي الضخم وأسطول أعالي البحار الألماني. وسيهيمن الفائز في هذه المعركة، مثلما كان يعتقد، على الخطوط البحرية. بيد أن توقعات قادة معركة الأسطول العظيم قبل العام 1914 لم تتحقق. وشعر الأدميرالات الإنجليز بالقلق من أسلحة جديدة كالألغام والغواصات التي في وسعها أن تعيق حركة أساطيلهم في حال تحرّكت بعدوانية شديدة. ولم يكن الأدميرالات الألمان بمجموعاتهم الأصغر من السفن الحربية الرئيسة مثل البوارج والطرادات بأقلّ حذراً، إذ ترددوا في تحدي القوات البريطانية المتفوقة.

وناورت وحدات الأسطول البحري، بما فيها السفن الرئيسية الكبرى، وفي بعض الأحيان ناوشت في بحر الشمال. غير أن التجربة الأكثر شيوعاً بالنسبة إلى البحّار العادي كانت تتسم بالضجر والملل. وفي بعض الأحيان أقحم البحارة البريطانيون أنفسهم في شجارات في الشوارع مع المدنيين عندما كانوا يوبخونهم ساخرين بسبب عجزهم عن جرّ الألمان للقتال. وفي أبريل 1915 كتب ريتشارد ستمف، وهو بحار

ألماني خدم على متن بارجة حربية في أسطول أعالي البحار في يومياته قائلاً: «لم أعد أهتم إذا ما شرعنا في القتال أم لا... الواحد منا بإمكانه التعود على أي شيء لكن من الشاق جداً أن تبقى منتظراً طوال الوقت مدركاً أن قوتنا الهائلة تُهدر»(2).

وقد كسرت المواجهات البحرية العرضية هذا الإيقاع المضجر. بيد أن الشعور بالحذر من قبل قادة الأسطولين، جعل قيام أحد البوارج بإطلاق النار على أخرى مشهداً نادر الحدوث. بدلاً من ذلك، تقابلت مراراً سفن حربية ذات أحجام وقوى غير متكافئة في معارك مع سفن أصغر حجماً وقوتها المدفعية أقلّ بصورة مميتة. فقد وصف ضابط بريطاني مواجهة بين الأسطول الصغير الذي يعمل ضمنه وطراد ألماني في الشهر الثاني من الحرب. فقبل أن تقلب الطوربيدات البريطانية مسار الأحداث، واجه جنود من سفن الأسطول الملكي الأصغر وابلاً من إطلاق النار المميت. «حصرنا إطلاق النار الألماني في نطاق ضيق، وكانت صلياتها تصفر حول رؤوسنا بطريقة عظيمة». كما دمر القصف الألماني المركز طواقم الرشاشات البريطانية أشلاء وأطاح بالسريات في سفن عدة، وأصابت إحدى القذائف قمرة القبطان وانفجرت في مساكن الضباط كما واصلت تقدمها لتصيب محركات السفينة وتتسبب بتوقفها الكامل(3).

تعرض الجنود لإطلاق النار لساعات قليلة فقط على الأكثر. فكانت معركة «جوتلاند» في ربيع 1916 هي الالتحام الذي طال انتظاره بين الأساطيل العظيمة التي بنيت بشكل كبير خلال السنوات التي سبقت الحرب. حتى تلك اللحظة، لم يكن أيّ من البحارة قد واجه النوع الممتد من القصف الذي وجهه البريطانيون نحو الجنود الألمان في الأسابيع القليلة الأخيرة التي سبقت معركة «سوم». ولم يشهد معظم البحارة مثل تلك المعركة التي أقحموا فيها. وغالبا ما كانت السفن تقصف بعضها بعضاً من مسافات بعيدة. فكان بإمكان بعض الجنود على ظهر السفن– خصوصا أولئك الذين عملوا كمراقبين في أعلى السواري – رؤية العدو بوضوح. لكن أدى نصف الطاقم تقريباً على متن السفن الكبيرة مهمات متطورة تقنياً؛ ومعظم البقية تولوا العناية بالمحركات. فلم يكن لدى القليل من المجموعة الأولى وجميع من في المجموعة الثانية أية معرفة بما يحدث في ميدان المعركة إلا إذا أصاب سفينتهم ضرر

فادح جراء إصابتها بالقذائف أو الطوربيدات أو الألغام. وقد تذكر البحارة الذين عملوا في غرف المحركات البريطانية في معركة «جوتلاند» أداءهم الآلي لمهماتهم التي تدربوا عليها جيداً، كما لو كانوا في تدريب عسكري أو في مناورات عادية.

وإذا ما غرقت سفينة، خصوصاً في الليل أو في خضم معركة حامية الوطيس، فإن معظم الطاقم كان يُحكم عليه بالهلاك وكانت فرصة إنقاذه من قِبل سفينة شقيقة أو معادية ضئيلة. لقد كان الخطر عظيماً، فالسفينة التي لم تصب بأذى كانت لها مهمات أخرى لتقوم بها. وهكذا قضى البحارة في عرض البحر. فإما أن تمتصهم مراوح السفن العابرة أو يقتلوا بالقذائف المرتطمة بالمياه في الجوار، في حين اختنق آخرون حتى الموت جراء النفط المترسب في البحر، أو تجمدوا في المياه الباردة بشكل دائم أو ببساطة غرقوا. وربما يتلقى البحار المصاب رعاية طبية كافية، ولكنه، ليس كمثل جندي يتم إخلاؤه إلى المؤخرة، كان يبقى في دائرة الخطر ما دامت سفينته تتعرض للهجوم.

كان للموت والإصابة في معركة بحرية مظاهر مروعة غير عادية. فقد كان البحارة يُحجزون في مساحة صغيرة لذا فإن آثار القنبلة المنفجرة يمكن أن تكون مروعة. ترك ضابط ألماني كان تحت القصف في بحر الشمال في يناير 1915 سجلاً عن المذبحة قال فيه: «تحولت كل التجهيزات المفكوكة أو غير المربوطة بإحكام إلى أدوات متحركة للتدمير»، تدفق الدم في كل مكان، «في حين برزت الأبواب للخارج مثل أطباق الصفيح، وخلال كل هذا دارت أجساد الجنود كوريقات الأشجار الميتة في ليلة شتوية عاصفة لتُسحق حتى الموت في الجدران الحديدية وكان الجنود يُكنسون عن متن السفينة كما يُكنس الذباب عن مفرش المائدة»(4).

وتمثّل الخطر الأكبر الذي واجهه البحار في تلقي ضربة مباشرة من العدو تشعل مخازن الذخيرة في سفينته. فمثل هذه الكارثة من شأنها نسف السفينة وطاقمها خارج الماء. وقد غرقت في معركة «جوتلاند» في 1916 ثلاثة طرادات بريطانية بهذه الطريقة، وفي وقت متأخر من ظهيرة يوم 31 مايو، اخترقت قذيفتان ألمانيتان مخزن الذخيرة الأمامي ودمرت السفينة «(Indefatigable)» (أي «(التي لا تعرف الكلل)»، ولم ينج

أكثر من جنديين من الألف بحّار الذين يشكلون طاقمها. وبعد دقائق قليلة، انفجرت السفينة «كوين ماري» على مرحلتين عندما أشعلت صلية ألمانية مخزن الذخيرة الأمامي وضربت الثانية مخزن الذخيرة في مؤخرة السفينة. ونجا عشرون جندياً من طاقم السفينة المكون من ألف وثلاثمائة بحّار.

ووقع الحدث الثالث من الموت الجماعي المتواصل بعد ذلك بساعتين. تذكر ضابط مراقب من المدفعية عمل على سارية السفينة «Invincible» (أي «التي لا تُقهر») ذلك المشهد الرهيب عندما غرق طراد وعلى متنه ألف وستة وعشرون جندياً: «حينئذ رأيت أن سطح البرج على جانب الميمنة قد أصيب بقذيفة من العيار الثقيل وتناثر كقطعة من المعدن الخردة وعلى الفور دوّى انفجار ضخم ناجم عن انفجار مخازن الذخيرة مدمراً وقاصماً السفينة بالنصف»(5). ولفترة من الزمن وقفت هاتان القطعتان من السفينة بصورة قائمة رهيبة في قعر المحيط، وقد برزتا فوق الأمواج، قبل أن تغوصا في قعر المحيط. ولم ينج سوى ستة جنود كانوا قد سُحبوا بواسطة السفن البريطانية.

كانت البوارج أكبر السفن في عرض البحر، وكانت مدرّعة بصورة كافية لتحمّل حتى أشدّ أنواع القصف، غير أن الجنود في الأقسام المختلفة من السفينة كأبراج الإطلاق مثلاً، كانوا عرضة لنيران العدو. ففي معركة «جوتلاند» قصفت إحدى بطاريات مدفعية الميمنة في البارجة «مالايا» ثم تلا ذلك حريق حَوَّل أجساد جنود المدفعية إلى رماد. النتيجة، كما تذكرها أحد الضباط: «الرائحة المنبعثة من الأجساد المتفحمة، والتي بقيت في السفينة لعدة أسابيع، متسبّبة للجميع بشعور بالغثيان طوال الوقت»(6). واستطرد قائلاً: «عرّض الضرر الذي لحق بالطوابق السفلية غرفة عمال المحرك لمصير مروع، فقد شوى البخار المتسرّب أجساد العمال؛ في حين واصلت الآلات المدمَّرة الدوران مشوّهة أجساد أفراد الطاقم». أن تبقى محجوزاً تحت ظهر السفن في حين ينفذ الماء إلى الحجيرات السفلى يعني الموت غرقاً في خلاء معزول مظلم. وكان يسهل انتشار الأدخنة والغازات المؤذية، متخللة أجهزة التهوية الخاص بالسفينة.

كان الملاح على متن أي سفينة حربية يعلم أن طوربيداً تطلقه غواصة ما، أو لغماً

عائماً قد يحدث خرقاً في بدن السفينة لا يمكن إصلاحه. ومثل تلك الهجمات المفاجئة التي كانت تحدث مراراً كانت كافية لأن تجعل الأدميرالات يعيشون الكوابيس، وأن تخلق جواً من الخوف الدائم بين البحارة العاديين. في أواخر أكتوبر 1914، ارتطمت البارجة البريطانية «Audacious» (المقدامة) بلغم في المياه الإقليمية لأيرلندا الشمالية، وعلى الرغم من كل الجهود العاجلة التي قام بها الأسطول الملكي إلا أنه أخفق في إنقاذ السفينة من الغرق. ولكن لحسن حظ الطاقم قامت سفن أخرى في الجوار بعملية الإنقاذ. وبصورة فيها شيء من التباين، سقطت البارجة الألمانية «بوميرانيا»، في طريق عودتها من معركة «جوتلاند»، ضحية لغواصة بريطانية، فشطر صاروخ واحد السفينة إلى جزأين وغرقت بكامل طاقمها الذي يزيد عن ثمانمائة بحّار.

حرب الغواصات

بدأت القوات البحرية الرئيسية في دمج الغواصات ضمن أساطيلها في العقد الذي سبق اندلاع الحرب العالمية الأولى. فقبل العام 1914، لم يكن قادة البحرية متأكدين من مدى فاعلية السلاح الجديد وذلك لأن الغواصات لم تكن قد استعملت في القتال من قبل. واعتقدت الغالبية العظمى أن مثل هذه المراكب المعدة للاستخدام تحت الماء يمكن أن تخدم في أفضل حالاتها كقوارب استطلاع لدعم السفن الكبرى الرئيسية. ومع ذلك فقد بدأت الغواصات بمهاجمة سفن الملاحة التجارية منذ الأيام الأولى للحرب.

كانت الغواصة النموذجية خلال الحرب العالمية الأولى يبلغ طولها زهاء مائتي قدم وكانت تحمل من خمسة إلى عشرة طوربيدات، وطاقماً مكوناً من زهاء ثلاثين جندياً. وكانت تُدفع إلى السطح بواسطة محركي ديزل، يعيدان شحن المحركين الإلكترونيين اللذين يشغلان الغواصة تحت الماء. ولأن المحركات الإلكترونية تستطيع العمل لفترات قصيرة فحسب، لم يكن بمقدور الغواصات البقاء طويلاً تحت الماء. فكانت القوارب تجوب سطح الماء وغالباً ما تنفذ هجماتها هناك. وعندما تصعد تلك الغواصة إلى السطح، تطلق النار من واحد أو اثنين من المدافع المثبتة على سطحها، مما يمكنها من

إغراق السفن الأخرى من دون أن تستنفد مخزونها من الطوربيدات.

كادت طواقم الغواصات تقتصر على المتطوعين فحسب. وبمجرد أن قلص الأسطول الألماني عملياته البحرية بعد معركة «جوتلاند»، سعى الضباط والجنود الطموحون والنشيطون إلى الخدمة في سلاح الغواصات. وفي الأسطول البريطاني أيضاً، سعى الكثير من الضباط الشبان النشيطين، خاصة طلاب الكليات الحربية البحرية الذين استلم الواحد منهم مهامه كملازم ثان إلى الخدمة في الغواصات. أما بالنسبة إلى الأسطول الألماني فقد سعى فقط خلال الشهور الأخيرة من الحرب إلى تجنيد عناصر للخدمة في سلاح الغواصات.

كانت الخدمة على متن الغواصات غير مريحة وخطرة. فالاستحمام وتغيير الملابس ضربٌ من الرفاهية المستحيلة، وعلى جميع أفراد الطاقم أن يتناوبوا الأدوار داخل الأجزاء الضيقة من الغواصة. كما أن الهواء داخل الغواصة كريه إلى درجة أن الجنود اضطروا إلى استعمال اسطوانات الأكسجين، وكان استنشاق الهواء النقي بعد صعود الغواصة إلى السطح أشبه بالإحساس بارتشاف جرعة من الويسكي. وكانت المراحيض تعمل فقط في الأعماق الضحلة؛ وعندما تغوص الغواصات إلى أعماق أكبر، يضطر الملاحون إلى قضاء حاجتهم في علب صغيرة في أنحاء مختلفة من الغواصة. وكانت دفة النجاة تميل أكثر نحو البحارة العاملين على السفن الحربية، فإمكانية أن يقضي طواقم الغواصات كانت بمعدل أربعة أفراد من كل عشرة في أثناء القتال.

ومن جهة أخرى، كان جميع أفراد الطاقم من الناحية العملية من الفنيين المهرة، وأدّت الحاجة إلى أن يعتمد كل واحد منهم على الآخر، إلى خلق روح الفريق الفريدة. وبشكل عام، غاب التوتر والنزاع الشائع على أسطح السفن بين الضباط والمتطوعين، وخصوصاً في الأسطول الألماني.

وسواء أتعرضوا إلى الهجوم خلال صعود غواصتهم إلى سطح الماء أم في الأعماق، فإن البحّار العامل داخل الغواصة، وبصورة أكبر بكثير من نظيره على سطح سفينة حربية، لم يكن لديه إحساس بالمعركة التي كان يخوضها. ووحده فقط الذي يدير المنظار تحت الماء أو أفراد الطاقم القلة الذين معه على أبراج إدارة دفة السفينة خلال

الصعود إلى السطح أمكنهم مشاهدة ما يحدث. ولكن عندما تتعرض تلك الغواصة للهجوم فإن كل من على متنها يستشعر الخطر. كما عانت الغواصة من قنابل الأعماق المرعبة الشبيهة بسلة المهملات، وذلك عندما تُهاجم من قِبل المدمرات أو مطاردي الغواصات وكان بإمكان تلك القنبلة نسف جوانب الغواصة إذا ما انفجرت في الجوار. وحتى لو كانت هناك مسافة أكبر تفصل الغواصة عن التفجير، فإن قنبلة الأعماق يبقى لديها القوة اللازمة لتعطيل المحرّك الرئيسي للغواصة.

كان الاحتجاز في تلك الغواصة المغمورة بالماء يعني الموت المحتوم لكل أفراد الطاقم. وقد نقل ضابط الغواصة الألماني الذي نجا من مركبه الغارق ووقع أسيراً، أفكاره لرفاقه البحّارة قائلاً: «لم يكن بمقدوري أن أنسى أفراد طاقمي، أصدقائي يغرقون هناك، غرقوا كالفئران في المصيدة، وبعضهم ترك للموت خنقاً... متمددين في الظلام، يائسين، منتظرين نفاد الهواء ليختنقوا في نهاية المطاف»(7).

تعرضت طواقم الغواصات لمخاطر أخرى، ناجمة عن صعوبة تحديد هوية الغواصة حتى من قبل جنود البلد نفسه. وهكذا كان ثمة احتمال كبير بأن يصاب بحار الغواصة بنيران صديقة. وكان في مقدور السفن الحربية المعادية وحتى السفن التجارية الرد على ظهور تلك الغواصة بمحاولة صدمها. كما جعل محاولة اجتياز تلك الغواصة الألمانية للألغام وشبكة حواجز الغواصات التي أنشأها الحلفاء، عبر القنال الانجليزي أولاً ثم عبر بحر الشمال في فترات لاحقة من الحرب، عرضةً لأن تعلق وتُدمر بهذه الأخطار الثابتة. وكانت سفن Q—ships البريطانية، التي كانت تموّه نفسها كسفن تجارية إنما كانت مدججة بالسلاح، تهاجم الغواصات المجاورة على السطح، ثم تبدأ بإطلاق النار.

كما كانت الغواصة التي تغوص إلى أعماق سحيقة تخاطر بالتحطم نتيجة لضغط الماء. فمن شأن الماء المتسرب إلى الأجزاء الداخلية في هذه الأعماق السحيقة أن ينتج غاز الكلور السام إذا ما وصل إلى بطاريات السفينة. وقد عاشت إحدى الغواصات الألمانية ذلك الرعب الخاص على سواحل أيرلندا في ربيع 1916، ويتذكّر ربانها: «لا اعتقد أن هناك أي شيء يمكنه أن ينزع ذلك الخوف من صدر جندي الغواصة النابع



بحار أمريكي في الحرب قبالة الغواصة. بموافقة الأرشيف الوطني

من فكرة الاحتجاز في بدن السفينة الحديدية في أثناء تسرب الغاز الخانق من البطاريات شيئاً فشيئاً. لا أعتقد أن هناك موتاً يمكن أن يكون أشد تعذيباً من ذلك»(8).

المشقة والسأم والتمرد

حتى على متن أكبر السفن، وجد المتطوعون أنفسهم محشورين في مساحات ضيقة. فيأكلون وينامون في المقصورات الصغيرة نفسها، وينصبون ويفكون الأراجيح الشبكية في ساعات محددة من اليوم. وكانت المسافات ضيقة بصورة خاصة على متن السفن الألمانية، بسبب انقسام الحيّز في داخل تلك السفن إلى مقصورات منفصلة محكمة ضد الماء. وساعد ذلك السفن على النجاة عندما كانت تصاب تحت خط الماء، غير أن عوامل الأمان الإضافية جاءت على حساب راحة أفراد الطاقم.

لعدة أشهر متواصلة، نفذ المتطوعون في جميع الأساطيل مهمات روتينية مملة مثل

تحميل الفحم على متن سفنهم وحف الطلاء والوقوف طويلاً للمراقبة. طيلة هذه الفترة، كان أقرب عدو على بعد المئات من الأميال. ففي القاعدة البحرية البريطانية الضخمة والمنعزلة في «سكابا فلو» على حدود اسكتلندا الشمالية، كان الضباط وحدهم يحصلون على فرصة النزول إلى البر إلى إحدى الجزر المجاورة القاحلة. وقد اشتهرت وحدات الأسطول البريطانية التي تولت حراسة المياه الإقليمية بين اسكتلندا والنرويج، والتي عرفت باسم «الدورية الشمالية»، بالصعاب التي واجهت طواقمها في هذه المياه الباردة والهائجة. وأدت مثل هذه الظروف إلى خطر خرق التمرّد العسكري بحدود صغيرة وكبيرة.

وقد واجه الأسطول البريطاني المشكلة ببرنامج رياضي ونظام ترفيهي موسّع. فكانت هناك مباريات ملاكمة وسير على الأقدام وحفلات موسيقية وأفلام، كما تحولت عدة سفن إلى مراكز عائمة للتسلية مزودة بمسارح يمكن أن يعرض عليها فنانون محترفون. وجمعت بعض الأنشطة الرياضية والحفلات الموسيقية بين الضباط والمتطوعين في نشاط مشترك. فدعمت هذه الإجراءات المصحوبة بالمؤن الكافية والقوة المعنوية لتقاليد البحرية البريطانية– التي استحقت من خلالها ثلاثمائة عام من الهيمنة على المياه الإقليمية حول أوروبا– النظام والانضباط وروح القتال على حدٍ سواء. فحصل الضابط على المؤن نفسها التي يحصل عليها الجنود كرمز للهدف والتضحية المشتركين.

أما أسطول أعالي البحار الألماني فقد عانى مقارنة بالأسطول البريطاني. ولم يطبق برنامج رياضي بين البحارة، إلا خلال السنة الأخيرة من الحرب. وقد تضافر الضجر مع التموين الهزيل بصورة متزايدة لخلق شعور واسع بالاستياء. كما خلقت امتيازات الضباط، الذين يعيشون إلى جوار طواقم الجنود، من هذا الوضع الصعب جواً متفجراً. وبخلاف الأسطول البريطاني، زاد الألمان التوتر على متن السفن وذلك عندما زودوا الضباط بمطابخ منفصلة تعدّ لهم وجبات فاخرة.

كان الجنود المدركون تماماً لما يأكله الضابط، يتناوبون على غذاء بائس. ففي أوائل العام1917، تكونت الوجبة الرئيسية الشائعة للبحارة في كثير من الأحيان من



ملك ساكسونيا يستطلع قارباً بحرياً ألمانياً. بموافقة محفوظات معهد هوفر

الحساء المخفف مع قطع من السجق والبطاطا والبسلة واللفت ومكونات مختلفة غير معروفة. وأطلق على هذا الخليط المركب المقزز لقب «الأسلاك الشائكة المفرمة». وعبّر ستمف عن استياء الكثيرين عندما أشار بسخرية إلى الغذاء الدسم المكون من «الأرغفة مع القهوة» و«شرائح اللحم عند الظهيرة» التي كانت تمنح لأولئك «الذين يمضون كل وقتهم يبردون أظافرهم ويمشطون شعرهم»(9). وكان البحارة المكلفون بالمهمة الشاقة المتمثلة بتلقيم المحرّكات بالفحم يحصلون على غذاء خاص من الدهن أو السجق، وحتى هؤلاء وجدوا أن مؤنهم قد خفضت، ودفع الجو الحارّ في أماكن عملهم بأجسامهم إلى حد الانهيار.

وفي ربيع وصيف 1917، أثار السخط والاستياء من الطعام المتاح في أقسام الطواقم حالات من الفوضى الواسعة على متن الكثير من السفن الألمانية. وفي الأسابيع الأخيرة من الحرب، ألقى الانهيار الذي أصاب الجيش الألماني بظلاله على البحرية أيضاً. فقد خططت القيادة العليا لسلاح البحرية لهجمة أخيرة ضد الحلفاء لدفعهم لمعركة بحرية

كبيرة في بحر الشمال. ولم يكن من أمل في النجاح، ولكن بالنسبة للأدميرالات، فإن هذا النوع من الانتحار كان بمثابة سبيل لإنقاذ شرف البحرية ولتمهيد الطريق لبناء أسطول جديد مستقبلاً. غير أن الطواقم التي من المفترض أن تضحي بحياتها رأت الأمور بشكل مختلف. وبدأ البحارة تمردهم في 29 أكتوبر.

حياة الملاح الجوّي

بدأت الحرب الجوية بطائرات صغيرة وهشة يقودها عدد قليل من الملاحين الذين تعلموا الطيران حديثاً. وأثبتت الطائرات قيمتها بسرعة من خلال المهمات الاستطلاعية التي قامت بها، وكذلك الأمر في توجيه نيران المدفعية. وبدأ أيضاً الطيارون بالهجوم والقصف ضد قوات العدو البرية. وفي 1916، قاتلت أساطيل جوية كبيرة بغية السيطرة على المجال الجوي فوق ميادين القتال مثل تلك التي وقعت في معركة «فردان». وضرب الألمان مثالاً، سرعان ما اتبعته دول محاربه أخرى، تمثل في مهاجمة المدن خلف خطوط العدو بالطائرات المقاتلة. وبنهاية الحرب استخدمت القوات الجوية آلافاً من الطائرات الكبيرة المتطورة فنياً. وفاقت أعداد الطيارين كل التوقعات. ففي أغسطس 1914 كان لدى هيئة الطيران الملكية البريطانية «RFC» وخدمة النقل الجوي البحرية الملكية الموازية «RNAS» ألفان من الضباط والجنود مقسمين بينهما. وفي أبريل 1918، دُمجت الوحدتان العسكريتان في قوة واحدة وهي «القوة الجوية الملكية». وفي فترة الهدنة، تفاخرت القوة الجوية البريطانية بوجود أربعة عشر ألف طيار مدرب معزّزين بأكثر من مئتين وخمسين ألف جندي من الجنسين على الأرض(10).

اختلفت حياة الطيار عن حياة جندي المشاة التقليدي. فنادراً ما واجه الطيارون قذارة الخنادق إلى جانب الوحول والجرذان والقمل والمطر والجثث المتعفنة. وقد تذكر الملاح الأمريكي إرفينج شيلي ذلك قائلاً: «بحسب ما رأيت من الجنود العائدين من الجبهة، فقد عاشوا حياة الكلاب»(11). وكتب بوجارت روجرز، وهو أمريكي عمل طياراً مع هيئة الطيران الملكية البريطانية، لعائلته قائلاً: «ليس من خطر كثير في كون أسرتنا قد غُطيت فجأة بخمسة أقدام من الطين. فأولئك الجنود القابعون في خط

القتال يجب أن يكون لديهم أعصاب فولاذية. سأصبح مجنوناً كأرنب مارس إذا ما اضطررت إلى أن أتواجد هناك ليوم كامل»(12).

وقع القتال في كثير من الأحيان بطريقة يمكن توقعها: دوريتان يومياً، واحدة في الصباح، وواحدة بعد الظهر أو في وقت مبكر من المساء. فسمح هذا بوجود أشكال من وقت الفراغ بعيداً عن أجواء الحرب. فمارس روجرز كرة المضرب وكرة القدم والبريدج في أثناء إجازته، مصطاداً الأرانب في بعض الأحيان. وبالنسبة إلى الطيارين البريطانيين، عُدّت ألعاب كرة القدم التي شغلت الكثير من فترات بعد الظهر والحفلات الصاخبة التي تنتهي أحياناً بأطراف مكسورة ناهيك عن آثار الثمالة المستمرة إلى اليوم التالي - من الوسائل المقبولة لتفريغ الضغط. وقضى إرفينج شيلي ستة أسابيع خالية من التوتر في منتصف 1918 في دورة في قذف القنابل في وضح النهار من ارتفاعات شاهقة. وبينما كان مقيماً في «كليرمونت - فيراند» في وسط فرنسا كتب لعائلته قائلاً: «لقد كانت شبيهة بالإجازة تماماً» مع عمل يومي فقط لمدة ثلاث ساعات، إضافة إلى الفتيات الفرنسيات الجميلات والطعام الجيد المصحوب بسلام وهدوء(13).

كان الطيارون والطواقم البرية المساندة لهم ينامون في الخيام والثكنات أو في المنازل المدنية المصادرة. وكانوا أحياناً ينقلون ضمن فترات قصيرة، إنما من دون الاضطرار إلى السير على الأقدام مثل جنود المشاة. بل ينقلون في شاحنات وأحياناً في طائراتهم إلى حيث تصلهم الأوامر بذلك. وقد أشار سيسيل لويس في كتابه «Sagittarius Rising»، الذي تناول فيه ذكريات الحرب أثناء عمله مع هيئة الطيران الملكية قائلاً: «كان لدينا سرير وحمام ومطبخ يعدّ طعاماً جيداً... وهدوء حتى موعد الدورية التالية... لم نعانِ قط من الإعياء الجسدي ولم نكن قذرين البتة ولم نتعرض للكدح الطويل المقزز لحرب الخنادق»(14).

وتذكر الملازم جان فيلار من القوات الجوية الفرنسية كيف استدعي الطيارون للعمل وهم «يتناولون غذاءهم الشهي» وأقلعوا بطائراتهم «في حين لا زالت مناديل الطعام تلف أذرع رفقائنا ويلوحون لتحيتنا عند المغادرة»(15). وعندما شاهد طابوراً

من جنود المشاة المهزوزين يتحركون نحو الجبهة، تذكر، بنوع من الانزعاج، الترف الذي كان يتمتع به الجنود في وحدته العسكرية، «إننا خجلون من بزاتنا النظيفة وأكواخنا الجافة ومن ليالي الراحة. وكنا تقريباً نريد ترك المهنة التي نحب ونتبعهم... مسكين وعظيم من يخوض أعنف المعارك وأمجدها»(16).

كان الطيارون عادةً أصغر سناً بكثير من الأفراد في الوحدات البرية. وقد تضافرت المتطلبات البدنية للطيران مع الحجم الكبير للإصابات، على إبقاء متوسط عمري العضو في سرية الطائرات أقل من خمسة وعشرين عاماً. وقد عبر فيلار عن ذلك بالقول: «باستثناء القائد – قائد السرية – الذي كان يبلغ من العمر ثلاثين عاماً أو نحو ذلك، لم يكن أحد بيننا قد تجاوز الخمسة والعشرين. لم يكن أحدنا متزوجاً، وكل واحد منا يقوم بمهمته العسكرية بحرية الشباب ومرحه الذي لا يمكن أن يكبحه شيء»(17). وكان النقيب ويلفريد جرين الذي عيّن في يونيو 1918 قائداً لسرية بوجارت روجرز، يبلغ من العمر 19 عاماً فحسب.

أظهرت حياة الضباط ونمط عيشهم بعد جولات الطيران نوعاً من محاولة التعافي من تجربة الطيران في الجو. فقد واجهوا جميعاً احتمال مواجهات أخرى قاتلة مع العدو. وقضى الطيارون الفرنسيون العائدون من المهمة أغلب أوقاتهم في ثرثرة جماعية يقصون فيها تفاصيل آخر مغامراتهم ونجاتهم من المطاردات، وطبقاً لما رواه فيلار «لا ينفك الطيارون يتحدثون ويتحدثون» مع أي شخص مستعدّ لسماعهم «مع زملائهم الطيارين، مع الميكانيكيين ومع المتسكعين في المكان وجنود المشاة الخارجين من الخدمة أو جنود المدفعية الذين احتشدوا للاستماع»، فبعد ساعتين من التوتر والمشقة، «كانوا يسترخون في ثرثرة متقطعة، متوترين ومشوشين»(18). في حين يبدو أن الطيارين البريطانيين كانوا يفضلون فترة من الهدوء والسكينة يلتقطون خلالها أنفاسهم من تلك التجربة المجهدة. وفي لحظات استراحتهم من الخدمة وفرت مجموعة منوعة من الألعاب الخشنة والمثيرة جواً من تنفيس أو على الأقل كبح جماح التوتر. وكانت الصورة النمطية لذلك الطيار المخمور– الذي يسهر كل ليلة أو أثناء رحلاته إلى باريس عندما يكون خارج الخدمة – إحدى الصور الواضحة التي نتجت

عن الحرب.

القتال الجوي

على عكس النشاط والتوتر المتواصلين في حرب الخنادق، كان الطيارون ساعات يواجهون العدو لساعات محدّدة. وكان المطر الذي شكّل مصدر عذاب للقوات البرية يعني الراحة للطيارين، بسبب تعذّر الطيران في الأجواء السيئة. ويصف فيلار مشاعره في مثل تلك اللحظات: «كنا أحراراً لا نفعل شيئاً، وكانت السجائر والقهوة الساخنة والروايات ملقاة إلى جانبنا لمدة ثلاثة أسابيع. وكان الكسل غير الآثم يتأرجح على وقع المطر المنهمر على ورق القار الذي يغطي السقف»(19). كما تحدث الطيارون الفرنسيون عن ذلك قائلين: «جو سيّئ للطيران، لكنه رائع للطيارين».

إلا أنه لم تستطع الحالة الطبيعية النسبية للأوضاع المعيشية للطيارين أن تُخفي وجود الخطر المهلك. فبدءاً من التدريب وما بعد ذلك، وجد الطيار في الحرب العالمية الأولى نفسه يعيش حياةً غريبة «مع ما فيها من مزيج من ساعات الطيران القصيرة وساعات الاسترخاء الطويلة، مزيج من الروتين المهذب والفردية الفاسقة مع الموت الثابت وحياة مذهلة وغير متوقعة بكل ما في الكلمة من معنى»(20). ويصف طيار بريطاني خلال صيف 1917 مشاعره:

لا يمكن لأحد أن يتخيل الضغط النفسي الناجم عن التحليق لساعتين فوق خطوط القتال. أولاً يتعين على المرء أن يحافظ على مكانه في التشكيلة الجوية... ليس من شيء يحطّم الأعصاب حقيقةً أكثر من أن تصبح مستهدفاً على نحو خطير لمدة طويلة (أن تُهاجَم بنيران المضادات الأرضية) ثم إن كل آلة تحوم في السماء هي موضع شك. في الواقع مع كل هذا النشاط الجوي البائس كنا ندخل في معركة جوية تقريباً في كل مرة نطير بها، وفي كثير من الأحيان كان يروق لي ذلك. إنه شعور استثنائي يشعر به المحارب قبل أن يصل إلى خط القتال، ثم فجأة يتوقف ذلك الشعور عندما تخوض المعركة(21).

وتسبّب الطيران بإجهاد بدني هائل: من الضوضاء والبرد والاهتزاز ونقص

الأكسجين، ومن ارتفاع ضغط الدم في الارتفاعات الشاهقة. ويمكن للعودة إلى الأرض بعد رحلة شاهقة الارتفاع أن تحدث نوبات مؤلمة، أو حتى قاتلة بسبب الانحناءات أو تشنجات الجسم.

ويمكن رؤية مخاطر الطيران على مستوى منخفض بوضوح في وصف أحد طياري هيئة الطيران الملكي، بسبب الدمار الذي ألحقته المضادات الأرضية أثناء رحلتين استطلاعيتين في ربيع العام 1915: «أحصيت خمسين ثقباً أحدثها الرصاص في طائرتي، إحدى الرصاصات كسرت أجزاء من المروحة، وثمة احدة في الدعامة وواحدة اخترقت عادم طائرتي وواحدة زحّافة ذيل الطائرة، واخترقت رصاصة ساقي. لقد سقطت الرصاصة عندما خلعت جواربي فأرسلتها إلى العائلة كتذكار»(22).

لكن الخطر اليومي الرئيسي بالنسبة إلى لطيار هو التعرض للقتل خلال الطيران. فقد شكلت محدودية الطائرات المسلحة تسليحاً سيئاً وبطئها وهشاشتها طبيعة المعركة الجوية. وكانت معظم الطائرات خلال الحرب تُبنى من الخشب والأسلاك والقماش. وشكلت المدافع الرشاشة التي حملتها خط الدفاع الوحيد عدا المراوغة في حالة التعرض للهجوم من قبل طائرة معادية. واكتسبت تلك الرشاشات شهرة أسطورية بنزوعها للتعطّل عن العمل. فالتغير في درجة الحرارة واهتزاز الطائرة يمكن أن يحول سلاحاً يطلق النار بصورة رائعة على الأرض إلى قضيب معدني عديم الفائدة في أثناء المعركة الجوية. وشكلت المدافع الرشاشة التي وقتت لإطلاق النار لكي تمرّ خلال ريش المروحة الدائرة، مصدر قلق خاص للطيارين. وقد تعطلت تباعاً المدافع الرشاشة في طائرة بوجارت روجرز، الواحد تلو الآخر، بطريقة يتعذر إصلاحها خلال مواجهة خاضها مع طائرة ألمانية في أواخر سبتمبر 1918.

وقد شكلت الخشية من الطيران بطائرة رديئة جزءاً من بنية الطيار الذهنية. وفي بعض الأحيان برزت التحسينات الفنية في سرعة الطائرة ومقدرتها على المناورة والارتفاع بسرعة، في غضون أشهر. وربما تكون طائرة العدو التي يواجهها الطيار متفوقة تقنياً، مما تكون له عواقب قاتلة. يعبّر فيلار عن شكوى عامة بشأن طائرات



طائرة استطلاع ألمانية و الحمام الزاجل. بموافقة محفوظات من معهد هوفر

الاستطلاع «فارمان وفوجن»[1] التي وفرها سلاح الجو الفرنسي، والتي عفا عليها الزمن: «كم من الوقت سنحلق بهذه الأقفاص؟»، كما كتب فيلار في يونيو 1916: «هناك عمل لابد من إنجازه فوق خطوط القتال. لكنه من المحزن أن نعتقد أن قدراتنا وأعصابنا لا تستهلك في قتال العدو، إنما تكافح ضد الآلات الرديئة التي وضعت في أيدينا»(23).

احتاج الطيارون إلى التحليق على مقربة من العدو قبل أن يطلقوا النار حتى يستطيعوا أن يلحقوا ضرراً بالغاً به. وادعى الطيارون المهرة من أمثال مانفريد فون ريتشوفن ورينيه فونك أن نجاحهم جاء نتيجة وصولهم إلى مواضع تبعد ياردات قليلة من أهدافهم. وأظهرت القصة المتداولة عن الطيار المقاتل العائد إلى القاعدة وقد تلطّخ زجاج طائرته الأمامي بدم العدو، إلى أي مدى اقترب هؤلاء الأعداء من بعضهم بعضاً.

(1) صممها مهندس الطيران غبريال فوجن للطيار الفرنسي هنري فارمان عام 1907. طورت أكثر من مرة حتى بلغت سرعتها القصوى 64 كم في الساعة.

ففي معركة جوية وقعت فوق مدينة «فردان»، وصف الطيار الفرنسي ألبير دولان نصراً تحقق من مدى قريب على طائرة فوكر ألمانية، وأضاف مشيراً للدم الساخن الذي صاحب ذلك القتال: «كان الرجل مُثقباً كالغربال لدرجة أن دمه المتبخر تناثر على غطاء مقدمة طائرتي وحاجبي الزجاجي وقبعتي ونظارتي الواقية. بطبيعة الحال، الانحدار من مسافة ألفين وستمائة متر كان يخلب الألباب»(24).

كانت نيران العدو المضادة للطيران تمثل تهديداً متواصلاً، وأظهرت الطائرات العائدة إلى القاعدة في كثير من الأحيان الثقوب التي أحدثتها الانفجارات الجوية المجاورة والشظايا الحادة التي اندفعت منها. لكن تمكن الطيارون من تفادي النيران الأرضية باستخدام عناصر طبيعية مثل السحب والرياح المتقلبة التي زادت من قدرتهم على تجنب تلك النيران. كما أن استهداف طائرة صغيرة ترتفع عن الأرض ستة عشر ألف قدم بدا مهمة مستحيلة. على الرغم من ذلك، في 1916 تمكنت وحدات المراقبة الألمانية من احتساب مدى ارتفاع طائرات العدو، وأماكن المدفعية المناسبة لإصابتها خلال ثوان معدودات.

اعتبر بعض الطيارين المدفع الرشاش ونيران البندقية المصوبة تجاههم من الأرض السلاح الأكثر خطراً عليهم. ففي «كامبراي» في 1917، ارتفعت نسبة الضباط البريطانيين الذين ينفذون الغارات إلى 30 ٪ يومياً. وأصيب أحد الطيارين ثلاث مرات في أسبوع واحد. ولما غدت الهجمات المباشرة على قوات العدو البرية المهمة الأكثر أهمية لجميع الطيارين، فاقمت الإغارة مستويات منخفضة الخطر تعرض لها الطيار. وقد تفرّد الألمان باتخاذ الإجراء البارع بإنشاء وحدة خاصة للقصف. وحرصوا على أن تتمتع هذه الوحدات بالحماية من النيران الأرضية من خلال تزويدها بمحركات وخزانات وقود مصفحة.

جعلت سرعة المعركة الجوية مع احتمال الهجوم القاتل في أي لحظة الإصابة بنيران صديقة واقعاً مهلكاً. فقد هاجم الطيار الأمريكي البارع إيدي ريكنباركر تقريباً طائرة فرنسية في حادثتين، كما كان هو نفسه هدفاً للهجمات الجوية الأمريكية والفرنسية. كانت ألوان التمويه مختلفة بالقدر الكافي لتوفير إنذار، إنما في خضم المعركة، يغدو

الإغراء بأن تطلق النار أولاً، ثم تتحقق من جنسية الطائرة الأخرى، أمراً تصعب مقاومته. وفي صيف وخريف المعركة الطويلة في العام 1917 في «باسشيندال» في منطقة شرق «إيبر»، شعر قادة سلاح الجو البريطاني بأنهم مجبرون على تحذير طياريهم من أنهم سيضطرون إلى مواجهة محكمة عسكرية في حالة إسقاط طائرة فرنسية.

وكان هناك عاملان جعلا من الطيران أمراً مخيفاً بشكل خاص: انعدام أي وسيلة نجاة من طائرة مصابة، واحتمال التعرض لإطلاق النار. فبينما كان في وسع الطيارين الألمان مثل إيرنست أوديت استخدام المظلة كوسيلة للنجاة من «القفص المشؤوم»، لم يتمتع أعداؤهم من البريطانيين والفرنسيين بمثل هذا الخيار. فقد شعر قادة سلاح الجو البريطاني أن المظلات ستقلل من حماسة القتال عند طياريهم. وعلى أية حال، كانت المظلة الثقيلة، التي تزن أربعين رطلاً، تعتبر عائقاً أمام الطيار في تنفيذ مهماته.

وانضم غياب المظلة إلى احتمال قيام العدو بإطلاق الرصاص والقذائف التي من شأنها أن تشعل النار في الطائرة. فصورة الطيار المحترق بشدّة – أو التي تفحّمت جثته – كانت عنصراً مألوفاً في مذكرات الحرب. وكان الطيارون أحياناً يحملون مسدسات لإنهاء مأساتهم الخاصة إذا ما احتجزوا داخل «مركبة» محترقة. وقد تذكر المحاربون القدامى رؤية رفاقهم يقفزون من الطائرات المحترقة ليسقطوا إلى موت سريع بالارتطام بالأرض. وأشار بوجارت روجرز بعد مشاهدته لتصادم تبعه اندلاع النيران: «الشيء الوحيد الذي يخشاه كل فرد منا هو «النار» أما التصادم أو أن تطرح أرضاً فليس بشيء بالغ السوء، لكن كونك تعي تماما أنك محبوس في آلة، ولا يمكنك الخروج، لهو شيء فظيع. والأسوأ من ذلك هو الاشتعال في الهواء»(25). واكتسبت بعض الطائرات مثل «DH–4» الأمريكية الصنع المسماة «التابوت الطائر» سمعة رهيبة بسبب قابليتها للاشتعال. فأصبحت هذه الطائرة مصدر خشية على وجه الخصوص بسبب خزانات الغاز المحمية بصورة رديئة، وآليتها لضخ الوقود بسرعة – حتى خارج خطوط الوقود المتضررة. فرصاصة واحدة حارقة معادية يمكن أن تؤدي إلى إسقاطها.

وقد مثلت إمكانية الوقوع في الأسر مصدراً أقلّ للخوف، إلا أنه بقي خوفاً كبيراً.

ولأن طواقم الطيران عملوا على مقربة من خطوط القتال المعادية وربما فوق مناطق العدو وذلك نتيجة لطبيعة عملهم كمراقبين للمدفعية وكعناصر استطلاع وكمساندين للهجوم البرّي، فإن ضربة محظوظة واحدة يمكن أن تعطّل محرك الطائرة. وأوضح فيلار ذلك تماماً في مراقبته لمصير اثنين من الألمان سقطا من طائرة مراقبة. ناظراً إلى الطيار، وهو رقيب، وإلى الضابط الذي رافقه كمراقب، مفكراً في مصيره ومصيرهما:

لم نستطع منع أنفسنا من الشعور بأن قدراً متشابهاً ربما ينتظرنا، متخيلين اليوم المحتمل عندما نُقاد بعيداً في سيارات الطيارين للجانب الآخر، حاسري الرأس، خالعي المعاطف، ثم يؤتى بنا، مطأطئي الرأس، أمام طائرتنا الأسيرة والعقيمة العاجزة عن الحركة والسخيفة. يتم تسليمنا إلى حشدٍ معادٍ يسيطر عليه حب الفضول ويثرثر بلغة غريبة، ثم يتم عزلنا، مخذولين تائهين في سجن أشبه بالقبر، نحو الملل والبرد والجوع والطرود البريدية والرسائل التي لا تصل(26).

وقد ضاعفت الخسائر الجلية والمأساوية المخاوف التي كان يشعر بها معظم الطيارين. ففي سلاح الجو البريطاني، وعلى الأرجح في القوات الجوية الأخرى، 80٪ من الإصابات تعرض لها المستجدون خلال أدائهم مهامهم العشرين الأولى. وتراوحت مدّة البقاء على قيد الحياة في المعركة بالنسبة للطيار البريطاني في ربيع 1917 ما بين سبع عشرة وثماني عشرة ساعة(27). وتجنب المحاربون القدامى لهيئة الطيران الملكي على الجبهة الغربية عمداً معرفة أسماء رفاق السرب صغار السن الذين سيكون وجودهم بين القدامى حتماً قصير الأمد. وحتى الطيارون الفرنسيون الأفضل تدريباً والأكثر حذراً واجهوا خسائر مشابهة. فقد ذكر الطيار الفرنسي المحنّك رينيه فونك بأن الطيار الفرنسي الجريء كان على الأرجح يبقى على قيد الحياة لمدة ثلاثة أشهر من القتال، لكن التحليق مع الحذر الشخصي على السلامة، ربما يُضاعف هذه المدّة.

افتقر معظم الطيارين على جميع الجبهات إلى القدرات التي سمحت لأمثال رينيه فونك أو بيلي بيشوب أو ماكس إيميلمان بأن يصبحوا طيارين مميزين. فلم تُعدهم تدريباتهم ولا صفاتهم الجسمية والعقلية لمثل هذا المقام الرفيع. فكما أوضح فيلار، كان معظم الطيارين، مثله تماماً، «كلاب حراسة» إذ أفسدوا محاولات العدو لاختراق

خطوط الخنادق، وحجبوا طائراتهم الاستطلاعية الخاصة، واعترضوا جهود العدو لقصف قوات الحلفاء الصديقة في الخنادق.

أدى التوتر النفسي خلال الحرب الجوية إلى تحديد الوقت الذي يمكن أن يبقى فيه الطيار في الجبهة، على عكس القوات البرية في الخنادق حيث يتم سحبها بصورة دورية، إنما مع ذلك يستمرون في الخدمة حتى يقتلوا أو يصابوا. وقضى الجنود المتطوعون سنة أو أكثر من دون العودة للديار. وفي 1916، توقع الطيارون البريطانيون أن يطيروا لستة أشهر يغادرون بعدها أو يقومون بمهمات تدريبية لمدة ثلاثة أشهر للتعافي.

خطر الحوادث

كان الطيران واحداً من الأنشطة العسكرية التي زاحمت بها الحوادث العمليات القتالية كمصدر للموت والإصابة. ورأى الطيارون منذ أيامهم التدريبية الأولى رفاقهم يموتون بأعداد كبيرة. إلا أنه يمكن للتدريب الجيد أن يقلل من حجم الخسائر: فقد عانت ألمانيا من نحو حادثة موت واحدة فقط خلال التدريب في كل قتال فتاك، كما خفضت التعليمات الجيدة الخسائر البريطانية بعد العام 1917. مع ذلك، من بين أربعة عشر ألف ضحية من الطيارين البريطانيين خلال الحرب بأكملها، لقي أكثر من النصف مصرعهم خلال أيامهم في التدريب في الجزر البريطانية الصغيرة. وعرف الجميع أن انعدام الخبرة بالنسبة إلى الطيارين المستجدّين يمكن أن يتسبّب بكارثة. وقد وصف بوجارت روجرز اثنتين من تلك الكوارث خلال فترة التدريب للخدمة في سلاح الجو البريطاني. فقد حلّق أحد رفاقه المبتدئين تحت طائرة طيار آخر، متسبباً بالارتطام به في منتصف الجو، وهوى إلى الأرض. فانفجر خزان وقود طائرته تبعاً لذلك. وفي اليوم نفسه، قام طيار ثانٍ أثناء التدريب بالهبوط بسرعة كبيرة فتعطّل جناحا طائرته فجأة وسقط ميتاً من ارتفاع أربعة آلاف قدم(28).

أما في الجبهة، فقد استمرّت الحوادث بلعب دورها المميت. وقد كتب الطيار الفرنسي فيلار وصفاً حياً لطائرة استطلاع رديئة من نوع «Mefeu–Farmans»

أُسقطت من سربه: «دارت الطائرة للهبوط وسُحقت قُمرة الطيار المصنوعة من الخشب الرقائقي الخفيف والرديء بشكلٍ كامل كما انثنى برج المدفع وانثنت قوائم الذيل وتحطمت الأجنحة واندفع هيكلها المصنوع من قماش القنب الممزق خارجاً». كانت المعاناة من الحوادث تقل أو تزداد تبعاً لطبيعة المعركة. ففي أبريل ومايو 1917، كلفت الحوادث الفرنسيين على الجبهة الغربية مئة وسبعة قتلى ومائة واثنتين وأربعين إصابة. وفي هذين الشهرين نفسيهما، لقي واحد وأربعون طياراً فقط حتفهم في المعركة (وأدرج أكثر من سبعين في عداد المفقودين)، وأصيب نحو مائة وأربعة طيارين(29).

كانت بعض الحوادث مروعة بسبب حجم الخسارة. فقد تحطمت جميع الطائرات العشرين في أحد أسراب المقاتلات الفرنسية وهي تحاول الهبوط في أرضية مكتنفة بالضباب في «فلاندرز» في 1917. وكانت بعض الكوارث الأخرى غريبة لأنه لم يكن لها سبب واضح. فبعد يومين من وصول الملازم كورتيس ريد، من أسطول الولايات المتحدة، لمحطة الطيران البحري في «دنكيريك»، لقي مصيراً معتاداً للجميع. فقد اندفعت طائرته دونما سبب في هبوط عمودي وخرجت عن السيطرة وتحطمت في الماء. لفظ ريد أنفاسه الأخيرة بمجرد أن تم انتشاله من البحر أما رفيقه الطيار، ضابط الصفّ إيتش إيتشيلبرجر، فلم يُعثر عليه.

سفن الجوّ (المناطيد) الألمانية

واجهت طواقم سفن الجوّ الألمانية التي طافت بحر الشمال وقصفت الأهداف في جنوبي إنجلترا توتراً خاصاً. فقد وضعت رحلة الذهاب إلى إنجلترا والعودة منها، من قواعد بالقرب من هامبورغ مثل قاعدة نوردولز وتونديرن وأهلورن، الطيارين الألمان في خطر لمدة تصل إلى زهاء ثلاثين ساعة. وجعلت الارتفاعات الشديدة التي طارت بها المناطيد أفراد الطاقم عرضة للبرد القارس في جميع فصول السنة، كما جعل القصف من تلك الارتفاعات ضرب الأهداف بدقة أمراً صعباً. وكان التحرك على ممرات السفينة الضيقة تجربة مخيفة. لكن الذعر الأسوأ تمثّل في أن تعلق السفينة في عاصفة، ذلك أن الجو السيّئ يخرج هذه السفن الجوية خارج مسارها بقوة، وكانت

السفن الجوية المعطلة بسبب العاصفة تحمل أحياناً طواقمها العاجزين عن الحراك على الاصطدام في البحر.

ولأسباب أمنية، لم يكن أي فرد من أفراد الطاقم بمن فيهم القائد يعلم بوجهة مهمته حتى تكون الرحلة قد انطلقت. وفي بداية الحرب تمتّع طيارو السفن الجوية المغادرون لوجهتهم المجهولة بدرجة من الحظ، وذلك لأن نقص الاستعدادات الإنجليزية في مواجهة الهجمات الجوية كان واضحاً خلال الهجمات الأولى من يناير 1915. ووجدت السفن الجوية الألمانية مناطق الدولة المدنية مضاءة تماماً. يتذكر طيار في ذلك الوقت: «ميزت طواقمنا الشوارع والميادين وواجهات المسارح. وتمكنا تقريباً من قراءة حروف اللافتات المضيئة». ثم بدأ البريطانيون فوراً بتعتيم مدنهم، كما بدأ طيارو السفن الجوية الألمانية يتعرضون لنيران المضادات الأرضية بسبب وجود بعض الأضواء الكاشفة وبعض المدافع المضادة للطائرات. وفي يونيو 1917 عندما تمت مهاجمة «دوفر»، ذكر قائد إحدى السفن تلك اللحظات البائسة بالقول: «أمسك بنا نحو عشرين كشافاً ضوئياً بدت كأنها تحاول سحبنا للأسفل من خلال أشعتها. كانت السفينة تضاء ببهاء كأنما في وضح النهار... وهسهست القنابل الحارقة البيضاء المزرقة باتجاهنا؛ كنا نتبع مسارها بوضوح إلى حد ما». بالنسبة إلى هذا الطيار الألماني، كانت السماء والأرض مليئتين بالقوى التي تهدد بتدميره»(30).

الحواشي

1. ستيفن ريتشاردز غرابارد، «تسريح العسكريين في بريطانيا العظمى بعد الحرب العالمية الأولى»، مجلة التاريخ الحديث 19، عدد 4 (1947)، ص. 304، 309.
2. ريتشارد ستومف، «الحرب والتمرد والثورة في البحرية الألمانية: يوميات الحرب العالمية الأولى للبحار ريتشارد ستومف»، تحرير وترجمة: دانيال هورن (نيو برونزويك، نيو جيرسي: مطبعة جامعة روتجرز، 1967)، ص. 82.
3. . بيتر هـ ليدل، بحار الحرب، 1914—1918(بول، إنجلترا: مطبعة بلاندفورد، 1985)، ص. 360.

4. المصدر نفسه، ص. 59.
5. مقتبس من ريتشارد هوف، «الحرب العظمى في البحر، 1914– 1918» (أكسفورد، مطبعة جامعة أكسفورد، 1983)، ص. 376.
6. مقتبس من جون كيغان، «ثمن إمارة البحر: تطور الحرب البحرية» (نيويورك: بنجوين، 1989)، ص. 168.
7. مقتبس من إيدوين أي. غراي، «وقت القتل: الغواصات الألمانية، 1914– 1918» (نيويورك: أبناء تشارلز سكرايبنر، 1972)، ص. 151.
8. المصدر نفسه، ص. 120.
9. ستومف، «الحرب والتمرد»، ص. 315.
10. جون هـ مورو(الابن)، «الحرب العظمى في الجو: الطيران الحربي من 1909 إلى 1921» (واشنطن دي سي: مطبعة معهد سميثسونيان، 1993)، ص. 329، 364؛ تشاز بوير، «تاريخ سلاح الجو الملكي البريطاني» (نيويورك: منشورات كريسنت، 1977)، ص. 46.
11. المحرر لورانس د. شيلي، «ملاح الجو: خطابات ويوميات إدوارد شيلي إيرفينغ من الأسطول الأمريكي س. م. م./ أ 1917–1919»(توسكالوسا: مطبعة جامعة ألاباما، 1993)، ص. 132.
12. المحرران جون هـ مورو(الابن) وإيرل روجرز، «بطل أمريكي في سلاح الجو الملكي البريطاني: خطابات الكابتن بوجارت روجرز في الحرب العالمية الأولى» (لورنس: مطبعة جامعة ولاية كانساس، 1996)، ص. 170.
13. شيلي، «ملاح الجو»، ص. 134–136.
14. سيسيل لويس، «ارتفاع القوس» (هاريسبيرغ، بنسلفانيا: منشورات ستاكبول، 1963)، ص. 137.
15. جان بيرود فيلار، مذكرات طيار مفقود، تحرير وترجمة: ستانلي جاي. وإرنست مارشان (هامدن، كونيتيكت: منشورات أرشون، 1975)، ص. 42.
16. المصدر نفسه، ص. 126.

17. المصدر نفسه، ص. 30.
18. المصدر نفسه، ص. 190.
19. المصدر نفسه، ص. 68.
20. دينيس وينتر، «أول القلائل: طيارو مقاتلات الحرب العالمية الأولى» (لندن: منشورات بنجوين، 1982)، ص. 40.
21. المصدر نفسه، ص. 82.
22. مقتبس من بيتر هـ ليدل، «حرب الطيار، 1914– 1918»(بول، إنجلترا: مطبعة بلاند فورد، 1987)، ص. 44.
23. فيلار، «مذكرات طيار مفقود»، ص. 49–50.
24. مقتبس من مورو، «الحرب العظمى في الجو»، ص. 134.
25. المحرران: مورو وروجرز، «أمريكي في سلاح الجو الملكي البريطاني»، ص. 39.
26. فيلار، «مذكرات طيار مفقود»، ص. 108.
27. وينتر، «أول القلائل»، ص. 156.
28. المصدر نفسه، ص. 36–37؛ تحرير: مورو وروجرز، «بطل أمريكي في سلاح الجو الملكي البريطاني»، ص. 37–38.
29. فيلار، «مذكرات طيار مفقود»، ص. 62؛ مورو، «الحرب العظمى في الجو»، ص. 199.
30. رولف ماربن، مغامرات سفينة الجوّ زبلين»، ترجمة: كلود دبليو سايكس(لندن: جون هاميلتون، 1932)، ص. 35، ص. 115–116.

الفصل السادس

الضحايا و الرعاية الطبية

أفرزت مجازر الحرب العالمية الأولى أعداداً غير مسبوقة من الضحايا، خلقت تحديات جديدة أمام الطواقم الطبية. فقد استعملت في الحرب أسلحة فعالة جداً لدرجة أنها – وفي حال لم تقتل على الفور – تتسبّب للجنود بإصابات فادحة. وعلاوة على ذلك، ساعدت الحقول التي كانت مسرح الكثير من المعارك– وهي حقول حرثت طوال قرون بروث الحيوانات– في التسبّب بجروح معدية جديدة على الخبرات الطبية المتوافرة في ذلك الوقت. وقد واجه الأطباء على كلا الجانبين مشكلة ترميم الأعضاء أو استبدالها إذا اقتضت الضرورة، مثل الوجوه الممزقة والأطراف المشلولة. وفي النهاية، لم تكن الصدمة النفسية التي تعرض لها الجنود بأقلّ مأساوية من الإصابة الجسدية، فكان على الجسم الطبي التحرّك لإيجاد حلول لهذه المشكلة أيضاً.

كما توجب على الأطباء التكيّف مع الأعداد غير المسبوقة من المرضى في أعقاب المعارك الكبرى على الجبهة الغربية، متعرّضين هم أنفسهم في كثير من الأحيان لوابل من نيران العدو، مواجهين الموت في مراكز الإسعاف القريبة من الجبهة، حيث تعرّضوا للخطر نفسه الذي يواجهه الجنود في الميدان. وأحياناً كانوا عرضة للخطر في المراكز الطبية الواقعة في المنطقة الخلفية التي – عن قصد أو غير قصد – غدت أهدافاً لهجوم



مرفق طبي أمريكي في كنيسة فرنسية مدمرة. بموافقة المحفوظات الوطنية

العدو الجوي أو المدفعيّ البعيد المدى.

أعداد المصابين

لا تمكن معرفة أعداد الرجال الذين أصيبوا خلال الحرب إلا بصورة تقديرية، وتتضارب المعلومات بهذا الشأن بصورة كبيرة أحياناً. فتُعطي الأرقام القياسية الألمانية مجموعاً تقريبياً يقدر بزهاء 4,3 مليون عسكري أصيبوا وشفيت جروحهم. كما فقد الجيش الألماني فعلياً 2,4٪ من قوته العسكرية الميدانية شهرياً بسبب الإصابات. وعاد تقريباً 75٪ من ذلك العدد إلى شكل من أشكال الخدمة الإضافية. كما يُقدر الرقم البريطاني الرسمي تقريباً بزهاء 2,3 مليون جريح. وفي كلتا الدولتين، إنما في ألمانيا بشكل خاص، أصيب بعض أولئك الذين أحصوا كجرحى، في مناطق أخرى غير الجبهة الغربية(1).

وتمضي الأرقام الفرنسية والأمريكية في اتجاه مختلف. فالسمة الأولى، أن كلا البلدين رأيا أن جنودهما أصيبوا على الجبهة الغربية بشكل رئيسي. والسمة الأخرى، هي أن أعداد مُصابيهم أقل بكثير من أعداد المصابين البريطانيين والألمان. كما تفاوتت الأرقام الفرنسية بشكل كبير. إذ تضع التقديرات الرسمية ذلك البلد على المستوى نفسه للأطراف المتحاربة الرئيسية الأخرى، إذ توصلت دراسة برلمانية فرنسية بعد الحرب إلى أن الرقم يقدر تقريباً بثلاثة ملايين مصاب بمن فيهم الكثير من أولئك الذين جرحوا في أكثر من حادثة. ولكن تقدّم عدة سلطات رقماً مذهلاً أقل من ذلك بكثير يبلغ تقريباً 400 ألف جريح؛ إذ يبين هذا التقدير أن الكثير من الجنود الفرنسيين الذين جرحوا لم ينجوا وأُحصوا من بين الـ 1،4 مليون قتيل(2).

وتقدّم لنا التجربة الفرنسية في معركة فردان صورة عما كانت عليه الحال في ظلّ نظام طبي مهلهل وسيّئ التنظيم. فقد جرح 32 ضابطاً في أثناء موجة قتال في أبريل 1916؛ مات 19 منهم جراء جروحهم حيث تفشّت في أجسادهم الغرغرينا الغازيّة. وإجمالاً، تكبدت القوات الفرنسية في فردان 23 ألف ضحية من بين الجنود الذين أدخلوا المستشفيات خلال الأشهر الأربعة الأولى من القتال. ويصف سائق سيارة إسعاف أمريكي المشهد الفوضوي في مستشفى رئيسية كبيرة تقع على بعد أربعة أميال جنوبي فردان: «مرافقون متعبون شاحبو الوجوه ألقوا عن كاهلهم كتلاً من الطين وقطع القماش والضمادات والدماء التي كشفت عن كائنات حية تحتها، وأخذ الطبيب المسؤول الثائر يصرخ في الجميع بأوامر متناقضة، وانفجر في صرخات من الغضب الهستيري»(3).

كما تحدّدت الخسائر الأمريكية بالفترة الزمنية القصيرة نسبياً التي شارك فيها الجنود الأمريكيون في القتال. ومع ذلك، أصيب تقريباً 190 ألف جندي من القوات المسلحة الأمريكية(4).

تجربة الإصابة

كثيراً ما تذكر الجندي مفاجأة التعرض للإصابة والإحساس بالعجز. فيتذكر

جندي بريطاني في معركة «سوم» الاستعداد للهجوم على خط الجبهة «عندما أصبت في الكتف برصاصة اخترقت عمودي الفقري مسبّبة شللاً مؤقتاً». فأخذ يتقيأ دماً، وسقط على أرض الخندق بفعل الغثيان، و«خشية من أن أفقد وعيي نشبت أظافري في التربة... إذ أدركت أنني في موضعي هذا يمكن أن يدوسني الجنود فأصبح في عِداد الموتى»(5). وتذكر الكولونيل ويليام دونوفان من فرقة المشاة الأمريكية الثانية والأربعين إصابته في أثناء القتال في «غابة آرجون» في خريف 1918 قائلاً: «شعرت كأن أحدهم ضرب بطن ساقي بهراوة مُدببة». ليدرك لاحقاً أنه أصيب بطلق ناري في ركبته اليمنى(6)

واستذكر هـ هايل، وهو رقيب في المدفعية البريطانية، حاله ورفاقه بعد وقوعهم ضحية لهجوم بغاز الخردل استمر لعدة ساعات: «بعد نحو ست ساعات، لم تعد الأقنعة مفيدة... وبحلول الصباح كان الجميع يتقيأ بجانب الحفر التي أحدثتها القذائف». لقد تطلب الأمر رجلين اثنين ليقودا كل مصاب عائدين به للعلاج وحين بدأ رفاقه بالفزع في خضمّ عجزهم عن التنفس، أخذ هايل يحدّث نفسه: «تماسك بشدة ولا تهتمّ بما يجري حولك»، وبعد أن تشنجت معدته من التقيؤ المتكرر جاءت عربة فحملت فرقته إلى المؤخرة. وأضاف هايل: «كنا عمياً، لم نتمكن من رؤية أي شيء». ووصف العلاج الذي تلقاه في المستشفى الكندي العام الرابع: «إن الجزء الأسوأ عندما يفتحون عينيك ليضعوا بها قطرات– كان ذلك كالتعرض لقطرات من الماء المغليّ»(7).

وفي خريف 1918، نجا ضابط أمريكي من هجوم مدفعي على مبنى صغير حيث كان يقف. وتذكر الضابط ذلك الانفجار الذي محا كل ما حوله، والإحساس بالصدمة، «الذي لا يختبره المرء إلا إذا تلقى ضربة عنيفة تسقطه أرضاً». وعلم من الآلام التي أحسّ بها في وجهه وفي يده اليسرى بأنه قد أصيب، وعندما لمس وجهه بيده اليمنى قال: «لمست أصابعي كتلة من مادة لزجة دافئة، فأدركت في الحال أنها كناية عن دم ولحم ممزّق». ورأى ذلك الضابط قطع الجثث المتناثرة هنا وهناك بما في ذلك «قدماً مقطوعة» واقفة منتصبة. وللحظة اعتقد خطأ أنها قدمه(8). وبمثل هذه القوة كانت

ذكريات الملازم البريطاني جون باجوت جلاب الذي وقع ضحية لهجوم مدفعي مبكر. فعلى طريق بجوار «أراس» في 1917، شعر بأنه رُفع بواسطة «انفجار هائل وقع فوقي تقريباً» ثم طرحه أرضاً. ولكنه وقف وبدأ في الركض «بنوعٍ من الذعر المذهل»، ووصف شعوره بالقول: «أوشكت شرايين رقبتي على الانفجار، وتدفق الدم في سيول». وأشار إلى أنه في أثناء وجوده في مركز الإسعاف «كنت أشعر بأن شيئاً ما يتحرك تلقائياً على نحو غير محكم في خدي الأيسر، كأنما عظمة دجاجة في فمي. وفي الحقيقة كان ذلك نصف فكي، الذي تهشم هو والأسنان، وكان يعوم في فمي»(9).

الإصابات والأسلحة الثقيلة

قدم القصف المركز بالأسلحة الثقيلة في ميادين القتال للجراحين حالات لم يسبق لهم أن رأوا مثلها من قبل. فنادراً ما أصيب الجنود بنيران المدافع الرشاشة بإصابة واحدة فقط؛ بل كانوا على الأرجح مغربلين بالرصاص. وكان القصف المدفعي المكثّف، قبل الهجوم وأثناءه، يعني إحضار جنود إلى مراكز الإسعاف وقد أصيبوا بالشظايا المعدنية التي أحدثت ضرراً بالغاً في أجسامهم. وكانت القطع المعدنية الكبيرة يمكن أن تقطع رأس الجندي، أو أن تفصل جذعه إلى نصفين. بل حتى إن شظايا المعدن المندفعة بسرعة كبيرة يمكن أن تخترق الجسم محدثة أثراً مؤلماً. ولاحظ الجراح الأمريكي هارفي كاشينغ أن قذيفة المدفعية المتفجرة التي تنفجر بجوار أكياس الرمل والتي تحمي الجنود ظاهرياً يمكن أن تدفع ذرات الرمل للخارج بسرعة عالية تمكنها من اختراق جفون الجندي وتهدده بفقدان بصره.

وعالج طبيب أمريكي آخر، هو ويليام بيبل، جندياً أصيب بقذيفة شديدة الانفجار. وبالرغم من أنه أصيب بعشرة جروح امتدت من فخذه اليمنى نزولاً إلى ساقه فقد عاش الجندي في آخر الأمر. كما ذكر بيبل «تناثر جذع الفخذ فوق الركبة. وتفاقمت الغنغرينا الغازيّة... واندفعت قطعة معدنية كبيرة بسرعة خلال مفصل الكاحل الأيسر واستقرت مدفونة في أنسجة الساق». كما فقد الجندي الإبصار بعينه اليسرى بسبب

شظية قذيفة أخرى أصابته في صدغه(10). ووصف طبيب عسكري فرنسي، يعمل في مركز تطهير الإصابات، الجثث المشوهة التي واجهها قائلاً: «لقد ذكرتنا بالسفن المعطوبة التي يدخل إليها الماء من كل شقّ»(11).

سببت المدفعية معظم الإصابات التي عانى منها الجنود على الجبهة الغربية، وجاءت بعدها الإصابة بالرصاص، في حين أوقعت هجمات الغاز إصابات أقل نسبياً. وعلى الرغم من التركيز الشديد على استخدام الحربة خلال التدريب العسكري، فقد سجل الأطباء العسكريون عدداً صغيراً جداً فقط من الإصابات بذلك السلاح. ونادراً ما اشتبك الجنود مع العدو بطريقة تسمح بقتال واسع بالحربة، كما أن الجنود الذين اخترقت الحربة أجسادهم، ربما لاقوا حتفهم بسرعة قبل أن يتلقوا رعاية طبية.

وفي زيارة لعنبر المعوّقين البريطانيين في مارس 1918، رأى هارفي كاشينغ الضرر الذي سببته الحرب للأجساد الآدمية والمستقبل المتوقع لأصحاب هذه الأجساد. فقد قابل هناك عامل إصطبل سابق فَقَد كلتا رجليه حتى الركبة وعامل صقل نحاس اضطر إلى العودة إلى دياره من دون ذراعه الأيمن. وكذلك غلام ريفي يبلغ من العمر عشرين سنة من جزر «أوركني» كان عليه أن يواجه مستقبلاً من دون إحدى قدميه، والأمر عينه واجهه نقاش بيوت من يوركشير. واشتمل العنبر أيضاً على صبي جزار خلفته الحرب بذراع واحدة(12).

الجروح الملوثة

في أواخر القرن التاسع عشر، أجرى الأطباء كالمعتاد عمليات باستخدام وسائل مطهرة منعت خطر التلوث، ووسائل مطهرة مانعة للعفونة، تقتل البكتيريا التي لم تتغلغل داخل الجسد بعمق. وحتى الجروح الملوثة كانت سريعة التأثر بالعقاقير المطهرة المستعملة ضد الأنسجة القريبة من سطح الجسم، وأثبتت عمليات تطهير الجروح نجاعتها في الحرب الفرنسية–البروسية وحرب البوير. ومع اقتراب أوروبا من الحرب العالمية الأولى، كانت الطريقة الاعتيادية للأطباء تدعو إلى التنحّي جانباً والسماح للجروح في أجزاء الجسم كالرأس والصدر والرئتين والبطن بالالتئام بالكامل وحدها.

وفي حرب مستقبليّة، توقّع الأطباء تضميد الجروح و بتر الأطراف المقطّعة وجبر الكسور.

وكان الأطباء العسكريون البريطانيون الأكثر خبرة على الجبهة الغربية في 1914، فقد خدموا في حرب البوير، مطلعين على الإصابات التي أصابت الأعضاء الحيوية وسببت الموت. كما قابلوا أيضاً الجروح التي اخترقت الجسم بدون ضرر قاتل. وقدمت بلجيكا وفرنسا إمكانية أخرى: الجروح الملوثة بأوساخ الحقول التي قد سُمدت لقرون. فلم يكن الأطباء مستعدين للتعامل مع العدوى القاتلة التي صاحبت حتى أصغر الجروح، خصوصاً عندما كان الجنود يصابون بشظايا القذائف. إذ أحدثت المتفجرات الشديدة جروحاً بها قطع معدنية وقطع ملابس متسخة، كما غزا الطين الجسم.

كانت المطهرات غير مجدية ضد الإصابات التي تغلغلت بعمق في أنسجة الجسم أو وجدت طريقها إلى مجرى الدم. ففي 1914، واجه الأطباء على كل الجهات أعداداً لا تحصى ممن أصيبوا بإصابة صنفوها بـ «الغنغرينا الغازية» التي تطورت فيها الجرثومة دون الحاجة إلى الأكسجين داخل الجروح التي تمّت معالجتها وتضميدها. وأشار الورم الذي كان يظهر خلال أيام قليلة إلى وجود إصابة ليس في مقدور أي أداة متاحة للأطباء في ذلك الوقت معالجتها. وبدا أن العلوم الطبية تسير إلى الخلف. وأصبحت كل الجروح ملوثة، وقتلت الجروح الخطرة منها، مثل كسور عظمة الفخذ المضاعفة، ثمانية من كل عشرة جنود أصيبوا بها. فارتفعت أعداد الوفيات على نحو تدريجي عائدة إلى مستوى معدل الوفيات في الحرب الأهلية الأمريكية.

في مطلع أكتوبر 1914، وصف جراح ألماني كيف أدّت شظايا القذائف الصغيرة إلى أضرار جسيمة عندما تخترق الجسم بسرعة. وأحدثت القطع المعدنية الأكبر حجماً ضرراً أكبر بكثير للعظام واللحم. ومع ذلك كانت العاقبة الأسوأ الإصابة بالتلوث. «إن التئام هذه الجروح المتعرجة والشاذة معقد بحقيقة كونها متسخة باستمرار... ومعظمها جروح غائرة، الأمر الذي يعني أن منطقة كبيرة من الجرح لن يصلها الدم ولذا تكون عرضة للغنغرينا». فمثل هذا الجرح المصاب بالغنغرينا كان بمثابة «إفراز صديدي شديد وتلوث ونزيف وتعفن»(13). ووصف طبيب عسكري ألماني شاب

مواجهاته الطبية الأولى مع هذه الظاهرة القاتلة قائلاً: «غالباً ما ارتفعت بسرعة درجة حرارة الجندي المصاب بجرح يبدو طفيفاً، ومن ثم وجدتُ أن الغنغرينا الغازيّة المروعة قد غزت جسده»(14).

كان يستحيل التغلب على مثل هذا التهديد بغير الوسائل الجديدة. فقد تعلم الأطباء إزالة الأنسجة التالفة (كانت تدعى هذه العملية الإنضار)، وخلافاً للممارسة الطبية التقليدية، كان الجرح يترك مفتوحاً. وفي مثل هذه الحالة كان يجب تنظيف الجرح باستمرار بسائل مطهر خاص ابتدعه الطبيب ألكسز كارل والكيميائي هنري داكين. فبعد الإنضاء، كانت توضع أنابيب مطاطية في جميع أجزاء الجرح، الذي كان يغسل بسائل داكين - كارل كل بضع ساعات. ولكن لم تكن تلك الطريقة ملائمة للجروح التي تصيب الجبهة. فكانت الضمادات تنقع في السائل وتوضع على الجرح، ثم تزال وتستبدل بأخرى كل أربع ساعات. وأثبت العلاج نجاعته شريطة أن توضع هذه الضمادات في وقتها المحدد. ولكن ذلك عنى أيضاً أنه حتى بالنسبة إلى الجروح الصغيرة اقتضت الحاجة من الأطباء إزالة كميات كبيرة من اللحم أو حتى بترها. كما تعلم الأطباء ضرورة معالجة كل الجروح بمصل «تيتانوس».

وشجعت صعوبات تطبيق سائل «داكين - كارل» على الجنود الأمريكيين الجرحى الذين يشحنون إلى وطنهم في رحلات بحرية طويلة، الأطباء الأمريكيين على أن يطوروا وسيلة أخرى لمحاربة العدوى. فبعد إزالة النسيج المصاب، غطى الأطباء الجرح بطبقة واحدة أو أكثر من شاش الفازلين، ثم أحاطوا الضمادة بلصوق «جبيرة باريس»[1].

بيد أن الغنغرينا الغازيّة تركت جنوداً مشوهين بصورة مأساوية في أعقاب الإصابة بها. وفي سبتمبر 1917، بتر أحد زملاء هارفي كاشينغ كلتا ساقيّ جندي شاب ليكتشف أن «عدوى الغاز الباسيلي»[2] المتفشية قد تطورت. وأجريت في اليوم التالي عملية «بتر من أعلى الفخذين»، مانحة الضحية الشاب أملاً في البقاء على قيد الحياة(15).

(1) ضمادة مصنوع من القطن المخصب بالجص، تتصلب بعد ترطيبها بالماء.

(2) جرثومة عضوية تتطوّر داخل الجسم متسبّبة الغنغرينا الغازيّة.

إصابات الوجه

وضعت طبيعة حرب الخنادق بعض أجزاء الجسم في خطر خاص. فكان أي شخص يبرز للعيان من حافة الخندق مرجحاً ليلفت انتباه واحد أو أكثر من قناصة العدو. فقد كانت الخوذات المستعملة في 1916 تحمي الجمجمة فحسب، تاركة الوجه مكشوفاً. فيمكن للرصاصة التي تخترق الوجه، إذا دارت لولبياً بعد انحرافها في طريقها إلى هدفها، أن تتلف معظم الأنسجة الرقيقة من ذلك الجزء من الجسم وبالتالي فإن التشوه الشديد والعمى هو النتيجة المحتملة.

كما واجه المصابون بجروح الوجه مشكلات نموذجية وغير مألوفة في آن معاً. ومثل كل الجرحى، كان هؤلاء الجنود بحاجة إلى علاج من الصدمة التي أصيبوا بها. فكانت هذه الجروح يمكن أن تقتل المرء في الحال أو في أي وقت خلال رحلة اصطحابه إلى المستشفى. كما أن العدوى التي هددت جميع الجروح، خصوصاً الغنغرينا الغازية، تطلّبت إبقاء الجرح مفتوحاً مطهّراً، وإزالة الأنسجة المصابة بقوة وبسرعة. ولكن ظهرت أيضاً دروس خاصة، فعلى سبيل المثال، إن لم يُنقل المصاب بجرح في الوجه وهو مائل إلى الأمام، فمن المحتمل أن يختنق ويموت بسبب نقص الأكسجين.

بذلت كلّ من من الدول الأربع الرئيسية التي حاربت على الجبهة الغربية جهدها للتعامل مع مثل هذه الإصابات، لأجل إعادة أكبر قدر ممكن من الجنود إلى القتال. فقد تلقى الجنود البريطانيون شكلاً متطوراً من العلاج على أيدي فرق خاصة. فقد دمج الجراحون وأطباء الأسنان وأخصائيو التخدير– والأكثر غرابة من ذلك كله – النحاتون والفنانون مهاراتهم لمعالجة الجنود المهشمة وجوههم أو أحياناً الذين لم تعد لهم وجوه على الإطلاق. وخلال معركة «سوم» في 1916، كانت المرافق البريطانية لعلاج جروح الوجه قادرة على التعامل مع التدفق المفاجئ لألفي حالة. وفي السنوات الأخيرة للحرب، تدرّب الأطباء الأمريكيون والكنديون في المستشفى البريطاني في «سيدكب، كنت»، وهو المركز المتخصص في علاج مثل هذه الجروح.

كان هارولد جيليز[1] اختصاصي التجميل البارز ومدير مستشفى «سيدكب» اختصاصي أذن وأنف وحنجرة في السابق. لكنه قرر تأسيس مركز في بريطانيا لترميم إصابات الوجه، مستمداً إلهامه أولاً من الكتب الدراسية الألمانية التي تسرد تقنيات العلاج ومن خلال زيارة قام بها للطبيب الفرنسي هيبوليت مورستن، رائد جراحة التجميل الفرنسي في عصره. فقد اكتسب الجراحون العسكريون الألمان سمعة طيبة فقط لأنهم استطاعوا إعادة الجنود إلى الجبهة. بيد أنه لم تكن لدى أيّ من نظرائهم الفرنسيين نجاحات كبيرة تذكر في عملية إعادة التأهيل. وفي هذا الإطار، أصبح جيليز شخصية مشهورة محبوبة في المجتمع البريطاني.

انتشرت القصص المبهجة وإن المبالغ فيها في مدينة لندن حول الضباط الشبان الذين قابلهم الناس في مناسبات اجتماعية بوجوه غير موسومة بأي علامة تشوه. فقد كشفت المحادثات التي تلت ذلك مع أولئك الجنود الذين لا يبدو أنهم قد جرحوا ظاهرياً عن مزاعم بأن هؤلاء كانوا مرضى جيليز. إلا أن الواقع كان أقل رومانسية بكثير. فقد امتدت مدة العلاج لأشهر أو حتى لسنوات، وذلك لأن جيليز فضل ترميم الإصابات عبر مراحل مدروسة. ومع اقتراب نهاية الحرب، كان أحد الجنود الجرحى ما زال يخضع لعمليات جراحية على مدار أربع سنوات تالية.

ترك الأثر النفسي للتشوه انطباعاً سيئاً على الجرحى ومن حولهم. فقد عمل النحات ديرونت وود كممرض في مستشفى. ودفعته تلك الخبرة إلى صنع أقنعة لوجوه المشوهين اليائسين. حيث شكلَ وطلى وثبتَ قناعاً لرجل مصاب سيدوم لعدة سنوات وسيسمح له بالخروج على الملأ مرة أخرى، مستفيداً من صوره في فترة ما قبل الحرب.

ورغم حظر سلطات المستشفى على أولئك المصابين بجروح في الوجه استخدام المرايا، فقد اكتشف بعض الجنود درجة التشوه التي لحقت بهم مما أدى إلى إصابتهم باكتئاب شديد. وأقدم عدد منهم على الانتحار. فتوجب على الأطباء والممرضات

(1) ولد السير هارلود جيليز في نيوزيلندا عام 1882 وتوفي عام 1960. درس الطب في جامعة كيمبردج. يعتبر الأب الروحي لجراحة التجميل في بريطانيا. في أعقاب الحرب العالمية الأولى انظم إلى الفيلق الطبي بالجيش الملكي.

والممرضين وجميع المشتركين في معالجة هؤلاء الرجال أن يتعلموا الاعتناء بمرضاهم دون إظهار الرعب الذي تثيره جروح الوجه الشديدة. وعلق أحد الممرضين على ذلك بالقول إنه لم يخطر بباله مطلقاً كم كان عادياً أن تنظر مباشرة إلى وجه شخص وكم كان صعباً أن تفعل ذلك عندما يكون الوجه الذي أمامك بشعاً. فأن يكون لك وجه يفر منه الأطفال «يشكّل بكل تأكيد عبئاً ثقيلاً لا يستطيع بعض الناس تحمله»(16). هذا وقد كرس عدد من الجنود، الذين منعتهم وجوههم الدميمة من الظهور بشكل مريح على الملأ، حياتهم لرعاية الجنود المصابين بإصابة شبيهة لهم في المستشفيات العسكرية.

الغاز السام

في أبريل 1915، هاجمت القوات الألمانية دفاعات الحلفاء في «إيبر» مستخدمةً غاز الكلور. وشعرت القوات الجزائرية المذعورة في الجيش الفرنسي بتأثير هذا السلاح المروع. فقد كان للهجوم بذلك السلاح سمة مخيفة تتمثل في وقف قدرة الإنسان على التنفس والتأثير عليه حتى وإن هرب من ميدان القتال. وبدءاً من ربيع 1915 وما بعده، بدأ الطرفان باستخدام هذا السلاح، وغدا الأطباء معتادين على معالجة ضحايا الهجمات بالغاز السام. وفي الواقع، لم يكن هناك الكثير مما يستطيع الطبيب أو الممرض فعله ليحول دون موت الجندي أو ليجعله أكثر سهولة. ذلك أن الآفات الخطيرة التي تصيب الرئتين والأجزاء الأخرى من الجهاز التنفسي تعني أن جهاز الجندي التنفسي المسمم بالغاز سيمتلئ حتما بالسائل.

ومن المفارقات العجيبة، أنه قبل أكثر من شهر من الهجوم بالغاز على «إيبر»، قضى ثلاثة ألمان وأصيب خمسون بهذا السلاح. فقد كان حمل اسطوانات الغاز، التي تزن الواحدة منها مائتي رطل، إلى خطوط المواجهة أمراً مثيراً للانتباه استدعى قيام الحلفاء بقصف تلك الاسطوانات في مناسبات مختلفة. فقد أصابت إحدى القذائف بعض الاسطوانات، مما جعل الألمان أول من أصيبوا بالغاز على الجبهة الغربية. وأظهر ذلك أيضاً الطبيعة الخطرة لهذا السلاح.

ويتذكر شهود عيان رؤيتهم الضحايا المذعورين جراء هجوم الغاز الأول هذا، والذين كانوا فاقدي الإحساس بالمكان والزمان بالإضافة إلى العمى الذي صاحب مثل هذه الإصابات في كثير من الأحيان. وفي مايو 1915، مرّ رقيب من كتيبة «نورثمبرلاند» بمركز إسعاف به عشرات من الجنود المسممين بالغاز، ووصف كيف: «كان لونهم أسود وأخضر وأزرق، وكيف كانت ألسنتهم متدلية للخارج وعيونهم محدقة... كان بعضهم يسعل زبداً أخضر اللون من رئاتهم»(17). كما عانى ملازم ألماني من جرح شديد نتيجة الغاز في معركة «لوس» في سبتمبر 1915 عندما سقط في حفرة قذيفة مليئة بغاز الكلور السام. وصف إصابته بأنها مثل الإحساس بفقاعات صابون في صدره، وبالرغم من العلاج المكثف إلا أنهم اضطروا لفصله من الخدمة العسكرية. إذ لم يعد قادراً على التنفس بعمق كاف ليبقيه في الخدمة العسكرية الفعلية.

غطى الاستعمال المتنامي للمزيد من غاز «الفوسجين» الفتاك في عام 1917 على استعمال غاز «الكلور السام»، وشهد العام 1917 دخول «غاز الخردل» في الخدمة العسكرية. فبحث كلا الجانبين عن طرق لحماية جنودهم المعرّضين لمثل هذه الهجمات. وكانت أقنعة الغاز مفيدة في الحماية من هجمات غاز الكلور وغاز الفوسجين. غير أن الهجمات المباغتة قد تفاجئ الجنود غير المستعدين لارتدائها، كما أن الهجمات باستخدام قذائف المدفعية المخصبة بالغاز ساعد على نشر الغاز بسرعة قاتلة.

وقد تباينت نوعية أقنعة الغاز وجودتها، واضعةً الألمان في موقع ضَعف. إذ كانت أقنعتهم قادرة على حماية جنودهم لمدة أربع ساعات فقط. لذا وضعت هجمات الغاز المطولة التي شنها الحلفاء في النصف الثاني من الحرب الجنود الألمان في خطر شديد. وفي صيف وخريف 1917، واجهت الوحدات الألمانية هجمات الغاز البريطانية المروعة من قاذفات «ليفنز»[1] القوية. فقد كان هذا السلاح نوعاً من مدافع الهاون الذي يمكن أن يطلق كميات هائلة من الغاز على امتداد خط القتال دون سابق إنذار. وقدر ضباط الفرقة الرابعة والخمسين الألمانية، التي تعرّضت للهجوم بقاذفات ليفنز،

(1) نموذج مبسط من قاذفات المورتر (الهاون) يستطيع قذف براميل كبيرة مملوءة بالمواد الكيميائية السامة والقابلة للاشتعال. دخل الخدمة في صفوف الجيش البريطاني في 1916. اخترعه الكابتن وليام ليفنز الذي عمل في وحدة تطوير واستخدام الأسلحة الكيميائية.

أنهم سيتكبدون من مائة إلى مائتين ضحية في كل هجمة من هذه الهجمات، 10٪ منها ستكون إصابات قاتلة.

ومع تقدم الحرب، تحسنت طرق معالجة جميع أنواع الإصابات بالغاز. كما ظل عدد الإصابات بالغاز منخفضاً مقارنة مع تلك الإصابات الناتجة عن نيران المدفعية والبنادق الرشاشة. وساعد الهواء النقي والإخلاء السريع للمصابين من مناطق القتال المستعرة وكذلك الرعاية الطبية الجيدة، على الشفاء. وتعلمت الطواقم الطبية غسل ضحايا الغاز بأسرع ما يمكن ورش عيونهم وأنوفهم وحلوقهم بواسطة «بكربونات الصوديوم». وتضمنت العلاجات الأخرى استعمال أسطوانات الأكسجين للمساعدة في التنفس.

وقد سببت التشنجات الناجمة عن السعال ومحاولة التقيؤ الناتجة عن بعض الغازات جهداً على عضلة القلب، فلجأ الأطباء إلى الطريقة القديمة لمرضى النزيف لتقليل كمية الدم والجهد الناتج عن ضخه. كما ساعد زيت الزيتون أو الخروع في حماية الأجهزة الهضمية للجنود الذين ابتلعوا طعاماً أو ماءً ملوثاً بالغاز. واضطر أكثر من سبعين ألف أمريكي إلى دخول المستشفيات بعد هجمات الغاز، ولكن ألفاً ومائتين وواحد فقط من هؤلاء ماتوا وهم يخضعون للعلاج. بالإضافة إلى مائتي مصاب يعتقد أنهم ماتوا في ميدان القتال(19).

ومع ذلك، يبقى تقدير العدد الإجمالي لضحايا الغاز على الجبهة الغربية مستحيلاً. وعلى الرغم من أن جيوشاً مختلفة بدأت بتسجيل أولئك الذين قتلوا أو أصيبوا بالغاز في مراحل مختلفة من الحرب، إلا أن الفرنسيين لم يبدأوا هذا العمل إلا في بداية 1918. فقد أنتجت الفوضى التي سادت ميدان القتال الشك في أسباب الموت، إضافةً إلى أن كثيراً من جثث الجنود لم تسترد قطّ. وقدرت إحدى السلطات العدد الإجمالي لخسائرها بنصف مليون إصابة. وهذا الرقم يمثل فقط ثلاثة أو ثلاثة ونصف بالمئة من إجمالي الخمسة عشر مليون ضحية على الجبهة الغربية طوال مدة الحرب(20).

الصدمة النفسية

مع بداية حرب الخنادق، بدأت الجيوش تزجّ بأعداد كبيرة من الجنود، الذين وإن لم يكونوا مؤهلين للقتال، غير أنهم غير مصابين بإصابات جسدية واضحة. وقد ظهر عجز هؤلاء الجسدي في أشكال من الارتجاف الشديد والعمى والصمم. ولكن بالنسبة إلى الأطباء العسكريين والضباط الغاضبين كانت الإصابة الناجمة عن «صدمة القنابل» تمثل حالة تمارض أكثر من كونها حالة مرض عادي.

تحدى بشدة المرضى الذين عانوا من العجز النفسي الناجم عن التعرض للقتال المباشر، عناصر راسخة في الثقافة الأوروبية. فقد كان القرن التاسع عشر يمجّد صورة الجندي الوطني الهادئ والشجاع والرزين، المستعد للتضحية بحياته من أجل بلاده. أما أمراض العجز النفسي فقد اعتبرت من أمراض الإناث.

واعتبرت إحدى وجهات النظر التي ظهرت خلال الحرب أن العجز جاء ببساطة من انفجارات القذائف القريبة. أما الخيار الآخر الذي ألقى الأطباء باللوم عليه في تعطل وظائف الجسم، فهو مرور طلقات المدافع الرشاشة على مقربة من الجنود. واعتُبِرت الراحة والهدوء وجلسات التدليك والوجبات الخفيفة طرقاً مناسبة للعلاج. ولكن اتضح أن كثيراً من العاجزين نفسياً هم جنود لم يتعرضوا قط للمدفعية أو لإطلاق نار مباشر. وأن مرضهم بكل بساطة هو نتيجةٌ لتجربة العيش في الخنادق.

كما عزت نظرية أخرى الإصابة النفسية إلى مزاج الشخص في فترة ما قبل الحرب، وليس لضغوطات القتال. وقد بقيت الإصابات النفسية أمراً مؤثراً في الجيش البريطاني حتى نهاية الحرب بالرغم من حقيقة أن كثيراً من الضباط، الذين يمثلون أفضل عائلات الأمة، ظهروا على قوائم المصابين. وفي دراسة أجراها بعد الحرب، ذكر المقدم لورد جورت، قائد المشاة المشهور والمشير مستقبلاً، أن وحدات النخبة كانت محصنة ضد صدمة القنابل، وأن مثل هذا السلوك «يجب أن ينظر إليه كنوع من العار بالنسبة للجندي». وأكد جورت أن القوات المدربة جيداً في التشكيلات العسكرية الأقل تميزاً، يمكن أن تتجنب هذه الحالة(21).

أخذ النقاش بشأن الأمراض النفسية قبل 1914 منحىً حاداً في ألمانيا. فقد كانت

هذه قضية شائكة لأنها انطوت على دفع الحكومة لاستحقاقات العجز لأولئك الذين أصيبوا في الحوادث الصناعية. وحدّدت على الأقل بعض السلطات الطبية الأذى على أنه الإصابة الجسدية الناجمة عن حادثة لكي يكون الأمر واضحاً لضحايا العجز النفسي. إنما أخفقت وجهة النظر هذه في إقناع البيروقراطيين الحكوميين. أما الآن، في وقت الحرب، فقد افترض معظم الأطباء الألمان أن الصعوبات النفسية التي واجهها الجنود نجمت عن عيوب في الشخصية.

وفي مؤتمر عقد في ألمانيا في 1916، أُعتُمدت نظرية الخلل في الشخصية بشكل رسمي. وأوضح المؤتمر أن ضحية صدمة القنابل يجب أن يدرب على ضبط النفس أو يخضع لطرق العلاج الطبية المؤلمة، وفي كثير من الأحيان استخدم الأطباء في بريطانيا وألمانيا وفرنسا العلاج بالصدمة الكهربائية المؤلمة. وقام أحد الأطباء العسكريين البريطانيين بوضع مخطط لمراقبة مرضى صدمة القنابل بينما كان يطبق علاج الصدمة الكهربية على حنجرة جندي فقد صوته. وفي حين كان المريض المعذّب يصرخ من شدة الألم الذي تحدثه الصدمة الكهربائية، كان يتم إخباره بأنه قد شفي. وسَجلَ المراقبون ملاحظاتهم بشكل افتراضي. ففي فرنسا، أحدث الاستخدام القسري للصدمة الكهربائية (torpillage) فضيحة عندما كان يمثُل أحد الجنود أمام محكمة عسكرية لرفضه الخضوع للعلاج.

أما في ألمانيا، فقد تمركز العلاج أيضاً حول نظام قاسٍ حوّلَ المستشفى بدوره إلى ثكنة عسكرية. فقد كان الجندي الذي يعالج من صدمة القنابل يقابل أولاً طبيباً نفسياً متعاطفاً يحاول إقناعه بأن العلاج التالي ضرورياً. وقد اعتمد هذا العلاج الذي كان الطبيب فريتز كوفمان رائده والذي جرى تبنّيه في نهاية المطاف على نطاق واسع في النظام العسكري الألماني، على الصدمات الكهربائية الموجعة. وكانت تصاحبه أوامر وتدريبات بدنية على الطراز العسكري صممت لتُخلص المريض من عجزه وصمته أو أي عجز آخر. وكان المعالج طوال هذه الفترة يستحثّ المريض على التخلص من عجزه بأسرع ما يمكن، مؤكداً على الدوام أن الشفاء يمكن أن يحدث بسرعة، وأن جلسة مؤلمة واحدة يمكن أن تحرز تقدماً. وفي إنجلترا أيضاً استخدم الدكتور لويس

يالاند في مستشفى «كوين سكوير» بلندن علاجاً صارماً وقاسياً مشابهاً.

وحاولت أقلية من الأطباء الألمان اللجوء إلى أفكار أخرى، فاتجه بعضهم نحو نظام من الراحة والاسترخاء والطعام الجيد، ولكن جاءت النتائج مخيبة للآمال، فانتصرت الطريقة العقابية. كما حاول آخرون استخدام شكل من «العلاج بالتحادث» الذي شُجع فيه المريض على تذكر تجاربه المؤلمة والإفصاح عن مشاعره تجاهها، وبذلك يسترد القدرة للعودة إلى الخدمة العسكرية الفعلية.

وبحلول 1917، جرّب الأطباء في العديد من مستشفيات بريطانيا العشرين المخصصة لعلاج صدمة القنابل بديلاً آخر. فأقلعوا عن استعمال الألم العقابي مع المرضى الذين يعانون من هذه الشخصية التي يزعم أنها عاجزة. وبدلاً من ذلك، افترضوا أن المريض هو شخص عادي مرّ بتجربة صادمة. وهكذا، أصبح العلاج النفسي هو العلاج المختار بالنسبة إلى بعض رجال الطب الذين كان لدى الكثير منهم اهتمام أو معرفة قليلة بالأمراض النفسية قبل 1914، لكنهم اتخذوا فيما بعد هذا الشكل من العلاج في ممارساتهم بعد الحرب.

وكان الدكتور ويليام ريفرز الذي زاول عمله في مستشفى الضباط في «كريج لوكهارت» باسكتلندا، من الشخصيات المشهورة التي استخدمت هذه الطرائق. إذ تمكّن من إقناع الضباط المصدومين هناك، مثل الشاعر ويلفريد أوين، بالعودة إلى خطوط المواجهة. وقد كان مريضه الأكثر شهرة سيجفريد ساسون – الذي نشر رسالة يدعو فيها إلى السلام عبر التفاوض – والذي غلبت عليه شخصية المتمرد ضد النظام العسكري أكثر من كونه ضحية لصدمة القنابل. وكان ساسون ضابطاً مغامراً ناجحاً في حرب الخنادق. وأرسلته سلطات الجيش إلى الطبيب ريفرز لتجنب الإحراج بمحاكمة هذا الضابط المتميز إنما اللاذع في نقده. وبعد عدة جلسات علاجية عاد ساسون أيضاً إلى ساحة المعركة لكنه نجا من مدته الجديدة التي قضاها في الخنادق وعاش عمراً مديداً بخلاف أوين الذي قتل قبل وقت وجيز من الهدنة.

أما الأطباء العسكريون الأمريكيون فقد تبنّوا نهجاً أكثر تطوراً تجاه الإصابات النفسية من معظم نظرائهم في أي مكان آخر. فبحثت لجنة دراسية تحت رعاية الدكتور

توماس سالمن قضية العجز النفسي حتى قبل دخول الولايات المتحدة الحرب. واقترح الأطباء الأمريكيون كجزء من العلاج أن يُعرض المجندون المستقبليون على أطباء نفسيين بحثاً عن نقاط الضعف النفسية لديهم قبل تجنيدهم.

وتلقى معظم المصابين النفسيين الأمريكيين الذين نقلوا إلى المستشفيات الميدانية قرب الجبهة علاجاً قصير المدى دام من ثلاثة إلى عشرة أيام. وكان من أبرز ملامح هذا العلاج، الطعام الجيد والراحة والتمارين والعزل الحذر للمضطربين بشكل طفيف عن أولئك الذين لديهم احتمال أقل في الشفاء. كما تلقى المرضى أخباراً متواصلة بشأن الأداء الجيد لوحداتهم وطريقة عودتهم السريعة التي يمكن من خلالها مساعدة رفاقهم. وسمعوا أيضاً مراراً كيف أن إجلاءهم الدائم من الحرب يعادل هجرهم لرفاقهم الجنود. كما شُجعوا على مشاهدة صفوف أسرى الحرب الألمان وهي تمرّ في طريقها إلى المؤخرة.

وفي يناير1918، أمرَ كبير الجرّاحين في القوات الأمريكية أطباءه النفسانيين بأن «يوصوا – دون أدنى تأخير ممكن– بإجلاء كل الأشخاص الذين يحتمل أن يستمروا غير فاعلين أو يعرضوا الروح المعنوية للمؤسسة التي ينتمون إليها للخطر». وعلى الرغم من ذلك، دفع اليقين بأن الحالات الناجمة عن وطأة الصراع يمكن معالجتها بنجاح، دفع بسلطات الجيش لحماية الأطباء النفسيين من التحول إلى المهام الطبية التقليدية. ففي ديسمبر 1918، استشهد كبير الجراحين بواقعة إسناد مهمة تضميد الجروح الخفيفة لأحد الأطباء النفسيين المجندين. وكان ذلك أمراً لا يطاق إذ شهدت الأسابيع الأخيرة «زهاء أربعة آلاف حالة من حالات عُصاب الحرب الخفيف... أجلوا إلى مستشفيات القاعدة حيث لم يكن ينبغي أن يتركوا فرقهم العسكرية». لقد كان من الضروري استخدام الأطباء النفسيين لمنع مثل هذه الخسارة في القوة البشرية المطلوبة بشكل أساسي وحيوي.

وخلال معركة «باشينديل» عبّر برنارد جالاجر الطبيب الأمريكي المتطوع بالجيش البريطاني عن وجهة نظره بخصوص صدمة القنابل التي ستصبح حكمة تقليدية بعد الحرب العالمية الأولى قائلاً: «حتى أكثر الجنود شجاعةً وتفانياً لديهم نقاط ضعف

تمنعهم من الخدمة بفاعلية». وكتب أيضاً: «كل فرد، ربما يكون لديه مقدار معين من قوة الأعصاب الاحتياطية، أكثر مما لدى الآخرين. وعندما يستنفد هذا الاحتياطي تحت الضغط الهائل... يصل بعضهم إلى الحدّ الأقصى من التحمّل أسرع من الآخرين فتنشأ صدمة القنابل»(23).

ومن المحتمل أن الكثير من المئات الذين أطلقت عليهم النار لفرارهم من الخدمة في الجيش البريطاني – رجال وجدوا يتجولون شاردي الذهن خلف خطوط القتال – قد عانوا من صدمة القنابل. وحتى المحاربون القدامى ذوو السجلات البطولية في القتال على مدار السنوات تلقوا عقوبة الإعدام في مثل هذه الظروف. فقد كان أحد الجنود المحترفين، ممن استمروا في الخدمة العسكرية تقريباً دون انقطاع منذ سبتمبر 1914، غائباً عن موقعه في أثناء معركة «باشيندال» في خريف 1917. وحاول عبثاً في أثناء محاكمته العسكرية، أن يدافع عن نفسه بالقول: «أعصابي مدمّرة تماماً. أعاني آلاماً في الرأس عندما أكون في خط القتال. أحياناً لا أعرف ما الذي أفعله». فكان مصيره الإعدام رمياً بالرصاص في 23 سبتمبر(24).

عموماً، خلط المسؤولون العسكريون في كل الجيوش على الجبهة الغربية بين الأمراض النفسية والتمارض أو حتى الجبن. وبدت مثل هذه الأمراض في أحسن حالاتها أسباباً مشكوكاً فيها لصرف جندي من خدمته العسكرية. فقد هدف النظام العسكري، بما في ذلك المسؤولون الطبيون، إلى إبقاء الجنود في خط القتال. وفي حالة صرف المريض من الخدمة، يجب أن يُعاد بأسرع ما يمكن إلى الخدمة الفعلية إلا إذا شكل الاضطراب العقلي شيئاً ما يمكن أن يصفه حتى الرجل العادي بالجنون الواضح. لذا قيدت حاجة كل الأنظمة العسكرية للحفاظ على الانضباط وإبقاء أكبر عدد ممكن من الجنود القادرين على القتال الأطباء الذين واجهوا حالات «صدمة القنابل». واقتصرت مهمتهم على إعادة الجندي إلى وضعه القتالي من خلال حل قصير الأجل لألمِه النفسي.

الرعاية الطبية: النظام الطبي

طوّرت جميع الدول المتحاربة أنظمة لنقل ضحايا المعركة ومعالجتهم. وسمح مسار الحرب للقادة العسكريين أن يقدروا، ببعض الدقة، عدد الضحايا الذي ستخلفه أيّ معركة مفترضة. فعلى سبيل المثال، قبل الهجوم البريطاني الناجح على سلسلة «مسين ريدج» في يونيو 1917، كانت هناك ترتيبات لمعالجة ثلاثين ألف جريح. ومن الناحية النظرية، كانت الآليات فعالة كلما سمحت ظروف المعركة، إذ وضعت كل الجيوش المتحاربة الأطباء ومساعديهم قرب خطوط القتال في مراكز إسعاف متقدمة، حيث ساعد الممرضون الجرحى ذوي الجروح الطفيفة، ونقل حاملو النقالات الجرحى الأكثر خطورة عائدين بهم إلى هذه المراكز الميدانية للإسعاف. وهناك، كان الجرحى المصابون بإصابات قاتلة يوضعون جانباً، ليتم علاج المصابين إصابات طفيفة وإعادتهم إلى الخدمة.

كانت المرحلة الثانية من الرعاية الطبية تتمّ في «مراكز إجلاء الضحايا» التابعة للجيش البريطاني أو ما يكافئها «المستشفى الميداني المتقدم» التابع للقوات المسلحة الأمريكية. حيث كان الأطباء يشخصون ذوي الجروح الخطيرة ويعطونهم علاجاً طارئاً، ومن ثم يجهزونهم للنقل على متن السفن إلى مرافق أكثر تطوراً. وكانت مراكز إجلاء الضحايا عبارة عن مرافق يمكن أن تبتر فيها الأطراف المتضررة والملوثة.

أما المرحلة الثالثة فكانت تعني شحن الضحايا بالسفن إلى مستشفى كبير ومجهز بالكامل بعيداً عن جبهة القتال. وبالنسبة إلى الجندي البريطاني الجريح، كان ذلك يعني أحد المستشفيات العديدة التي أنشئت على طول الساحل الفرنسي أو العودة إلى مستشفى عسكري في بريطانيا. أما الجريح الألماني، فكان يعني أن يُجلى إلى مستشفى كبير في المنطقة الخلفية لخطوط القتال مثل تلك التي في «لو كاتو»[1] أو العودة إلى مستشفى في ألمانيا. في حين نُقل الأمريكيون الذين جرحوا في معركة «مارن» الثانية في صيف 1918 إلى مستشفيات فرنسية، حيث النظام الطبي الفرنسي الضعيف على الدوام مصدر شكاوى عديدة. وبحلول هجوم الخريف الكبير في «ميوز- آرجون»

(1) مقاطعة في شمال فرنسا.



متطوع من الصليب الأحمر الأمريكي يساعد الجرحى. بموافقة المحفوظات الوطنية

كانت مستشفيات القاعدة الأمريكية قد أُنشئت في شرقي فرنسا لمعالجة ضحايا القوات المسلحة الأمريكية.

وفي كثير من الأحيان، أصاب النظام الفرنسي الفشل. كما كانت المرافق الطبية الفرنسية موضع الكثير من الشكاوى خلال الحرب، وذلك لأن الخدمات الطبية أُنشئت للتعامل مع صراع متنقل قصير الأمد. حيث كانت العربات التي تتسع لرجلين تجمع الجرحى الفرنسيين وتنقلهم من خطوط الجبهة. ومن ثم يتم إخضاعهم لعملية تصنيف قاسية، يتحدّد من خلالها أولئك الذين سيموتون على أية حال، وأولئك الذين سيتعافون لكنهم لن يستطيعوا العودة للخدمة مرة أخرى، وأولئك الذين سيتمكون من العودة إلى الجبهة. وبناءً على النظام المعمول به في فرنسا في ذلك الوقت والمسمى «صيانة الفاعلية» تلقى الأطباء أوامر بأن يصبوا جُل اهتمامهم بشكل فعلي على الفئة الثالثة. ومن البداية، كان معدل الوفيات مرتفعاً أثناء نقل الجرحى نحو المؤخرة، واندلعت فضيحة أولية في 1914عندما شجبت صحيفة جورج كليمنصو عملية نقل



فريق طبي أمريكي في مستشفى عسكري في فرنسا. بموافقة المحفوظات الوطنية

الجرحى في عربات نقل الماشية القذرة. كما كانت مستشفيات القاعدة أيضاً سيئة السمعة لعلاجها العقيم للجرحى.

إنما أخفقت جميع الدول في توفير مستوى مطمئن من الرعاية الطبية. ففي مرات كثيرة، تم تجاهل الجنود الجرحى أو ببساطة فقدوا في ظروف المعركة. كما كان من المستحيل نقل المصابين بجروح بالغة من أرض المعركة من دون أن تلحق بهم إصابات أخرى، خطيرة أو ربما قاتلة. كما قُصفت مراكز إجلاء الضحايا التي يفترض أنها مناطق آمنة، إضافةً إلى أن أعداد ضحايا القتال الهائلة جعل كل الاستعدادات تقف عاجزة عن معالجتهم سواء بالقرب من الجبهات أم في مستشفيات المناطق الخلفية.

وفي المرحلة الأولى، الشتوية، من القتال في فردان رقد الجرحى الفرنسيون بالآلاف في الخلاء المفتوح لمراكز الإجلاء المزدحمة. وبسبب القصف الألماني العنيف كانت كل سيارة إسعاف تستغرق نصف يوم على الطرق المكسوة بالجليد لنقل حفنة من الجرحى من منطقة الخطر. واستمرت الظروف في التدهور مع تواصل القتال. وكان الجندي الفرنسي الجريح في جحيم 1916 يُعتبر محظوظاً إذا ما تلقى أي علاج خلال الساعات

الأربع والعشرين الأولى من إصابته. وواجه الجنود المحتجزون في التحصينات تحت الأرض خلال القتال الصيفي في فردان أحياناً تأخيراً لمدة ستة أيام قبل الإجلاء إلى المؤخرة.

وفي الأول من يوليو 1916، خلال اليوم الأول من معركة «سوم»، فاقت الخسائر البريطانية كل التوقعات. فمع حلول المساء كان اثنا عشر ألف جريح قد ملأوا مراكز إجلاء الضحايا، واستمرت قوافل سيارات الإسعاف في التدفق طوال الليل. وقد أربك تدفق الجرحى مستشفيات القاعدة قرب القناة، وحجزت تلك المرافق أسرتها للجرحى الأكثر خطورة. مما استدعى نقل الضحايا الآخرين إلى إنجلترا، حتى قبل أن تزال الضمادات التي وضعت في مراكز الإسعاف الميدانية. امتلأت السفن المشافي بكامل سعتها، وتدفقت أعدد كبيرة من الجرحى إلى جنوب إنجلترا. ومرة أخرى، حصل المصاب الأكثر خطورة على الأولوية في سرير المستشفى. أما المصابون القادرون على المشي - أو على الأقل الذين يستطيعون التحرك نوعاً ما - فأرسلوا إلى جميع أنحاء شمال إنجلترا واسكتلندا.

وصف الطبيب ستيفن ويستمان، الذي عمل جراحاً في الجيش الألماني، الإحباطات في معالجة الجرحى الجدد في مركز إسعاف متطور حين بلغت معركة «سوم» ذروتها. فالطبيب الذي كان يساعد المصابين في مثل هذه الظروف لم يكن بوسعه القيام بالكثير غير تجبير الأطراف المكسورة ووضع الضمادات المؤقتة على الجروح. واستطرد الطبيب في وصفه قائلاً: «للوهلة الأولى يبدوا الأمر بسيطاً، ولكن أن تجد الجرح في جسد جندي متسخ ومغطى بالطين، خصوصاً في الليل ومن دون إضاءة، فإن ذلك ليس بالأمر السهل على الإطلاق»، فقد اضطر الطبيب بيديه المتسختين أن يتحسّس طريقه في الظلام ليجد الجرح ويضمده، وطوال الوقت يخوض في الدم بيديه حيث لم يكن بمقدوره أن يغسلهما لساعات أو لأيام(25).

ولم تُفلح كثيراً المعرفة المستجدة في كيفية منع انتشار الغنغرينا الغازية والالتهابات الأخرى، عندما لم يكن بالإمكان معالجة الجرحى فوراً من غير إبطاء. إضافةً إلى أن تدفق الضحايا بأعداد كبيرة أثناء احتدام المعركة زاد من صعوبة ذلك. وفي مارس

1918، وفي مواجهة هجوم الربيع الألماني الكبير، عبّر الطبيب هارفي كاشينغ عن أسفه أثناء تشريحه لجثث الجنود الذين ماتوا بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى المستشفى التي كان يعمل فيها حيث وجد أنهم عانوا من الإصابات لمدة 48 ساعة قبل وصولهم إلى المستشفى. ولم يكن هناك طريقة لإجراء عمليات جراحية لهم، ولم يكن بالإمكان تطبيق الطرائق التي طُوّرت في السنوات الأخيرة. وفي صيف 1918 مع دنوّ الحرب من نهايتها، واصل كاشينغ الشكوى من أن الجنود المصابين «بالجروح النتنة» كانوا يصلون إلى مستشفيات القاعدة بعد أكثر من ثلاثة أيام من إصابتهم(26).

وكثيراً ما أعاقت الاحتياجات العسكرية الأخرى – مثل نقل الذخيرة إلى الجبهة– أنظمة النقل التي أنشئت لنقل المصابين. وعلى الرغم من أن القطارات العسكرية والعبّارات العسكرية والشاحنات ساهمت في نقل الضحايا بعيداً عن مناطق القتال، إلا أنها كانت تتقدم في كثير من الأحيان بخطى متثاقلة. وكان الجندي البريطاني المحظوظ يجد نفسه محمولاً بسرعة بالقطار إلى المستشفى الكبير في مدينة «بولوني» أو حتى إلى الوطن. وإذا ما وُجدت تلك المستشفى ممتلئة فإنه كان يقضي أياماً على متن القطار الاستشفائي ليجد مكاناً له في «لو توكيه» أو «روان» أو «لو هافر». وكان الوصول إلى المكان الأخير يعني رحلة لمسافة مائتي ميل.

كما أعاق نقص سيارات الإسعاف إجلاء الجرحى الأمريكيين أثناء معركة «ميوز– آرجون». وكانت السلطات الطبية قد أخطأت عندما قدّرت المسافة التي يستوجب على المصابين الأمريكيين قطعها بما لا يزيد عن عشرين ميلاً. بمجرد بدء المعركة، احتاج الكثير من الجنود الأمريكيين المصابين إلى وسيلة نقل عاجلة لحملهم إلى أماكن أكثر بعداً. مما استوجب الدفع بالحافلات السياحية الفرنسية لسدّ الفجوة.

وتُظهر تجربة الملازم جون جلاب في ربيع العام 1917 العذاب الذي يمكن أن يتسبّب به الشلل المفاجئ في النظام. فقد أجريت عملية جراحية أولية لجروح وجهه الفادحة في محطة إجلاء الضحايا بالقرب من «آراس» ونقل على وجه السرعة إلى إنجلترا. وفي الطريق، اكتشف أن جرحه قد أصبح ملتهباً. فتطلب ذلك إجراء عملية جراحية متقدّمة لوجهه، ولكن لم يكن هناك غرفة شاغرة في المستشفى الإنجليزية

المتخصصة في ترميم الوجه. لذا أُرسل بوجهه الملتهب كلياً إلى إحدى المستشفيات العادية في لندن حيث لم يتلق أي رعاية طبية لمدة ثلاثة أشهر. وفي نوفمبر 1917 وصل إلى المستشفى في مدينة «كنت» حيث يعمل الطبيب جيليز الذي يرعى بفعالية مثل هؤلاء الضحايا (27).

كما أدّى الحصار الذي فرضه الحلفاء والضغوطات الاقتصادية اللاحقة على ألمانيا، سلسلة خاصة من المصاعب بالنسبة إلى الأطباء الألمان. إذ تطلب العلاج الفعال لضحايا الغنغرينا الغازيّة تغييراً كاملاً للملابس والمعدّات، ولكن ذلك كان مستحيلاً في كثير من الأحيان. وبحلول العام 1918، لم يكن لدى الأطباء سوى ضمادات ورق كريبي رقيقة لتغطية الجروح. وبدلاً من القطن الطبي، لم يكن هناك سوى نوع من ورق السلولوز، الذي وصفه أحد الأطباء العسكريين بالقول: «إنه يتشرب الدم والصديد بسرعة شديدة ويذوب حتى يصبح كتلة رطبة منتنة». كما أن القفازات الجراحية لم تعد متاحة، وحتى الصابون شحّ وجوده. وكان على الجراح أن يخاطر بحياته في معالجة جرحٍ ملوث متسخ عندما يفرك يديه «بالصابون الرملي»، (خليط من ثلاثة أجزاء رمل مقابل جزء صابون)، قبل العملية وبعدها. وعندما اجتاحت القوات الألمانية المواقع البريطانية في ربيع 1918، أصيب الأطباء بالذهول عندما وجدوا «صناديق مكدسة من مواد الإسعاف، وآلافاً من الضمادات والقطن الطبي الأصلي وكميات كبيرة من الشاش الطبي»(28).

الأطباء العسكريون

كانت جميع الدول المتحاربة بحاجة ماسة إلى الأطباء على الجبهة، لهذا قامت الحكومات بسحب أعداد كبيرة من الأطباء العاملين في القطاع المدني إلى القطاع العسكري. فعلى سبيل المثال، تم تعبئة أكثر من نصف الأطباء في الجزر البريطانية (أربعة عشر ألف طبيب من أصل ما مجموعه خمسة وعشرين ألفاً). وفي ألمانيا، قامت الحكومة حتى باستدعاء عدد أكبر من الأطباء للخدمة: زهاء 80٪ من أطباء ألمانيا البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين ألف طبيب تم استدعاؤهم للخدمة العسكرية. وقد تجاوزت

وتيرة الممارسات الطبية في التعامل مع ضحايا المعركة خبرة الأطباء في زمن السلم. ففي أغسطس 1917 سجل هارفي كاشينغ، الرائد في جراحة الأعصاب، أنه في الحياة المدنية العادية كان معتاداً على إجراء عملية جراحية واحدة في اليوم أما الآن فهو يجري ثماني عمليات(29).

وفي العام 1916 تم تحويل طالب الطب الشاب ستيفن ويستمان الذي كان يخدم في سلاح المشاة الألماني إلى جراح من الدرجة الثانية، إذ تلقى تدريباً إضافياً في المستشفيات الكبيرة في منطقة مؤخرة القتال التي كانت تُعتبر «صفوف جامعية حقيقية لدراسة الطب الإكلينيكي والجراحة وأموراً أخرى كثيرة»، والتي ضمت هيئتها التدريسية أبرز المتخصصين في الدولة. ولكن الاحتياجات الملحة للخدمة جعلته ينتقل بسرعة لمعالجة الجرحى في القطار الاستشفائي ومن ثم في خطوط الجبهة(30).

اشتمل الكثير من الطب العسكري بالنسبة إلى الطبيب على خط الجبهة على أنشطة روتينية لتعزيز صحة القتال لدى وحدته العسكرية. وكان ذلك يعني فحص جنود المشاة المتمركزين في الخنادق، والتأكد من أن المراحيض العسكرية بحالة جيدة ومغطاة بالجير، وإجراء استدعاء يومي للمرضى («استعراض المرضى» كما يطلق عليه في اللغة البريطانية) وكان لدى الطبيب السلطة لإعفاء الجندي من مهامه. وبالتالي، صبغ التسلسل العسكري الضباط الطبيين بإحساس المسؤولية الإلزامية تجاه وحدتهم، وليس تجاه الفرد الماثل أمامهم.

توقع الجيش من الأطباء العسكريين أن يحذروا بشدة الجنود الذين يتظاهرون بالمرض. وقد فعلت الأغلبية العظمى منهم ذلك فعلاً وبطريقة قادت الجنود في القوات المسلحة أن تعتبرهم جزءاً من البنية العسكرية الصارمة. فقد صرح أحد الأطباء البريطانيين أن المهمة الأولى الملقاة على عاتق الطبيب العسكري هي الحفاظ على «الانضباط و الروح المعنوية لوحدته العسكرية» مما دفعهم إلى التفكير بأن «صحة الأفراد يجب أن يضحى بها مؤقتاً، أو حتى بشكل دائم» وذكر طبيب آخر أنه كان عليه أن يثبت لنفسه أن الجندي الماثل أمامه ما زال قادراً على القيام بخدمته العسكرية. وهكذا، كطبيب عسكري، فقد كان مدفوعاً من قبل الجيش إلى أن يتبنى «توجهاً

عقلياً كفيلاً بأن يدمر الطبيب نفسه في أقصر وقت ممكن في أي مكان آخر على وجه الأرض»(31).

كما عرّض الطب العسكري حياة الأطباء إلى الخطر في لحظات القتال. فقد واجه الضباط الطبيون الذين عيّنوا كجراحين لكتيبة أو لفوج من الجند القصف المدفعي وقنابل الغاز والهجمات الجوية التي واجهها الجنود على خط الجبهة. وحتى المناطق الخلفية كانت خطيرة. ففي وقت مبكر من العام 1915، قتلت غارات القنابل الألمانية وشوهت الأطباء البريطانيين وزملاءهم المتطوعين الأمريكيين في مخيمات القواعد العسكرية على طول القنال الإنجليزي. وفي العامين الأخيرين للحرب، وضعت الغارات الجوية الألمانية المكثفة على الخطوط الدفاعية البارزة في «إيبر» والمناطق الخلفية مثل قاعدة «إتابل»، حياة الكوادر الطبية في خطر دائم. ففي 30 مارس 1918، ضربت القنابل الألمانية المستشفى الكندية الثابتة في «دولان» مما أدى إلى مقتل فريق طبي كامل مكون من طبيبين وثلاث ممرضات.

وقد قُتل ثمانمائة طبيب عسكري ألماني خلال الحرب، وزهاء ألف من نظرائهم البريطانيين(32). ونتجت معظم هذه الوفيات عن عمل الأطباء في خطوط الجبهة. وكثيراً ما كانت الجروح خطيرة جداً إلى درجة لا تسمح للمصاب بالعودة إلى الخندق مرة أخرى، فكان الأطباء البواسل يعتنون بالجنود في المنطقة المحايدة. وكان الضابطان البريطانيان الوحيدان اللذان حصلا على «صليب فيكتوريا» مرتين هما ضابطان عسكريان قُلدا وسام الشجاعة في الحرب العالمية الأولى. مُنح أحدهم الوسام في حرب البوير؛ والآخر حصل على أعلى وسام في بلاده في مناسبتين منفصلتين بين 1914 و1918.

وقد جسّد النقيب جدعون ووكر، المسؤول الطبي في الكتيبة الثانية في الحرس الاسكتلندي، تضحية الأطباء العسكريين بالنفس. ففي القتال في معركة «باشيندال» في أكتوبر 1917، رافق ووكر حاملي نقالات الجرحى في ساحة القتال بينما كان حاملو الرشاشات القريبون منه يثنون عليه لكونه «في خضمها». وفي نهاية الشهر الثاني، لقي ووكر حتفه في القتال في «كامبراي». أما بالنسبة لصديقه كاشينغ الذي

اعتبره «رجلاً شجاعاً»، فلم يكن موت الطبيب البريطاني مفاجأة: «لطالما توقعت ذلك»، هكذا سجل كاشينغ في يومياته(33).

وقد أدى الدكتور جيمس دان من الكتيبة الثانية «لفرقة ويلز الملكية» أداءً مماثلاً. فخلال إحدى الهجمات في ربيع العام 1917، ذكر احد أفراد كتيبته كيف أن دان: «كان يتجول حول المنطقة المحايدة متولياً العناية بالجرحى وباذلاً ما بوسعه لهم». وقادت شجاعة دان التي بدت واضحة تحت القصف الكثيف هذا المراقب ليتساءل عن مصيره: «لقد كان لغزاً كيف لم يُثقب كالغربال». وقد أُجبر دان على ترك وحدته الخاصة، بعد سنتين ونصف من الخدمة، بعد أن أصيب في هجوم بالغاز السام(34).

الأمراض

تُعتبر قدرة الأطباء على السيطرة على الأمراض المعدية بين الجنود واحدة من النجاحات الطبية الكبيرة للحرب. ففي الحرب الأهلية الأمريكية، أصيب أربعة وعشرون جندياً بالمرض مقابل كل جريح، كما مات جنديان نتيجة للمرض مقابل كل واحد يقتل في القتال مع العدو. في حقق البريطانيون في حرب البوير نجاحاً أفضل بقليل، إذ كان هناك ثلاثة عشر مريضاً مقابل كل جريح، وأقل من جنديين فقط قتلوا بالمرض مقابل كل حادثة موت بالمعركة. كما تلقى الجندي العادي على الجبهة الغربية خمسة عشر تطعيماً. وشهد الجيش البريطاني في الجبهة الغربية فقط 1،3 من الجنود المرضى مقابل كل جريح؛ وهو ما يعادل عشرة أضعاف البريطانيين العسكريين الذين لقوا مصرعهم جراء القتال أكثر ممن لاقوا حتفهم جراء المرض. ووضعت اللقاحات الأمراض – مثل الكوليرا– التي كانت تعتبر تقليدياً من الويلات التي تحلّ بالجيوش، تحت السيطرة.

وقد اعتبر القادة على جانبي خط المعركة الأمراض المنقولة جنسياً خطراً يهدّد فاعلية وحداتهم. لهذا اتخذ الجنرال جون بيرشينغ، قائد القوات الأمريكية، إجراء عقابياً بحق كل الجنود الذين أصيبوا بعدوى الأمراض التناسلية وبحق قادة وحداتهم كذلك. ورفض الجنرال اقتراحاً فرنسياً للسماح بأن تصبح منازل البغايا المرخصة

والمراقبة رسمياً متاحة للقوات الأمريكية. وبدلاً من ذلك، أدى التهديد بعقوبة قاسية ضد الجندي الأمريكي المصاب مع وجود مراكز العلاج الفاعلة على مقربة من الجبهة إلى تخفيض أعداد المصابين. فقد أصيب جندي أمريكي واحد مقابل كل ألف في سبتمبر 1918، كما أظهر مسح أجري في صيف ما بعد الهدنة أن 96 ٪ من الجنود المصابين نُقلت إليهم عدوى الأمراض قبل دخول الخدمة العسكرية(36).

كما حقق الأطباء العسكريون الألمان نجاحاً مماثلاً، إذ كانت صورة الجنود الألمان الذين أغوتهم النسوة الفرنسيات والبلجيكيات المنفلتات صورة قوية. وتوقع مندوبو الرايخ الألماني المهتمون بالأمر عودة جحافل من الجنود المرضى إلى ديارهم. ففي الحقيقة، عانى الجنود في المناطق الخلفية من الجبهة الغربية من الأمراض التناسلية التي لا تقلّ عن تلك التي في زمن السلم. ولكن عدد الجنود الذين أصابتهم عدوى الأمراض المنقولة جنسياً على الجبهة أقل بكثير من أولئك الذين أصيبوا في زمن السلم(37).

وكان وباء الأنفلونزا الشديد في عام 1918 هو الاستثناء الكبير للنجاحات التي حققها الطب ضد الأوبئة. وقد ظهرت الأشكال البسيطة لمرض الأنفلونزا في وقت مبكر من السنة، إنما انتشرت القوة الكاملة للوباء في فصلي الصيف والخريف. فأصابت العسكريين والمدنيين بالذعر على حد سواء، إذ قتل ذلك الوباء ما يقرب من واحد وعشرين مليون شخص في جميع أنحاء العالم على مدار السنة. ففي ذلك الوقت لم تذكر الكتب الطبية أي شيء يساعد في التعرف على المرض، ولم تتوافر عقاقير السّلفا والمضادات الحيوية اللازمة لعلاج ذلك المرض إلا في النصف الثاني من القرن. ووجد الأطباء الحائرون أنفسهم أمام أشخاص كانوا أقوياء وأصحاء في الماضي وباتوا يعانون فجأة من الارتفاع الشديد في درجات الحرارة وحالات الصداع وصعوبات التنفس، وحالات الهذيان. وعندما تطورت الأنفلونزا إلى الالتهاب الرئوي كان الموت هو النتيجة المحتملة.

حاول الأطباء على كلا الجانبين السيطرة على الوباء ولكن بنجاح محدود. فقد أبلغ الأطباء العسكريون الألمان عن حالات كاملة لفيلق من الجيش لم يبق إلا نصف جنوده فقط لائقين للخدمة العسكرية. كما وضعت أسراب جوية على الأرض عندما

أصاب المرض غالبية الطيارين والطواقم الأرضية. وهدّدت الأنفلونزا الأطباء أيضاً. ولم يكن من وسائل متاحة للتعافي سوى الراحة والقليل من الحظ، وذكر أحد الأطباء العسكريين الألمان كيف تجاوز مرحلة الخطر «بست حبات من الأسبرين ونصف زجاجة من البراندي»(38).

مات أكثر من نصف مليون أمريكي، من المدنيين والعسكريين، جراء الأنفلونزا ومضاعفاتها. وشهدت القوات المسلحة الأمريكية في الوطن، في خريف 1918 تفشياً خطيراً للمرض لدرجة توقفت معها الاستدعاءات الأولية للجنود ومعظم التدريبات. إذ أصيب بالمرض واحد من كل أربعة جنود من القوات المسلحة في الولايات المتحدة، وتطورت الأنفلونزا إلى التهاب رئوي لحالة واحدة من كل أربع وعشرين حالة، كما توفي شخص واحد من كل سبعة وستين جندياً. وبدا أن المجندين حديثاً من أصول ريفية أكثر عرضة للإصابة. ففي معسكر «شيرمان» بولاية أوهايو حيث كان معظم الجنود من النظاميين الجدد، مرض أربعة من أصل عشرة جنود في غضون أسبوعين ابتداء من أواخر سبتمبر. ولقي أكثر من ألف ومائة جندي، أي ما يعادل 3٪ من تعداد المعسكر، حتفهم(39).

حاولت القوات الأمريكية المقاتلة الآن بأعداد كبيرة في أوروبا التعامل مع الأنفلونزا ومع الضغط الذي أحدثته على النظام الطبي. ففي إحدى المستشفيات العسكرية الواقعة بالقرب من «غابة آرجون»، كان الكثير من المصابين على وشك الموت بمجرد سماعهم أن معدل الوفيات لحالات التهاب الرئوي ارتفعت لأكثر من 80٪. كما ظهرت آثار الأنفلونزا بشكل مذهل على متن السفن الحاملة للجنود الأمريكيين عبر المحيط الأطلسي. فأصبحت هذه السفن الحاملة لجنود مصابين بيئة خصبة لانتشار المرض. وعندما رست سفينة «لوياثان» الأمريكية في «بريست» في 7 أكتوبر، كانت تحمل مائتي قتيل ومحتضر من فوج النخبة السابع الخمسين. وقد تذمّر الأطباء والممرضون على جانبي المحيط الأطلسي من عجزهم عن معالجة المرض بفاعلية. ويظهر مشهد الجنود الأقوياء وهم يتساقطون أرضاً ويموتون في غضون يومين في الكثير من المرويات. وكذلك الأمر بالنسبة إلى

التذمّر من نقص الأسرة – ونقص التوابيت.

الرعاية الطبية: إعادة التأهيل

تمكّنت النظم الطبية من التعامل مع بعض الجروح الأكثر سوءاً، فالإصابات الخطيرة لم يكن مصيرها الموت دوماً. وهكذا، واجه عشرات الآلاف من الجنود السابقين، الذين تشوهوا خلال الصراع، مستقبلاً بلا أطراف أو بلا بصر. فكان على القوى المتحاربة أن تضع برامج لإعادة الأشخاص المدمرين جسدياً إلى الوضع الطبيعي – أو على الأقل إلى الحياة المدنية. ويمكن للنظام الألماني أن يصلح نموذجاً يظهر أيضاً طريقة تعامل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أيضاً مع هذه المعضلة.

كان على الجنود الذين فقدوا أبصارهم وبترت أطرافهم أن يقوموا بالتغيرات الأكثر جذرية. ولكن الجنود المكفوفين شكلوا نسبة قليلة من أولئك الذين تعافوا من جراحهم، فعادةً ما قتلت الإصابات في الرأس الضحية وبنهاية الحرب كان لدى ألمانيا أقل من ثلاثة آلاف من المحاربين المكفوفين. وكان هناك عدد أكبر بكثير من الذين بترت أطرافهم. كما خاض أولئك الذين فقدوا احد أطرافهم تجربة بتر إحدى الساقين بدرجة كبيرة. ولاقى مثل هذه الخسارة ستة جنود من كل مائة جندي ألماني جريح والبالغ عددهم ما يقرب من خمسة وأربعين ألفاً وعانى 3٪، أي زهاء واحد وعشرين ألفاً من فقدان إحدى الذراعين. غير أن فقدان الساقين معاً كان أقل شيوعاً، وفقدان كلتا الذراعين كان أمراً نادراً جداً (فقط اثنان من كل عشرة آلاف جريح)(40).

ونتيجة لكل ما سبق، ازداد الطلب على خدمات المتخصصين في طب العظام، الذين كانوا قلة قبل الحرب بشكل لم يسبق له مثيل. وعندما أصبح تطور الأطراف الاصطناعية أولوية وطنية، جذبت مسابقة رعتها رابطة المهندسين الألمانية ثمانية وعشرين متسابقاً لتطوير ذراع اصطناعية. وبنهاية الحرب، صنع أخصائيو تقويم العظام والمهندسون الألمان العاملون معاً ثلاثين نوعاً من الأذرع الاصطناعية وخمسين نوعاً من الأرجل الاصطناعية وجعلوها متاحة للمعاقين.

وشملت عملية إعادة التأهيل تعلم المشي بالعكّازات، أو استخدام الأطراف

الاصطناعية التي صنعت في ذلك الوقت. وكان يعني مثل هذا التغيير في نمط الحياة المواجهة المستمرة مع الألم والإعياء. وحاول الجيش الألماني تعزيز شفاء الذين فقدوا أذرعهم بتزويدهم بكتيب من النصائح. وقد اقترح هذا الكتيب، الذي وضعه شخص ولد بذراع واحدة، بعض التدابير العملية مثل ارتداء حذاء عالي الساق بدلاً من الحذاء القصير واستخدام المعوّق لفمه وركبته لمساعدته على ارتداء ملابسه.

الحواشي

1. روبرت والن، «جروح مريرة: الضحايا الألمان في الحرب العظمى، 1914–1939»(إيثاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، 1984)، ص. 39–40؛ لين ماكدونالد، «ورود الأرض المحايدة» (لندن: مايكل جوزيف، 1980)، ص. 303.
2. للأرقام البرلمانية الرسمية، انظر ليونارد سميث، «بين التمرد والطاعة: حالة فرقة المشاة الخامسة الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى» (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 1994)، ص. 126، العدد 7. الأرقام المروعة التي توحي بمستوى عال من الوفيات بين الجنود الجرحى وهم تحت الرعاية الطبية الفرنسية موجودة في أليستير هورن، «ثمن المجد: فردان، 1916» (نيويورك: هاربر ورو، 1962)، ص. 66؛ أيضاً، جان جاك بيكر، «الحرب العظمى والشعب الفرنسي»، ترجمة أرنولد بوميرانز، لمينغتون سبا، (إنجلترا: بيرغ، 1985)، ص. 330–332، وماكدونالد، «ورود الأرض المحايدة»، ص. 132–133.
3. مقتبس من ماكدونالد، «ورود الأرض المحايدة»، ص. 133.
4. إدوارد م. كوفمان، «الحرب لإنهاء كل الحروب: التجربة الأمريكية العسكرية في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1968)، ص. 363.
5. مقتبس من مالكولم براون، «تومي يذهب إلى الحرب»، لندن: ج. م. دنت، 1978)، ص. 165–168.
6. مقتبس من جيمس هـ. هولاس، «حرب الجندي الأمريكي: القوات المسلحة

الأمريكية في الحرب العالمية الأولى» (بولدر، كولورادو: منشورات لين راينر، 2000)، ص. 280.

7. مقتبس من لين ماكدونالد، «1914–1918: أصوات الحرب العظمى وصورها»(لندن: مايكل جوزيف، 1988)، ص. 223.

8. مقتبس من هولاس، «حرب الجندي الأمريكي»، ص. 153–154.

9. مقتبس من هولاس، أندرو باجي، «جراحة الوجه: تجربة المريض» في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى: تجربة الحرب العالمية الأولى»، تحرير: هيو سيسيل وبيتر ليدل(لندن: ليو كوبر، 1996)، ص. 495 – 493.

10. مقتبس من هولاس، «حرب الجندي الأمريكي»، ص. 167.

11. مقتبس من أليستير هورن، «ثمن المجد: فردان»، 1916» (نيويورك: هاربر ورو، 1962، ص. 65.

12. هارفي كاشينغ، من مجلة الجراح، 1915–1918، (بوسطن: ليتل، براون وكمبني، 1936)، ص. 313–314.

13. مقتبس من والن، «جروح مريرة»، ص. 51.

14. ستيفن ويستمان، «دكتوراه في الطب، زميل كلية الجراحين الملكية، جراح في جيش القيصر» (لندن: وليم كيمبر، 1968)، ص. 72–73.

15. كاشينغ، مجلة الجراح، ص. 202.

16. مقتبس من باجي، «جراحة الوجه»، وأيضاً «في مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير: سيسيل وليدل ص. 496.

17. مقتبس من ألبرت بالازو، «السعي إلى النصر على الجبهة الغربية: الجيش البريطاني والحرب الكيميائية في الحرب العالمية الأولى» (لينكولن، نبراسكا: مطبعة جامعة نبراسكا أكسفورد، 2000)، ص. 42.

18. المصدر نفسه، ص. 152.

19. هولاس، «حرب الجندي الأمريكي»، ص. 161.

20. هابر، «السحابة السامة: الحرب الكيميائية في الحرب العالمية الأولى»، أكسفورد:

مطبعة كلارندون، 1986)، ص. 239–242.

21. مقتبس من هانز بييفلد، «من صدمة القذائف إلى ضغط المعركة: دراسة تاريخية مقارنة للطب النفسي العسكري»، وترجم من الهولندية بواسطة جون أوكين، أمستردام: مطبعة جامعة أمستردام، 1997)، ص. 102.

22. إدوارد أي. ستريكر، «الطب النفسي العسكري: الحرب العالمية الأولى، 1917–1918»، في «مائة عام من الطب النفسي الأمريكي»، تحرير هول وآخرون، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 1944، ص. 389، ص. 401.

23. مقتبس من ماكدونالد، «أصوات وصور»، ص. 248–249.

24. أنتوني بابنغتون، «صدمة القذائف: تاريخ من المواقف المتغيرة لعصاب الحرب» (لندن: ليو كوبر، 1997)، ص. 102.

25. ويستمان، «جراح مع جيش القيصر»، ص. 98–99.

26. كاشينغ، مجلة الجراح، ص. 313، ص. 404.

27. بامجي، «جراحة الوجه»، في «في مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير سيسيل وليدل، ص. 493–494، ص 497.

28. هابر، «السحابة السامة»، ص. 254 ؛ ويستمان، «جرّاح مع جيش القيصر»، ص. 159–160.

29. نويل وايتسايد، «سكان بريطانيا في الحرب» في «بريطانيا والحرب العالمية الأولى»، المحرر جون تيرنر، (لندن: أونوين هيمان، 1988)، ص. 88–90؛ روبرت ألن ويلدون، «جروح مريرة: الضحايا الألمان في الحرب العظمى، 1914–1939» (إيثاكا، نيويورك، مطبعة جامعة كورنيل، 1984، ص. 61؛ كاشينغ، مجلة الجراح، ص. 187.

30. ويستما، جرّاح في جيش القيصر، ص. 69–71، ص. 81–85، ص. 91 – 92.

31. مقتبس من وكيث سيمبسون، «الدكتور جيمس وصدمة القنابل» في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير سيسيل وليدل، ص. 505.

32. والجروح مريرة، ص. 61؛ أيان وايتهيد، «ليس من عمل الطبيب؟ دور ضابط

الكتيبة البريطانية الطبي في الميدان»، في «في مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير سيسيل وليدل، ص. 469.

33. كاشينغ، مجلة الجراح، ص. 224، ص. 269.

34. سمبسون، «الدكتور جيمس دان»، في «في مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير سيسيل وليدل، ص. 502–506.

35. جيفري نون، «معالجة المصابين في الحرب العظمى»، في أساليب القتال البريطانية في الحرب العظمى»، المحرر بادي غريفيث (لندن: فرانك كاس، 1996)، ص. 87–88.

36. كوفمان، «الحرب لإنهاء كل الحروب»، ص. 80–81، ص 132–134.

37. والن، «جروح مريرة»، ص. 67.

38. ويستمان، «جرّاح مع جيش القيصر»، ص. 172–173.

39. هولاس، «جندي من مشاة الحرب»، ص. 293؛ كوفمان، «الحرب لإنهاء كل الحروب»، ص. 82.

40. والن، «جروح مريرة»، ص. 54–57.

الفصل السابع

المرأة والقوات المسلحة

دخلت الإناث الحرب في جميع الدول المتحاربة مقيدة بسلسلة من القيود الاجتماعية العائدة إلى زمن السلم. ونادراً ما عملت نساء الطبقة المتوسطة والطبقة العليا، وكانت الفرص المتاحة لهن للتعليم العالي وخاصة الدراسة المهنية محدودة. وحتى سفر النساء الشابات ما كان ليحصل إلا تحت العين المراقبة لآبائهن أو غيرهم من البالغين الأكبر سناً. غير أن الكثير من هؤلاء النسوة أردن لعب دور في الحرب، وجعلت طبيعة الصراع المكثفة والموسعة من الضروري أن تستمع الحكومات لرغباتهن. وقد فتح نقص القوة البشرية الطريق أمام تلك الرغبات ولكن تلك أيضاً كانت وجهة النظر القائلة إن النسوة يمكنهن إضافة مهارات قيّمة إلى المجهود الحربي.

أيّ تفكير في دور المرأة في القوات المسلحة يبدأ في مجال التمريض العسكري. فقد لعبت الممرضة ومساعداتها الدور الأكثر توقّعاً، وهو الدور الذي اعتبرته كل المجتمعات الأكثر قبولاً. وكانت قد بدأت دول مثل بريطانيا وفرنسا في تجنيد الممرضات في أنظمتها العسكرية في بداية القرن. وفي الحرب بتجنيد أعداد أكبر بكثير منهن. وفي ظلّ دور المرأة المحدّد تماماً كتابعة للطبيب ومساعدة له، فإنها لم تتحدى نظرة ذلك العصر حول ما يجب أن يكون عليه عمل المرأة. ومع ذلك، لعبت هؤلاء النسوة الماهرات والخبيرات دوراً أكبر في حياة الملايين أكثر من أي وقت مضى.

فقد منحتهن ظروف الحرب أحياناً مسؤوليات تفوق تلك التي كانت متاحة لهن في زمن السلم. وحصلت الممرضات أكثر من غيرهن من النساء على فرصة الاقتراب من خط القتال ومشاركة تجارب الجندي المقاتل.

إلا أن نسوة أخريات شاركن فعلاً في الخدمة العسكرية. فعلى الرغم من حيادية الولايات المتحدة، إلا أن زهاء عشرة آلاف امرأة أمريكية بَدأنَ بالمساعدة في المجهود الحربي لبريطانيا وفرنسا وغيرهما من دول الحلفاء بدءاً من عام 1914. كما اندفعت النسوة البريطانيات لخدمة بلادهن بأعداد كبيرة. وبدءاً من عام 1917، خدمت أكثر من ست عشرة ألف امرأة أمريكية خارج البلاد كجزء من القوات المسلحة الأمريكية، أو كأعضاء في منظمات المساعدة المختلفة التي عملت مع القوات المسلحة.

كانت النساء الأوليات اللواتي التحقن بالخدمة العسكرية متطوعات يملكن التصميم والإرادة. فمنذ الأيام الأولى للحرب، نشأت المنظمات النسائية في بريطانيا وفرنسا وألمانيا لتقدم المساعدة المباشرة للقوات المقاتلة. كما سيطرت النساء الثريات على سجلات العضوية في مثل هذه المنظمات لأنهن كان بمقدورهن أن يخدمن من دون مقابل. في حين لم تتمكن نسوة الطبقة العاملة من تحمل تكلفة الأزياء التي اعتمدتها هذه المنظمات.

أسست شخصيات بارزة المستشفيات ووضعتها تحت تصرف السلطات العسكرية. فعلى سبيل المثال، تولت منظمات مثل «الحرس الوطني البريطاني للإسعاف الأولي» مهمات متعددة. ومع استمرار الحرب، قبلت حكومات التحالف خدمات النساء المدنيات من خلفيات متعددة للعمل على مقربة من جبهة القتال كموظفات مكتبيات وطاهيات وسائقات لسيارات الإسعاف وعاملات في المطاعم، وبعدد كبير بشكل خاص، كعاملات بدالة. كما خدمت النساء في بريطانيا وفي الولايات المتحدة في وقت لاحق- حتى ولو بطريقة محددة- كأعضاء فعليين في القوات المسلحة. أما فرنسا فقد تعاملت بمزيد من الحذر بشان مسألة وجود المرأة في الخدمة العسكرية، وعند نهاية الحرب، كانت ألمانيا لا تزال تستعد لاتخاذ خطوة إدخال المرأة رسمياً في القوات المسلحة.

الممرضات العسكريات ومساعداتهن

اجتذبت جميع الأطراف المتحاربة الرئيسية على الجبهة الغربية أعداداً كبيرة من الممرضات للخدمة في المستشفيات العسكرية، ففي بعض الأحيان وضعن بعيداً خلف خط الجبهة، وأحياناً أخرى في أماكن أكثر قرباً من القتال. وكانت الممرضات جزءاً رسمياً من الجيش البريطاني منذ «حرب البوير»، حيث عملن في «جمعية التمريض التابعة لقوات الملكة الأكسندرا الملكية. وما إن اقتربت الحرب، حتى كان هناك ثلاثمائة محترفة من ذوات الخبرة على قوائمها. وبالإضافة إلى ذلك، تم تسجيل ما يقارب من ثلاثة آلاف ممرضة مع «الجيش الإقليمي»، النظير البريطاني للحرس الوطني الأمريكي. وبحلول الهدنة، خدم زهاء 23 ألف امرأة كممرضات في القوات المسلحة البريطانية. كما خدمت 15 ألف امرأة أخرى كمساعدات للممرضات– كتيبة المساعدات التطوعية– ممن تمّ تدريبهن من قبل منظمات مثل «الصليب الأحمر» للعمل جنباً إلى جنب ممرضات بريطانيات محترفات في معالجة المرضى العسكريين(1) (استمدت كتيبة المساعدات التطوعية اسمها من «مفرزة المعونة الطوعية»[1] التي شُكلت قبل الحرب لتوفير الرعاية الطبية لجرحى الجيش الإقليمي).

شكلت الولايات المتحدة طواقم التمريض العسكرية في 1901، في حين تأسست طواقم التمريض البحرية بعد ذلك بسبع سنوات. وتوسعت طواقم التمريض العسكرية من 400 ممرضة في بداية الحرب لتصل لأكثر من 21 ألف ممرضة في نهايتها. وهكذا، خدمت أكثر من إحدى وعشرين ألف ممرضة أمريكية في الحرب العالمية الأولى، نصفهن مع القوات المسلحة في أوروبا. وجاء التوسع في طواقم التمريض العسكرية بالتوازي مع نمو طواقم التمريض البحرية التي ارتفعت من 160 عضواً إلى 1400 عضو(2).

بدأ الجيش الفرنسي باستخدام ممرضات الصليب الأحمر المتطوعات في المغرب عام 1907، ودرّب عدداً صغيراً من الممرضات العسكريات في السنوات التالية،

---

(1) مفرزة المعونة الطوعية: منظمة طوعية تساعد في خدمات التمريض خاصة في المستشفيات. تأسست عام 1909 بمساعدة الصليب الأحمر وفرسان القديس يوحنا.



ممرضة في الحرب العالمية الأولى. محفوظات أندرود وأندرود

وخطط إلى استدعاء 23 ألفاً من ممرضات الصليب الأحمر في حال وقوع نزاع في المستقبل وفي نهاية المطاف خدمت أكثر من 63 ألف ممرضة. أما ألمانيا فقد جندت الممرضات لأول مرة مع اندلاع الحرب في عام 1914، جنباً إلى جنب مساعدات التمريض، واللواتي بلغ عددهن في نهاية المطاف 92 ألفاً(3).

وقد ساعدت الدورات التدريبية المكثفة على زيادة عدد الممرضات. ففي فرنسا، تلقت آلاف النساء على عُجالة دروساً منظمة ركزت على كيفية تضميد الجروح. أما في بريطانيا، فقد زادت المتحمسات والعديد من الهاويات – كتيبة المساعدات التطوعية – اللواتي تطوعن للخدمة في المستشفيات العسكرية من مخزون الممرضات المتدربات بشكل مهني. فقد جذبت كتيبة المساعدات التطوعية الشابات من العائلات الثرية مثل فيرا بريتاين[1] التي تُعدّ الأكثر شهرة بينهن.

وجدت فيرا بريتاين التي تدربت في مستشفى لندن العام الأول نفسها تعمل ما يقرب

(1) فيرا ميري بريتاين: (1893– 1970) كاتبة بريطانية تطوعت كممرضة في العام 1915.

من 13 ساعة يومياً. فهذه الطالبة بجامعة أكسفورد سابقاً المنحدرة من عائلة ميسورة من الطبقة المتوسطة العليا في شمالي إنجلترا لم يسبق لها أن رأت جسداً عارياً لذكر بالغ. ووجدت نفسها الآن تتعامل مع عنابر مليئة بالجنود المشوهين. وقد تذكرت بريتاين تلك المهمات التي تنوعت من تضميد الجروح البشعة إلى تنظيف أغطية الأسرة، والتي «كانت بالنسبة لنا في تلك الأيام الأولى لها وميض مقدّس نابع من أنها خلصتنا من الضجر والاشمئزاز»(4). وعلى غرار بريتاين أخذت كتيبة المساعدات التطوعية على عاتقها المزيد والمزيد من مسؤوليات التمريض المهني مع استمرار الحرب. وتطوعت النسوة في الخدمة لعدة أسباب، بعضها كان شخصياً، فقد عبرت ممرضة فرنسية عن ذلك بوضوح عندما كتبت قائلة إن تلك كانت فرصتها الأولى لتبدو شخصية مهمة. «إن الفتاة الشابة، في الحياة العادية، لا تساوى شيئاً أو هي قريبة من اللاشيء. لأول مرة سأصبح شخصاً ما... سيأخذني العالم في الحسبان»(5). غير أن نداء الوطن كان قوياً في كل الدول المتحاربة. فقد تحدثت الممرضات الألمانيات بحماسة عن رغبتهن في «الخروج إلى الميدان» لخدمة الوطن: عكست أولئك النسوة حماسة المتطوعين الشبان الذكور الذين تطوعوا للجندية في الأسابيع الأولى من الحرب ليواجهوا أول تجربة لإطلاق النار في معركة «إيبر» الأولى. وقد عبرت امرأة عن ذلك قائلة: «إنه يوم شرف لنا جميعاً: كان قطار أف 2 أول قطار استشفائي يخرج إلى الجبهة... ويدخل إلى خط النار»(6).

وذكرت الممرضات الألمانيات في يومياتهن ومذكراتهن، أن الهروب من روتين التمريض السخيف والثقيل في زمن السلم كان واحداً من مفاتن الخدمة على مقربة من خطوط النار. فقد أكدت الممرضات الألمانيات ثقتهن بأنفسهن، وانتقدن وقاطعن الأطباء الذي كانوا غير مؤهلين، خصوصاً خلال الظروف المتوترة في السنتين الأخيرتين من الحرب، ووقفن بحزم إلى أن «اضطر الجراحون إلى الإذعان لمطالبهن»(7).

وقد برزت ضروب الرعب الخاصة بالحرب للممرضات منذ الأسابيع الأولى. حيث اعتنت الممرضة العسكرية البريطانية بجرحى معركة «مارن» الذين وصلوا من «لو ما» الفرنسية. وكان الكثير منهم يعانون من جروح تطورت إلى غرغرينا.

«وكانوا جميعهم تقريباً مصابين بجروح شظايا القذائف- التي كانت مروعة أكثر من أي شيء رأيته أو شممته من قبل؛ ليست جروح بندقية «ماوزر» الألمانية في حرب البوير إلا ثقوب دبابيس مقارنة بها»(8).

مع تقدم الحرب، اكتسب التمريض تدريجياً نمطاً رتيباً شبيهاً بالقتال على خطّ النار، إذ أضحت النسوة يمضين الكثير من الوقت في الواجبات شبه المنزلية الاعتيادية. إنما كانت بداية معركة كبيرة تغيّر كل شيء، جالبة عملاً أكثر مما قد يتخيله أي شخص. فوصول «قوافل» الجرحى من ميدان المعركة تطلب وجود ممرضة في مستشفى الإخلاء بجانب الجبهة، أو في مستشفى قاعدة عسكرية في المؤخرة، لتعمل طيلة يومين بدون راحة. وقد وقع مثل هذا «الفوران»، كما وصفته موظفات المستشفى الأمريكي، في الأنظمة الطبية على كلا جانبي الجبهة. وقد اختبرت الممرضات في كل مكان ما عبرت عنه معاونة ممرضة أمريكية بالقول: «تدفق المئات والمئات من الجرحى مثل سيل جارف... وقد ذكرتنا الأجساد المشوهة المتكدّسة والصيحات والتأوهات بالنقوش القديمة في جحيم دانتي»(9). ووصفت ممرضة أمريكية العناية بالجرحى الجدد خلال هجوم الربيع الألماني في عام 1918 قائلة: «لقد وصلوا إلينا بسرعة أكبر مما كنا نتوقع، وفي غضون خمس عشرة دقيقة كنا نقف بالعشرين حول طاولة تضميد الجروح. ومع مرور الساعات توقفنا لنفكر. لقد عملنا طيلة الليل حتى الفجر»(10).

وفي مثل هذه الظروف تعطل التسلسل الهرمي الجامد للحياة المدنية وللخدمة العسكرية الاعتيادية. فالممرضات - وحتى معاونات الممرضات- اضطلعن بمسؤولية متزايدة، مع اضطرار الأطباء إلى حصر أنفسهم في العمليات الجراحية. فقد تولت إحدى الممرضات الفرنسيات في عام 1915 مهمات اختصاصي التخدير لما يقرب من واحد وعشرين عملية جراحية يومياً. ووصفت ممرضة أمريكية ماذا كانت تعني بالنسبة للممرضة الساعات المحمومة في فريق الأطباء والممرضات في مركز إخلاء الضحايا: «لم نكن نتعامل مع الأدوات وضمادات الشاش فحسب، بل الخياطة والربط ووقف النزيف في حين يعثر الأطباء على الشظية التالية في مكان آخر من جسم الجريح»(11). وكان القتال المحتدم الذي سبق توقف الحرب يعني أن النهاية الرسمية

للعمليات الحربية على الجبهة الغربية لم تكن ذات مغزى كبير بالنسبة إلى الممرضات. إذ وجدن أنفسهن مشغولات برعاية حشود الجنود الذين جرحوا في الأيام الأخيرة من القتال.

كما ألقى وباء الأنفلونزا الذي اجتاح الصفوف العسكرية في الشهور الأخيرة من الحرب عبئاً إضافياً على كاهل الممرضات. فقد أجهدن أنفسهن من قبل ليعتنين بالأعداد الكبيرة من الجرحى، والآن أصبحن يواجهن أعداداً كبيرة من ضحايا المرض. ولم يكن هناك الكثير مما يمكنهن القيام به لمساعدة أولئك المصابين سوى تدفئتهم وتزويدهم بالسوائل. كما كان عجز الكثير من المرضى عن ضبط البول أو الغائط يعني أن الممرضات بقين منشغلات بتغيير فرش الأسرة وغسل الجنود الجرحى الذين لم ينجُ الكثير منهم. فقد تذكرت إحدى ممرضات كتيبة المساعدات التطوعية البريطانية قائلة: «لقد أسموا هذا الوباء بالأنفلونزا، لكنه بدا بالنسبة لنا كطاعون مخيف إلى حدّ ما... كان الجنود على مقربة شديدة من حتفهم. لقد قاوموا بكل قوة هذا الشيء المخيف، ولكنهم لم يستطيعوا العودة إلى الوطن»(12).

أتيحت الفرصة لبعض الممرضات ليخدمن في مركز إخلاء الضحايا بالقرب من مسرح القتال الفعلي. وقد جذبت هذه الفرص النادرة التي اعتبرتها الممرضات الأمريكيات مهمة «مرغوباً فيها» عشر متطوعات لكل مركز. وقد تلقت مائتا ممرضة أمريكية أوسمة من السلطات الأمريكية والبريطانية والفرنسية لشجاعتهن في العمل تحت إطلاق النار.

ولكن الكثير من الممرضات قاسين من العمل الشاق في الأماكن النائية. إذ عيّنت بعض الممرضات الأمريكيات في مرافق فرنسية يعالجن فيها المرضى الأمريكيين بالإضافة إلى الضحايا الفرنسيين. ووجدن أنفسهن في «قرى نائية موحشة حيث الظروف المعيشية البدائية والعادات الاجتماعية الغريبة»، وحيث «نظفن الأرضيات في المباني الفرنسية القديمة والمتهالكة أو في الثكنات الخشبية القديمة، وقمن بتجهيز عنابر المرضى، كما رتبن الأسرة ورَعَينَ المرضى الناقلين للعدوى»(13).

كانت العلاقة بين الجندي الجريح والممرضة مشحونة بالمشاعر. وأظهرت اللوحات

الدعائية في زمن الحرب التناقض الحاد بين المحارب – العاجز الذي لا حول له ولا قوة – والمرأة الراعية التي تحوم حوله. فقد كانت صورة الممرضة الملائكية القلقة على الجندي الجريح مفروضة بالقوة إلا أنها لم تكن واقعية. فقد سجلت الممرضات انطباعات حية كثيرة عن جنود متسخين مشوهين تفوح منهم رائحة الضمادات الكريهة وهم يدخلون إلى المستشفيات العسكرية المحمية من قصف العدو. كما وجدت الممرضات أنفسهن يعتنين بجنود في حالة اضطراب نفسي حاد، وذلك عندما قابلن الجنود الذين يعانون من صدمة القذائف. كان أولئك الرجال يبكون بطريقة هستيرية، والكثير منهم لم يستطع السيطرة على وظائفه الحيوية. ووصفت ممرضة بريطانية حالة أولئك الجنود قائلةً: «كان أولئك الشبان المصابون بصدمة القذائف مثيرين للشفقة، وكان الكثير منهم حساساً تجاه حقيقة كونهم مصابين بالتبول غير الإرادي... فكنت أضع لهم نونية السرير في الخزانة الصغيرة بجانبهم وأبقي الأمر هادئاً كلما أمكن. لقد كان هؤلاء المساكين محرجين جداً، خصوصاً أولئك المنحدرون من طبقة اجتماعية مرموقة»(14).

كما عكس أحياناً الارتباط العاطفي بين مقدمة الرعاية الصحية والجندي الذي تعتني به، الفوارق في أعمارهم ودرجة عجز الجندي أيضاً. وذكرت الممرضات الألمانيات كيف أنهن اعتنين بجرحى في «عنبر القاصرين» حيث كان جميع المرضى يبلغون فقط ثمانية عشر عاماً. وحملت هؤلاء النساء على كواهلهن العبء النفسي الناتج عن سماع الشبان المحتضرين وهم في النزع الأخير يطلبون أمهاتهم.

وشاركت النسوة أحياناً الجنود مخاطر القتال. ففي 1917، خدمت الممرضات الألمانيات والبريطانيات والفرنسيات على مقربة من الجبهة، مجازفات بالتعرض للإصابة بنيران مدفعية الأعداء. كما لاقت الممرضات البريطانيات والفرنسيات في المناطق الخلفية حتفهن جراء هجمات الأعداء الجوية. وعَرَضت الممرضات البريطانيات أنفسهن لمخاطر جسيمة، لأن مهامهن تطلبت في كثير من الأحيان الذهاب في رحلات بحرية تشكّل فيها الغواصات تهديداً لحياتهنّ. وقد لاقت ما مجموعه 195 ممرضة بريطانية حتفهن خلال الصراع،36 منهن كن ضحايا أنشطة

معادية(15). وعلى الرغم من أنه لم تلق أي ممرضة أمريكية حتفها جراء الإصابة، إلا أن ثلاثاً منهن جرحن بالقذائف الجوية أو القنابل. كما كان بقاء الممرضات هادئات بين الجنود الجرحى المذعورين والعاجزين عندما تتعرض المستشفى لنيران الأعداء واحداً من واجبات الممرضات التي تجدر الإشارة إليها، والتي لم تذكرها الدعاية في زمن الحرب.

امتدت أخطار الحرب إلى ما هو أبعد من خطر القتال نفسه حيث عَرّضَ القرب من المرضى والجرحى إلى جانب الإرهاق البدني الممرضات إلى مجموعة متنوعة من الأمراض. وكانت معالجة الجروح المتعفنة تعني أن أيّ جرح سطحي في يد الممرضة من شأنه أن ينقل إليها العدوى على حد سواء. لذا أنشأت السلطات الطبية الأمريكية مستشفيين في فرنسا، من أصل 133 مستشفى، لرعاية الممرضات اللواتي تنتقل إليهن العدوى بشكل خاص. وماتت زهاء 120 ممرضة أمريكية في الخارج وأكثر من 180 في أمريكا، حيث صُرع معظمهن من جراء وباء الأنفلونزا أو التيفوئيد(16).

أما الممرضات الألمانيات فخُضنَ تجارب خاصة ميزتهن عن باقي الممرضات في دول التحالف. فكثيراً ما وجدن أنفسهن يُنقلنَ من الجبهة الغربية إلى شرق أوروبا ومنطقة القتال في مواجهة الروس، حيث أوقعت الأمراض هناك مثل الملاريا والتيفوئيد خسائر فادحة في صفوف غير المقاتلين والجنود على حد سواء. كما جعل النقص المتزايد في ألمانيا المحاصرة العمل بالمستشفيات مقيتاً. وكتبت إحدى الممرضات في مذكراتها: «كان من المفترض أن نعتني هنا بما يقرب من 300 جريح، لكن لا يوجد هنا إمدادات على الإطلاق! في الصباح وجد لنا الجنود المساعدون بعض أقمشة أغطية الفرش. وبدأنا بتمزيقها لنصنع منها الضمادات، إذ لم يكن هناك أية مواد للتضميد. وفي وقت لاحق أنزلنا الستائر وصنعنا منها ضمادات. كان الجرحى يتضورون جوعاً، وكان خبز الجيش الناشف هو كل ما نستطيع تقديمه لهم»(17).

وكان لدى بعض الممرضات في جميع الدول المتحاربة احتكاك شخصي موسع مع جنود الأعداء. فعندما كان الجنود الجرحى الألمان يدخلون إلى مشافي دول التحالف كانت تخصص لهم أسرة في عنابر خاصة منفصلة عن بقية المرضى. كما تلقى جنود

التحالف معاملة شبيهة بتلك التي في المشافي الألمانية. لكن وجدت الممرضات أنفسهن يعملن على نحو منتظم للعناية بهؤلاء الرجال الذين جاؤوا من الجانب الآخر من خط المعركة. وكانت هذه الحالة باعثة على ظهور دعاية زمن الحرب التي صورت أحداثاً خيالية ومثيرة وقعت في المستشفى. فقد سردت إحدى القصص كيف سحق جندي ألماني عمداً يد ممرضة لدرجة أنها لم تعد قادرة على مد يد العون لأي من نزلاء المستشفى.

كان الواقع أقلّ زهاء من ذلك، إنما أكثر إنسانية. فقد وضعت الممرضات مشاعرهن الوطنية جانباً، وعالجن ضحايا الأعداء مستخدمات كل ما يملكن من مهارات، وكثيراً ما أقمن علاقات شخصية وثيقة مع الجنود الأسرى الذين كانوا تحت رعايتهن. وذكرت ممرضة أمريكية أن جندياً ألمانياً عُين كمعاون في المستشفى الذي كانت تعمل فيه بعد أن تعافى من مرضه، ولعب دوراً رائعاً في مؤاساة الجنود الأمريكيين الذين كانوا يرقدون متألمين تحت رعايتهما المشتركة.

قَيّدت محدودية دور المرأة الدور الحيوي الذي أدّته الممرضات. فقد حملت الممرضات الأمريكيات والبريطانيات رتبة «الضابطات» الغامضة من دون أن تكون هذه الرتبة رسمية. ولكن في حين سار النظام بشكل سلس في المنظومة البريطانية، إلا أن الممرضات الأمريكيات وجدن أنفسهن في وضع شاق. فكان في مقدورهن إعطاء الأوامر للجنود المتطوعين فيما يتعلق بالمعاملة الطبية للجنود الذين تحت رعايتهن. ولكن من ناحية أخرى، لم يحصلن على الطاعة فيما يتعلق بظروف ونظافة المستشفيات والمرافق الأخرى التي كن يعملن بهن. كما وقعت صدامات غاضبة باستمرار بين الممرضات وضباط أمن العنابر الذين كانوا مسؤولين رسمياً عن المرافق الطبية. وقد عبرت كبيرة الممرضات السابقة في مستشفى «بيتر بنت بريجهام» في بوسطن، والتي خدمت في فرنسا ككبيرة ممرضات في مستشفى قاعدة عسكرية، عن أسفها لسلطتها المحدودة قائلة: «ما كان ينبغي عليّ أن أختار التمريض العسكري... أشعر بقوة بأنني مثل الذبابة التي قبلت دعوة العنكبوت ثم اكتشفت أنها لا تستطيع الهروب»(18).

استفادت الممرضات الأمريكيات من عدد من مصادر الدعم الخاصة. حيث خدم

الكثير منهن في وحدات المستشفيات التي جندت الكثير من الأشخاص من الجامعات المدنية والمراكز الطبية. وهكذا عملن يومياً مع زميلاتهن الممرضات اللواتي كن قد عرفنهن من قبل في الحياة المدنية ولفترة طويلة من الوقت. وبالرغم من أن الحاجة إلى الممرضات في القوات المسلحة الأمريكية كانت تعني أن بعض الممرضات جئن مباشرة من مدارس التمريض، إلا أن معظمهن كن يملكن تجربة مهنية عالية في تخصصات طبية وعملن كمشرفات تمريض.

شكلت الممرضات الغالبية العظمى من النسوة الأمريكيات اللواتي خدمن مع القوات المسلحة الأمريكية أو في المرافق التابعة لها. وقد لاحت بشكل كبير في روايات الصحف الأمريكية عن النساء في الحرب، صورة سيدة المجتمع الثرية التي تبلغ النضوج من خلال خدمة بلدها في زمن الحرب، لكن المرأة الأمريكية العاملة في خدمة بلادها كانت أشبه بالمحترفة التي لا تعرف الكلل في زي الممرضة. ووجدت دراسة حديثة أن «الأغلبية العظمى من النساء اللواتي خدمن في القوات المسلحة الأمريكية كن أجيرات، بيضاوات، متعلمات، ومن الطبقة المتوسطة الدنيا وغالباً ما كن يعلن أنفسهن»(19).

كما تلقى الجنود الأمريكيون في أوروبا العلاج على يد زهاء 300 معاونة من «المساعدات على الإحياء»[1] في حين عملت 1700 من النساء في مستشفيات في الولايات المتحدة الأمريكية حيث دُربن للعمل في العلاج البدني أو الطبي وقدمن المساعدة لأفراد القوات المسلحة الجرحى والمرضى والمضطربين نفسياً. وتراوحت خدمات هؤلاء النساء الماهرات من التدليك والإرشاد في استخدام الأذرع والأرجل الاصطناعية إلى تعليم الحياكة والنسيج وأساسيات القراءة والكتابة(20).

النساء بالبزة العسكرية

لم تتحرك أيّ من الدول بالسرعة الكافية لإدخال النساء في الخدمة العسكرية

(1) لقب أطلق على النساء اللواتي خدمن في الحرب العالمية الأولى وكان لهن دور مؤثر في مساعدة الجنود للعودة إلى ساحة القتال.

الرسمية. ولكن في عام 1917 دفع نقص القوة البشرية بريطانيا إلى تقدّم الطريق في هذا المجال. فدخلت النساء المساعدات حيز الوجود في الجيش، ومن ثم في الأسطول البحري، وأخيراً - خلال السنتين الأخيرتين من الحرب - في سلاح الجو. وجرى الترحيب بالنساء من الطبقة العليا والوسطى في «خدمة البحرية الملكية النسائية»، ليزدن عدد قوات السلاح البحري، وفي «سلاح الجو الملكي النسائي» لتفريغ الجنود في القوات المسلحة الجوية للمهمات القتالية. وسرعان ما اكتسب الجيش الموازي، سمعة كونه الذي فتح الباب أمام النساء من الطبقة العاملة. ومع نهاية الحرب، خدمت أكثر من مائة ألف امرأة في هذه الملاحق سواء في الجيش أو الأسطول البحري أو سلاح الجو(21).

وتطوعت البريطانيات بأعداد تجاوزت بكثير الأماكن المتاحة لهن للخدمة فيها. فقدمت المرأة الطموحة طلباً مرفقاً بتوصيات شخصية، ومثلت أمام هيئة طبية مكونة من طبيبات للالتحاق بصفوف «فيلق الجيش النسائي المساعد»[1]. وكانت المجندة الجديدة البالغة من العمر 18 عاماً مؤهلة للخدمة في بريطانيا، و في سن العشرين كان يمكن إرسالها إلى الخارج. كما تلقت تدريباً عسكرياً لمدة شهر تقريباً قبل أن ترسل في أية مهمة في منطقة خلفية في فرنسا. أما في بريطانيا، فقد سُمح لبعض النساء في فيلق الجيش النسائي المساعد بالعيش في أوطانهن. حيث بدأ التسجيل للعمل في هذا الفيلق في مارس 1917، ووصلت الدفعة الأولى منهن للخدمة في فرنسا في الشهر التالي، حيث عملن كعاملات مكتبيات وطاهيات، وعمل الجزء الأكبر منهن كعاملات بدالة، ولكن قام بعضهن بأداء عمل «لا يليق بالإناث» مثل خدمة المركبات العسكرية.

كانت المرأة المجندة في أحد فروع الخدمة العسكرية البريطانية خاضعة للانضباط العسكري، كما واجهت مخاطر الحرب. وشكل العقد الذي وقعت عليه كل واحدة منهن عند التطوع تهديداً لها بالغرامات وبالسجن إن انتهكت شروطه. وقد قتلت عضوات من هذه الفروع وتعرضن لإصابات فادحة عندما قصف الألمان بالقنابل

---

(1) فيلق الجيش النسائي المساعد: تأسس عام 1917 وفتح المجال أمام المرأة للعمل في الجيش ولكنها لم تحصل على درجة مساوية للرجال في الرتبة العسكرية.

المناطق الخلفية في فرنسا. ومع ذلك لم يطرأ تغيير على مكانة المرأة في الجيش. إذ فرض العرف العسكري البريطاني ألا تُمنح قادة الخدمات النسائية رتبة من الملك، وكانت جميع الرتب العسكرية مختلفة بشكل متعمد عن تلك التي للرجال في القوات المسلحة. فقد حصلت النسوة اللواتي شغلن دور الضباط على لقب «إداريات» وحصلت النسوة اللواتي أدين مهمات ضباط الصف على لقب «مشرفات» أو «كبيرة العاملات المساعدة» وسميت المتطوعات «بالعاملات».

في حين كانت «الإداريات» يتلقين مكافأة محددة سنوياً، فإن المتطوعات اللواتي عملن تحت إمرتهن تلقين تعويضاً يعتمد على نوع العمل الذي يؤدينه. وبالتالي، كانت الموظفة المكتبية تتلقى تعويضاً أعلى من المرأة التي تعمل في المطبخ العسكري، كما أن التي عملت في إصلاح السيارات تلقت أكثر مما حصلت عليه الطاهية أو النادلة أو الغسالة بمقدار الضعف. وقد خدمن جميعهن وهن مدركات أنهن يحررن الرجال لكي يتفرغوا للعمل على خطوط الجبهة.

أما الولايات المتحدة فقد قدمت استجابة أكثر تردداً، إذ رفضت القوات المسلحة تجنيد النساء، ولكن وزير القوات البحرية جوزيفوس دانيلز لم يرَ أي سبب في وجوب اقتصار الكتبة المتطوعين (الضابط المعاون)[1] في صفوف القوات المسلحة البحرية على الذكور. ونظراً لقلة عدد الرجال الذين يمتلكون مهارات الكتابة الأساسية، فقد تمكنت النسوة من سدّ هذه الحاجة الملحة. وفي مارس 1917، بدأت القوات المسلحة البحرية عشية المشاركة الأمريكية في الحرب بتجنيد «المعاونات» واللواتي وصل عددهن 11 ألفاً في نهاية المطاف(22). وبرزت معضلة بيروقراطية تمثّلت في أن الأنظمة تمنع النساء من الخدمة في عرض البحر في حين أن الأنظمة نفسها أمرت بتعيين جميع المعاونات للخدمة على متن السفن. وبالفعل تم تعيين المعاونات في القوات المسلحة البحرية، ولكن على الأقل على الورق، حيث خدمن على متن الزوارق التي غرقت في «نهر بوتوماك».

ولكن مع بداية القتال العنيف في صيف 1918، وجدت قوات مشاة البحرية

(1) Yeomen: ضابط صغير في البحرية يقوم بأعمال مكتبية.

الأمريكية نفسها تعاني من نقص في الجنود المدربين فاستمرت القوات البحرية في دعوة النساء للتطوع. فظهر في مدينة نيويورك وحدها ألفا متطوعة. وفي النهاية، أدرجت قوات المارينز في قوائمها نحو 300 امرأة، مختارةً نسبة ضئيلة جداً فحسب من أولئك اللواتي تقدمن بطلبات. إذ أقصى قادة المارينز معظم المتقدمات الإناث بإجراء اختبار شديد الصعوبة لمهاراتهن في السكرتارية (23). وعلى الرغم من منع المرأة من الخدمة على متن السفن في البحر، إلا أن الإناث في قوات المارينز والقوات المسلحة البحرية حصلن على رتب مساوية لرتب الرجال في حقول الاختصاص العسكرية نفسها، وبلغت بعضهن في القوات المسلحة البحرية منزلة أكبر ليصبحن من كبار ضباط الصف. ومع نهاية الحرب، أصبحن جميعاً مؤهلات للحصول على إعانات قدامى المحاربين.

وكان يجب على الإناث الملتحقات بالخدمة اجتياز فحص بدني فضلاً عن اختبار لمهارتهن المكتبية. وخلافاً للمجندين الذكور، لم تتلق النساء أي تدريب أساسي. إذ حضر العديد منهن لأداء مهامهن المكتبية بعد يوم واحد من أدائهن لقسم الخدمة. وكذلك، لم يكن لدى القوات المسلحة أية تجهيزات تتعلق بسكن النساء، فاضطررن إلى استخدام قدراتهن الخاصة، وقد ساعدتهن علاوة بدل السكن العسكرية على إيجاد سقف يؤويهن. وفي الولايات المتحدة شغلت المرأة النموذجية التي عملت كبحارة أو مع قوات المارينز عملاً مكتبياً، على الرغم من أن البعض منهن عملن كساعيات. وكانت إحدى النساء العاملات في المارينز تقوم بعمل مهم ولكنه محبط، إذ كانت تكتب رسائل التعزية للأسر التي فقدت احد أقاربها في الحرب نيابة عن قائد قوات مشاة البحرية.

أما الألمان فقد أظهروا عناداً كاملاً بشأن إلحاق المرأة بالجيش. فبدأوا في الشهور الأخيرة من الحرب فقط في التفكير بالاستفادة من مساعدة النساء في «سلاح الإشارة». ولكن الصراع انتهى قبل أن تدخل الخطة حيز التنفيذ. كما لم تكن الحكومة الفرنسية والقوات المسلحة الفرنسية أكثر مرونة من الألمان في ذلك الشأن.



النساء في الهيئة البحرية الأمريكية. بموافقة المحفوظات الوطنية

المدنيات العاملات في الجيش

أشركت النسوة المدنيات أنفسهن في القوات المسلحة منذ بداية الحرب. إذ أقامت الفرنسيات المقاصف عند محطات السكة الحديدية يوفرن بعض الراحة للقوات المغادرة إلى الجبهة وللجرحى الذين يشقون طريقهم إلى المستشفيات في المؤخرة. كما أنشأت بعض الشخصيات النسائية، ممن انحدرن في الغالب من بيئة اجتماعية بارزة، المستشفيات والمؤسسات الأخرى التي تبرعن بها للقوات المسلحة. ففي «دونكرك» أنشأت دوقة «سوذرلاند» البريطانية مستشفى في غضون ثلاثة أشهر من بداية الهجمات. كما تأسست في بداية الحرب جمعية من الاختصاصيات البريطانيات في العلاج البدني وهيئة التدليك العسكري للمساعدة في شفاء الجرحى، والتي ازداد عدد أفرادها الأصلي من خمسين مدلكة إلى ألفين بحلول الهدنة. وعندما رفضت

القوات المسلحة البريطانية خدمات الطبيبات، توجه العديد منهن على أية حال إلى الجبهة الغربية لمعالجة المرضى الفرنسيين والبلجيكيين. كما أنشأت شخصيات نسائية أمريكية مقاصف خلف خطوط القتال وتطوعن لقيادة سيارات الإسعاف. وكونت بعضهن مؤسسات خاصة للعناية باللاجئين ولإعادة تأهيل الجنود الفرنسيين الذين أصيبوا بالعمى.

كانت المنظمات النسائية التي تتيح لأفرادها ارتداء البزة العسكرية، مصدر جاذبية للكثيرات. ومن بين الأمور الأخرى التي أنتجها العامان الأولان من الحرب» «الفيلق النسائي»[1] و«فيلق الطوارئ النسائي» و«قوة المتطوعات النسائية». وقد هدفت الأخيرة التي تكونت في سبتمبر 1914 إلى حماية غير المدنيين في حال وقوع الغزو الألماني. كما خدم الفيلق النسائي، الذي تأسس على أيدي «المركيزة لندنديري» في يوليو 1915 لتحقيق غرض أكثر أهمية. إذ قدمت مطابخها العسكرية وسيارات النقل التابعة لها مساعدات جليلة للقوات المسلحة، وسرعان ما تلقت هؤلاء النساء مهمات ليؤدينها.

وفي الوقت نفسه، فإن منظر النساء في لباس يشبه البزة النظامية العسكرية، كان مثار معارضة شرسة لما اعتبر طمساً للحدود الفاصلة بين الجنسين. فقد وبخت مقالات في الصحف البريطانية هؤلاء السيدات لأنهن «جعلن من أنفسهن، بل والأكثر أهمية، جعلن من الزي العسكري الملكي باعثاً على الاستهزاء». ورأت تلك الصحف أن النساء ينبغي بدلاً من ذلك أن «يرتدين قبعات الوقاية من الشمس والفساتين الزاهية، وأن يذهبن للاعتناء بمنازلهن ويُرتبنَ الأسرة أو يجنين الفاكهة أو يصنعن المربيات... هناك أعمال لا حصر لها تستطيع المرأة المساعدة من خلالها(24).

كما قدمت النساء الفرنسيات اللواتي خدمن «كعَّرابات في الحرب» marraines de guerre» نموذجاً فريداً غي تقليدي من الدعم للقوات المسلحة. فقد أصبحن صديقات بالمراسلة للجنود على الجبهة، وخصوصاً لأولئك الذين احتلّ الألمان مدنهم

(1) أنشئ الفيلق النسائي عام 1916 على يد السيدة لندنديري. وكان يقوم بالمهمات نفسها التي تقوم بها المنظمات النسائية الأخرى.

في فرنسا. فقدمت العّرابات للجنود الفرنسيين دعماً معنوياً، نيابة عن من عائلاتهم الحقيقية، وذلك من خلال رسائل البريد. وغالباً ما تلقى الابن بالمعمودية filleul دعوة لزيارة عّرابته في أثناء إجازته.

وفي بداية العام 1915، طرحت شدة الخسائر العسكرية قضية السماح للمرأة الفرنسية بتقديم المساعدة المباشرة للقوات المسلحة. وفي عام 1917، لفت بعض المتحدثين في الرأي العام الانتباه إلى السابقة البريطانية، بل طالبوا بإشراك المرأة في الجيش. ولكن لم يكن لمثل هذه الحملة أي تأثير على السياسة الرسمية.

ووجدت الشابات أنفسهن مدعوات للتوقيع على عقود الخدمة كموظفات مدنيات في الجيش ابتداء من عام 1916. وفتحت الخسائر الجديدة التي مُنيت بها القوة البشرية للجيش الفرنسي خلال معركة فردان المجال لمثل هذه الفرص. ولكن ظلت المرأة العاملة في الجيش تعامل كمدنية على نحو صارم، فلا تؤدي قسم الولاء للدولة، ويمكنها ترك عملها وقتما تشاء. ولم يختلف عمل المرأة كثيراً عن عملها في زمن السلم، فعملت في المطابخ ومحلات الملابس وإذا ما أرادت دخول مكتب عسكري للعمل كسكرتيرة أو كحاجبة، وجدت أنها ممنوعة بشكل كبير من هذه الوظائف.

إلا أن الحال تغير في عام 1917، حيث احتاجت الحكومة إلى تعيين النساء للعمل في الأماكن النائية وأن تبقي على خدماتهن على الرغم من عدم قدرتها على دفع أجور تنافسية. وتطلبت السياسة المتبعة آنذاك من المرأة الراغبة في العمل لصالح الجيش أن توقع عقداً لمدة ثلاثة أشهر، وذلك لمنعها من ترك عملها. وكان رحيل الكثير منهن يتم بناء على رغبة الحكومة في السماح لعدد صغير من النسوة، من غير الممرضات، بدخول منطقة القتال. وكانت هؤلاء النسوة سائقات في فيلق النقل النسائي.

عملت المرأة التي دخلت هذه المؤسسة (فيلق النقل النسائي) - التي بلغ قوامها 300 امرأة فقط - كسائقة خصوصية لضباط الجيش أو كساعية على دراجة بخارية أو سائقة لنقل الجنود الجرحى. وربما وجدت نفسها مرحباً بها من قبل بعض الكتائب كإضافة قيمة لموظفيهم، إلا أن الاستقبال كان يبدو فاتراً في أماكن أخرى. وكان الطلب الرسمي المتمثّل بأن توفر طعامها وملبسها الخاص، وهو غالباً ما تم التهرب



النساء الأمريكيات يقدمن الطعام للجنود على الجبهة. بموافقة محفوظات معهد هوفر

منه في التطبيق العملي، بمثابة إشارة إلى وضعها الذي اكتنفه الغموض. وفي الواقع، خرقت الوحدات العسكرية العاملة على الجبهة القواعد لتجعل عمل هؤلاء النساء أكثر سهولة.

وبعد دخول الولايات المتحدة الحرب، شقت أعداد من النساء المدنيات طريقهن إلى الجبهة. فخدمت الآلاف ممن تم تجنيدهن من قبل منظمات مثل منظمة الصليب الأحمر وشركة الاتصالات الأمريكية وجمعية الشابات المسيحيات، كمضيفات مقاصف وحاجبات ومترجمات وفي أغلب الأحوال كعاملات بدالة ((فتيات الهاتف Hello Girls »)[1]. كما ارتدين جميعاً الزي الرسمي، وأقسمت عاملات البدالة يمين الخدمة رسمياً.

وكان يتوقع من «فتيات الهاتف» بالإضافة إلى العاملات اللواتي وقعن عقوداً للعمل في الجيش، أن يطعن السلطات العسكرية كالجنود تماماً. ومع ذلك، فإن تذبذب سلطات الجيش وتردّدها – خلافاً لتلك السلطات التابعة للبحرية الأمريكية – حالت

(1) اللقب الذي أطلق على الفتيات العاملات على بدالة الهاتف.

دون أن يصبحن أعضاء رسميات في القوات المسلحة الأمريكية. وخلافاً لأخواتهن في القوات البحرية، لم يحصلن على الإعانات المالية كجنديات بنهاية الحرب.

لم يجلب الدور الذي قامت به المرأة كمضيفة مقصف في زمن الحرب إلا فرقاً ضئيلاً على دورها كربة منزل في زمن السلم. وكانت مضيفات جمعية الشابات المسيحيات الأمريكية يهدفن إلى الإبقاء على صلة الجندي بالعالم الذي تركه على الجانب الآخر من الأطلسي. وكان يتوقع منهن أن يوفرن مكاناً مريحاً للجنود وأن يقدمن لهم الوجبات الخفيفة، وأن يكنّ رفيقات ودودات لهم. وبشكل ضمني، كان الهدف منهن الحفاظ على الجنود بعيداً عن الممارسات الجنسية القذرة الدنيئة مع النسوة الفرنسيات، وعن المخاطر التي تنشأ عن الأمراض التناسلية. وقد كانت حياتهن الاجتماعية الخاصة وأوقات فراغهن مراقبة تماماً، ووجدن أنفسهن جميعاً تحت إمرة الموظفين الذكور.

لم يكن هناك أي مهارة خاصة مطلوبة من عاملة المقصف التي كانت تقضي معظم وقتها في غسل الأطباق وتوزيع الكعك المحلى المقلي بالدهن. وحلت هذه الكعكة التي كانت تعد بسهولة وبكميات كبيرة محل «كعكة الفودج»[1] وأنواع الكراميل الأخرى التي تطلبت في صناعتها وقتاً وجهداً أكثر من ذلك الذي يمكن أن توفره عاملات المقصف الغارقات بالعمل. وكثيراً ما كانت الشابات اللواتي شكلن الأغلبية من عاملات المقصف متعلمات وميسورات الحال وأكثر تأهيلاً بكثير من المهمات التي اضطلعن بها.

وفي تناقض واضح، كان لدى المئات من الكاتبات وعاملات البدالة اللواتي جلبهن جيش الولايات المتحدة للعمل في فرنسا في 1918 مواهب أساسية كان الجيش في حاجة إليها. وقد ساورت الشكوك الكثير من ضباط الجيش بشأن جلب نسوة أمريكيات من الجانب الآخر للأطلسي للمساعدة في إدارة شبكة الاتصالات المعقدة. مع ذلك قرر الكولونيل جون بيرشينغ، قائد القوات المسلحة الأمريكية، أن الحاجة إلى النساء ملحة، وخصوصاً إلى عاملات البدالة. كما سبب النظام الفرنسي تأخيراً لا يطاق في نقل الرسائل العسكرية المهمة، فقدمت العاملات الأمريكيات اللواتي

(1) كعكة مصنوعة من الشوكولاته والكريم والبيض والدقيق والحليب والملح والصودا.



«فتيات الهاتف» الأمريكيات في فرنسا، بموافقة المحفوظات الوطنية

أتقن الإنجليزية والفرنسية حلاً لهذه المشكلة، وذلك تحت توجيه القوات المسلحة الأمريكية.

وقد وصلت أول مجموعة مكونة من 33 عاملة بدالة في مارس 1918، حيث تم تجنيدهن بعد حملة صحافية قامت بها شركة الاتصالات الأمريكية وتقدمت للعمل على إثرها أكثر من سبعة آلاف امرأة. ولم تتمتّع معظم العاملات بأية خبرة بشأن المعدات الهاتفية، إنما اختارتهم الشركة على أساس مهاراتهن اللغوية. لذا تلقين تدريباً لمدة شهر في كيفية إدارة لوحة المفاتيح الهاتفية بالإضافة إلى بعض التدريبات العسكرية وتعريفاً بإجراءات قوات الإشارة التابعة للولايات المتحدة. وازداد العدد الأصلي بسرعة ليصل إلى زهاء 500 عاملة بدالة، وعَبرَ نصف هذا العدد تقريباً المحيط الأطلسي ليخدم مع القوات المسلحة الأمريكية(25).

وما إن وصلت عاملات البدالة إلى فرنسا حتى وزّعن على 75 مركزاً. ولاحظ الضباط العسكريون الدفع المعنوي الذي وفّره سماع صوت أنثى رقيقة تتحدث

بلهجة أمريكية عند استخدام الهاتف. وقد ساهمت هؤلاء العاملات بطرق متعددة في النصر الذي حققه الحلفاء. فقد تطوعت جميع العاملات في الخدمة العسكرية في فرنسا، والبالغ عددهن 225 عندما دعت الحاجة إلى مجموعة منهن للخدمة على مقربة من الجبهة خلال هجوم «سانت ميهيل» في سبتمبر 1918(26). كما ساعدت «فتيات الهاتف» في نقل رسائل عسكرية حساسة بكفاءة طوال مدة خدمتهن. واعتمد الجيش أيضاً على رأيهن الصائب. فعلى سبيل المثال، كانت بعض عاملات الهاتف على علم مسبق بتاريخ الهدنة وتوقيتها في نوفمبر 1918. كما قدمن خدمات صغيرة ظلت في ذاكرتهن لتصبح محتوى لأساطير العائلة بعد نهاية الحرب. إذ تذكرت إحدى عاملات الهاتف أن اللواء جون بيرشينغ اتصل بها للتحقق من الوقت في ذلك اليوم.

وقد أدّت الحاجة إلى إيواء الكاتبات وعاملات البدالة ومراقبتهن مشكلة جديدة لقادة القوات المسلحة الأمريكية. واستطاعوا حل هذه المشكلة بوضع هؤلاء النساء تحت إمرة جمعية الشابات المسيحيات. فأنشأ الموظفون في هذه الجمعية قاعات للسكن للنساء الأمريكيات في فرنسا، ووضعوا مرافقات وقوانين داخلية تشبه تلك التي في السكن الجماعي لطالبات الكلية.

ولم تكن النساء الأكثر مهارة دائماً موضع ترحيب من قبل القوات المسلحة. فقد تلقت الطبيبات في الولايات المتحدة رفضاً مطلقاً من وزارة الحرب عندما طلبن أن يخدمن في الحرب. وبدعم من حركة حق التصويت النسائية في الولايات المتحدة، شكلت مجموعة من الطبيبات وحدة استشفاء خاصة بهن حيث كان جميع الموظفين – من الجراحين إلى الفنيين وسائقي سيارات الإسعاف – من الإناث. ولاقت هذه الوحدة استقبالاً حاراً من الحكومة الفرنسية.

الحواشي

1. آني سامرز، «ملائكة ومواطنات: النساء البريطانيات كممرضات عسكريات، 1854–1914» (لندن: روتلدج وكيغن بول، 1988)، ص. 253؛ تريفور ويلسون، «وجوه متعددة للحرب: بريطانيا والحرب العظمى، 1914–1918» (كيمبردج،

إنجلترا: مطبعة بوليتي، 1986)، ص. 711.

2. ماري تي. سارنكي، «العقيد المتقاعد، الولايات المتحدة، تاريخ الولايات المتحدة فيلق التمريض العسكري»، (فيلادلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، 1999)، ص. 91—92، ص. 122؛ غافن ليتي، «النساء الأمريكيات في الحرب العالمية الأولى: وهن يخدمن أيضاً» (نيووت، كولورادو: مطبعة جامعة كولورادو، 1997)، ص. 66—67، العدد 1.

3. مارغريت هـ. دارو، «النساء الفرنسيات والحرب العالمية الأولى: قصص الحرب في الجبهة الداخلية» (أكسفورد: بيرغ، 2000)، ص. 137، ص. 141؛ ريجينا شولت، «ممرضة المحارب العليل: التمريض خلال الحرب العالمية الأولى»، في «العلاقات الجنسية في التاريخ الألماني: السلطة، المؤسسة والتجربة من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين»، تحرير: لين أبرامز وإليزابيث هارفي (دورهام بولاية نورث كارولاينا: مطبعة جامعة ديوك، 1997)، ص. 123—124.

4. فيرا بريتاين، «شهادة الشباب: دراسة عن سيرتها الذاتية للسنوات 1900—1925» (نيويورك: ماكميلان، 1933)، ص. 210.

5. مقتبس من دارو، «المرأة الفرنسية»، ص. 154—155.

6. مقتبس من شولت، «ممرضة المحارب العليل»، في العلاقات بين الجنسين، تحرير. أبرامز وهارفي، ص. 127.

7. مقتبس من المرجع نفسه، ص. 131.

8. مقتبس من لين ماكدونالد، «الورود في المنطقة المحايدة» (لندن: مايكل جوزيف، 1980)، ص. 48.

9. مقتبس من سوزان زيغر، «في خدمة العم سام: النساء العاملات في القوات المسلحة الأمريكية» (المارينز)، 1917—1919» (إيثاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، 1999، ص. 132.

10. مقتبس من ماكدونالد، الورود، ص. 254.

11. مقتبس من سارنكي، «فيالق جيش الممرضات»، ص 98.

12. مقتبس من ماكدونالد، «الورود»، ص. 287.
13. مقتبس من دوروثي شنايدر وكارل ج. شنايدر، «في خطوة مخالفة: المرأة الأمريكية فيما وراء البحار في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك: فايكينغ، 1991)، ص. 111.
14. مقتبس من ماكدونالد، «الورود»، ص. 214–215.
15. إيان هاي، «مائة عام في جيش التمريض» (لندن: كاسل، 1953، ص. 152.
16. غافن، «النساء الأمريكيات»، ص. 248–256، هناك شخصيات مختلفة قليلاً في سارانكي، «فيلق التمريض العسكري»، ص. 122.
17. مقتبس من شولت، «ممرضة المحارب العليل»، في العلاقات بين الجنسين، تحرير أبرامز وهارفي، ص. 130.
18. مقتبس من شنايدر وشنايدر، في «خطوة مخالفة»، ص 109.
19. سيغر، «العم سام الخدمة»، ص. 2.
20. غافن، «النساء الأمريكيات»، ص. 110–114.
21. ويلسون، «وجوه متعددة»، ص. 712.
22. غافن، «المرأة الأمريكية»، ص. 2.
23. المرجع نفسه، ص. 26–27.
24. مقتبس من جيني غولد، «المرأة والخدمة العسكرية في بريطانيا في الحرب العالمية الأولى»، في «ما وراء الخطوط: المساواة بين الجنسين والحربين العالميتين»، المحرر مارغريت راندولف هيجنوت وآخرون، (نيو هافن كونيتيكت: مطبعة جامعة ييل، 198، ص. 119.
25. غافن، «النساء الأمريكيات»، ص. 78.
26. المرجع نفسه، ص. 86.

الفصل الثامن

أسرى الحرب

وقع ملايين الجنود في أيدي الأعداء خلال الحرب العالمية الأولى. وكان الطيارون الذين عملوا فوق مناطق العدو مدركين أنهم قد يقعون أسرى، أما الجندي العادي فلم يكن مستعداً لمواجهة هذا المصير. ومع ذلك لم يتضمن تدريب الجيش تعليمات موسّعة حول كيفية التصرف عند الوقوع في الأسر، إذ اقتصرت التعليمات فقط على كيفية محاولة الهروب. ولم تقدم الثقافة العامة – بقصصها عن الحرب والتي تُسرد للأولاد والشبان – حكايات تصف أحوال الجنود في معسكرات الاعتقال. إضافة إلى ذلك، كان الجنود يفترضون أنهم سيقاتلون وربما يصابون أو يهلكون، وكان لدى الجميع أمل في العودة للوطن سالمين. فوقعت صدمة الوقوع في الأسر وظروف الاعتقال وطول فترة البقاء في أيدي الأعداء كلها وقع المفاجأة.

وقع الكثير من الجنود في الأسر، لكنهم كانوا قلة مقارنة بعدد القوات على الجبهة الغربية. فمن بين أربعة ملايين جندي بريطاني كانوا يخدمون هناك، وقع زهاء 17 ألفاً في الأسر. وهذا يعود إلى أن الجندي البريطاني كان لديه خيار من اثنين فقط، إما أن يُقتل أو يُصاب خلال وجوده في الجبهة، ومع ذلك فأقل من واحد من ثلاثين وقعوا في الأسر. وقد نفذت القوات الأمريكية عمليات واسعة النطاق لفترات قصيرة فقط، ولذلك فإن جنديين من كل ألفي جندي أمريكي ممن خدموا

على الجبهة الغربية وقعا في الأسر(1)

وحتى الحكومات نفسها صدمتها المفاجأة. فقد توقع الكل صراعاً قصير الأمد حاسماً، ولم تكن أيّ من ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا العظمى مستعدة لأسر أعداد كبيرة من الأسرى والسيطرة عليهم. وقد حصلت أمريكا على فرصة رؤية التجربة الأوروبية خلال السنوات الأولى من الحرب. ولكنها لم تكن مستعدة بشكل فاعل للتعامل مع قضية الأسرى عندما أصبحت طرفاً في القتال.

وقد جمعت ألمانيا أكبر عدد من الأسرى خلال الحرب إذ أسرت القوات الألمانية على الجبهة الغربية 535 ألف فرنسي بالإضافة إلى 170 ألف بريطاني وأربعة آلاف أمريكي. وقد اضطرت الحكومة الألمانية للتعامل مع ما يقرب من مليونين ونصف مليون أسير حرب معظمهم من الروس. وقد بدأ هؤلاء الأسرى من الجبهة الشرقية يتدفقون على المعسكرات الألمانية في عام 1914.

كما احتفظت فرنسا بـ 350 ألف أسير عسكري ألماني من بينهم 150 ألفاً أسروا في الأشهر الأخيرة من الحرب. وأسرت قوات بريطانيا العظمى 328 ألف ألماني. كما تمكنت القوات الأمريكية من احتجاز 40 ألف أسير ألماني وقع معظمهم في أيديهم خلال الأشهر الأخيرة من الحرب.

الوقوع في الأسر

تعدّد طرائق وقوع الجنود في الأسر. فقد كان الطيارون الذين تتعرض طائراتهم للقصف فوق مناطق العدو يؤسرون إذا ما نجوا بعد تحطم طائراتهم، أو إذا ما قفزوا بمظلاتهم. وإذا لم يكن الناجون من العمليات في عرض البحر محظوظين بما فيه الكفاية لكي يُنقذوا من قِبَل رفاقهم، فإنهم يجدون أنفسهم وقد أنقذهم قارب معاد. وفي هذه الحالات أُسر عدد قليل من الرجال في وقت واحد.

ولكن وقعت أحياناً أعداد كبيرة في الأسر. فلم يتلق المقاتلون المشاركون في الحرب التي دارت ما بين 1914 و1918 تعليمات دائمة وصارمة بأن يقاتلوا حتى آخر رجل، وذلك خلافاً للتعليمات التي تلقاها الجنود اليابانيون في الحرب العالمية الثانية. فعندما

كانوا يُحاصَرون أو تنفد ذخيرتهم كانوا غالباً يقعون في أيدي العدو. وخلال الهجوم الأول في الشهور الأولى من الحرب وقع 125 ألف فرنسي، وزهاء تسعة آلاف بريطاني في أيدي الألمان. كما استطاع الفرنسيون والبريطانيون الذين اتخذوا موقف الدفاع خلال المرحلة الأولى من الحرب أسر 65 ألف ألماني في بداية العام 1915. وفي هجوم ربيع العام 1918، اجتاح الألمان وأسروا وحدات بريطانية كثيرة. وبلغ عدد الأسرى البريطانيين الذين أُسروا في مارس وأبريل 1918 نصف عدد الأسرى الذين أسروا طيلة فترة الحرب.

وصف أحد جنود المشاة والبالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، والذي وقع في الأسر بعد يوم واحد من دخوله للخنادق في أبريل 1918، الشعور الذي انتاب الكثيرين في ظروفهم الجديدة قائلاً: «لقد كان أفظع شيء في حياتي. لم أكن أتخيل أن هذا يمكن أن يحدث لي. شعرت بالجبن، وبأنني خذلت بلدي ووحدتي وعائلتي... شعرت بالذهول... أن أقع في الأسر، يا له من عار!»(2).

ولكن كثيراً ما أدى الوقوع في أيدي العدو سواء بشكل فردي أو كعنصر في مجموعة صغيرة إلى الحصول على معاملة إنسانية. فقد ذكر طيارون وضباط بحرية أسرى على وجه الخصوص الاستقبال الوديّ الذي تلقوه. فقد أسر طاقم غواصة ألمانية القبطان نورمان لويس من البحرية الملكية في أبريل 1917 وحملوه على متن قاربهم. وكان لويس يقود سفينة مدججة بالسلاح مموهة في هيئة سفينة مدنية بهدف اجتذاب الغواصات وإغراقها. ومع ذلك قوبل بترحيب حار من الطاقم الذي كان هدفاً له قبل ذلك. كتب لويس في وقت لاحق قائلاً: «إن المعاملة التي تلقيتها على متن الغواصة «U—62» خلال رحلة إجبارية لمدة ثلاثة أسابيع تحت الماء لا يمكن أن تعاب. فلم يكن هناك سوى الرفق في التعامل من قِبل الجنود والضباط على حدٍ سواء»(3).

بيد أن الجندي الذي وقع في الأسر في لحظات من قبيل الهجوم الألماني في مارس وأبريل 1918، خاض تجربة مختلفة. فقد تضافرت حدّة المعركة مع الحاجة الملحة لإخلاء الأعداد الكبيرة من الأسرى من المناطق القريبة من القتال. فسار بعض الأسرى البريطانيين في طوابير حتى الجبهة الخلفية من دون حراسة. واستولى الألمان على

أسلحتهم فحسب وحددوا لهم الاتجاه الذي عليهم أن يسلكوه. وهكذا تُرك الأسرى الجدد من البريطانيين يجدون طريقهم لمراكز الاعتقال في المؤخرة. ولكن معظم الأسرى كانوا يُدفعون أثناء سيرهم بأشكال مختلفة من القسوة والوحشية.

وأشار أحد الجنود البريطانيين إلى الأيام المرعبة التي تلت وقوعه في الأسر في أبريل 1918 قائلاً: «اعتُقلت هذا الصباح في الخامسة صباحاً في «لو كورنيه مالو». ولم تكن لديّ أي فرصة. كنت محاصراً بالكامل. اعتنى الألمان بكلّ واحد من أسراهم القيمين... بقيت جريحاً حتى السابعة مساءً... فقط طبيب واحد وممرض واحد من الصليب الأحمر. وسادت المكان فوضى مطلقة، وكانت الضمادات مصنوعة من الورق... لم نحصل على أي طعام منذ ليلة أمس». وتذكر مجند بريطاني ثان، وقع في الأسر في مايو، ظروف وقوعه في الأسر بشكل أكثر قسوة: «كنا نُركل ونُضرب ونُوخز بأعقاب البنادق. وبشكل عام جعلنا ذلك نشعر بأنا أقل ما يقال فينا إننا شيء زائد عن الحاجة لا قيمة له مطلقاً». وبعد أن اقتيدوا إلى المنطقة الخلفية، عمل هو ورفاقه من الأسرى على دفن جثث البريطانيين الملقاة منذ أسابيع في الحقول، وبعد ذلك قاموا بتحميل عربات الذخيرة (4).

كان الأسرى الجرحى يأملون بتلقي العلاج على أيدي القوات التي أسرتهم لكن قسوة الإجراءات التي تمثل صدمة للإنسان المتمدن صعقت الجنود في كونها النمط السائد على جبهة القتال. فقد أنقذ أحد الأسرى البريطانيين في العام 1918 رفيقه الذي أصيب في كوعه بطلق ناري، ووصف ما رأى قائلاً: «كانت يده معلقة بذراعه بقطعة لحم لا يزيد سمكها عن حجم الإصبع»، وفي خيمة الإسعاف الأولى الألمانية، أخرج الضابط الطبي مشرطاً و«بتر اليد وألقى بها فوق كومة من الأذرع والأرجل الأخرى». فلم يملك الأسير البريطاني الذي كان يراقب الموقف إلا أن يقول: «إنه لمنظر مرعب أن ترى هذه الكومة من الأطراف. لسوء الحظ، هذا ما تراه في الحرب»(5). ولبى أحد المجندين البريطانيين من الفرقة الطبية التابعة للجيش الملكي، الذي وقع في الأسر في «إيبر» في نهاية 1917، طلباً ألمانياً بأن يساعد في رعاية جرحى ألمان وبريطانيين. وبقي على مقربة من الجبهة لشهور، وكان يتنقل بحرية حتى إن زملاءه من الألمان منحوه

رتبة نائب رقيب فخرية في جيش القيصر(6).

خلال معظم فترة الحرب، بقي الأسرى الذين سقطوا في أيدي الألمان في مراكز مؤقتة قبل نقلهم إلى أقرب سكة حديد. وهذا كان يعني أن يقضوا أياماً بلياليها في مبان منهارة تحيط بهم الأسلاك الشائكة، أو على أرض مقفرة تحت السماء. ولم يكن إطعام الأسرى يمثل أولوية كبيرة بالنسبة إلى معظم الوحدات الألمانية، وبقي السجناء عرضة للإصابة بنيران مدفعية جيوشهم. وكانت الرحلة إلى ألمانيا تعني يومين طويلين في عربة الماشية على خطّ السكة الحديد بلا طعام ولا ماء. وكانت المراحيض غالباً عبارة عن حوض في منتصف العربة وأحياناً لم يكن هناك مراحيض مطلقاً. ووصف أحد الأسرى البريطانيين ذلك بالقول: «المكان الوحيد الذي كنا نستطيع أن نستعمله كمرحاض هو زاوية في العربة، اخترناه ليستعمله الجميع». ولكن غياب المجاري كان يعني أن «البول سيتسرب من أسفل العربة»(7).

إنشاء منظومة معسكرات الاعتقال

ألمانيا

في ألمانيا، أدّت حشود الأسرى الذين اعتقلوا خلال المراحل الأولى من الحرب– والتي بلغت 625 ألفاً من كل الجنسيات بحلول العام 1915– إلى مدّة من الاضطراب والتخبط. فكان بوسع الألمان توفير الطعام والملابس المناسبين، لكن إيجاد مأوى لهذا الكم الكبير غير المتوقع من الضيوف العسكريين كان أمراً يصعب ترتيبه. وغالباً ما كانت الخيمة هي المأوى الوحيد الذي أمكن توفيره في الشتاء. كما كانت أماكن الاستحمام البدائية تعني البقاء شهوراً دون الحصول على فرصة للنظافة. فعانى الأسرى من القمل تماماً مثلما كان يحدث لهم في الخنادق. وقد كشف تفشي مرض التيفوئي في 1915 مخاطر هذا النظام الهش.

غير أن الألمان واصلوا إنشاء شبكة من المعسكرات التي وجدها الأمريكيون وآخرون محايدون مقبولة إنسانياً ومتوافقة بصورة عامة مع تلك التي أنشأها الحلفاء.

وعلى الرغم من ذلك، احتفظت المعسكرات في شمال ألمانيا قرب الحدود مع هولندا بالنزلاء في ظروف اعتقال مشددة منعاً للهرب. كما أُنشئت بعض المعسكرات بالقرب من الأماكن الصناعية لغرض واضح وهو منع الغارات الجوية المعادية. وقد ضخمت دعاية الحلفاء هذه الحقائق.

كما احتوت معسكرات الألمان على خليط كبير من الجنسيات، فقد ضم معسكر «غار ديلاغين» إلى الشرق من «هانوفر» 4 آلاف روسي و6 آلاف فرنسي و700 بلجيكي و230 بريطانياً في فبراير 1915. وضم معسكر «دوبريتز» الواقع خارج برلين في ذلك الوقت 8300 أسير كانوا خليطاً من البريطانيين والروس. وكانت منظومة المعسكرات الألمانية تشمل 168 معسكراً، خُصص 79 منها للضباط 89 للمجندين. وقد أقام زهاء 7400 مجند في معسكرات الضباط وعملوا خدماً لذوي الرتب العالية.

فرنسا

واجه الفرنسيون مصاعب شبيهة بتلك التي واجهها الألمان. فقد كان عدد الأسرى الألمان 50 ألفاً في بداية العام 1915، وهو عدد صغير نسبياً، لكن الفرنسيين كانوا بحاجة لتوفير المؤن لأعداد كبيرة من اللاجئين من المناطق التي احتلها الألمان. وكما في ألمانيا، مَثل إيواء الأسرى مشكلة أولى. ومع كون فرنسا نفسها محاصرة، فقد شكّل الأسرى الألمان مشكلة أمنية. فأخضعت السلطات الفرنسية كل أنواع المباني للخدمة بما في ذلك السجون والقلاع. وحرص الفرنسيون على وضع السجون في أماكن نائية في غرب فرنسا، فوجد الكثير من الألمان أنفسهم محتجزين في «كورسيكا» وبعض المباني الفرنسية في شمال وغرب أفريقيا.

وفي النهاية، أنشأ الفرنسيون منظومة من 17 معسكراً للضباط و73 معسكراً للمجندين. وبحلول صيف 1916 أغلقت معسكرات أفريقيا. كما أُنشئت مئات المعسكرات الثانوية وكانت تحتجز أسرى أُوكل إليهم القيام بمهمات عمل. وأنشئ أكثر من مائة مستشفى للمصابين والمرضى الألمان وأقيمت عدة معسكرات للمعوّقين منهم.



أسرى بريطانيون وفرنسيون في أيدي الألمان. بموافقة محفوظات معهد هوفر

بريطانيا

وواجه البريطانيون مشكلة أقلّ في الاعتناء بالأسرى خلال المرحلة الأولى من الحرب. ففي فبراير 1915، أقام فقط 15 ألف أسير في معسكرات بريطانية. وبالمقارنة مع ألمانيا، استوفت بريطانيا الحاجة لإسكان السجناء دون ضغط كبير. وتحولت المباني الكبيرة مثل المصانع وبيوت الأثرياء في الريف بسهولة إلى مهاجع للأسرى.

وحينما بدأت أعداد الأسرى بالارتفاع، أنشأت الحكومة 440 معسكراً في بريطانيا العظمى ضمت في النهاية 164 ألف أسير. في بداية 1916، أُسكن بعض أسرى بريطانيا في معسكرات في فرنسا. وتزايد عددهم ليصل في النهاية إلى 184 ألف أسير.

الولايات المتحدة

ولم تضطر أمريكا إلى التعامل مع الأسرى الألمان إلا خلال الشهور الأخيرة من الحرب. فخلال عملياتها الأولى التي بدأت في خريف 1917، نقل الأمريكيون أسراهم

إلى فرنسا. وابتداءً من يونيو 1918، أنشأت الولايات المتحدة منظومتها الخاصة على الأراضي الفرنسية التي شملت عشرة مقرات ضخمة، وتوزع الأسرى على 76 معسكر أشغال أصغر حجماً. كما بنيت المعسكرات خلال احتدام المعارك في الشهور الأخيرة من الحرب حيث كانت أعداد كبيرة من الألمان تستسلم يومياً. لكن السلطات الأمريكية نجحت في بناء عددٍ كافٍ من المعسكرات في الوقت المناسب.

المعاناة في معسكرات الاعتقال

أجرى القاضي البريطاني روبرت يونجر، دراسة في أثناء الحرب لمعرفة كيفية معاملة الأسرى البريطانيين وخاصة الضباط في المعسكرات الألمانية. فقد سنحت له الفرصة لمقابلة أربعة آلاف جنديّ في المعسكرات: بعضهم نجح في الهرب والآخرون عادوا إلى بلادهم بعد الحرب. وخلص يونجر إلى أن المعسكرات الألمانية كانت مخزية. وعلى ما يبدو أن النتيجة جاءت متناغمة مع الشعور المرير الذي ساد في تلك الفترة. وكان الازدحام والطعام غير المستساغ أكثر أمرين تم تسجيلها. كما أشار يونجر إلى نقص وسائل الاستجمام المناسبة التي كانت تعتبر جزءاً هاماً من الحياة اليومية العادية للضابط البريطاني.

كما عانى الكثير من الأسرى في ألمانيا، ولاسيما المجندون، من سوء المعاملة الشديدة والمستمرة. ومع ذلك، فإن شهوداً محايدين وباحثين معاصرين قدموا صورة أفضل من التي عرضها يونجر. فخلال الجزء الأول من الحرب، قام دبلوماسيون أمريكيون بمهمات تفتيش وفحص لمعسكرات أسرى الحرب في كلا الجانبين من خطوط القتال. ولكن بعد دخول الأمريكيين طرفاً في الحرب، أكمل دبلوماسيون من إسبانيا والدانمارك هذا العمل. فكانت هناك العديد من عمليات التفتيش، التي وصلت إلى 200 عملية في ألمانيا في 1916 وحدها. وقام المراقبون الدبلوماسيون بزيارات كل تسعة شهور، مكرّرين زياراتهم للمعسكرات التي لاحظوا وجود ظروف سيئة بها.

كان التفتيش الرسمي لمعسكرات أسرى الحرب يشمل زيارة الثكنات والمرافق الطبية والمطابخ وأماكن الاستجمام. وكان عميد الأسرى عادة يرافق المفتشين. وكان

من المفترض أن تُمنح الفرصة للأسرى للتحدّث بشكل فردي عن شكاواهم في سرية وخصوصية. وقد ساعدت احتجاجات المفتشين في إنهاء سوء المعاملة في المعسكرات الفردية لأن شكاواهم بشكل عام كانت تؤخذ بجدية. وكان على كل طرف من أطراف النزاع أن يتذكر أن له رجالاً في أيدي الأعداء وأن المعاملة السيئة في جانب من خطوط المعركة ستقابل بالمثل في الجانب الآخر.

كما أن الأطراف الأربعة الرئيسية على الجبهة الغربية كانت قد التزمت طوعاً ببنود الاتفاق الذي أقر في «مؤتمر لاهاي» عام 1907. فرغم إخفاق اجتماع مندوبي 44 دولة في تحقيق هدفه الرئيسي وهو تجريم الحرب وإبطال شرعيتها. فقد تمكن من التوصل – ضمن معاهدات دولية أخرى – إلى وضع اتفاقية تضع معايير التعامل الإنساني مع أسرى الحرب. وأُقر في ذلك الاجتماع أن أسرى الأعداء يجب أن يتلقوا نوعية المؤن والملابس نفسها التي تتلقاها القوات الآسرة لهم، وأن محاولات الهرب يمكن أن تعاقب فقط بفرض إجراءات مشددة، وأنه يجب تقديم الرعاية الصحية والملابس الكافية للأسرى. كما يجب أن يحصل الضباط منهم على راتب يعادل ما يحصل عليه نظراؤهم في الدولة التي تأسرهم، وإن كانت هذه المبالغ تظهر في شكل صكوك في معسكر الاعتقال. كما سمحت القوانين بالطلب من المجندين الأسرى القيام بأعمال بدنية ويمكن إجبار ضباط الصف على الإشراف عليهم. ولكن يُمنع إجبار الأسرى على تأدية أي عمل من شأنه المساعدة بشكل مباشر في الجهود الحربية لصالح العدو. وقد وسعت اتفاقيات لاحقة بين المعسكرات المتحاربة، في عامي 1917 و1918، القيود المفروضة في التعامل مع الأسرى العسكريين.

إلا أن ظروف معسكرات الاعتقال لم تكن تخضع دائماً للقوانين، ولم تكن الانتهاكات ظاهرة دائماً للمراقبين. وكان باستطاعة مدراء السجون رسم صورة لتجميل الواقع. فقد وصف أحد المجندين البريطانيين في معسكر قرب «مانستر» في 1918 مظاهر الخداع التي كانت تُعرض أمام الزوار من الصليب الأحمر الدانماركي ومن بينها الوجبات الكبيرة غير الاعتيادية. ولم يكن يتسنى لمندوبي الصليب الأحمر فرصة سؤال الأسرى بشكل منفرد حول ظروف المعسكر، وكان البريطانيون حكماء

بشكل كاف فلم يتحدثوا عن شكواهم أمام آسريهم من الألمان. فإن فعلوا ذلك سيحدث لهم ما وصفوه بقولهم «سوف نعاقب خلف أسوار السجن وسندور حول المعسكر ببطء وعلى ظهورنا حمولة من الطوب أو الحجارة، كانت تضاعف بمقدار النصف» (8).

كما أظهر الوصف الموثوق به للحياة في المعسكرات الألمانية بأن المجندين كثيراً ما تلقوا معاملة وحشية على أيدي الأعداء. فقد وصف الملاح البحري جيمس فارانت في مذكراته عن أربع سنوات في الأسر ما لا يحصى من هذه الأحداث. وبحسب ما رواه فارانت، كان الأسرى البريطانيون يعاقبون دوماً بتعليقهم بالحبال لساعات. وكانوا يرسلون إلى مناجم الفحم كعقاب قاس خاص، وهو ما حاول الجنود التملص منه عن طريق إحداث إصابات بأنفسهم (9).

امتيازات الرتب

كان الضباط يحصلون على معاملة لائقة في الكثير من المعسكرات. فقد ذكر الملازم دوجلاس ليال جرانت من الجيش البريطاني الجولات والنزهات بصحبة مرافق ألماني فقط أو حارس غير مسلح قائلاً: «لقد وقَّعنا على بطاقات وعد شرف نلتزم بموجبها بعدم الفرار على أن نتحرك بحرية ونعود إذا ما أطلقنا بشكل مؤقت. كنا نخرج في دفعات من أربعين شخصاً مرتين أسبوعياً». وقد كان هناك رحلات تسوق وزيارة الحلاق وفي إحدى المناسبات خرج هو وضابطان من زملائه وحارس لمدة يوم لعيادة طبيب عيون. وأنهوا رحلتهم بغداء في حانة فاخرة (10). كما ردّ البريطانيون بالمثل في معاملتهم للأسرى الألمان الذين لم يمنحوا هذه الامتيازات للضباط الفرنسيين. وردت الحكومة الفرنسية، في المراحل الأولى من الحرب، بإبقاء الضباط الألمان حبيسي المعسكرات.

ووصفت مذكرات من معسكرات الاعتقال وضع الضباط البريطانيين بأنه شبيه بالرجوع إلى المدرسة: مجموعة من القوانين التافهة مع وجود وفرة من مجموعات التمثيل ودروس اللغة والأنشطة الرياضية. وسَهّلَ استخدام المجندين كعمال ارتباط



أسرى بريطانيون يقدمون أحد نتاجاتهم المسرحية، بموافقة محفوظات معهد هوفر

(خدم) حياة الضباط الألمان والبريطانيين. فكان للضباط الألمان من ذوي الرتب العالية خادم شخصي. أما الضباط الأدنى رتبة فكان عليهم مشاركة هذا المرافق. فقد عمل الجندي نورمان دايكس الذي أُسر في معركة «سوم» في يوليو 1916 في خدمة الضباط البريطانيين في معسكرات الاعتقال في «جاترشلو» و«كريفلد» حتى سبتمبر من العام التالي. فعمل في تنظيف الغرف وشارك في فريق كرة القدم لعمال الارتباط الذين نظموا مسابقة كرة القدم لفريق الضباط وكان يخدم على موائد طعام الضباط(11).

كما احتجزت بريطانيا بعض المجندين الألمان الأسرى في معسكرات تقع في فرنسا، لكن جميع الضباط الألمان وجدوا أنفسهم على أرض بريطانيا. وكانت وسائل الراحة فاخرة أحياناً. وكان يُسمح للأسرى المحتجزين في قصر في عزبة تُعرف باسم «دونينجتون هول» في «دربي» بالتجول بحرية في منطقة مساحتها عشرة فدادين وأن يستخدموا أجزاء من الأرض لممارسة الرياضة، وكانوا يتمتعون بمنظر خلاب لمنطقة تبلغ عشرة آلاف فدان من الغابات والحيوانات المتجولة.

ودرست السلطات الأمريكية مسألة إرسال كل الضباط الألمان الأسرى إلى

الولايات المتحدة. ولكنهم، في النهاية، أقاموا معسكراً للضباط في فرنسا. في البداية بالقرب من «برست» وبعد ذلك حول قصر إقطاعي فرنسي في «ريشيليو» جنوب شرق «نانت». وقد هُيئت وسائل الراحة للأسرى ذوي الرتب العالية داخل القصر. في حين تناوب ضباط أقل في الرتب ومجموعة من المجندين الذين عملوا كخدم للضباط على المقام في ثكنات مبنية حديثاً.

كوّن الأسرى في «ريشيليو» فريقاً للتمثيل وجوقات غناء وأوركسترا موسيقية. وبوجود معلمين كثيرين بينهم، أسس الأسرى الألمان في «ريشيليو» جامعة صغيرة بفصول تتدرج من اللغات الحديثة إلى الفيزياء والطب. وكان الطلاب قادرين على الحصول على اعتماد دراساتهم من النظام الجامعي في ألمانيا.

مسألة الطعام

كان الوقوع في أيدي الأعداء يعني مشاركتهم ظروف حياتهم. فواجه الأسرى البريطانيون والفرنسيون والأمريكيون في ألمانيا، والذين حصلوا على المؤن نفسها التي كان يحصل عليها العسكريون الألمان، آثار الحصار الذي فرضته بلادهم على ألمانيا، حتى عندما حاول هؤلاء إظهار شرف الالتزام بإطعام أسراهم. وكان من المتوقع أن يقوم الضباط بشراء وجباتهم الغذائية لأنهم يتلقون راتباً من الحكومة الألمانية. وفي بداية الحرب أصدرت وزارة الحرب الألمانية قوانين تحدد نظاماً غذائياً مناسباً لكل المجندين الأسرى ويتم زيادته لأولئك الذين يطلب منهم القيام بأعمال شاقة. فكان النظام الغذائي اليومي للأسير في الفترة الأولى من الحرب يتكون من حساء غني مشبع من الشعير والبطاطس والخضراوات والسجق مع قطع من الخبز والقهوة.

كانت الطرود الغذائية القادمة من الوطن زيادة مرحباً بها وأحياناً ذات أهمية حاسمة. وكان الصليب الأحمر في بريطانيا يدير نظاماً موسعاً لشحن الطرود إلى الأسرى. وحاول حصر قائمة بأسماء الأسرى والمعسكرات التي تحتجزهم. وجُمعت الأموال الضرورية لإرسال طرود لأفراد بعينهم من خلال المساعدات الخيرية الخاصة والتبرعات العامة وجهود الجمعيات ذات الصلة بفرق عسكرية معينة. فكان الجنود

البريطانيون بكل رتبهم يتلقون طرود الصليب الأحمر التي تحتوي على الجبن والمربى ولحم العجل المعلب والحساء. ووصلت الإمدادات المتوالية من الخبز إلى أسرى الحرب البريطانيين من خلال جهود السيدة إفيلين جرانت داف. فمن ضمن مساهمتها في المجهود الحربي، نظمت عمليات شحن الدقيق في السفن إلى سويسرا، حيث تتمّ عملية تجهيز الخبز في جنيف ومن ثم ينقل براً بواسطة السكك الحديدية إلى المعسكرات في ألمانيا. «كان الهدف تزويد كل أسير بطرد وزنه عشرة أرطال بالإضافة إلى ثلاثة عشر رطلاً من الخبز كل أسبوعين»(12).

اعتمد الكثير من الضباط البريطانيين كلياً على الطرود الغذائية التي تصلهم لأنهم وجدوا الطعام الذي يقدمه الألمان مقيتاً. وكانت الرزمة التي قُدمت للأسرى الأمريكيين من قبل الصليب الأحمر الأمريكي سخية كما هو متوقع، فقد احتوت على خمسة وعشرين رطلاً من المؤن الغذائية مثل لحم البقر المملح والمربى، بالإضافة إلى التبغ وأحياناً الحلوى. وبحسب ما يذكر الملازم جرانت فإنه حتى عندما كانت تعاني الجبهة الداخلية في ألمانيا من نقص الغذاء فإن طرود الغذاء الوافرة الآتية من بريطانيا كانت تمر عبر البريد الألماني إلى الأسرى.

ومع ذلك، امتلأت مذكرات بعض الجنود الأمريكيين والبريطانيين بالشكوى من ظروف مجاعة قريبة. إذ لم يكن كل الأسرى مسجلين رسمياً لدى الصليب الأحمر ولم يستطع هؤلاء تلقي المساعدات. كما سرق الألمان كثيراً من الطرود الغذائية. وعلاوة على ذلك، بدأت الظروف في ألمانيا تزداد سوءاً بشكل ملحوظ مع قرب انتهاء الحرب لأن الألمان كانوا يكابدون من أجل إطعام أنفسهم. واضطر معظم السجناء إلى تعويد أنفسهم على الغذاء الهزيل الذي استطاع الألمان توفيره لأسراهم. ورسم أحد الجنود البريطانيين والذي أُسر في الهجوم الألماني في مارس 1918 صورة قاتمة عن الجوع والحرمان في مستقرّه الجديد قائلاً: «كنت جائعاً جداً لدرجة أني قايضت ساعة يدي بشريحة من خبزهم، خلّف الجوع عندي ألماً فظيعاً في المعدة التي باتت فارغة تماماً فلا يوجد ما تهضمه... بعض الأشخاص كانوا يتلوون ألماً، ويدفعون أنفسهم إلى التقيؤ، لكن أنت ليس لديك ما تتقيؤه، وهذا بحد ذاته مؤلم»(13).

وكان الجنود العاملون في الجبهة أكثر من عانى. فلم تدخل إليهم أي من الطرود الغذائية التي استمرت في الوصول للمعسكرات في ألمانيا. وكان الأسرى البريطانيون العاملون على الجبهة يتلقون حصة غذائية يومية مكونة من الشاي مع رغيف خبز لكل خمسة رجال. وحتى في ألمانيا، كان المشهد قاتماً في الأغلب. فقد ذهب الجندي تشارلز إي سارجنت من الفرقة السابعة والثلاثين الأمريكية بعد أسره إلى معسكر اعتقال هناك. وتحدث فيما بعد عن العمل لمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً مقابل بعض الحساء للفطور وقطعة صغيرة جداً من السجق للعشاء (14).

وكان الأسرى الألمان، في البداية، يتلقون وجبات أُسوةً بالجنود الفرنسيين في أوقات السلم. فبعد الإفطار الذي تكون من الخبز والقهوة، كانت الوجبات الأخرى تتألف من حساء به 125جراماً من اللحم أو السمك. كما كان الضباط يتلقون علاوة سخية لشراء طعامهم الخاص. وكان الجنود المكلفين بالعمل الشاق يتلقون حصصاً زائدة من اللحم. وفي عام 1916، غيرت السلطات الفرنسية هذا النظام وقللت من كمية اللحم وأعطت الكمية ذاتها التي تلقاها الأسرى الفرنسيون في ألمانيا. وكان الأسرى الألمان أيضاً يتلقون حصصاً غذائية من وطنهم على الرغم من محدودية هذه المساعدات بسبب العجز الموجود هناك.

كما كانت بريطانيا العظمى تطعم أسراها حسب نظام غذائي وافر يزداد لمن يقومون بأعمال بدنية. وأدت الأزمة في إمدادات الطعام البريطانية، التي كانت تتعرض لمضايقات الغواصات الألمانية في 1917، إلى نقص فيما تلقاه الأسرى. وكان أولئك الذين يمارسون أعمالاً يدوية يحصلون على زيادة بمقدار 4600 سعرة حرارية في الفترة الأولى من الحرب ثم انخفضت تدريجياً في 1917 إلى 3000 سعرة حرارية عندما تم التضييق على إمدادات الطعام.

وكان الضباط الألمان المحتجزون في بريطانيا يتلقون علاوتهم الغذائية نقداً. فيشترون الطعام حسب ما هو متوافر في الأسواق المدنية. وبذلك، كان من المتوقع أن يحصل أي ضابط ألماني خلف الأسلاك الشائكة على الأقل على الغذاء الذي يحصل عليه مواطن بريطاني ميسور الحال. ووفر مقصف المعسكر في «دونينجتون هول»



حارس ألماني مع أسرى حرب بلجيكيين. بموافقة محفوظات معهد هوفر

الفرصة لشراء أصناف مثل سرطان البحر المعلب والشيكولاته.

وتلقى الأسرى الألمان في أيدي الأمريكيين حصصاً غذائية وافرة كالتي تعطى للجنود الأمريكيين. فرأى الأسرى الألمان ما كان يوصف بالوجبات السخية. فقد اشتملت الوجبات التي أعدها طباخون ألمان أسرى في أحد المعسكرات عام 1918 على اللحم المملح والخبز والعصير لوجبة الإفطار، واللحم والبطاطا والخبز للغداء، ولحم العجل المملح والخبز والجبن ولحم الخنزير المملح للعشاء. وكانت القهوة تقدم مع كل الوجبات.

مديرو السجون والحراس

اختلفت قسوة المعتقل من معسكر إلى معسكر، وهذا يعود إلى جملة من العوامل المحلية مثل: الدولة التي تحتجز الأسرى والمناخ والقرب من حدود أجنبية وشخصية مدير المعسكر بشكل خاص. وكانت معسكرات العمل الصغيرة التي أُرسل إليها

المجندون الأسرى أماكن احتجاز أكثر قسوة من المعسكرات الكبيرة.

كان النظام الألماني غير مركزي بشكل خاص. وكان قادة الجيش الذين يحكمون مناطق محلية، يديرون منظومة معسكرات لأسرى الحرب، فيختارون قادة المعسكرات الذين يتمتعون بسلطة واسعة. ولم يبدُ أن قادة معسكرات الاعتقال الألمانية كانوا منسجمين مع مهامهم. فهؤلاء الضباط عادة لم يكن لهم تاريخ عسكري مميز، وكان بعضهم قاسياً بسبب الإحساس بالنقص تجاه أسراهم. كما لم توفّر ألمانيا نوعية الجنود المؤهلين للخدمة كحرس سجون. وبذلك، كما يقول أحد الأسرى البريطانيين «كان معظم الحراس صغار السن غير مؤهلين للخروج من القاعدة إلى الخطوط الأمامية، لقد كانوا حثالة المجتمع الألماني». وكان هناك كبار السن أيضاً، يضيف الأسير البريطاني «كان لدينا واحد أو اثنان من كبار السن وكانوا سريعي الغضب جداً»(15). كما شوهت مذكرات فترة ما بعد الحرب سمعة عدد من قادة معسكرات الاعتقال. وجاء فيها وصف الأخوين التوأمين كارل وهينريش نيمير بشكل كبير. أنهما كانا قائدين لمعسكرين في «هولزميندن» و«كلوستال». كان كارل مدير المعسكر الأول وكان يلقبه الأسرى «ميلووكي بيل»، فقد قضى سبعة عشر عاماً في الولايات المتحدة، فالتوى لسانه بعد إتقانه اللغة الإنجليزية التي كان يتحدث بها بلهجة أمريكية.

المجندون أثناء العمل

كان المجندون الأسرى عرضة للتشغيل من قبل آسريهم. وقد أنشأت كل الدول المتحاربة معسكرات ثانوية حيث كان يحتفظ بالأسرى للقيام بأعمال لصالح آسريهم. وبدأ الألمان في تشغيل أسرى الحرب في 1915، وسرعان ما تبعهم الفرنسيون. أما الحكومة البريطانية فقد بدأت بتطبيق هذا النظام في عام 1916. ونصت «معاهدة لاهاي» على أنه لا يجب أن يرتبط عمل الأسرى بالعمليات الحربية، لكن في دولة تستعد لحرب شاملة من الصعب الالتزام بهذه القيود. فاستخدمت الحكومات في كلا الجانبين الأسرى في مهمات ضرورية للجهود الحربية من قبيل تفريغ السفن التجارية.

أنشأ الألمان الكثير من المعسكرات المخصصة لتشغيل الأسرى في الأعمال

الصناعية. فقد عمل كثير من السجناء في مصانع الفولاذ، وكان العمل في المناجم من أكثر الأعمال مشقة وفظاعة. وأقيم بعض المعسكرات بالقرب من حقول الفحم في «رور» و«سيلسيا» وأخرى أقيمت في جبال «هارتز» في وسط ألمانيا. فوفّر هؤلاء الأسرى مصدر عمالة جاهزة في الاقتصاد الألماني الذي كان يعاني بشدة من نقص الأيدي العاملة. وعمل بعض أسرى الحلفاء في ظروف أشبه بالعبودية. وفي الأشهر الأخيرة من الحرب، وضع الألمان الكثير من الأسرى الجدد على مقربة من الجبهة لتأدية أعمال شاقة. فوجد بعض الأسرى الذين أمضوا فترة طويلة في الأسر أنفسهم قد نُقلوا من مواقع العمل في داخل ألمانيا وحُملوا لخدمة آسريهم على الجبهة الغربية. وفي حين كان الألمان يتراجعون أمام تقدم الحلفاء اضطر هؤلاء الأسرى العمال إلى الانسحاب معهم.

ومع ذلك كان بعض الأسرى الآخرين أكثر حظاً، خاصة أولئك الذين أرسلوا للعمل في المناطق الزراعية. فقد تآلف أسرى الحلفاء في ألمانيا بالفعل مع المجتمعات الزراعية التي عاشوا فيها، فكانوا يسكنون مع عائلات خاصة أو ينزلون في قاعات محلية قروية أو في المدارس في أثناء عملهم في المزارع الكبيرة.

ومن جانب الحلفاء، استُخدم الفرنسيون الأسرى في المزارع والمصانع والمناجم وقد أُسند أكثر الأعمال مشقة –وهو العمل في المناجم– إلى الألمان الذين كانوا في الأصل عمال مناجم في بلادهم. وكانت معظم مهمات الأسرى العمال تشمل عملاً يدوياً، وأدت الاحتجاجات الألمانية بشأن المتعلمين الألمان الذين كان يُطلب منهم القيام بمثل هذه الأعمال الى وجود رد فرنسي متعاطف معهم. وقررت السلطات الفرنسية تشغيل الأسرى المتعلمين غير المعتادين على العمل اليدوي في أعمال خفيفة في المزارع.

كما بدأت بريطانيا بتشغيل الأسرى في الشهور الأولى من عام 1916. وقد عمل الألمان المحتجزون لدى بريطانيا، سواء في بريطانيا أو في فرنسا، في الزراعة وتفريغ السفن التجارية وفي المصانع. وبلغت القوة العمالية ثلاثمائة ألف ألماني لعبوا دوراً رئيسياً في جمع الحصاد سنة 1917. ومع ذلك فإن كثيراً من الأسرى المحتجزين في

بريطانيا العظمى لم يكن يطلب منهم القيام بأي عمل طيلة مدة الحرب.

كما استخدمت الولايات المتحدة الأسرى الألمان في إصلاح الطرق وتفريغ السفن التجارية. وكان الأسرى يتلقون أجوراً حسب مهارتهم في العمل. ولكن للأسف، وقع عدد من الحوادث بعد وقف إطلاق النار، فقتل عدد من الجنود الألمان أو أصيبوا أثناء قيامهم بمهمات خطرة خلال عمليات التخلص من القنابل وقذائف الهاون.

الرعاية الطبية

تفاوتت الرعاية الطبية بشكل كبير وواضح. ففي ألمانيا عانى مجندو قوات التحالف في معسكرات العمل الثانوية بشكل كبير من غياب الأطباء. وقد ثبت أن العمال الذين كانوا يقومون بعملهم بشكل مفرط كانوا عرضة لوباء الأنفلونزا الذي انتشر في خريف 1918 ولكن معظم الأسرى في ألمانيا نجوا من الوباء. وقد تزايدت أعداد الوفيات بسبب سوء التغذية في فترة ما قبل نهاية الحرب، وحتى المواطنون الألمان واجهوا الأمراض نفسها. وبشكل عام، بلغت نسبة الجنود الذين قضوا في المعتقلات الألمانية أقل من 5٪ من مجموع الأسرى. وتوفي معظمهم بسبب أمراض مثل الالتهاب الرئوي والسل.

وعلى الجهة المناوئة لألمانيا وضعت أنظمة مدروسة للعناية بالمرضى والمصابين من الأسرى. وفي المعسكر الأمريكي للأسرى الألمان في «ريشيليو»، شاب الترتيبات الطبية الأصلية بعض النقص، غير أن التحسينات التي أُدخلت على العناية الطبية في الأشهر الأخيرة من الحرب خفضت معدل الأمراض لأقل من اثنين بالمئة. وحتى في الشهور الأولى من الحرب، سعى الفرنسيون لتوفير رعاية طبية جيدة. ففي «تولوز» كان أقل من اثنين بالمائة من أصل تسعمائة أسير مرضى خلال مارس 1915. وكان كل من يحتاج إلى الرعاية يزوره الطبيب يومياً. كما نُقل الأسرى المصابون بأمراض مستفحلة إلى المستشفيات.

التحرر من الأسر: الاعتقال الطبي وتبادل الأسرى

أثبتت القوات المتحاربة خلال الحرب أنها راغبة بجدية في إطلاق سراح الأسرى تحت شروط خاصة. ففي 1915 وافقت كل من ألمانيا وفرنسا على تبادل الأسرى المصابين بشكل حرج والذين لم يعودوا قادرين على القتال. وفي نهاية 1916 عاد أكثر من 11 ألفاً من هؤلاء المعوقين ونحو 2300 ألماني و8700 فرنسي لبلادهم، وقد نُقل ذوو الإصابات الأقلّ خطورة للعلاج في سويسرا وبعد شفائهم طُلب منهم البقاء هناك حتى نهاية الحرب. كما عقدت اتفاقية بين ألمانيا وفرنسا في بداية 1916 نتج عنها ترتيبات استفاد منها 27 ألف أسير ألماني وفرنسي وبريطاني وبلجيكي بنهاية العام. وحسب وصف أحد الباحثين فإن «احتجاز أسرى الحرب المعوقين في دولة محايدة خلال الحرب كان تطوراً فريداً في الحرب العالمية الأولى»(16).

والشيء الجدير بالذكر أكثر من ذلك هو عمليات تبادل الأسرى من الضباط والجنود حسب تجاوزهم لسن معين. فقد أُطلق سراح هؤلاء حسب المدة الزمنية التي قضوها في الأسر. ففي مايو 1917 كان هناك اتفاق بين ألمانيا وفرنسا يدعو إلى تبادل الأسرى من الضباط الذين تزيد أعمارهم عن خمسة وخمسين عاماً، وضباط الصف الذين تزيد أعمارهم عن ثمانية وأربعين عاماً بعد قضاء 18 شهراً كأسرى حرب. بالإضافة لذلك، فإن ضباط الصف الآخرين والمجندين سيتم تبادلهم حسب جدول منظم على قاعدة رأس برأس ورتبة برتبة دون اعتبار لمسألة السن.

الضغط النفسي

شكلت المعاناة النفسية للأسرى مظهراً قاسياً من مظاهر الأسر. وجاءت نتيجة حتمية للقيود في المعسكرات والعمل القهري للمجندين والخمول الإجباري عند الضباط. فقد لاحظ أطباء قوات التحالف المقيمون في معسكرات الاعتقال أن الحالة النفسية للأسرى بدأت في التدهور بعد 18 شهراً. وظهر مصطلح «حمى الأسلاك الشائكة» الذي أطلق لوصف المعاناة الواضحة للأسرى جراء رهاب الأماكن المغلقة الذي أصابهم داخل المعتقلات. وتحدثت إحدى المجلات التي أصدرها الضباط في

المعسكر خلسة عن هذه المشاعر في قصيدة تقول: «ندور في أقفاص مثل أسود في حديقة الحيوان» وتابعت واصفةً كيف كان يتذكر الأسرى «الوجوه الخيالية» للأحباء في الأوطان. حتى إن أسيراً مثل دوجلاس جرانت، المعروف بشخصيته الحماسية، اعترف بالتوترات النفسية التي أصابت من كانوا حوله، وكتب في مذكراته عن أولئك المستلقين في الفراش طيلة اليوم دون أمل أنهم «كانوا لا يفعلون أي شيء»، ويواصل جرانت قوله، ربما ليبقي على معنوياته مرتفعة: «الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو أن تستفيد قدر الإمكان من الوظيفة السيئة وعندما تشعر أنك في بطن الحوت، فكر وتذكّر النبي يونس الذي واجه ضائقته وصبر حتى انفرجت ضائقته»(17).

بعد الهدنة: الحرية والعودة للوطن

اضطر الأسرى الألمان المعتقلون لدى الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين في نوفمبر 1918 أن ينتظروا زهاء عام قبل أن يتمكنوا من العودة لبلادهم. وقد وجد أحد الأسرى الألمان الذي اعتقل في «سانت كوينتين» في «سوم» في صيف 1918 نفسه وقد أعيد إلى «سانت كوينتين» مع مجموعة من رفاقه الأسرى. كانت هناك سكة حديد، لكن الأمل في قرب عودتهم إلى ديارهم تبدّدت فوراً. لقد وُضعوا هناك لإصلاح الأضرار التي حدثت أثناء القتال وقد عُلقت إعلانات على الجدران تذكر الألمان بالوضع. ووصف الأسير الألماني الذي عاد إلى «سانت كوينتين» إعلاناً يقول: «الإمبراطور الألماني، انحنى وذُلّ وحُوصر من قبل اثنين وعشرين علماً من أعدائه»(18).

وبحسب بنود الهدنة، كان على الألمان تحرير أسرى الحلفاء فوراً. وكانت الفرصة الأولى للانتقال لمناطق صديقة من نصيب الأسرى الذين كانوا على الجبهة. فعلم الكثير منهم بأمر الهدنة من آسريهم الألمان وبدأوا في السير بطوابير باتجاه الغرب بكل بساطة. وعلى عكس هؤلاء، فإن آخرين لم يطيقوا انتظار ما سيفعله الألمان. فهرب المئات من الأسرى البريطانيين من معسكرهم في «بروكسل». وعندما أصدر الضباط الألمان الأوامر لقواتهم بإطلاق النار على الهاربين، رفض الجنود تنفيذ الأوامر. وكان الحراس، في كثير من المعسكرات الألمانية، متأثرين بالهيجان الثوري الذي يجتاح

البلاد. ولبس الكثير ممن بقوا في الخدمة عصابات حمراء على أذرعهم رمزاً للثورة واستولوا على مهمات ضباطهم السابقين.

في خضم الثورة، واجهت السلطات الألمانية صعوبات تتعلق بنقل مئات الآلاف من الأسرى الذين تحتجزهم في المناطق الألمانية. فقد كانت الظروف في الكثير من المعسكرات فوضوية في غياب سيطرة شديدة من قبل ضباط مدربين. وكان وصول الضباط الفرنسيين الذين سُمح لهم بعبور الحدود الألمانية هو فقط ما أعاد النظام مرة أخرى. واستغرق الأمر حتى 28 نوفمبر حتى يتمكن الحلفاء المنتصرون من تشكيل لجنة فرعية خاصة بأسرى الحرب تحت سلطة لجنة الهدنة. وبقي معظم الأسرى في معسكراتهم لأسابيع وحتى لشهور. وتنفيذاً لأوامر الحلفاء، جمع الألمان الأسرى في خمسة مراكز تجميع في مناطق مختلفة. ووصلت قطارات الحلفاء القادرة على حمل من ألف إلى ألف وخمسمائة راكب ونقلت الأسرى المحررين إلى موانئ «بحر البلطيق» أو «بحر الشمال» في رحلة بحرية للوطن. وعبر الأسرى القريبون من نهر «الراين» مباشرةً إلى فرنسا وسافر المتواجدون في شمال ألمانيا بالقطار عبر سويسرا. وأُطلق سراح كل الأمريكيين بحلول نهاية ديسمبر أما باقي أسرى الحلفاء من الجبهة الغربية فقد تحرروا بحلول فبراير 1919.

صوّرت تجربة أحد الأمريكيين حالات الإحباط التي واجهها الأسرى السابقون! فقد اضطر أحد الأسرى الأمريكيين في معسكر «لانجنسلازا» بالقرب من «إرفورت» إلى الانتظار حتى بداية ديسمبر قبل أن يصل ممثلو قوات الحلفاء إلى المقر الذي هو فيه. وقد قضى أسبوعين إضافيين في ذلك المعسكر قبل أن تصل القطارات لنقل مجموعته إلى «كاسل» في وسط ألمانيا، ووصل إلى «فرانكفورت» في 25 ديسمبر. ولكن عودته إلى مناطق الحلفاء جاءت في الأول من يناير 1919 بعد سبعة أسابيع من الهدنة.

وتم إخلاء إحدى مجموعات الأسرى البريطانيين إلى جنوب هولندا. وبينما هم في انتظار القطار الذي سيقلّهم إلى «روتردام»، شاهدوا ولي العهد الألماني السابق «فيلهلم» يدخل هولندا التي نفي إليها. كما سافرت مجموعات أخرى تضم كثيراً من الذين يعانون من المرض وسوء التغذية بعربات الماشية في القطار إلى ميناء «ستيتين» على

بحر البلطيق. وهناك ركبوا على متن سفن طبية تابعة للصليب الأحمر إلى الدانمارك وبعد أسابيع من تعافيهم خاضوا رحلتهم البحرية الأخيرة إلى «ليث» في اسكتلندا. حتى في ظروف الحرية، لم يستطع بعض الأسرى السابقين استعادة صحتهم وهلكوا في طريق العودة إلى الوطن. وقد تخللت الرحلة، عبر بحر البلطيق إلى كوبنهاغن ثم إلى بريطانيا العظمى، عمليات دفن للموتى في عرض البحر.

وعند عودتهم للوطن، طُلب من الكثير من الضباط البريطانيين أن يصفوا كيفية وقوعهم في أيدي الأعداء. ولم يكن هناك أي جهود من السلطات للإلقاء باللائمة على أولئك الذين عانوا من هذا المصير. وبدلاً من ذلك، تلقى المحررون من الضباط خطاباً رسمياً يعفيهم من أي لوم لوقوعهم في الأسر. ولم يخضع الجنود كذلك لأي تحقيق. فالمفترض أنهم كانوا تحت تصرف الضباط في كل الأوقات ووقوعهم في الأسر لم يكن بأية حال من الأحوال خطأهم هم.

وتلقى الأسرى الألمان الذين وقعوا في أيدي قوات الحلفاء التصريح بالعودة إلى بيوتهم بعد ذلك بكثير. فقد نصت اتفاقية «فرساي» على إطلاق سراحهم، لكن بعد المصادقة على الاتفاقية. ولم يكن الفرنسيّون في عجلة من أمرهم لإعادة الأسرى إلى وطنهم وذلك لأن الأسرى الألمان كانوا يوفرون عمالة هم في حاجة إليها لإصلاح أضرار الحرب.

ولم تجد الحكومتان الأمريكية والبريطانية فائدة كبيرة من الأسرى في هذا المجال وقد صُعقتا بالأعباء المالية جراء نفقات حراستهم وإطعامهم. إذ بلغ عدد الأسرى 41 ألفاً في أيدي الأمريكيين و200 ألف في أيدي البريطانيين. فبدأ الأمريكيون والبريطانيون في نقل الألمان دون انتظار المصادقة على الاتفاقية. فأُطلق سراح الألمان الذين كانوا في أيدي الأمريكيين في سبتمبر 1919 وبدأ البريطانيون عملية إطلاق سراح الأسرى في أغسطس وانتهوا في أكتوبر. أما معظم الأسرى الألمان في أيدي الفرنسيين فقد بقوا محتجزين لمدة 18 شهراً وحتى لسنتين بعد الهدنة. وعلى الأقل خاض بعضهم، ممن أسروا في الأشهر الأولى من القتال عام 1914، تجربة ست سنوات خلف الأسوار الشائكة في معسكر اعتقال فرنسي.

الحواشي

1. الإحصائيات حول أعداد السجناء ووصف نظام معسكر السجن مصدرها الدراسة الوافية التي أجراها ريتشارد بي. سبيد، الإصدار الثالث، «الأسرى، الدبلوماسيون، والحرب العظمى: دراسة في دبلوماسية الأسر» (نيويورك: مطبعة جرينوود، 1990). الروايات الشخصية الأكثر فائدة حول تجربة الأسرى، على الرغم من أنها محصورة بشكل رئيسي في السجناء البريطانيين، يمكن أن نجدها في ريتشارد فان إمدين: «آخر الأسرى في الحرب العظمى» (لندن: ليو كوبر، 2000).
2. مقتبس من فان إمدين، «الأسرى»، ص 21.
3. مقتبس من روبرت جاكسون، «الأسرى، 1914–1918» (لندن: روتليدج، 1989) ص. 15–16.
4. المصدر نفسه، ص. 19، ص. 23–24.
5. مقتبس من فان إمدين، «الأسرى»، ص. 43.
6. فان إمدين، «الأسرى»، ص. 60–66.
7. المصدر نفسه، ص. 47.
8. المصدر نفسه، ص. 135–136.
9. مايكل مونيهان محرراً، «الخبز الأسود والأسلاك الشائكة: أسرى الحرب العالمية الأولى» (لندن: كوبر، 1978) ص. 1–30.
10. المصدر نفسه، ص. 87، 94، 107– 108.
11. المصدر نفسه، ص. 119–135.
12. جاكسون، «الأسرى، 1914–1918»، ص. 64–68.
13. مقتبس من فان إمدين، «الأسرى»، ص. 124.
14. جيمس إتش. هالاس، «حرب الجندي الأمريكي، القوات المسلحة الأمريكية في الحرب العالمية الأولى» (بولدر، كولورادو: منشورات لين راينر، 2000)، ص. 192.

15. مقتبس من فان إمدين، «الأسرى»، ص. 87.

16. سبيد، «الأسرى، الدبلوماسيون» ص. 37.

17. مونيهان، «الخبز الأسود»، ص. 79.

18. ستانلي وينترب، «سكون يرن حول العالم: نهاية الحرب العظمى، نوفمبر 1918» (نيويورك: إي. بي. داتون، 1985)، ص. 337.

الجزء الثاني

الحياة المدنية

الفصل التاسع

الجبهة الداخلية

تسللت تأثيرات الحرب إلى حياة المدنيين في جميع البلدان المتحاربة ابتداء من أغسطس 1914، إذ ألقى ذلك الصراع بظلاله على مواقع العمل والمنازل وأماكن الترفيه العامة والمدارس. كما أن كل ما قرأه الأفراد وقالوه أظهر حرص الحكومة على مواصلة الحرب بحماسة، وحتى عالم الطفولة وقع تحت وطأة هذا النزاع.

في بعض البلدان المتحاربة، دعت الفرصة المتاحة لتوسيع الاقتصاد عدداً هائلاً من الأفراد إلى إعادة التوطين في مناطق جديدة. فالولايات المتحدة على سبيل المثال شهدت هجرة محلية واسعة للأمريكيين الأفارقة. كما أثر تضخم الأسعار بشدة على ميزانيات الأسرة. وجلب نقص العمل في زمن الحرب أعداداً لم يسبق لها مثيل من الأجانب – عادة من البلدان الأوروبية، وأحياناً من الأجزاء غير الغربية من العالم– إلى المجتمعات الأوروبية.

كره الأجانب

احتاج المواطنون في كل مكان إلى القليل من التشجيع للتنفيس عن مشاعرهم ضد القاطنين عندهم من بلاد العدو. وفي كل مكان كان الأكثر أماناً أن يظهر الفرد انتماءه إلى المكان الذي يقطن فيه على نحو لا يرقى إليه الشك. ففي إنجلترا سارع الناس إلى

التخلي عن الأسماء العائلية التي تشبه الأسماء الألمانية، وفي ألمانيا اعتقد مالكو فندق «ويستمنستر» ومقهى «بيكاديلي» أنه من الحكمة إعادة تسمية مؤسستيهم فندق « ليدنهوف» ومقهى «فاترلاند أو المقهى الوطني». وحتى أسماء الشوارع التي كانت سائدة في وقت السلم، لم تعد الآن مناسبة، لذا فإن «شارع ألمانيا» في باريس تغير كليةً إلى «شارع جان جوريه». ومع استمرار الحرب، حذر الموظفون الرسميون في السفارة الأمريكية في برلين رعاياهم من التحدث باللغة الإنجليزية في الأماكن العامة.

وبمرور الوقت ازدادت المشاعر الشعبية تأججاً. ووصل الحقد العميق تجاه العدو إلى الفنون والمنح الدراسية. فالعازفون الموسيقيون أمثال توماس بيتشام والمدن الفرنسية بأكملها مثل مدينة «نيس» رفضت عزف الموسيقى الألمانية. وكذلك الأمر بالنسبة لمحرري «تاريخ القرون الوسطى» في جامعة كيمبردج الذين رفضوا قبول المساهمات التي سبق أن قبلوها من العلماء الألمان البارزين. وألقى أحد أساتذة جامعة برلين، خطاباً في مدينة ميونخ، دعا فيه جمهوره إلى «كره كل ما يمت إلى الإنجليز بصلة» قائلاً: «يجب أن نكره الروح الانجليزية ذاتها»(1).

كما جعل دخول أمريكا الحرب من ربيع عام 1917 لحظة لإزالة العناصر الألمانية من حياة ذلك البلد. غير أنها لم تكن بالمهمة البسيطة، وذلك لأن الكثير من سكان الولايات المتحدة لهم جذور ألمانية. ومع ذلك، حُظِر تدريس اللغة الألمانية في الكثير من المناطق، واختفت الموسيقى الألمانية من قاعات الحفلات الموسيقية الوطنية. واستعيض عن المصطلحات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بلغة العدو الجديد مثل «هامبورغر» و«مخلل اللفت» أو «الحصبة الألمانية» بمرادفات وطنية آمنة: مثل «شريحة لحم الحرية» و«ملفوف الحرية» و«حصبة الحرية». كما أن الإقامة في بلدة «برلين» بولاية أيوا، تسبّبت بمشكلات واضحة لسكان تلك البلدة حتى تم تغيير الاسم إلى «لينكولن».

وامتدت شعبية العداء للألمان إلى درجة العنف الغوغائي. إذ أقدم خمسمائة عضو من الغوغاء في مدينة كولينسفيل، إلينوي، خارج سانت لويس، ميزوري، إلى إعدام شاب في أبريل 1918 لمجرد أنه ولد في ألمانيا. وعرض المتهمون في تلك الجريمة على القضاء إلا أنهم برئوا في غضون دقائق من قبل هيئة المحلفين المتعاطفة.

الصناعة

أصبح المصنع المكتظ بالعمال الكادحين لساعات طويلة وفي ظروف قاسية علامة مميزة في زمن الحرب. وبدأت قيود العمل التي كانت مفروضة قبل الحرب تتلاشى مع بداية النزاع ومع الحاجة الشديدة إلى إنتاج الأسلحة والذخيرة. وأدّت الحاجة العسكرية إلى العمال إلى فترات من الازدهار في الكثير من المناطق منذ بداية الحرب. فالطلبات المتزايدة على الأحذية نتيجة لتوسع الجيش البريطاني انهالت على المصانع في منطقة «لسيستر» حيث تتركز تلك الصناعة. وبنهاية عام 1914 كشف تقرير صادر عن نقابة العمال هناك عن أحجام المطالبة بفرص عمل: للمرة الأولى على الإطلاق، لم يتقدم أحد من أعضائها بطلب الحصول على الاستحقاقات الوظيفية(2).

وهكذا امتلأت المصانع في الكثير من الدول بالعمال الذين سرحوا من الخدمة العسكرية– أو أُعفوا منها– بسبب دورهم القيم في الصناعة. ودخلت المرأة بأعداد كبيرة في عداد قوة العمال لإنتاج المواد الحربية. وفي الولايات المتحدة، دعت الحاجة إلى زيادة قوة العمل لفترة من الوقت إلى إزالة الموانع ضد توظيف الأمريكيين من أصل أفريقي.

وفي نهاية 1916، حاولت ألمانيا تطبيق نظام صارم لزيادة القوى العاملة في المصانع حيث طالب «قانون مساندة الخدمة الوطنية»، المُسمى «برنامج هندنبورج»[1]، جميع الذكور من سن سبعة عشر عاماً وحتى الستين بالعمل في المصانع الحربية، ولكن صعوبات فرض مثل هذا الإجراء ظهرت في الحال، وقامت الحكومة باستثناء فئات كبيرة من الرجال مثل الطلاب والموظفين المدنيين. وفي الوقت نفسه، أُنشئت لجان لدراسة طلبات الحالات الصعبة من أولئك الرجال الذين ادعوا الضرر. فالكثير من الرجال تجنبوا التسجيل أو سعوا إلى الحصول على إعفاء لأسباب صحية، في حين ادعى آخرون بشكل زائف أنهم مزارعون وبالتالي لا يطاولهم هذا القانون.

أحست كل من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا بالإرباك لأن عمال المصانع ألقوا بأدواتهم

(1) برنامج التسلح الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى.

جانباً ودخلوا في إضراب. فالدور الضروري لعمال المناجم، وعمال مصانع الذخيرة، وأولئك الذين يديرون نظام المواصلات في زمن اقتصاد الحرب أعطاهم قوة دفع هائلة. وخلال المراحل الأولى من الحرب، كانت الوطنية قوة دافعة حملت مثل أولئك العمال على شغل الوظائف، والإحجام عن المطالبة بامتيازات رئيسة. ولكن في 1913 فقدت بريطانيا وحدها عشرة ملايين يوم عمل بسبب الاضطرابات الصناعية. وفي 1915، انخفض العدد الإجمالي إلى ثلاثة ملايين يوم، وتواصل الانخفاض في السنوات التالية. وفي مقاطعة «إيسير» جنوبي فرنسا، كان هناك خمسة عشر إضراباً في أول سبعة شهور من عام 1914، وعشرة إضرابات فقط في الأشهر الثلاثين التالية من الحرب(3).

ومع استمرار الصراع، انتعشت العمالة العسكرية في كل من فرنسا وبريطانيا. واختلط مشهد رجال الأعمال وهم يحصدون الأرباح في زمن الحرب مع مشهد التضخم الذي قرص عوائل العمال ليسبب الحسرة والمرارة في كافة أنحاء الجبهة الداخلية للحلفاء. كما اندلعت الاضطرابات العمالية في بعض مناجم الفحم في مقاطعة «ويلز» البريطانية وفي أحواض بناء السفن الاسكتلندية في وقت مبكر من الأشهر الأولى من عام 1915.

في مارس 1917، انقلب عمال المصانع الروسية (جنباً إلى جنب مع الجنود المتمردين والبحارة) على النظام السياسي القائم. وانتهز الكثير من العمال في الدول الأخرى المتحاربة هذه الثورة كإشارة لتقديم شكاويهم، حيث شهد ذلك العام اضطرابات عمالية في بريطانيا حول قضايا تراوحت بين توظيف العمال الصينيين وعدم التكافؤ في الأجور بين عمال الذخيرة وعمال المناجم. وفي أواخر سبتمبر، كان هناك 75 إضراباً خلال فترة أسبوع. ومع نهاية العام، اندلعت إضرابات احتجاجاً على ارتفاع أسعار الغذاء – والتي تصاعدت حدتها في بعض الأحيان لتصل إلى درجة الهجوم على مخازن الغذاء– في «كوفنتيري» و«برمينجهام».

ولكن النواة المركزية للانتماء الوطني ظلت ثابتة. فشروط السلام القاسية التي فرضها الألمان على الروس في معاهدة «بريست ليتوفسك» في مارس 1918 ساعدت

على منع انتشار الاستياء بين العمال في أوروبا الغربية. فكتب أحد قادة العمال البريطانيين: «حتى الاشتراكية الألمانية التي تمثل العمال في تلك الدولة سمحت لهذه التسوية المؤلمة بأن تُفرض على عمال الحكومة في روسيا». مشيراً إلى أن الرغبة الروسية لوقف القتال، سمحت للألمان فقط «بتنفيذ برنامجهم التوسعي إلى أبعد مدى»(4). وفي ذلك العام، عزز التهديد الذي فرضه هجوم الربيع الألماني الخطير على الجبهة الغربية رغبة العمال البريطانيين لدعم المجهود الحربي. وحتى في مناطق «جنوب ويلز» المشهورة بمعارضتها للحرب، اندفع شُبان المناجم للتجنيد. ومع ذلك تواصلت الإضرابات العرضية، مثل احتجاجات شرطة لندن في أواخر أغسطس 1918، ولكن لم يحدث أي شيء يمنع تدفق الرجال والأسلحة إلى الجبهة.

وفي فرنسا، شهد ربيع 1917 أيضاً، موجة اضطرابات عمالية اندلعت جزئياً بسبب ارتفاع الأسعار. وإذا كانت الشعارات الشعبية تمثل إشارة أو دليلاً، إلا أن الاحتجاجات أظهرت أيضاً رغبة بعض العمال في وضع حد للحرب. وبعد مرور عام، وحتى أثناء مواجهة هجوم الربيع الألماني، ظهرت اضطرابات عمالية أشد خطورة في قطاع صناعة المعادن المهمة، كما شجعت الثورة الروسية في نوفمبر 1917 النقابيين الثوريين على الدعوة إلى وضع حدٍ للحرب وإلى الثورة في فرنسا.

ولكن سرعان ما تلاشى مثل هذا الطموح. إذ لجأت حكومة رئيس الوزراء جورج كليمنصو إلى القمع الوحشي، وألقت القبض على عدد من زعماء الإضراب، وشددت الرقابة على النظام، بل وصل الأمر إلى حدّ إرسال عدد من قادة الإضراب إلى الجبهة. ولكن نجاح كلمينصو يرجع أيضاً إلى تعهد معظم العمال بمواصلة دعم الحرب حتى تحقيق النصر. كما دَعَمَ رؤية وصول القوات الأمريكية الآن بمعدل 250 ألف جندي في الشهر، الأمل بإمكانية كسب الحرب، وعبّر أحد المؤرخين عن ذلك بالقول: «ربما كان مخزون الوطنية لدى المواطنين الأقل امتيازاً في الجمهورية هو المفتاح لفهم سبب تمكّن الأمة الفرنسية من المضي إلى النهاية المريرة»(5).

كما هدد العمال المضربون في ألمانيا أيضاً المجهود الحربي. ففي أوائل مايو 1916، شملت الاحتجاجات في مدينة برلين الآلاف ممن رفعوا شعار «الخبز، السلام،

والحرية»، وكان ذلك بمثابة نذير شؤم للسلطات الألمانية، لأنهم دمجوا المطالب السياسية مع المطالب الاقتصادية. ورافقت الإضرابات التي تلت ذلك بصرف النظر عن أسبابها أهداف سياسية أكثر علانية. كما أدى الانخفاض في حصص الخبز في ربيع 1917 إلى احتجاجات هائلة انطلقت من المصانع الحربية، بدايةً من برلين ولايبزغ، ومن ثم في معظم أرجاء البلاد. وبشكل إجمالي، أضرب أكثر من 600 ألف عامل في عام 1917، وبذلك يكون هذا العدد قد تجاوز خمسة أضعاف عدد الذين تخلوا عن أماكن عملهم في السنة السابقة(6).

وفي يناير 1918، اندلعت إضرابات هائلة، نظمتها الأحزاب السياسية اليسارية في مصانع الذخيرة في برلين. وشملت مطالب المضربين مرة أخرى بنوداً غير سياسية مثل الدعوة إلى تحسين إمدادات الغذاء. ولكن دعا العمال أيضاً وبشدة إلى العمل على وضع نهاية سريعة للحرب. ولم تفلح حشود شرطة الخيالة، ولا توسّل الحكومة بأن مثل تلك الإضرابات قد تعرض الجنود الألمان على الجبهة للخطر، في وقف الاحتجاجات. وبحلول اليوم الأخير من الشهر، شهدت معظم المدن الألمانية الكبرى إضرابات مماثلة، ووصل عدد العمال الذين تخلوا عن أدواتهم إلى مليون عامل. مما حدا بالحكومة إلى إلقاء القبض على قادة الإضراب، وإلحاقهم بالخدمة العسكرية، وإرسالهم إلى الجبهة الغربية. كما أن رد فعل الحكومة القاسي إلى جانب التهديد بعسكرة المصانع- وجعل جميع العمال يخضعون للمحاكم العسكرية ومساواة أجورهم بأجور الجنود الضئيلة- أدى إلى فترة من الهدوء المشوب بالحذر(7).

وفي الولايات المتحدة، تمكن الأمريكيون بفضل الرخاء الاقتصادي والفترة القصيرة نسبياً التي اشتركت فيها في الحرب من إخماد الإضراب الصناعي. فمن خلال تقديم عقود «النسبة المئوية على التكاليف cost-plus»[1] السخية لأرباب العمل، شجعت الحكومة هؤلاء على دفع أجور عالية للمستخدمين. ومع دخول البلاد لحلبة الصراع في أبريل 1917، تبنّت الحكومة سياسات تؤكد إثارة مشاعر العمال. وشملت تلك السياسات نقل العاملين في الصناعات الرئيسية إلى الجيش، أو إلزام العمال بالبقاء في

(1) نوع من العقود يعتمد أسلوب التكلفة المستردة مضافاً إليها هامش ربح متفق عليه مسبقاً.

الوظائف التي رغبوا في تركها. وبالتالي ساعد رفض مثل تلك التدابير على ضمان أمن العمل. وعلاوة على ذلك، دعم أهم زعيم نقابي في البلد، وهو صموئيل غومبيرس - زعيم الاتحاد الأمريكي للعمل - المجهود الحربي بحرارة.

ولكن أبقت الحكومة على بعض التدابير القاسية كإجراء احترازي. فقد وجد العمال المضربون في صناعات قطع الأخشاب ونقلها في المنطقة الشمالية الغربية من المحيط الهادي- والذين يمثلون قطاعاً اقتصادياً رئيسياً - أنفسهم يواجهون مثل هذا الإجراء من واشنطن. حيث سحقت الحكومة الاتحادية «عمال الراديكالية الدولية» في العالم، وهو الاتحاد الذي ينتمي إليه بعض الحطابين. ومن ثم قامت بوضع القوات العسكرية في ملابس مدنية للعمل في قطع الأخشاب، وشكلت اتحاداً تديره الحكومة. ومع ذلك، ولتلطيف الأجواء، رتبت السلطات الاتحادية لتحسين الأجور والظروف المعيشية في مخيمات الأخشاب في المنطقة. وحتى نقل العمال إلى المؤسسة العسكرية بدا وسيلة كانت السلطات على استعداد لاستخدامها. ففي أوائل 1918، مُنع عمال أحواض السفن- وفي وقت لاحق من العام ميكانيكيون في المصانع الحربية - من الإضراب بسبب ذلك التهديد.

وبشكل عام، تمتع جميع العمال الأمريكيين بفوائد زمن الازدهار مع وفرة فرص العمل، والأجور المرتفعة، إضافةً إلى رغبة الحكومة الاتحادية لقبول - وإن لم تشجع في الحقيقة- نمو النقابات العمالية. فقد عاش العمال الأمريكيون في عالم صناعي بعيداً عن إضرابات العمل المُسيس والمرير التي مر بها عدوهم الألماني في ساحة المعركة.

النزوح والهجرة

تسبّبت الحرب بموجة من النزوح الداخلي لأن العمال في بريطانيا وفرنسا وألمانيا- وفي وقت لاحق الولايات المتحدة- تدفقوا على مناطق النمو الاقتصادي. فقد أنشأت «وزارة الذخيرة»[1] تحت إدارة لويد جورج المصانع العسكرية، واستقطبت مجموعة

(1) أنشئت هذه الوزارة في بريطانيا في العام 1915 بهدف معالجة سد النقص الكبير في الذخيرة البريطانية، وقد ألغيت في العام 1992.

من العمال لتشغيلها في الأماكن النائية مثل «جريتنا» في اسكتلندا الجنوبية بالقرب من الحدود البريطانية. وقد ارتفع عدد سكان باريس إلى الضعف تقريباً بين بداية الحرب ونهاية عام 1915. وازدهرت المراكز الصناعية الألمانية مثل «إيسن» و «دورتموند».

ضمّت القوة العاملة الأوروبية أعداداً كبيرة من الأجانب. فكان البلجيكيون الذين عملوا في بريطانيا من الإشارات التي دلّت على توسع النظام الاقتصادي. وأحضر الألمان 600 ألف بولندي غرباً للمساعدة في ملء الشواغر في قوة العمل في المزارع الألمانية. كما قادت حاجة فرنسا الماسة للقوة البشرية لتوسيع استيرادها التقليدي للعمالة الأوروبية، إضافة إلى استقطابها زهاء ربع مليون عامل غير أوروبي، مكونة خليطاً عرقياً من ذوي البشرة البيضاء وغير البيضاء، بالإضافة إلى المسيحيين والمسلمين، وهذا الخليط العرقي لم يكن معروفاً في مكان آخر في القارة الأوروبية.

واتسمت حركة النزوح داخل الولايات المتحدة الأمريكية بعواقب بالغة الأهمية مع مغادرة الأمريكيين من أصل أفريقي المناطق الريفية في الجنوب لملء الوظائف الصناعية في الشمال، وكانت الممارسات العنصرية منعت في السابق هذه الشريحة من السكان من مثل هذه الفرص، عندما كان العمال يتدفقون من أوروبا. ولكن بعد عام 1914، توقف ذلك التدفق، وزاد تجنيد الملايين للخدمة العسكرية بدءاً من عام 1917 وحتى 1918 من الحاجة إلى قوى عاملة لتشغيل مصانع البلاد. وحتى قبل دخول الولايات المتحدة الحرب بدأ وكلاء الشركات الصناعية اعتماد سياسات التعزيز لجمع العمال من السكان السود في جورجيا وفلوريدا.

وصل أكثر من 300 ألف عامل أمريكي من أصل أفريقي إلى المراكز الصناعية في الغرب الأوسط مثل شيكاغو وديترويت. ورداً على ذلك عزم الزعماء البيض في الجنوب على وقف هذا الاستنزاف في مخزون العمالة لديهم. فجرى الضغط على العمال برسوم تراخيص العمل العالية، حتى إن عمدة إحدى المدن الكبرى في الجنوب طلب من رئيس سكة الحديد المركزية في إلينوي، منع الأمريكيين الأفارقة من استعمال القطارات لشق طريقهم شمالاً. ولكن لم تفلح مثل هذه المحاولات اليائسة لتقييد هذه الأقلية المضطهدة، نظراً إلى حاجة البلاد الملحة للعمالة. وعلى الرغم من التمييز

العنصري الذي مارسته اتحادات العمال البيضاء وحتى الاضطرابات العرقية، إلا أن موجات النزوح تواصلت. فشهدت مدينة شيكاغو وحدها وصول 600 ألف أمريكي أسود من الجنوب الريفي، ممن دفعتهم فرص العمل إلى الرحيل، ناهيك عن النظام القاسي الذي أثقل كاهل أسلافهم من قبل.

حذت فرنسا حذو الولايات المتحدة في استيراد أعداد ضخمة من العمال الأجانب قبل عام 1914. لكن الفرنسيين واصلوا استيراد العمالة الأوروبية بعد اندلاع الحرب. وعلاوة على ذلك، كان لدى فرنسا الاستعمارية مخزون كبير من السكان الأجانب الذين يمكنها اللجوء إليهم. فوجد الكثير من عمال المصانع الفرنسيين أنفسهم يعملون جنباً إلى جنب الأسبان واليونانيين والبرتغاليين، بالإضافة إلى التونسيين والمغاربة والصينيين الهنود. وقد تجمع أولئك المهاجرون في باريس ومرسيليا، حيث لطالما تواجدت أعداد كبيرة من الأجانب. ولم يقتصر الأمر على تلك المدن الكبرى بل تواجدوا أيضاً في المدن الصغرى مثل «بورجز» و«بريست» و«لو هافر»، حيث جذبت المصانع العسكرية العمال الأجانب. كما ساهم أكثر من نصف مليون عامل أجنبي، بالإضافة إلى زهاء مائة ألف أسير حرب نمساوي – أسترالي، في تشغيل الاقتصاد الفرنسي.

وبدورهم شكل الإسبان المجموعات الأكبر من العمال الأجانب. فعلى الرغم من وقوف بلادهم موقف الحياد في تلك الحرب، إلا أن النزاع زاد من معاناة بلدهم الفقير تقليدياً. وخلافاً للعمال الصينيين وعمال شمال أفريقيا والأوروبيين الآخرين، جُندوا جميعهم للعمل من قبل الوكالات الفرنسية الرسمية، فعبر الإسبان الحدود بكل بساطة لإيجاد العمل في الاقتصاد الفرنسي المزدهر. وعلى خلاف الآخرين ممن وجهتهم الحكومة الفرنسية إلى أماكن التوظيف، كان الإسبان يسعون إلى العمل الذي يرغبون فيه. وقد لاحظ رجل أعمال فرنسي في مدينة برشلونة قطاراً «يعج بالفلاحين الإسبان المتجهين للعمل في فرنسا». ووصف المشهد كالتالي: «كانوا يغادرون بسبب الظروف الفقيرة، يحدوهم الأمل في أرض اللبن والعسل... كما كانت لديهم الرغبة والثقة بالعمل اللتين كانوا محرومين منهما».(8)

غير أن هؤلاء العمال المهاجرين أحبطوا عندما واجهوا تجربة الحياة في فرنسا. فعلى

الرغم من ارتفاع الأجور، إلا أن مصاريف العيش كانت كذلك أيضاً. كما أن المعاناة التي تقبلها الفرنسيون كضريبة لخوض الحرب والدفاع عن بلادهم، لم تعنِ شيئاً لهؤلاء الضيوف. فقد كتب إسباني من برشلونة رسالة إلى عائلته معلقاً على الشحّ في إمدادات الطعام في شتاء 1917 و1918 جاء فيها: «إن خبز الفلاحين في أرض الوطن أفضل من أجود خبز هنا– إذ يمكن القول إنه لا يصلح إلا للكلاب فقط»(9).

وأنشأ تدفُق 250 ألف صيني، وهندي– صيني، ومسلم من شمال أفريقيا خليطاً من سلالات مختلفة. وعلى الرغم من أن السلطات الفرنسية نظمت هؤلاء العمال بطريقة شبه عسكرية، وضبطت سلوكهم بشكل وثيق، إلا أن جماعات كثيرة في فرنسا استاءت من وجودهم. فنظر إليهم زعماء اتّحاد العمال الفرنسيين على أنهم عمالة رخيصة تُخفض أجور العمال الفرنسيين. أما عمال المصانع الفرنسية فنظروا إليهم على أنهم بديل من شأنه أن يسمح بتحويلهم من الأعمال الصناعية إلى الخدمة الخطيرة في الجيش، في حين اعتبرهم فرنسيون من بيئات مختلفة مفترسين جنسيين يهددون المرأة الفرنسية. لهذا انفجرت الاضطرابات العرقية في عدة أماكن أثناء صيف 1917، مما دفع الحكومة إلى إسكان بعض العمال غير الأوروبيين في قلاع معزولة تشبه الثكنات خارج المدن الفرنسية.

التضخم والضرائب

أثقلت الأعباء المالية كاهل جميع سكان الدول المتحاربة. وارتفعت – غالباً بصورة جذرية– أسعار معظم السلع الأساسية. وعلى الرغم من أن زيادة الضرائب كانت أقل شيوعاً عالمياً، إلا أن اثنتين من القوى في زمن الحرب – بريطانيا والولايات المتحدة – ألقتا بالمزيد من العبء الضريبي على شعبيهما.

وعلى الرغم من ارتفاع الأجور في الكثير من الدول المتحاربة، إلا أن الأسعار ارتفعت إلى مدى أبعد مما يمكن أن يتحمله أفضل العمال أجراً. ففي ألمانيا، أخفقت جهود الحكومة في ضبط الأسعار. وكان تأثيرها محدوداً عندما سيطرت السوق السوداء على جزء كبير من الإمدادات الغذائية. وفي الأشهر الأخيرة من الحرب، وصل

التماس مؤلم من جمعية صانعي الأسقف الألمان، أشاروا فيه إلى أن الأسعار ارتفعت ثلاثة أو أربعة أضعاف في العامين الأخيرين فقط، في حين ارتفعت أجورهم بنسبة 50 ٪ بين 1914 وصيف 1918. وجاء في الالتماس: «إن الأمور تزداد سوءاً كل أسبوع. ارتفعت أسعار الكثير من المواد عشرين ضعفاً، ولم ترتفع الأجور إلا بمقدار النصف. لم نعد قادرين على الاستمرار. وصلنا إلى نهاية المطاف... خزائننا، وصناديقنا أصبحت خاوية، ومدخراتنا ترقد في أكياس المرابين»(10). حتى موظفو الخدمة المدنية، بما في ذلك القضاة وأساتذة الجامعات والموظفون الذين لم يحصلوا على زيادات في الأجور مثل تلك التي مُنحت لعمال الذخيرة، افتقروا على حدّ سواء.

ولم تختلف كثيراً مشاعر العمال البريطانيين. ففي منتصف 1917، أشار عمال أحواض السفن في اسكتلندا وعمال صناعة الغزل والنسيج في يوركشير إلى التضخم في تكلفة المعيشة لتبرير مطالبتهم بتحسين الأجور. وأعلنت كلتا المجموعتين أن الأسعار تضاعفت منذ اندلاع الحرب، وادعت كلتاهما أن الزيادة في الأجور لم تعد تغطي سوى نصف– أو حتى ربع– نفقاتهم المتزايدة. ومع ذلك، وفي 1918، أخمد التوزيع الفعال للمؤن الغذائية في بريطانيا على الأقل جزءاً من هذا السخط. وكذلك الحال بالنسبة إلى فرنسا، حيث بدأت أسعار السلع الأساسية في الارتفاع بشكل مطّرد ابتداء من منتصف 1915. وتضاعفت تكلفة معظم الأغذية في أوائل 1917، لتزداد بمعدّل ثلاثة أضعاف بحلول نهاية العام. وهنا أيضاً، بدّد توزيع المؤن الغذائية جزءاً من المشقات التي سببها ارتفاع الأسعار على اعتبار أن الحرب متجهة نحو نهايتها.

أثقلت الضرائب المرتفعة التي فرضت لتغطية تكاليف الحرب كاهل الكثيرين على الجبهة الداخلية أيضاً. ففرضت الحكومة البريطانية أعباء ضريبية أكبر على شعبها منذ بداية الحرب، واستمرت الزيادات إلى أن تم إدراجها في ميزانية 1918. وضاعفت الحكومة ضريبة الدخل وفرضت ضرائب ثقيلة على السلع الاستهلاكية. كما سببت الضرائب المرتفعة على الجعة والشاي بمشقات يومية للسكان لأن كلتا السلعتين لا غنى عنهما. وسرعان ما ارتبطت هذه الرسوم فوراً بضرائب أكثر ارتفاعاً على تذاكر المباريات الرياضية والسينما والمسرح. كما أجبرت الزيادات الضريبية على الأرباح



ملصق دعائي يشجع الفرنسيين على شراء سندات الحرب. بموافقة محفوظات معهد هوفر

رجال الأعمال الذين اغتنوا نتيجة للحرب، على التخلي عن جزء من ثرواتهم. وأضحى المزيد والمزيد من عمال المصانع عرضة لضريبة الدخل، التي كانت في الماضي تشكل عبئاً على الطبقات ذات المستوى الأعلى في السلم الاجتماعي فحسب. وفي الوقت نفسه، جعل التوسع في الضريبة العقارية تماماً مثل زيادة ضريبة الدخل، من الصعب على ملاك الأراضي أن ينجوا من الحرب والحفاظ على ثرواتهم.

فرضت الحكومة الأمريكية على مواطنيها تغطية نفقات الحرب من الضرائب بطريقة صارمة. فقد أمل بعض قادة الكونجرس تغطية نصف تكلفة الحرب من خلال زيادة ضريبة الدخل، وفرض ضرائب أكبر على أرباح الشركات، بالإضافة إلى الضرائب على السلع الكمالية مثل السيارات. ولكن هذا الأمر أثبت استحالته من الناحية السياسية. وفي النهاية، عَنتْ الكلفة المتضخمة للحرب أن معظم الأموال لتمويل النزاع لابدّ من أن تأتي من قروض الحروب. ولكن التشريعات في نهاية عام 1917 رفعت كلاً من ضريبة الدخل وأرباح الشركات، ولدهشتهم العارمة، وجد الأمريكيون أنفسهم يدفعون ضرائب على دخلهم أكثر من أي وقت مضى.

INCOME TAX REPORT

If your income was $1,000 or over during 1917, you should immediately inquire as to your tax liability.

A UNITED STATES GOVERNMENT AGENT IS HERE

He will assist you in making out your report and answer all questions.

HIS SERVICES ARE ABSOLUTELY FREE AND CONFIDENTIAL

Failure to file your report promptly will subject you to HEAVY PENALTIES

MARK EISNER
Collector of Internal Revenue
Third District, New York

ملصق ضريبي أميركي. بموافقة محفوظات معهد هوفر

وفي ألمانيا، رفضت الحكومة الألمانية فرض زيادة عامة على الضرائب، ويرجع ذلك جزئياً إلى خشية تأثيرها على الروح المعنوية. وبالتالي، فإن أكثر من 80٪ من تكلفة الحرب جاء من الاقتراض من السكان الألمان. وأملت الحكومة بأن الدول العدوّة ستضطر إلى تسديد هذه الديون في حال هزيمتها. وفي هذه الأثناء، زادت الحكومة من العرض النقدي، فنتج عن ذلك تضخم مالي لم تقع أعباؤه سوى على المواطن العادي. وواسى الألمان أنفسهم عندما لاحظوا أن فرنسا أيضاً اختارت طريق الاقتراض بدلاً من النظام الضريبي.

الرقابة والشائعات

تحركت جميع الدول المتحاربة نحو تقييد حرية الصحافة وحق الأفراد في التعبير

عن آرائهم. ومنذ الأيام الأولى للحرب، وجد القراء الفرنسيون مقاطع ممسوحة في صحفهم. وفي جميع الدول المتحاربة، كانت ويلات الحرب، مثل صور الجنود الذين فقدوا أطرافهم، محظورة على وجه التحديد. فحتى خلال الأسابيع الأخيرة من الحرب، ومع إجبار القوات الألمانية بقوة على التراجع باتجاه أراضيها، أبرزت صحف البلاد إخفاق هجمات الحلفاء المحلية.

وفي غياب الأخبار غير الخاضعة لسيطرة الرقابة الحكومية، اُضطر المدنيون للاستناد إلى مصادر بدت أكثر شخصية ولكن يمكن القول إنها أكثر موثوقية. وكان الجندي العائد من الجبهة، إذا أمكن إقناعه بعد إلحاح بالحديث عن تجربته، يقدم بديلاً عن البيانات الصادرة عن القيادة العليا. كما بدأت الشائعات تشكل من يوم إلى يوم وجهات نظر المدنيين. بعض من هذه الشائعات أبقى المعنويات عالية مع بشرى متفائلة، ولكن الكثير منها أوضح المخاطر والإخفاقات، وكثيراً ما تم ذلك عن طريق الإشارة إلى الأنشطة الغامضة والخيانية سواء داخل الوطن أم في الجيش. وفي أوقات مبكرة من الحرب، انتشرت الشائعات بشكل سريع من خلال المحادثات الخاصة. ولاحقاً، عندما تجمعت الحشود في طوابير الطعام أو أمام قوائم الضحايا العسكريين المنشورة، بدأت الروايات المريرة «لما حدث فعلاً» تقفز من فم إلى فم بطريقة خاطفة.

منذ الأسابيع الأولى من الحرب، شهدت بريطانيا موجة من الشائعات. إذ زُعم أن أمير البحرية الإنجليزية لويس أوف باتنبرغ[1] الذي ينحدر من أصول ألمانية نمساوية، هو جاسوس ألماني. بل إن بعضهم ادعى أنه أُلقي القبض عليه وسُجن في برج بلندن. كما زُعم أن أعداداً كبيرة من الجنود الروس شوهدوا «والثلج على أحذيتهم» على الرغم من حرارة أغسطس يهبطون في «اسكتلندا» أو ربما «يوركشير» في طريقهم إلى الجبهة الغربية. وأُشيع أيضاً أن طلائع القوات البريطانية التي اشتبكت مع الألمان في– «مونس» في الأسبوع الثالث من أغسطس– نجت من هزيمة محققة بمساعدة جحافل ملائكية قاتلت إلى جانبها. وانتشرت شائعات عن أفراد يشترون المواد السامة من

(1) الأمير لويس باتنبرغ وُلد في النمسا. حصل على الجنسية البريطانية في عام 1868. التحق بالبحرية الملكية، وتدرج في المناصب حتى أصبح أمير البحرية. ولكنه ومع بداية الحرب تعرض لحملة انتقادات شرسة من قبل الصحافة بسبب أصوله الألمانية مما اضطره إلى الاستقالة من منصبه واستعيض عنه باللورد كيتشنر.

مخازن الأدوية، وقيل إن بعضهم أُلقي القبض عليهم وهم يحاولون تسميم إمدادات المياه المحلية. وشاعت أخبار عن أن المجندين في الجيش الإقليمي (أي ما يعادل في بريطانيا الحرس الوطني الأمريكي) يموتون أثناء المسيرات القسرية نحو مراكز الخدمة. وعندما بدأت الهجمات بسفينة «زيبلن» الجوية في يناير 1915، انتشرت شائعة مفادها أنها توجه إلى أهدافها عن طريق سيارات أضيئت مصابيحها الأمامية.

أدى نمو صناعة الذخائر البريطانية إلى سيل من القصص الشنيعة. إذ أُشيع أن انخفاض معدل إنتاج الذخيرة يعود إلى انتشار الثمالة بين العمال. كما زُعم أن العاملات الجدد يدرن آلاتهن بسرعة كبيرة من أجل كسب أكبر قدر ممكن من المال. ومن ناحية أخرى زُعم أنهن يعطلن آلاتهن عمداً عندما يرغبن في الحصول على فترة من الراحة في غير أوقات الراحة الرسمية.

وقيل إن وفاة وزير الحرب هوارشيو كيتشنر وهو في طريقه إلى روسيا على متن طراد البحرية الملكية، ناتج عن مؤامرة خيانية بين أعضاء القيادة العليا. ونتيجة لمطاردة الخيانة في بعض الأحياء، ادعى بعضهم أن الثمانية والعشرين مقهى التي أُنشئت في وسط لندن من قبل اللاجئين البلجيكيين كانت في حقيقة الأمر مراكز لتجمع الجواسيس.

وفي وقت مبكر من 1918، صدرت شائعة جارفة من بيميبرتون بيلينغ[1]، النائب غريب الأطوار، إذ نشرت صحيفته التحريضية المسماة «Vigilante» مقالات عدة تلمح على نحو شرير إلى أن الألمان امتلكوا «كتاباً أسود» يحتوي على قائمة بأسماء أعضاء بارزين في المجتمع البريطاني ارتكبوا آثاماً جنسية. وأن هذا السجل المزعوم للسلوك غير السوي، طبقاً لرواية بيلينغ، أعطى الألمان القوة لابتزاز ذوي النفوذ والتأثير على كيفية إدارة بريطانيا للصراع. وفي واقع الأمر، فسّر هذا الكتاب ما اعتبره له بيبلنغ بسخرية «كل الحوادث المؤسفة»(11) لهذه الحرب. وحتى رئيس الوزراء لويد جورج روّجَ شائعات عن الأعداء المخفيين تحت سرير الأمة.

---

(1) طيار ومخترع ونائب بريطاني. كان ينتمي لليمين المتطرف. عُرف بدعمه الشديد لإنشاء قوة جوية تستطيع الدفاع عن بريطانيا وتوجيه ضربات في العمق الألماني.

وفي ألمانيا، برهن انتشار الشائعات المتشائمة أنه نذير خطر لدرجة أن الجيش حاول عبثاً معاقبة أولئك الذين حاولوا نشرها. ولكنهم لم يفلحوا إلا في جذب المدنيين لإبلاغ السلطات عن الشائعات. وكان بعض الروايات المتداول على نطاق واسع إيجابي الطابع، من قبيل أن الإمدادات الغذائية سوف تتحسن قريباً، وأن السلام التام، أو على الأقل مع أحد أعداء ألمانيا يلوح في الأفق. حتى هذه الروايات السعيدة أشعرت المسؤولين بالقلق وذلك لأن عدم صحتها سوف يظهر بشكل مؤكد خلال فترة قصيرة.

وقد حمل معظم الشائعات مضموناً قاتماً. فقد نمى إلى علم المدنيين الألمان عن طريق الشائعات أن الضباط في المناطق الخلفية يتمتعون بالرفاهية في حين افتقرت القوات على الجبهة للأغذية اللائقة. وأفادت إحدى الشائعات التي انتشرت بشكل مقلق أن كثيراً من العائلات أُخبرت بأن أبناءهم الأعزاء قتلوا في المعركة. بل في الحقيقة، أن الجنود قد جُنُّوا أو شُوهوا بشكل مروع وأودعوا في مؤسسات مخفية. وبالنسبة إلى الألمان الذين كانوا يواجهون نقصاً يومياً في الغذاء، ربما يبدو معقولاً عندما يخبرهم أحد الأصدقاء أو الجيران بأن المئات من المدنيين يموتون جوعاً كل يوم في مدينة ميونخ وبرلين، وأن السلطات تحمل جثثهم في عربات الترام. ولا ريب في أن مثل هؤلاء الألمان شعروا بالغضب من الشائعات التي تفيد بأن الغذاء يحول من بلادهم إلى الأعداء. وذلك بناء على مقولة بأن السفن البريطانية التي أُغرقت من قبل الغواصات الألمانية، قد تركت صناديق البيض وأكياس الدقيق طافية مع الأمواج، وأُشيع أن الطرود المتنوعة أظهرت علامات دلت على منشئها من ألمانيا.

وأوضح أحد التفسيرات الشائعة عن الإخفاق في كسب الحرب، الهشاشة المتزايدة في الصورة العامة للقيصر فيلهلم الثاني: إذ انتشرت شائعة مفادها أن الإمبراطور في الواقع موال لأقاربه الإنجليز. وأنه أودع سراً جميع أمواله في المصارف الإنجليزية. وفي الأسابيع الأخيرة للحرب، انتشرت شائعات مفادها أن الجنرال إريك لدندورف[1]، الرجل القوي في القيادة العسكرية العليا، قد أقدم على الانتحار.

(1) أدار المجهود الحربي لألمانيا في الحرب العالمية الأولى حتى استقال في اكتوبر 1918.

الدعاية

عملت جميع الحكومات على تحفيز المشاعر الشعبية لكسب تأييدها في الحرب، فقوائم المصابين ارتفعت، وحمى تأييد الحرب التي ظهرت في الشهور الأولى من الحرب بدأت بالتلاشي. فزادت الحكومات من جهودها لحثّ السكان المدنيين على الحفاظ على الروح المعنوية العالية والمجهود الحربي بقوته الكاملة.

ومنذ بداية الحرب، حدد خبراء الشؤون العامة في كل من فرنسا وبريطانيا أسلوب الدعاية على كلا الجانبين. فقد انتهكت ألمانيا بصورة واضحة المعاهدات الدولية بغزوها بلجيكا المحايدة، ولكن كان من السهل إثارة العواطف من خلال بعض القصص التي تتحدث عن أن الجنود الألمان دقّوا أعناق الأطفال وقطعوا أيدي الفتية البلجيكيين. وكانت الاعتداءات الجنسية على النساء المدنيات من المواضيع الأخرى التي كان من المضمون أن تبقى عالقة طويلاً في الذاكرة. وعندما قتلت البوارج الألمانية المدنيين في أثناء هجماتها على موانئ شرق إنجلترا، قام البريطانيون فوراً بنعت الأعداء بـ «قتلة الأطفال». ومن جهتهم، قاوم الألمان تلك الدعاية بقصص مفادها أن الكهنة البلجيكيين حاولوا استدراج الجنود الألمان إلى الكمائن. وأن الجنود البريطانيين استخدموا رصاص الدمدم في ساحة المعركة، وأثناء القمع البريطاني في أيرلندا. وأضافوا أن أسرى الحرب الألمان يموتون بأعداد كبيرة نتيجة للظروف السيئة في معسكرات الاعتقال البريطانية.

وقد أفادت الدعاية البريطانية من مواهب الكُتاب البارعين. وجاءت معظم الجهود الألمانية للتأثير على الرأي العام من البيروقراطيين الحذرين في «مكتب الإعلام الحربي»، التابع لوزارة الحرب. وهكذا، بعد الغارات الجوية الألمانية علي بريطانيا، وما نتج عنها من قتلى في صفوف المدنيين، سمح للكتاب البريطانيين بتصوير «الكونت زبلين» المخترع الألماني للسفينة الجوية، بوصفه «مخترع الموت الجماعي». كما أوقع قصف الحلفاء لمدن مثل «كارلزرو» في غرب ألمانيا أعداداً هائلة من المدنيين القتلى ومن ضمنهم الأطفال، إلا أن الرقابة التابعة لوزارة الحرب

منعت نشر تقارير حول هذا الرعب(12).

كما كان للدعاية البصرية تأثير أكبر من سواها. فقد تمكنت الملصقات في زمن الحرب من استثارة العواطف في وقت قصير. لذا أصدرت الحكومة البريطانية أكثر من مائة ملصق في السنة الأولى للحرب. وكفل تصوير العدو بأنه وحش ضخم يحاول نهش الوطن، إثارة ردود فعل ايجابية، تساوت مع الأثر الناتج عن تصويره على أنه مفترس جنسي. ورد ملصق دعائي بريطاني بارز في 1917 على قرار ألمانيا بترحيل المدنيين البلجيكيين والفرنسيين بالقوة للعمل في ألمانيا: فأظهر جندياً ألمانياً شرساً يختطف فتاة شابة بريئة.

بدورها، ملأت «لجنة الإعلام العام» في الحكومة الأمريكية مواقع العمل والحشود العامة الأخرى «برجال الدقائق الأربع Four Minutes Men»[1]، الذين جُندوا لقدرتهم ومهارتهم في الحديث، وقدم هؤلاء الأفراد أمام الملايين خطباً داعمة للمجهود الحربي. وفي أمة مليئة بالمهاجرين الجدد، وجدت اللجنة عدداً من المجندين القادرين على التحدث بألسنة مختلفة، وقد أصدرت نشراتها الدعائية بلغات عدة منها اليديشية والسويدية والإسبانية. كما تحركت اللجنة بحماسة نحو وسيلة جديدة وهي الأفلام التي أنتجت بنفسها بعضاً منها وأوكلت بعضها الآخر لأهل صناعة الأفلام. بعض هذه الأفلام مثل «رجال بيرشينغ» مجّد جنود القوات المسلحة الأمريكية، وبعضها الآخر مثل «القيصر، وحش برلين» قدم العدو بصورة شريرة ملائمة.

أما الحكومة الفرنسية فعززت الروح المعنوية خلال السنوات الأخيرة من الحرب عن طريق الاستفادة من طاقات معلمي المدارس الابتدائية المحلية. فقد أدار هؤلاء التجمعات التربوية بشأن الحرب في المدن الزراعية لجذب أعضاء من المزارع المحيطة. فلأن سكان الريف كانوا عادة ملولين أو غير مبالين بحضور مثل تلك التجمّعات، فقد انصبت الجهود في البداية على سكان المدن. وفي 1918، انتقل المعلمون إلى القرى، وبحلول منتصف العام كان معظم الفلاحين في المجتمعات الفرنسية الأصغر

(1) مجموعة من المتطوعين أُجيزت من قبل رئيس الولايات المتحدة، وودرو ويلسون، منحت فترة أربع دقائق للتحدث في موضوعات حددت سلفاً من قبل لجنة الإعلام العام وخصصت لدعم المجهود الحربي الأمريكي في الحرب العالمية الأولى.
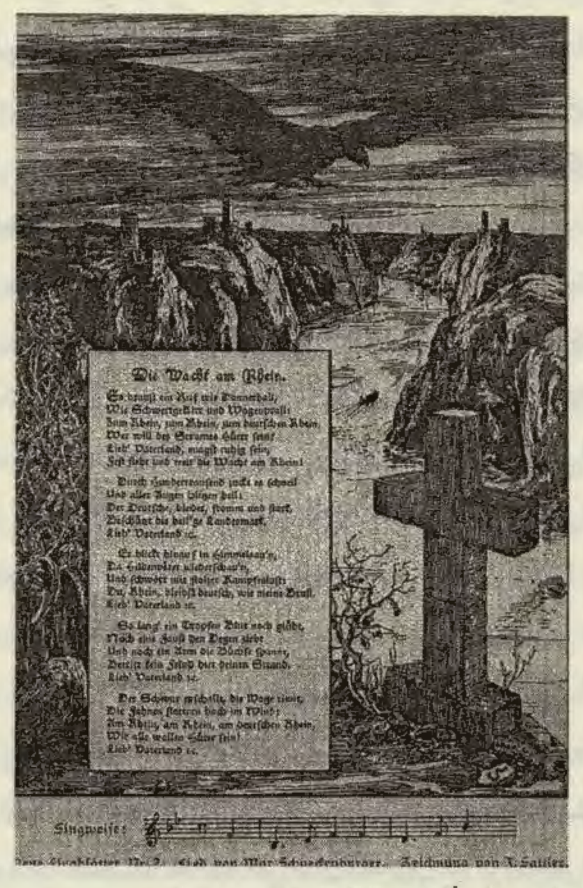
والأكثر بعداً قد تلقوا على الأقل محاضرة واحدة عن الحرب، مزودين بالأدلة التعليمية من الحكومة المركزية، وتلقى المعلمون الأسئلة الحتمية: لماذا تمضي الحرب إلى ما لا نهاية؟ لماذا تواصل الأسعار الارتفاع؟ وما الفرق الذي أدى إليه خروج روسيا من الحرب ودخول الولايات المتحدة الأمريكية إليها؟ وللإجابة عن كل هذه الأسئلة، بذل المعلمون قصارى جهدهم لتقديم أشدّ الأجوبة تفاؤلاً.

ورافقت حملات الدعاية التحولات المهمة في السياسة. فعندما بدأت ألمانيا القيام بعمليات هجومية مفتوحة باستخدام الغواصات في أوائل 1917، قدم هذا الهجوم الجديد فرصة لكسب الحرب بسرعة، ولكنه أدى حتماً إلى إدخال الولايات المتحدة إلى الحرب. وشنت آلة الدعاية الألمانية حملة نشطة لضمان الحصول على التأييد الشعبي، فأُغرق الجمهور بملايين النشرات التي تحمل عناوين متفائلة مثل «نحو المعركة النهائية» أو الكتيبات المقوية للمعنويات «يجب أن نفوز».

الثقافة الشعبية

ساهم تحويل القادة العسكريين أو الحكوميين إلى شخصيات مألوفة لسكان الدولة المحاربة، أن إدارة الصراع في أيد أمينة. فأطلت هيئة المشير كيتشنر بشاربيه العريضين من ملايين ملصقات التجنيد، مخاطبةً المواطنين المدنيين الذكور بعبارة «أنا أريدكم». وفي ألمانيا، لعب المشير بول فون هيندنبرغ دوراً مشابهاً. كما ظهرت التماثيل الخشبية الضخمة، للقائد العسكري الواثق بنفسه–أولاً القائد على الجبهة الشرقية، ثم القائد العسكري العام– في العديد من ميادين المدينة. كما أظهر الألمان ولاءهم الوطني بدفع مبالغ مالية صغيرة لدق المسامير في التماثيل، واستخدم المال في دعم المجهود الحربي.

وسوّقت الشركات منتجاتها مستعينة بالحرب. فبعد مرور أسابيع قليلة على اندلاع القتال، قدمت الإعلانات في المجلات النسائية البريطانية المعروفة باهتمامها بمواضيع الجمال، رسالة عاجلة مفادها: «لا تهملي مظهرك. في أوقات مثل التي نحن فيها، يجب أن تظهر نساء البلاد في أبهى حلة»(13). وعلى الفور، قدم صانعو الإعلانات



ملصق وطني ألماني. بموافقة محفوظات معهد هوفر

للنساء البريطانيات الفرصة لشراء ميدالية صغيرة تظهر أحد أفراد الأسرة بالزيّ العسكري. وعندما خرجت النساء للعمل في المصانع، لاحقها صانعو الإعلانات. فأُعلن عن كريم الوجه «ين يوسا» كحل للإجهاد الذي يصيب البشرة نتيجة «لحبيبات الرمل والأوساخ المنتشرة في مصانع الذخيرة، والأعمال المرهقة في المستشفيات، والتعرض للتقلبات الجوية المفاجئة»(14).

وفي ألمانيا، اتخذت أحجار الشطرنج وألعاب الأطفال أشكالاً عسكرية. فشملت الهدايا الرائجة للأطفال رشاشاً صغيراً ودمى جنود يقاتلون بعضهم بعضاً بالقنابل اليدوية. كما أغرق الناشرون الألمان السوق بروايات المغامرات الحربية الرخيصة



ملصق فرنسي يُظهر طفلاً يتعاطف مع أحد الجنود. بموافقة محفوظات معهد هوفر

وأوراق اللعب الخاصة بأوقات الحرب. إذ وضعت الأخيرة صورة القيصر فيلهلم الثاني على «القص» وظهر قادته العسكريون البارزون على الوجه الآخر للبطاقات. وعندما أغرقَت الغواصة الألمانية عبارة المحيط البريطانية «لوسيتانيا»[1] في مايو 1915، أصدرت إحدى الشركات ملصقاً بمناسبة هذه الحادثة، وأظهر الملصق السفينة جنباً إلى جنب صورة صغيرة للأدميرال ألفرد فون تربتس الأب الروحي للبحرية الألمانية الحديثة.

وفي فرنسا، أُنتجت الملصقات البريدية الخاصة بالحرب بواسطة أكثر من سبعين شركة مختلفة، متيحة للناس إرسال رسائل خاصة مصحوبة بتعليقات تعبر عن قلقهم إزاء الحرب. وعلى الرغم من أن هذه الرسائل كانت تخضع لرقابة الحكومة، إلا أنها

(1) عبارة مملوكة لشركة جون براون الاسكتلندية. نُسفت من قبل غواصة ألمانية في 7 مايو 1915 وغرقت قبالة سواحل أيرلندا. وأسفر ذلك عن مقتل 1198 شخصاً كانوا على متنها. وأثار غرق هذه العبارة جدلاً واسعاً في الرأي العام العالمي ضد ألمانيا وكان له دور أساسي في دخول الولايات المتحدة الحرب.



ملصق فرنسي يصور الأطفال وهم يلعبون بالألعاب الحربية. بموافقة محفوظات معهد هوفر

لم تخل من الألفاظ السوقية، مثل – طفل يتبول في خوذة جندي ألماني– حتى إنها تضمنت نقداً معتدلاً للمجهود الحربي مثل – طفل يخرج من بيضة، يعاين ميدان المعركة من حوله، ويقول: «إذا كانت هذه هي الحياة، فإنني أفضل العودة من حيث أتيت»(15). كما ازدهرت إحدى الشركات الفرنسية وتدعى «بيلران» ومقرها مدينة «إبينال» خلال فترة الحرب من خلال تسويق الملصقات الملونة ذات المشاهد البراقة مدعيةً أنها تبين طبيعة القتال على الجبهة الغربية.

بدأت مواضيع الحرب تسيطر على المسرح. ففي الشهور الأولى وجد رواد المسرح من الفرنسيين والألمان والبريطانيين حفلات مسرحية مليئة بالروايات التي تشجع على

الوطنية والتماسك الوطني. ففي لندن، عُرضت مسرحيات مثل «تومي أتكنز»[1] و«إنجلترا تأمل». في حين أظهرت الكثير من الروايات الألمانية الرغبات الجديدة للعمال والإدارة لوضع تظلماتهم جانباً. وعادة ما كانت تبدأ بمشاهد تبين الصراع بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا. وعلى الدوام، ينتهي المشهد الأخير في هذه الروايات بوقوف الجميع صفاً واحداً في وحدة وطنية، في أرض المعركة في بعض الأحيان.

ولكن ارتفاع الكلفة البشرية للحرب والتغيير الناتج في المزاج الشعبي شكل النظرة العامة للروايات الانهزامية. وكانت الكوميديا الخفيفة والروايات البوليسية تلقى رواجاً في جميع البلاد في صيف 1915. فالمسرحيات الموسيقية الألمانية التي عرضت وقتئذ قدمت هكذا مواضيع مثل الزوجة المخلصة بالتساوي مع الزوج المخلص على الجبهة. كما أظهرت الجنود الألمان وهم يقاومون إغراءات النساء الفرنسيات الساقطات. ودفعت اللهجة المستخدمة على مسرح لندن أحد الجنرالات البارزين للاعتراض على الألفاظ السوقية وعدم الحشمة على المسرح. وبقي المسرح الألماني أكثر عالمية من نظرائه عبر خطوط القتال: استمرت أعمال وليام شكسبير وجورج بيرنارد شو وأوسكار وايلد تُعرض خلال فترة الحرب.

هذا ووجد أولئك الراغبون في نسيان الحرب لعدة ساعات أنه من الصعب تطبيق ذلك على المسرح. ومع استمرار الحرب، اقتصرت العروض المسرحية في باريس على ثلاثة كل أسبوع. في حين اضطر الألمان للجلوس في صالات غير مكيفة لمشاهدة أداء الممثلين. كما بذلت جهود متزايدة لتوفير النقص في الإنارة في زمن الحرب. وامتحنت المسرحيات الألمانية قوة البائعات والخادمات والطهاة فوجدت أنهم أعلى مرتبة من أسيادهم وذلك من خلال قدرتهم على إيجاد السلع الشحيحة وتوزيعها. وبحلول الأشهر الأخيرة من الصراع، عكس المسرح الألماني حال اليأس الحقيقية حول نقص المواد الغذائية.

---

(1) يطلق اسم تومي على الجندي البريطاني. فالجندي الألماني الذي كان يرغب في محادثة جندي بريطاني عبر المنطقة المحايدة كان ينادي باسم تومي.

الأطفال والتدريس والجنح

رأى الأطفال حياتهم تتغير على حدّ سواء. فقد غادر الكثير من معلميهم الذكور لأداء الخدمة العسكرية. فتوجه الأطفال إلى المدرسة لأيام قليلة فقط من الأسبوع وجلسوا في فصول مشتركة احتوت على زهاء ثمانين تلميذاً، فقد رحل واحد من كل ثلاثة معلمين لأداء الخدمة العسكرية. كما استولى الجيش الألماني بانتظام على المباني المدرسية، وكان الطفل الألماني يتوجه غالباً إلى فصول مؤقتة وأماكن غير مريحة قدمتها الحكومة المحلية أو السلطات الدينية. واشتملت المناهج الدراسية في كل مكان على مواضيع مرتبطة بالحرب، وأضحى الأطفال أهدافاً للدعاية الرسمية. كما تلقوا دروساً في المجال الحيوي المتعلق بحفظ الأغذية. وكان الاهتمام بمادتي التاريخ والجغرافيا في زمن الحرب واضحاً بسبب أبعادهما الوطنية. ولكن، وبقليل من الإبداع، كان يمكن للمعلم أن يوظف دروس الرياضيات أيضاً. فواحدة من الطرق التي كان يستخدمها المعلمون، الطلب من التلاميذ أن يحولوا مائتي مارك تلقاها أسير ألماني في إنجلترا من عائلته إلى الجنيه الإنجليزي.

في مطلع 1917، بدأت المساقات الدراسية تتناول موضوع الحرب في المدارس الأمريكية. وتعلم أطفال المدارس الابتدائية أن الولايات المتحدة دخلت الحرب لحماية الضحايا من العدوان الألماني في أوروبا. كما ظهر في المنهاج موضوع آخر أكثر عاطفية من المؤكد ترك انطباعاً على الأطفال الصغار وهو: الجنود الأمريكيون يقاتلون «لمنع الجنود الألمان من المجيء إلى بلادنا ومعاملتنا بالطريقة عينها». وتلقى الكثير من طلبة المدرسة الثانوية الرسالة عينها التي أعدها صموئيل هاردينغ، أستاذ التاريخ في جامعة إنديانا. وقد لخص ديفيد كينيدي رسالة هاردينغ معلناً: «ألمانيا وحدها هي من سببت الحرب، والجنود الألمان يقاتلون بقسوة دون مراعاة لقوانين الله والإنسان... والحلفاء يتمنون السلام بصدق، وهو الأمر الذي يسخر منه الألمان بشكل قاس»(17).

في 1915، طُلب من الأطفال في المدارس الألمانية رسم انطباعاتهم عن الحرب من خلال معرض نُظّم في برلين لهذا الغرض، فرسمت الكثير من بنات المدارس الابتدائية مشهد الأب الغائب، في حين رسم الطلبة الذكور من الفئة العمرية نفسها رسوماً

مفصلة ودقيقة للغواصات والبنادق والسفن الجوية. وأظهر الأطفال الذين تراوحت أعمارهم من عشرة إلى أربعة عشر عاماً وعيهم بالجانب الشجاع من الحرب المرتبط بمشاهد القتال العنيفة وصور الضحايا في ساحة المعركة. وبحلول 1917، كان المعلمون يبهرون تلاميذ المدارس بقصص قادة الغواصات البطولية وجهودهم الواعدة بكسب الحرب لصالح ألمانيا.

وفي فرنسا، قُدم للأطفال الفرنسيين منهج أقحم الحرب في كل المواضيع. وشكلت المقالات جزءاً كبيراً من الروتين المدرسي، إذ يعبّر الأطفال من خلالها على فرصة الترحيب بالأبطال الفرنسيين من أمثال الجنرال جوزيف جوفريه[1]، والتباهي بالجنود المقاتلين على الجبهة، ولكن الأكثر إثارة للدهشة، هو التعبير عن كراهيتهم للألمان. ففي 1916 عبّر أحد التلاميذ الفرنسيين عن هذه الكراهية: «ستكون دوماً موجودة بين الأمة الفرنسية والأمة الألمانية، لأن ما قاموا به أمر لا يُغتفر ولا ينسى». ومن الناحية الأخرى، فإن حماسة الأطفال تجاه الحرب لم تدم طويلاً. ففي السنة الأخيرة من الحرب، ذكر المعلمون الفرنسيون أن الكثير من الأطفال باتوا غير مبالين بأحداث الحرب وأن بعضهم يبدي مشاعر سلمية.

تضافرت ضغوط النظام المدرسي مع فرص العمل الكبيرة، على سحب الأطفال الأكبر سناً للعمل في المصانع. وفي هذه الأثناء، أدى رحيل الآباء والمعلمين، إلى جانب التشتت العام في نمط عيش زمن السلم، إلى زيادة جرائم الأحداث. ففي ألمانيا، غدا التغيّب عن المدرسة بدون عذر أمراً شائعاً، وبلغ عدد المراهقين المدنيين الذين ارتكبوا الجنح في 1918 ضعف ما كان عليه قبل الحرب. ووجد المراهقون فرص عمل نتيجة لزيادة الطلب على الصناعة في وقت الحرب، إلا أن الأجور المرتفعة الناتجة عن هذه الفرصة منحتهم نوعاً من الحرية وجدت فيها السلطات مصدر قلق وخطر. وذلك لأن مثل هؤلاء الشباب الصغار كانوا دوماً في الحانات ومحلات بيع التبغ، وقاعات السينما، وباتوا زبائن اعتياديين لدى المومسات.

(1) القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية بين عامي 1914 و1916 خلال الحرب العالمية الأولى. عمل على إعداد جيوش الحلفاء لهزيمة الألمان في معركة مارن الأولى.

عالجت السلطات الألمانية تلك المشكلة بوضع مجموعة من التدابير. فالعامل المراهق بات من المحتمل أكثر فأكثر أن يلتقي واحداً من موظفي رعاية الشباب الآخذين في التزايد، أو أن يواجه التجنيد في مؤسسة رسمية شبه عسكرية، عرفت باسم «جيش الشباب» وصممت لتهيئة المراهق للحياة العسكرية في وقت لاحق. كما واجه المراهق حظر التجوال في الكثير من المناطق وغالباً ما وجد نفسه ممنوعاً من التدخين في الأماكن العامة. أما حرية الدخول إلى الحانات بعد الساعة التاسعة مساءً، وحتى حضور الأفلام السينمائية دون مرافقة شخص بالغ، فقد خضعت أيضاً للقيود رسمية. وفي مطلع 1916، رأى الكثير من الفتيان العاملين وضع الجزء الأكبر من أجورهم في حسابات مصرفية لا يستطيعون التصرف بها إلا بإذن رسمي.

وفي بريطانيا، أثار جنوح الفتيات القلق، وخاصة خلال الجزء الأول من الحرب. وكان التوسع المفاجئ في بنية الجيش يعني أن معسكرات الجيش انتشرت في جميع أرجاء البلاد. كما أن تشوش شباب الأمة كان له ما يوازيه من ازدهار الحياة الروتينية للشابات العاملات، فالكثير منهن فقدن وظائفهن لأن الحرب عطلت الصناعات المدنية. ورأى مراقبو الطبقة المتوسطة القلقون أن الكثير من هؤلاء الفتيات تحولن إلى ما يسمى بـ «فتيات الكاكي»، اللواتي يتجمعن حول معسكرات الجيش بحثاً عن علاقات مع مجندي الجيش الجدد.

كما عكس الخوف من هؤلاء الفتيات مزيجاً من القلق: أن يستولي على انتشار الأمراض التناسلية، وعلى الحريات الاجتماعية الجديدة بنات الطبقة الدنيا، وخاصة من إمكانية أن مثل هذه الممارسات من شأنها إثارة سلوك مماثل من النساء والفتيات في العائلات «المرموقة». وظهرت صورة الفتيات الطائشات اللواتي يفسدن الجنود الأبرياء في بعض المقالات الصحافية. فوصف أحد الكُتاب مجموعة من الجنود تطاردهم الفتيات الصغيرات مثل «النَمِرات في أعقابهم». وقال كاتب آخر كان أكثر قلقاً «إن الفتيات ذوات التأثير القوي وغير المنضبطات، لسن أكبر من أطفال... كثيراً ما ينتهي بهن الحال في الواقع إلى توريط أنفسهن وأصدقائهن الجنود في تصرفات فاسدة»(19).

كان إنشاء الشرطة النسائية البريطانية أحد الحلول لمعالجة تلك المشكلة. ومنذ تأسيسها، عملت على فرض المعايير الأخلاقية على الطبقة الوسطى في الأماكن العامة. وفي نهاية المطاف، أُدمجت بعض مؤسسات الشرطة النسائية في قوات الشرطة النظامية. وخلال فترة الحرب، كان هدفها المعلن، مثلما عبرت أحد المتحدثات الرسميات: «العمل على التأثير في الفتيات والشابات، وبصفة عامة رعاية مصالحهن»(20).

بدأ الخطر يتلاشى مع استمرار الصراع. إذ وفر المجهود الحربي المتنامي أماكن «لفتيات الكاكي» في الصناعات الحربية، والخدمات الصحية، وفي النهاية في القوة النسائية المساندة للقوات المسلحة. ويبدو أن مؤسسة «المرشدات»، التي تأسست قبل الحرب كمؤسسة شقيقة لفرق الكشافة الذكور، قدمت متنفساً صحياً لطاقات الشابات وحماستهن، الأمر الذي أدى إلى تضاعف عددهن تقريباً أثناء الحرب– من أربعين ألفاً إلى سبعين ألفاً – وشهد المراقبون كيف حولت هؤلاء المرشدات «فتيات الكاكي» إلى مواطنات صالحات.

الحواشي

1. جون وليامز، «ساحة الحرب الأخرى: الجبهات الداخلية: بريطانيا، وفرنسا وألمانيا، 1914–1918» (شيكاغو، هنري ريجنري، 1972)، ص. 161.
2. تريفور ويلسون، «الوجوه المتعددة للحرب: بريطانيا والحرب العظمى 1914 –1918» (كيمبردج، بوليتي برس، 1986)، ص. 149.
3. باتريك فلود، «فرنسا، 1914–1918: الرأي العام والمجهود الحربي» (لندن، ماكميلان، 1990)، ص. 115.
4. ويلسون، «الوجوه المتعددة»، ص. 655.
5. جيمس ماكميلان، «فرنسا في القرن العشرين: السياسة والمجتمع 1898–1991» (لندن، إدوارد أرنولد، 1992)، ص. 72.
6. لورينس موير، «النصر يجب أن يكون حليفنا: ألمانيا في الحرب العظمى، 1914–1918» (نيويورك، منشورات هيبوكرين، 1995)، ص. 209–210.

7. روجر تشكرنج، «ألمانيا الإمبراطورية والحرب العظمى، 1914–1918» (كيمبردج، إنجلترا، مطبعة جامعة كيمبردج، 1998)، ص. 161.
8. جون هورن، «العمال المهاجرون في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى»، في «دراسات في التاريخ الفرنسي»، العام 14، العدد 1 (1985)، ص. 64.
9. المصدر نفسه، ص 69.
10. يورجن كوكا، «مواجهة الحرب الشاملة: المجتمع الألمانية، 1914–1918»، ترجمة: باربرا واينبرغر (ليمينغتون، سبا، إنجلترا: دار بيرغ للنشر 1984)، ص. 25.
11. ويلسون، «الوجوه المتعددة»، ص. 641–642؛ بانكوز بناي، «العدو بيننا الألمان في بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى» (نيويورك: بيرغ، 1999)، ص. 176–80.
12. موير، النصر، ص. 196.
13. سوزان كينجسلي كينت، صنع السلام: إعادة بناء الجنسين في بريطانيا في الحربين العالميتين» (برينستون، نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 1993(، ص. 15.
14. غيل بريبون، «النساء العاملات في الحرب العالمية الأولى: التجربة البريطانية» (لندن: كروم هيلم، 1981)، ص. 163–164.
15. ماري مونيك هاس، «تشجيع الإنجاب والفكر الشعبي للطفل في فرنسا في الحرب: دليل البطاقة البريدية المصورة»، في «ثورة الحرب: الأسرة والعمل والرعاية الاجتماعية في أوروبا، 1914–1918»، تحرير: رتيشارد وول جاي وينتر (كيمبردج، إنجلترا: مطبعة جامعة كيمبردج، 1988)، ص. 336.
16. ديفيد كينيدي، «هنا: الحرب العالمية الأولى والمجتمع الأمريكي»، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1980، ص. 55.
17. المصدر نفسه، ص. 56.
18. ستيفان أودوين «الأطفال الفرنسيّون كهدف للدعاية»، في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى: تجربة الحرب العالمية الأولى»، تحرير: هيو سيسيل وبيتر ليدل (لندن: ليو كوبر، 1996)، ص. 771.

19. أنجيلا وولوكوت، «حمى الزي الكاكي وسطوته: الجنس، الطبقة، العمر والأخلاق الجنسية على الجبهة الداخلية البريطانية في الحرب العالمية الأولى»، مجلة التاريخ المعاصر 29، العدد (1994)، ص. 330—331.

20. المصدر نفسه، ص. 335.

الفصل العاشر

معاناة المدنيين

شعر العديد من المدنيين بالجانب المؤلم من الحرب. ففي 1914، احتل الجيش الألماني مناطق مأهولة بالسكان في بلجيكا وفرنسا. وفرت حشود من اللاجئين من المعارك ومن خطر الوقوع تحت السيطرة الألمانية. ولكن أعداداً كبيرة من غير القادرين أو ربما غير الراغبين في مغادرة منازلهم، وجدوا أنفسهم يرزحون تحت براثن الاحتلال لسنوات تالية. وضاعف الغزاة من عرقلة الحياة الطبيعية باتباع سياسة ترهيب مُتعمدة. وكانت السيطرة الألمانية تعني حجز الرهائن والقيام بأعمال انتقامية دامية كرد فعل على عمليات المقاومة المزعومة.

وأصبح المدنيون أهدافاً لأسلحة الأعداء. ووضعت الابتكارات العلمية المقيتة والتقدم التكنولوجي الذي استخدم في الحرب المدنيين في خطر مباشر. كما استطاع القصف الجوي ضرب مناطق واسعة من الوطن الأم. وكان استخدام الألمان للغواصات الحربية ضد سفن الحلفاء التجارية يعني مخاطرة الركاب المسافرين بحياتهم.

في عهد ما قبل الحرب، سمحت أوروبا بحرية واسعة النطاق للتنقل عبر الحدود الدولية. وكان السائحون يسافرون دون جوازات سفر أو أي قيود تذكر. وكثيراً ما كان المواطن من أي بلد يستقر في بلد آخر – ليدرس، ويعمل، أو حتى يتزوج ويؤسس عائلة. أما الآن فغدا المواطنون في كلا الجانبين عرضة للإعلان عن عدم الترحيب

بهم كأجانب، أو كمواطنين من مجتمع عدائي. وواجه مثل هؤلاء الأفراد والعائلات العداوة– التي كثيراً ما عُبر عنها بشكل عنيف– من جيرانهم. كما قيّد المسؤولون المرتابون حديثاً بهؤلاء الأجانب، سفرهم وترتيبات معيشتهم. وعانى الأجانب الذكور في كثير من الأحيان من الاعتقال طوال سنوات الحرب الأربع.

الغزو والاحتلال

وضع الاجتياح الألماني غرباً في 1914 السواد الأعظم من بلجيكا رهن الاحتلال. وفي فرنسا، أقام الألمان أربع عشرة منطقة عسكرية بشكل مؤقت، وبعد انسحابهم إلى خطوط دفاع قوية، أبقوا على عشر مناطق كاملة تحت سيطرتهم. ووقع أكثر من مليوني فرنسي تحت السلطة العسكرية الألمانية خلال السنوات الأربع التالية. وشهد جميع سكان بلجيكا البالغ عددهم زهاء 7،6 مليون نسمة الوجود الألماني المستبدّ بشكل عملي.

وبهدف قمع المقاومة والحدّ من الحاجة إلى حاميات عسكرية كبيرة، اعتمد القادة الألمان السياسة الوحشية النموذجية تجاه المدنيين في منطقة الحرب. وتضمنت حكايات الأعمال الوحشية الألمانية التي انتشرت على الفور في بريطانيا والولايات المتحدة عناصر خيالية. ولكن الحقيقة كانت كافية لإحداث الصدمة. وسمح الألمان للصحافيين من البلدان المحايدة بمرافقة جيوشهم. وهذا جعل القصص الآتية من الأراضي المحتلة سريعة الانتقال وعرضتهم لنقد واسع.

بهدف السيطرة على السكان، حدد الغزاة الشخصيات البارزة في المجتمعات المحتلة وأبعدتها إلى ألمانيا. وخلال احتلالهم القصير للمدينة الاستراتيجية الفرنسية «أميان»، اختطف الألمان 1500 من مواطنيها. وكان ثمة وسيلة أكثر وحشية تمثّلت في اتخاذ رهائن– وفي أحيان كثيرة إعدامهم – انتقاماً من المقاومة الحقيقية أو المزعومة تجاه القوات الألمانية.

في أغسطس 1914، شجّع الجيش والصحافة الألمانيان الجنود على خشية المقاومة من قبل المدنيين المسلحين، ووصفوا بأنهم المتطفلون الجبناء، معذبو الجنود الألمان

الجرحى الذين لا حول لهم ولا قوة. سواء أكان ثمة مدنيون مسلحون– أو الجنود غير النظاميين الذين عارضوا الغزو الألماني لفرنسا في عام 1870 و 1871 – فقد ظل ذلك غير مؤكد. وربما يكون إطلاق القوات الألمانية العصبية النار علي بعضها بعضاً السبب الحقيقي وراء الشائعات، ولكن رد الفعل الوحشي جاء سريعاً، إذ كانت القرية الألمانية الحدودية «ورساج» واحدة من أول المواقع التي أُعدم فيها الرهائن بالرصاص. والقرية المجاورة «باتيس» كانت مثالاً مبكراً لقرية احترقت عن بكرة أبيها(1).

وبعد الحصول على إذن من الضباط ذوي الرتب العالية، أعدم الجيش الألماني أكثر من 5000 بلجيكياً ودمر زهاء 16 ألف مبنى في مقاطعات «لوكسمبورج» و«نامور» و«برابانت» و«هاينولت». ولكن الفظائع الأكثر وضوحاً وقعت في مقاطعة «برابانت». هناك، خُربت ودُمرت معظم مدينة «لوفان»، بما في ذلك المباني التاريخية التي كانت جزءاً من جامعتها القديمة. واستمر القتل لعدة أيام في كل مرة، وحتى إن الأعضاء المتميزين من هيئة التدريس في الجامعة الذين دافعوا عن حياتهم بلغة ألمانية واضحة أُعدموا بالرصاص(2).

وتؤكد مذكرات الجنود الألمان أن مثل هذه الأعمال الانتقامية الدامية حدثت في بلجيكا والمناطق الحدودية الفرنسية. وقد أشاد المدافعون الألمان عن تصرفات جيشهم برد فعله المبرر تجاه المقاومة المدنية، ولكن مدى الإجراءات الألمانية ووحشيتها يبقيان صارخين. ففي مدينة «شافن» بالقرب من «لوفان» أُعدم 50 مدنياً في 18 أغسطس. وكانت جريمتهم أنهم سعوا للبحث عن مأوى في برج إحدى الكنائس، الذي حددته القوات الألمانية كمصدر لإطلاق النار معاد.

كما أُعدم 200 بلجيكي ودُمرت قريتهم «ليف» الواقعة بالقرب من مدينة «دينانت». وفي مدينة «نومني»، المدينة الحدودية في «لورين»، كان معظم الضحايا من الفرنسيين. وهناك، تعرض الجنود الألمان لقذيفة مدفعية انفجرت وسطهم. وكرد فعل على ذلك، أمر قائد الكتيبة بإعدام السكان الذكور وتهجير النساء والأطفال(3).

كان استهداف القساوسة الكاثوليك بشكل خاص سمة قبيحة من سياسة الانتقام الألمانية. إذ ترافقت مقاومة الكاثوليكية من قبل الجنود الألمان البروتستانت مع



إعلان لمعرض فرنسي عن جرائم الحرب الألمانية- بموافقة محفوظات معهد هوفر

القصص الشنيعة التي ادعت بأن القساوسة الفرنسيين والبلجيك يدبرون لمقاومة التقدم الألماني. واعتبر الكثير من القوات الألمانية المتقدمة القساوسة قادة حركة الجنود غير النظاميين. إضافةً إلى الشائعات التي انتشرت على نحو مفرط والتي أفادت بأن القساوسة استخدموا كنائسهم كغرف تعذيب للتمثيل بالجنود الألمان. ونظر الألمان لأبراج أجراس الكنائس على أنها مواقع محتملة لمركز اتصال العدو ومرابض للرشاشات. وأكدت مذكرات جنود الحرب على الإعدام الفردي للكهنة، وأحيانا بأعداد كبيرة مع أبناء رعيتهم. وادعى أساقفة بلجيكيون أن الألمان قتلوا 50 من كهنتهم في بداية الحرب.

لم تدم الموجة الأولى من الأعمال الوحشية الدامية طويلاً. فسيطرة الاحتلال الألماني على بلجيكا وفرنسا اتخذت بعدئذ شكلاً سلمياً إنما استبدادياً بشكل كبير. ففي بلجيكا، ترك الألمان الخدمات المحلية سليمة. ولكن في فرنسا المحتلة، وضعوا المستويات العليا في الحكومة تحت سيطرتهم. وبالتالي، لم يعد لحكام فرنسا ومساعديهم دور في إدارة حياة السكان المدنيين. وكان رئيس بلدية المدينة وأعضاء المجالس المحلية هم الذين يتعاملون مع الألمان. وهكذا وجد المدنيون الفرنسيون أنفسهم مقيدين في مجتمعاتهم المحلية. وكان على المواطن الفرنسي الحصول على تصريح خاص من السلطات الألمانية إذا أراد مغادرة مدينته لأي سبب كان. وعرف أولئك الذين آووا جنوداً فرنسيين أو بريطانيين أنهم يواجهون خطر الإعدام على أيدي الألمان.

خلقت السيطرة الألمانية طريقة حياة مؤلمة ومعزولة لسكان المناطق المحتلة. فحُرمت العائلات من سماع أخبار أحبائهم الموجودين على الجانب الآخر من جبهة القتال. كما أخفت الخنادق مصير الشبان الذين هربوا للالتحاق بالجيش الفرنسي. هذا واضطر أفراد العائلات إلى قراءة الصحف المتوافرة في المناطق المحتلة والواقعة تحت السيطرة الألمانية مثل صحيفة «بروكسل» وصحيفة «لا جازيت دي أردان غاردن»[1]. وكانت هذه الصحف تنشر قوائم بأسماء أسرى الحرب، وتحدد أسماء الأسرى الفرنسيين الذين جاءوا من مناطق محتلة مثل مدن «ليل» و«توركوا» و«روبيه» ووقعوا في قبضة الأعداء. ولم يتلق سكان هذه المدن أي معلومات عن ذويهم خلال الاثنين وخمسين شهراً التي وقعوا فيها تحت سيطرة العدو.

واجهت هذه المجتمعات جرعة يومية من الضجر والشك والقوانين التافهة. ولأنهم كانوا محكومين من قبل أجانب، أضحت مدنهم مأهولة بأعداد كبيرة من الإناث والفتيان وكبار السن. وأنتج الألمان كتاباً يحتوي على بعض العبارات الفرنسية لكي يستخدم من قبل قوات الاحتلال، ووضعت كل الأفعال فيه على شكل أوامر، فكان الألمان يتحدثون مع الفرنسيين فقط بلهجة الرؤساء الذين يخاطبون من هم

(1) صدرت هاتان الصحيفتان في الأراضي المحتلة في فرنسا وبلجيكا عام 1914. وكان مقرهما مدينة شارلفيل. وكانتا توزعان على مخيمات الأسرى.

دونهم(4).

تضمن الضغط الألماني على السكان المدنيين مصادرة واسعة النطاق لممتلكاتهم. فبمجرد وصولهم، طلب الغزاة خمسة أسداس المحصول لإطعام جنودهم ومواطنيهم. وسُمح للكثير من العائلات الفرنسية في مدن مثل «روبيه» بالبقاء في منازلهم، ولكن سيطر الألمان على الفرش والمواد الأخرى المفيدة لمجهودهم الحربي. ولكي تدفئ نفسها في أيام الشتاء القارسة في شمال أوروبا، اضطُرت العائلات تدريجياً إلى تدمير الأشياء الأساسية في منازلهم الخاصة. إذ مزقوا خزائن الكتب والسلالم وكل المصنوعات الخشبية الأخرى لاستخدامها كحطب. وعاش الناس في طوابق خالية من الأثاث.

وزاد النقص في المواد الغذائية من مشقات الحياة. فقد رفضت السلطات الألمانية تحمّل أي مسؤولية لإطعام السكان الخاضعين لسيطرتها. إلا أن بعض المجموعات البلجيكية، وبمساعدة إحدى مؤسسات الإغاثة الأمريكية، التي تأسست في أكتوبر 1914 بواسطة هربرت هوفر[1]، حافظت على تدفق المواد الغذائية إلى ذلك البلد. وفي مطلع أبريل 1915، تولى هوفر مهمة مساعدة سكان فرنسا المحتلة. ولكن هذه الجهود، التي أُديرت من قِبل مدير مُلهم وموهوب، لم تتمكن من تزويد السكان سوى بوجبة واحدة يومياً. ووجد الناس الذين كانوا يأكلون في أوائل المساء، أن الوجبة المقدمة لهم كافية فقط لإبقائهم على قيد الحياة.

وسيطر موضوع الغذاء على معظم الأحاديث بين ملايين الناس الواقعين تحت السيطرة الألمانية. وتضمنت الكثير من المناقشات تعليقات لاذعة حول السوق السوداء، وذلك عندما نمى إلى علمهم أن بعض المواد الغذائية القادمة من الخارج يجري تحويلها للبيع بطريقة غير شرعية.

---

(1) ولد عام 1874. تخرج في جامعة ستانفورد. سافر إلى أستراليا في 1897 وعمل في إحدى شركات التعدين كمهندس. ساعد في بداية الحرب العالمية الأولى على تنظيم عودة 120،000 أمريكي من أوروبا. وعندما بدأت بلجيكا تعاني من أزمة غذائية في خريف 1914 عمل مع لجنة الإغاثة في بلجيكا على توفير الغذاء للسكان، وعندما دخلت الولايات المتحدة حلبة الصراع عُين من قبل الرئيس ويلسون كرئيس الإدارة الأمريكية للأغذية.

بدأت السلطات الألمانية على الفور في إلقاء القبض على العمال من السكان الفرنسيين المدنيين. وكان على العمال المستهدفين من الذكور والذين تراوح أعمارهم من سبعة عشر عاماً إلى خمسين عاماً، أن يقدموا تقارير منتظمة للسلطات، وقام المحتلون بأخذهم بعيداً بشكل متكرر ولفترات طويلة من الزمن. وفي ربيع 1915، سُحبت مجموعة من 1500 رجلاً من عشرين مدينة ووضعت في مدينة «بيرون»، بالقرب من جبهة القتال، وظلوا هناك وفي المناطق المجاورة حتى توقيع الهدنة في نوفمبر 1918. وفي بعض الحالات، كان العمال المُنتقون يرحّلون إلى ألمانيا. كما أُجبرت النساء أيضاً على العمل القسري، وتعرضت الشابات منهن للتحرش الجنسي من قبل حراسهن. وطبقاً لرواية لانيت بيكر، فإن كل من تم استدعاؤها خضعت لفحوصات جسدية مذلة، وسخّرت بعضهن كمومسات للجنود الألمان(5).

في أكتوبر 1916، تحرك الألمان بقسوة ضد العمال البلجيكيين غير الراغبين بالعمل. وواجه أولئك الذين لم يتطوعوا للعمل في بعض الوظائف في ألمانيا أو للعمل في بلجيكا لمساعدة المحتلين خطر الإبعاد. لذا اقتلع الألمان 120 ألفاً من هؤلاء الأفراد من حياتهم اليومية، وشحنوهم إلى ألمانيا، وأجبروهم على أداء بعض الأعمال الخدماتية هناك. ولكن ما أحبط السلطات هو أن عدد القوة العاملة المجندة زاد فقط بمقدار الربع عما كان متأملاً. كما أن الاستنكار الدولي، الذي قاده الكاردينال البلجيكي مرسير وانضم إليه نواب الحزب الاشتراكي في الرايخ الألماني، أجبر هذا البرنامج على التوقف. وبحلول الصيف التالي، أعيد جميع الذين تم القبض عليهم بهذه الطريقة السريعة إلى وطنهم.

لم يكن لدى سكان الأراضي المحتلة معلومات موثوقة عن سير المعارك، ولكنهم لم يستطيعوا الهرب من الوعي العصبي الناتج عن المعارك الكبرى الجارية. ووقف جميع السكان في فرنسا المحتلة على بعد عشرين ميلاً من خطوط القتال. وكان صوت المدافع يدوي داخل المدن مثل مدينة «ليل». ونظام السكك الحديدية الذي قدم دعماً كبيراً للمجهود الحربي الألماني على الجبهة الغربية، يمر عبر الأراضي البلجيكية والفرنسية المحتلة. ولكونهم كانوا مطلعين على حركة القطارات المتزايدة، استشعر المدنيون في

المناطق المحتلة أن هناك تحضيراً لهجوم ما. ومن ثم سمعوا أصوات القطارات وهي تحمل الضحايا عائدة إلى ألمانيا.

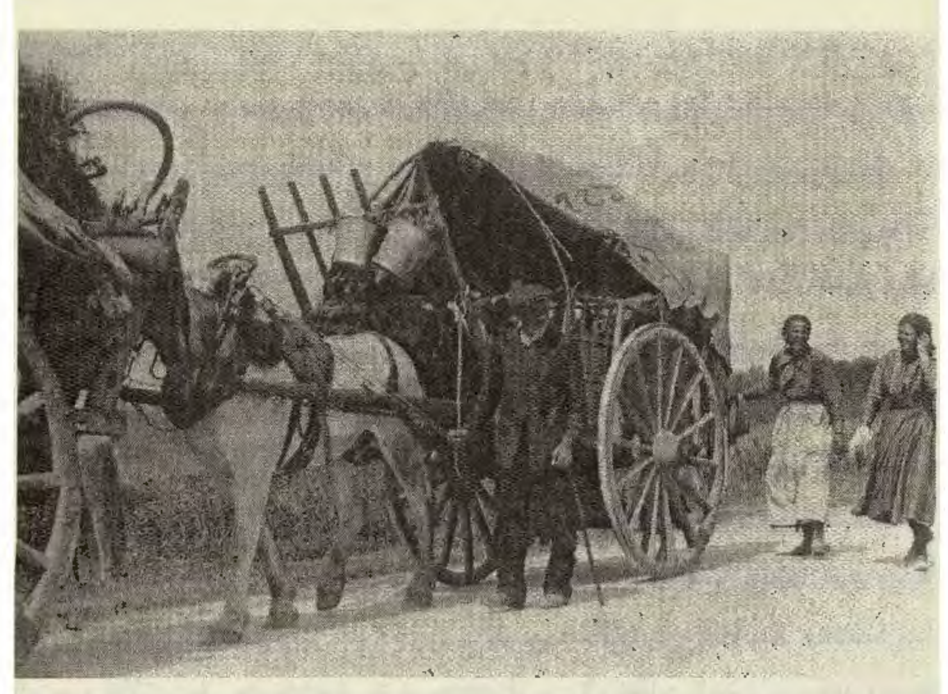
وجود الشرطة العسكرية الألمانية التي كان المدنيون المضطهدون يدعونها «الشياطين الخضر»- بسبب لون زيهم الرسمي- زاد من حدة العذابات اليومية. إذ كان أفراد تلك القوة العسكرية يقومون بدورياتها برفقة كلاب بوليسية ضخمة، فيصادرون السلع الغذائية ويلقون القبض على النازحين من المناطق المحتلة. كما كانوا يطاردون السكان الذين يبدو أنهم يشاركون في أنشطة المقاومة. وفي فرنسا المحتلة، أجبرت السلطات مربي الحمام على التخلي عن طيورهم، وذلك لأنها كانت تستخدم في إرسال الرسائل. وحاول العديد من المربين التملص من تلك الهجمة- ربما لمساعدة الحلفاء، أو ربما لمجرد الاحتفاظ بحيواناتهم الأليفة- التي ألقي القبض عليها وأعدمت(6).

كان الجوع والبرد إضافةً إلى ذل العيش تحت السيطرة الأجنبية القاسية، كلها لا تطاق. ووصفت امرأة فرنسية الوضع قائلةً: «كل يوم نشعر بأننا وصلنا إلى قعر البؤس البشري، لنكتشف في اليوم التالي أن المزيد ما زال قادماً». وفي وسط الشتاء القارس من عامي 1916و1917، أضحت مدينتها «ليل» مدينة كئيبة مشلولة، حيث كان معظم المواطنين يذهبون إلى النوم في الخامسة بعد الظهر. وأضافت : «كل ما تراه في الشوارع، وجوه صفراء، هزلت من الحرمان والجوع»(7).

وكما أشار ريتشارد كوب[1] فإن الاحتلال العسكري له نتائج أخرى. فمع مرور الوقت، تقاسم المدنيون والجنود الذين تحصنوا بينهم متاعب الحرب ومشاقها. كما أن وجود الشباب الألماني دون نساء جنباً إلى جنب سكان فرنسا المكونين بشكل كبير من النساء دون الرجال، أدى إلى علاقات جنسية وإلى موجة من المواليد. وأوضح كوب أن مثل تلك العلاقات الإنسانية تجاوزت الحدود القومية، وربما لطفت من قسوة الاحتلال.

قرر الألمان عدم إغلاق المناطق المحتلة بشكل كامل. وبدلاً من ذلك، سمحوا

(1) مؤرخ بريطاني، وأستاذ التاريخ في جامعة أكسفورد.



اللاجئون الفرنسيون يهربون من القوات الألمانية المتقدمة، بموافقة محفوظات المعهد الوطني

بعودة آلاف من المواطنين الفرنسيين من المقاطعات المحتلة: الصغار جداً والعجائز، على وجه الخصوص. وهكذا، سعوا إلى جعل أولئك الذين لا يستطيعون خدمة اقتصاد الحرب الألماني عبئاً على الحكومة في باريس. وفي إيماءة لا تخلو من قدر ولو ضئيل من الإهانة القاسية، قاموا بإعادة بغايا إحدى المدن إلى فرنسا غير المحتلة.

ولكن المؤسف حقاً، أن الفرنسيين والفرنسيات من جميع المشارب الذين اقتلعوا من موطنهم بهذه الطريقة السريعة وجدوا أنفسهم غير مرحب بهم- بل مشكوكاً بهم- وذلك عندما وصلوا إلى المناطق غير المحتلة. ففي المناطق الجنوبية من فرنسا حيث استقر الكثيرون، اعتقد بعض السكان المحليين أن اللاجئين ساعدوا المجهود الحربي الألماني. وبالتالي، اتُهم أولئك الغرباء بالمساعدة على إطالة ما أطلق عليه السكان المحليون «حربكم». كما أطلق الكثير من المواطنين على اللاجئين القادمين من فرنسا المحتلة كنية قاسية ألا وهي «ألمان الشمال الحقراء». وهذا يدل على مدى احتقارهم لأولئك الذين اعتبروهم متواطئين مع الألمان.

اللاجئون

فرّ طوفان من المدنيين من الجيوش الألمانية على الجبهة الغربية في عام 1914. إذ غادر ما يصل إلى 1،4 مليون بلجيكي مدنهم خلال الأيام الأولى من الفوضى والحرب، وسعى الكثير منهم إلى إيجاد مأوى خلف الحصون في مدينة «أنتويرب». وفي نهاية المطاف، عاد أغلب أولئك المواطنون إلى بيوتهم. ولكن مئات آلاف البلجيكيين غادروا بإرادتهم أو أجبروا على المغادرة. فعبر الكثير منهم مشياً على الأقدام الحدود إلى فرنسا أو هولندا المحايدة. وتنقّل آخرون من ميناء إلى آخر – من «أنتويرب» إلى «أوستيند»– قبل أن يركبوا البواخر إلي بريطانيا.

كما أنتجت المعارك العسكرية لاحقاً أعداداً هائلة من اللاجئين. فبعد أن سقطت القذائف الألمانية على خليج «إيبر» في أبريل 1915، قام الكثير من السكان ممن تجرأوا على البقاء في منازلهم بعد بدء الحرب بركوب القطارات والمغادرة. وعندما بدأ الهجوم الألماني على «فردان» في فبراير 1916، أمرت السلطات الفرنسية سكان المدينة المدنيين بإخلاء مساكنهم في غضون خمس ساعات.

ومنذ بداية الحرب، صُدم المراقبون بمنظر العائلات التي يرثى لها، وهي تجرّ بعض المقتنيات المختارة في لحظة من الذعر، وتتسابق على الهروب من القوات الألمانية المتقدمة. فقد شاهد موظف مدني فرنسي المدنيين البلجيكيين من كل الأعمار، ووصف ما شاهده قائلاً: «كانوا يبكون من التعب، يدفعون العربات الثقيلة وعربات اليد وعربات الأطفال». مضيفاً أن اختيارهم لما يأخذونه في لحظة الإنذار «كشف عن جميع معايير القيم لديهم المتعلقة بمقتنياتهم الحميمة». وأنهى حديثه قائلاً: «ربما ابتعدوا عن الاختيار العملي للشراشف لكي ينقذوا «ساعة العائلة القديمة»(8).

وبحلول عام 1914، استقر زهاء مائتي ألف بلجيكي في بريطانيا. الكثير منهم وصلوا مباشرة، وآخرون اتخذوا من هولندا ملجأ مؤقتاً، ثم تركوها عندما أقنعت الحكومة الهولندية بريطانيا بقبول هذا العبء الإضافي من اللاجئين. ولأنهم وضعوا فجأة في بريطانيا، وجد الكثير من البلجيكيين صعوبة في التكيف. وكان غالبية أوائل الواصلين من الأثرياء والمتعلمين، ولديهم معارف في بريطانيا. ولكن معظم اللاجئين

تحدروا من عائلات الطبقة العاملة. ولعدم معرفتهم باللغة الانجليزية، وجدوا أنفسهم غرباء. فقد لجأوا إلى بلد بروتستانتي يضعهم فيه انتماؤهم إلى الكاثوليكية موضع الغرباء. وكانوا من شاربي القهوة في بلد تتوقف فيه كل الأنشطة في وقت متأخر من الظهيرة لشرب الشاي. وكانوا مُحبين للطعام الجيد في بلد وجد فيه الغرباء أسلوبهم في الطهي مروعاً.

تطور الموقف البريطاني تجاه أولئك الزوار غير المتوقعين من الترحاب الشديد إلى إحساس متزايد بالانزعاج منهم. فقد قدم البريطانيون المأوى لأولئك الغرباء في بيوتهم، ولكنهم بدأوا يعيدون النظر في التزاماتهم عندما بدت التكلفة والمدة الزمنية أكثر وضوحاً. وقد عبّرت رواية هـ ج ويلز «السيد برتلينغ يواصل حتى النهاية»، عن الصعوبات المتعلقة بمحافظة المضيف على التعاطف طويل الأمد مع الزائر الأجنبي.

وبعد انقضاء فترة من الوقت، خلق نقص العمال في مصانع الأسلحة فرص عمل كافية لاستيعاب الكثير من المهاجرين. كما ساعد أيضاً على ذلك إنشاء التجمعات البلجيكية – بأشكال متعددة من الإسكان الجماعي – في المناطق الصناعية في وسط إنجلترا. فخفف ذلك من توترات وجود الجاليات الأجنبية الدائمة التي فُرضت فجأة على السكان البريطانيين. كما رسمت قصص التكيف المدهشة – كالشاعر البلجيكي الذي بات يعمل في مصنع للقذائف – وجهاً مشرقاً، غير أنه زائف لواقع كئيب. فالتغطية الصحافية المتفائلة كانت مادة أقل تشجيعاً بالنسبة للأطباء البلجيكيين الذين وجدوا صعوبات في التأهل لممارسة مهنهم، وكذلك الأمر بالنسبة للمحامين الذين وجدوا أن ممارسة مهنهم تعدّ أمراً مستحيلاً.

تحمل اللاجئون البلجيكيون أربع سنوات من النفي والشك في أن أقاربهم وأصدقاءهم سيعودون إلى أرض الوطن. وقد ظلوا أجانب مقيدين في المجتمع البريطاني، واقتصر تواجدهم على الأماكن التي حُدد لهم الاستقرار فيها، وطلب منهم إخطار الشرطة بكل رحلة يقومون بها. ومع نهاية الحرب، فاق عدد البلجيكيين الذين استقروا في فرنسا عدد الذين مكثوا في بريطانيا، كما أصبح الإقليم المجاور لوطنهم، حيث تركزوا يُعرف باسم «بلجيكا الصغيرة».

ضحايا الحرب: في البرّ

وقع الكثير من المعارك في مناطق مأهولة، مما عرض المدنيين للخطر. وحتى عندما لم يكونوا أهدافاً مقصودة، أصبح أولئك المدنيون ضحايا لأسلحة الحرب. وكان أول أولئك الضحايا مواطنين من مدينة «إيبر» البلجيكية وحشود اللاجئين الذين فرّوا إلى هناك. فعندما أطبق الألمان على هذا المعقل البريطاني المهم في خريف 1914، سويت معظم أرجاء المدينة بالأرض بفعل قذائفهم المدفعية والجوية. ووصف أحد الكهنة المحليين كيف بدت المدينة: «اليوم، الثالث من نوفمبر، سقطت أول قذيفة على مستشفى نوتردام وسببت ضرراً مروعاً. وأصيب آرثر ديبو بجروح قاتلة. ولقي حتفه بعد دقائق من تناوله لمهدئ قويّ»، مضيفاً: «وفي اليوم التالي استمر النزوح الجماعي للسكان... ما زالت القذائف تنهمر كالمطر... قُتل أوسكار سيغرز، إضافةً إلى امرأة أخرى. وجرح الكثيرون».

أحياناً، كان المدنيون يعانون من احتلال العدو ومن وقوع مدينتهم بالقرب من خطوط القتال. فمدينة «سواسون» التي احتلها الألمان في بداية الحرب، تعرضت لقصف مدفعي مكثف من قِبل الحلفاء بدءاً من سبتمبر 1914 وحتى فبراير 1915.

يمكن للنيران الصادرة عن الأسلحة الصديقة أن تكون قاتلة. ففي معركة «إيبر» في يوليو 1917، قامت مدفعية الحلفاء المضادة للطائرات بإطلاق النار على القاذفات الألمانية ولكنها أخطأت أهدافها. وعندما سقطت القذائف على الأرض أصابت الشظايا منزل إحدى العائلات البلجيكية. وأسفر ذلك عن مقتل طفل على الفور بسبب شظية معدنية قاتلة كما فقدت ربة الأسرة أحد أطرافها، وماتت بسبب الإصابة بعد أن نُقلت إلى إحدى المستشفيات العسكرية.

وفي بعض الأحيان كان المدنيون الأبرياء أهدافاً مُتعمدة. ففي ديسمبر 1914، تسللت السفن الحربية الألمانية عبر الأسطول البريطاني المسيطر على بحر الشمال لقصف ثلاث مدن – «هارتلبول» و«سكاربورو» و«يتبي»– على طول الساحل الشمالي لإنجلترا. وعانت مدينة «هارتلبول» من أسوأ الأضرار، وذلك عندما قامت البوارج الحربية الألمانية بمهاجمتها عن بعد ميلين من الشاطئ، وقد بدأ الهجوم الساعة

الثامنة صباحاً بإطلاق الأسطول الألماني أسلحته الرشاشة لمدة نصف ساعة مما أسفر عن مقتل 86 مواطناً وجرح ما لا يقل عن 424. وكانت الوحدات العسكرية المحلية متواجدة في موقع الحدث ولكن معظم الضحايا كانوا من المدنيين.

هزّ ذلك القصف البحري ثقة السكان البريطانيين داخل الوطن إذ كانوا يعتقدون أنهم في مأمن من التهديد ومن هجمات العدو. وأطلق الإخفاق في صد ذلك الهجوم البحري العنان لسفن «زيبلن» الجوية التابعة للبحرية الألمانية للقيام بغارات ضد البريطانيين. وعند بدء الغارات الجوية الألمانية، اختفى ذلك الإحساس بالأمن طوال مدة الحرب. ومنذ مطلع يناير 1915، بدأت تلك السفن الجوية بقصف مدينة لندن وأجزاء من جنوب شرق إنجلترا. وعلى مدى العامين التاليين، وسع الألمان من نطاق عملياتهم الجوية لتصل إلى «ميدلاندز» الإنجليزية و«ويست كنتري»[1] بل وحتى جنوب اسكتلندا.

لم تسفر الهجمات بسفن «زيبلن» سوى عن سقوط عدد محدود من القتلى والجرحى. إذ أسفرت سلسلة من تسع غارات وقعت بين يونيو وأكتوبر 1915 عن مقتل 27 شخصاً وجرح 325(10). ومع ذلك، شكلت مثل تلك الهجمات دليلاً واضحاً على ضعف الوطن. إذ كانت الغارات تُشن في الليالي المظلمة، وكانت السفن الجوية تحلق على ارتفاعات يمكن للطائرات البريطانية المقاتلة أو حتى نيران المضادات الأرضية الوصول إليها. وكانت هناك محاولات لوضع تعليقات هزلية على تلك الهجمات، مثل: أعلنت المسارح أن عروضها سوف تُقام في ليالي «البدر»، وهي الأوقات التي تكون فيها هجمات زيبلن غير محتملة. ولكن مثل هذا الهزل الاضطراري أوضح كيف أثرت تلك الهجمات على عقول عامة الشعب ومشاعرهم تأثيراً قوياً.

عكست الصحف الألمانية نجاحات السلاح الجديد، ولكن بنغمة من الابتهاج. فتبجحت إحدى صحف مدينة «لايبزغ» بالقول: «إن مدينة لندن، القلب النابض الذي يضخ الدم في شرايين الحياة لتلك الأمة المتوحشة والقاسية، زُرعت الآن بقنابل

(1) الجزء الجنوبي الغربي من إنجلترا ويضم عدة مقاطعات مثل كورنول وديفون وسومرست، ويضيف بعضهم إلى هذا الجزء كلاً من مقاطعتي أفون وجلوسترشاير.

السفن الجوية الألمانية.» وأضافت: «أخيراً تحقق الانتقام الذي طال انتظاره... من أولئك الكذابين والمنافقين». ومع ذلك، وفي أواخر 1916، استطاعت الدفاعات البريطانية، التي تضمنت طائرات مقاتلة مسلحة بنوع قوي من الذخيرة، إسقاط السفن الجوية المهاجمة بصورة منتظمة(11).

لكن الطائرات شكلت تهديداً أكثر فاعلية. إذ أمكنها الدفاع عن نفسها بشكل أكثر فاعلية من السفن الجوية، كما أن مجموع ما كانت تحمله عدة طائرات ما كان يعادل ما تحمله سفينة حربية من القنابل الثقيلة. وواجه المدنيون على كلا الجانبين من خطوط القتال هذا التهديد. واستطاعت قاذفات الحلفاء التي انطلقت من قواعد في شرق فرنسا الوصول إلى المدن الألمانية الغربية، بما في ذلك «كولونيا» و«ماينز» و«كارلسرو» و«فرايبورغ». كما عززت القاذفات الأمريكية من الهجمات التي شُنت من قِبل القاذفات الفرنسية والبريطانية خلال الأشهر الأخيرة من الحرب. إذ قُتل ما مجموعه 786 ألمانياً نتيجة لتلك الغارات الجوية بدءاً من 1914 وحتى 1918. ووجد مواطن من مدينة «فرايبورغ» الذي كان يقيم في تلك المدينة الجامعية خلال فترة الحرب، مدينته تتعرض للغارات الجوية في 25 مناسبة. وأن 31 من زملائه الجامعيين قتلوا نتيجة لتلك الغارات(12).

وضع موقع جبهات القتال ومدى طائرات الحرب العالمية الأولى أكبر المدن البريطانية والفرنسية في خطر عظيم. فأهداف الهجوم الجوي شملت عاصمتي الدولتين. وجاء أول هجوم على مدينة لندن بواسطة طائرة في أواخر شهر نوفمبر 1916. ولكن نتج عنه أذى بسيط فقط: بعض البنايات المحطمة بالقرب من «محطة فيكتوريا» وإصابة عشرة مواطنين. ولطمأنة المواطنين، أعلنت السلطات العسكرية وبشكل هادئ «هذا الصباح أُلقيت ست قنابل فوق لندن من قِبل طائرة معادية كانت تحلق على ارتفاعات شاهقة فوق الضباب». وأضافت قائلةً: «إن الضرر المادي كان بسيطاً»(13).

وفي يونيو 1917، بدأت القاذفات الألمانية هجوماً فعالاً على العاصمة البريطانية. جاءت الهجمات الأولية في ساعات النهار عندما كان الكثير من السكان ما زالوا في أعمالهم أو في مدارسهم. وأسفرت الهجمة الأولى عن خسائر فادحة: 162 ضحية

و432 مصاباً. وازدادت حدة الغضب الشعبي عندما علم اللندنيون أن 16 من القتلى كانوا من أطفال المدارس الذين لا تزيد أعمارهم عن خمس سنوات. وأن محاولاتهم الاختباء في قبو لم تنقذ حياتهم. وذكر ضابط بريطاني شاب كان في إجازة من الخنادق قائلاً: «أقنعت الغارات الجوية الألمانية تقريباً معظم أصدقائي في لندن، بأن لندن هي جبهة القتال الوحيدة»(14).

رداً على الدفاعات البريطانية الصلبة، بدأ الألمان تنفيذ عملياتهم ليلاً. وبحلول سبتمبر، تم دعم أول نوع من القاذفات الألمانية «غوثا»[1] ببعض الطائرات العملاقة من طراز «رزين» وهذا النوع من الطائرات يقترب حجمه من القاذفة الأمريكية «بي–29» التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية، وحملت تلك الطائرات أكثر من طن من القنابل. ودفعت تلك الطائرات (غوثا العملاقة) آلاف اللندنيين لهجر المدينة. أما أولئك الذين بقوا في المدينة فوجدوا في محطات المترو الواقعة تحت الأرض ملجأ آمناً، ولكن الإقامة في تلك الأماكن ليلاً فاقمت من المعاناة الجسدية والنفسية لعدد كبير من البريطانيين. كما أدى الهلع الناجم عن الغارات الجوية المفاجئة إلى مآسٍ قاتلة. فعلى سبيل المثال، سُحق 14 شخصاً تحت الأقدام نتيجة الازدحام خارج ملجأين. واستمرت الهجمات الجوية على لندن وأنحاء أخرى من بريطانيا حتى مايو 1918.

شهدت باريس الأقرب إلى خطوط القتال والأقل تحصيناً من لندن، عدة أنواع من الغارات الجوية. وقد نفذت طائرة ألمانية أولى هجماتها في سبتمبر 1914 نتج عنها إصابة واحدة فقط. كما واجهت مدينة باريس أيضاً هجمات من قبل سفن الجو «زيبلن» ووقعت الغارة الأول في مارس 1915. وتمكّن الرئيس الفرنسي ريمون بوانكاريه[2] من رؤية السفينة من قصر الإليزيه، فوصفها قائلاً: «إنها شبح ذهبي عملاق يجوب السماء» ولم يسفر الهجوم الأول عن أضرار، ولكن في يناير 1916 قتل الهجوم الثاني

---

(1) صُممت للقيام بهجمات عبر القنال الإنجليزي. بدأ استخدامها في خريف عام 1916 بعد أن ثبتَ فشل الهجمات بواسطة السفن الجوية. تُعد من طراز الطائرات ثُنائية الدفع، ويمكنها التحليق على ارتفاع 15،000 قدم ولمسافة 800 كم وحمولة تصل إلى 500 كغم.

(2) سياسي فرنسي (1860– 1934) تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية الثالثة (1913– 1920) وفي عهده دخلت بلاده الحرب العالمية الأولى. كما تولى رئاسة الوزارة في فرنسا ثلاث مرات.

24 شخصاً. وعلى الرغم من أن السفن الجوية لم تعد مرة أخرى إلا أن الخوف الدائم من الهجمات ظل ماثلاً أمام أعين الفرنسيين. وقد أشار أحد المراقبين الذين تواجدوا في باريس في أعياد الميلاد في العام 1917 قائلاً: «كان هناك خوف دائم من سفن زيلن الجوية»(15).

في ذلك الوقت، كانت القاذفات الألمانية هي التهديد الأعظم، إذ قامت أسراب من قاذفات «غوثا» بقصف باريس في مطلع يناير 1918. ووقعت أعداد كبيرة من الهجمات الإضافية خلال فصل الربيع وأوائل الصيف. وأسفرت الغارات في مارس وحده عن سقوط 120 ضحية. كما أصبحت الملاجئ العامة التي أقيمت للاختباء من الغارات الجوية والأقبية الخاصة بيتاً ثانياً للكثير من مواطني العاصمة الفرنسية.

بحلول 1918، هددت الأسلحة الألمانية بعيدة المدى المواطنين والأبنية في باريس. ففي 23 مارس بدأت قطعات المدفعية الألمانية العملاقة هجومها على مدينة «كريب أون لوانيه» الواقعة تقريباً على بعد 75 ميلاً شمال شرق العاصمة الفرنسية. وفي اليوم الأول دام الهجوم زهاء سبع ساعات وانفجرت القذائف في أكثر من عشرين موقعاً. ونتج عنها عدة حفر في المواقع المركزية مثل حدائق توليريه وساحة الجمهورية واستغرق الأمر بعض الوقت من السلطات لفحص شظايا القذائف والخلوص إلى أن الشظايا نجمت عن قصف مدفعي وليس عن قصف جوي.

وتبع ذلك 44 يوماً من هذا الهجوم المدفعي العشوائي. ونسق الألمان لهجومهم مع الهجوم البري النهائي في ربيع عام 1918. وأوضحت صحيفة فرنسية خاضعة للرقابة أن القذائف لم تنجم عن قصف مدفعي قصير المدى. وبالتالي، أحس الباريسيون ببعض الراحة من حقيقة أن العدو لا يرابض على أعتاب المدينة. وعلى الرغم من ذلك، وفي غياب القدرة على التصويب الدقيق، انطلق الألمان لتقويض معنويات سكان العاصمة الفرنسية من خلال الانفجارات المفاجئة وغير المتوقعة. وحين زار هربرت هوفر، مدير دائرة الأغذية الأمريكي، باريس في الصيف شهد واحدة من تلك الانفجارات المفاجئة من مسافة قريبة.

وصل مجموع الضحايا النهائي إلى 256 ضحية و625 مصاباً(16). وتحدث بعض



جنازة لضحايا مدينة لوزينيا، بموافقة محفوظات مجموعة هيلتون

المراقبين عن سكان المدينة الذين تعاملوا مع القصف دون صعوبة، موضحين أن الباريسيين تعلموا بمرور الوقت تجنب المناطق المعرّضة للقصف المدفعي بشكل منتظم. وعلى الرغم من ذلك، ومع اقتراب وصول الجيش الألماني، دفعت قذائف المدفعية الكثير من السكان إلى سحب أموالهم من المصارف والفرار إلى محطات السكك الحديدية ومن المدينة. وكان هناك نزوح جماعي لزهاء نصف مليون مواطن قبل أن تسقط آخر قذيفة مدفعية على العاصمة الفرنسية في التاسع من أغسطس.

الموت في عرض البحر: هجمات الغواصات

مع توسيع الألمان لنطاق استخدام الغواصات، عَرضت الحرب البحرية أعداداً واسعة من المدنيين للخطر. وتطلب القانون المعمول به في البحر من القوات البحرية احترام حياة الطواقم المدنية وركاب السفن حتى عند تدمير السفن التي يسافرون على متنها، وكان ذلك يعني تحذير تلك السفينة التجارية قبل إغراقها. كما أنها تطلبت اتخاذ إجراءات لضمان سلامة الأفراد غير المقاتلين على متن تلك السفينة. غير أن البنية الهشة لتلك الغواصات جعلت تطبيق تلك التدابير محفوفة بالمخاطر. فمن الخطر الشديد على الغواصة أن تحذر سفينة تجارية أنها على وشك إغراقها، إذ

أن قذيفة واحدة من رشاش على متن تلك السفينة كفيل بإتلافها بشكل خطير. كما أن المساحات الضيقة على متن الغواصة جعلت من المستحيل حمل أكثر من حفنة من الناجين من سفينة غارقة إلى بر الأمان.

كان المدنيون المسافرون على متن السفن التجارية أو بواخر الركاب فضلاً عن أطقم السفن يبحرون معرضين أنفسهم للخطر. وكان البحارة التجار المحترفون معتادين على مخاطر السفر في المحيطات مثل العواصف والاصطدام والملاحة في المياه الضحلة والخرائط البحرية المخططة بشكل سيئ. إلا أنهم وجدوا أنفسهم الآن في مواجهة عدو مسلح يهدف إلى إغراق سفنهم بنيران القذائف أو الطوربيدات. وبالنسبة إلى الركاب المدنيين لم يكن هناك سوى مخاطر ضئيلة في السفر بوسائل الإبحار الحديثة. وأقرب مثال على ذلك، اصطدام السفينة «تايتانيك» بجبل جليدي في أبريل 1912. ولكن أولئك الأفراد غير المقاتلين، واجهوا أيضاً عدواً مسلحاً مستعداً لتعريض حياتهم للخطر بإغراق السفينة التي يبحرون بها.

شهد الخمسمائة مسافر مدني الذين كانوا على متن باخرة القنال الإنجليزي «ساسكس» مثل هذا الهجوم من قِبل غواصة في مارس 1916. حيث نسف طوربيد قوس السفينة مما أسفر عن مقتل جميع من كانوا في غرفة الطعام في الدرجة الأولى. أحد المسافرين على متن تلك الباخرة تذكر المشاهد والأصوات: «كان هناك دوي هائل... قذفني إلى سطح السفينة، وعندما استعدتُ وعيي رأيت جثة امرأة ميتة، وقطعة من شيء ما شنيع بالقرب مني، ورجلاً وحيداً يقف بجانب روافع السفينة محملقاً في البحر»(17).

وعندما أعلنت ألمانيا بدء حرب غواصات مفتوحة في أوائل 1917، لم تعد أي سفينة مبحرة في أرجاء بريطانيا العظمى في مأمن من الهجوم. وبدأ عدد كبير من المدنيين الأمريكيين يعانون من صدمة هجمة الطوربيد. وصف فلويد غيبونز، مراسل صحيفة أمريكي، الإحساس الذي شعر به في مساء يوم الأحد 25 فبراير أثناء وجوده في لاكونيا. كانت السفينة «كونارد» متجهة إلى ليفربول عندما، وبشكل مفاجئ «تمايلت السفينة على الجانبين وإلى الأمام. وكان هناك ضجيج مبهم مثل صوت

إغلاق باب من مسافة بعيدة». وبعد مغادرته لتلك السفينة الجانحة، شاهد غيبونز السفينة وهي «تغرق بسرعة حتى مؤخرتها إلى أن وقفت رافعة مقدمتها في الهواء. ثم انزلقت بهدوء إلى أسفل إلى أن اختفت عن الأنظار وكأنها قطعة اختفت من مشهد استعراضي»(18).

كان الموت غرقا هو أكثر خطر فوري يواجه أولئك الذين تقع سفينتهم ضحية للغواصات. كانت سفينة الشحن الأمريكية «أزتك» وعلى متنها شحنة من المواد الغذائية، تقترب من ميناء «بريست» الفرنسي عندما رأى رُبانها «وميضاً لامعاً يندفع باتجاهه» ثم شعر بارتجاج في السفينة، تبعه جنوح بشكل فظيع. مما أسفر عن فقدان أكثر من نصف طاقم السفينة، الذي يقدر بسبعة وعشرين بحاراً(19).

كان مجموع القتلى الذين سقطوا في ربيع عام 1917 مخيفاً، إذ قُتل في مارس وحده ما يناهز 630 بحاراً تجارياً. قُتل بعضهم بقصف الطوربيدات، وبعضهم غرقاً. ولم يعن الوصول إلى قارب نجاة أي ضمانة للنجاة. فقد لقيت زوجة وشقيقة رجل أعمال أميركي في لندن حتفهما على متن أحد قوارب النجاة التابعة لمقاطعة «لاكونيا» اليونانية، إذ تجمدتا حتى الموت من جراء البرد الشديد في المحيط الأطلسي الشمالي. وكذلك الأمر بالنسبة إلى بحارة سفينة الشحن الأمريكية المنسوفة «فيغيلانسيا»، التي غرقت في جزيرة صقلية بالقرب من الطرف الجنوبي الغربي لبريطانيا، والتي حمل البحر من نجا من طاقمها لمدة يومين قبل أن يتم إنقاذهم عن مسافة تبعد أكثر من 140 ميلاً عن اليابسة. ومع ذلك، مات 15 بحاراً من الطاقم، غالبيتهم نتيجة تعرضهم لتلك العوامل المناخية السيئة.

عندما غادر 139 بحاراً ومسافراً الباخرة المنسوفة «قلعة ألنويك» على بعد أكثر من 500 ميل في المحيط الأطلسي، لم يكونوا يعرفون أن اثنين من قوارب النجاة التي يستقلونها سيختفيان تماماً. فقد وصل قارب النجاة الأول إلى أحد شواطئ إسبانيا بعد تسعة أيام من المعاناة حاملاً على متنه ثمانية قتلى من المسافرين، وواحداً وعشرين آخرين كانوا على وشك الموت.

في غمرة القتال، فعل قادة الغواصات الألمانية ما يتجاوز تعريض حياة المدنيين

الناجين من السفن المنسوفة للخطر، ولجأ بعضهم للقتل المباشر. ففي حادثتين في أبريل 1917، قام الملازم فيلهلم فيرنر بأسر ربان أحد السفن التي كان قد أصابها بطوربيد للتو. ومن ثم أجبر باقي أفراد طاقمها على الاصطفاف فوق ظهر الغواصة وغاص بهم تحت الماء، تاركاً إياهم للغرق.

الأجانب والمعتقلون

لم يتضمن ما شهده الأجانب والمعتقلون خسائر فادحة في الأرواح. ومع ذلك، وجد عشرات الآلاف من الأفراد أن نمط حياتهم قد تغير بعد أن غدوا محاطين بالأعداء، مما تسبب لهم بصدمات نفسية شديدة. وتبع ذلك احتجاز للكثير منهم لفترات طويلة قاتمة.

ظلت حرية التنقل عبر الحدود الدولية في أوروبا في مرحلة ما قبل عام 1914 أمراً في غاية السهولة. إذ رحبت الدول الأجنبية بالطلبة الراغبين في إكمال تعليمهم. وكثيراً ما كان العامل الذي يرغب في العمل لعدة سنوات– أو حتى شراء مؤسسة تجارية ومسكن – في بلد أجنبي قادراً على القيام ذلك. وبالتالي، حجز اندلاع الحرب آلاف المدنيين على الجانب الخطأ من خطوط القتال. وعانت النساء والأطفال لإيجاد وسيلة للعودة إلى مواطنهم الأصلية. وسُجن الرجال الذين بلغوا سن التجنيد.

وقد شهد مسؤول في السفارة الأمريكية في باريس الآلام والارتباك الذي شعر به المدنيون من القوى المركزية الذين تحطم عالمهم بشكل مفاجئ: «في الأسبوع الماضي كانوا موجودين في كل مكان وكانوا يُعاملون بكل أدب واحترام، أما اليوم فيُنظر إليهم بشك وعدوانية. أصبحوا يعانون الجوع، لا يمتلكون المال... الكثير منهم فقدوا كل سلعهم الدنيوية وأصبحوا لا يمتلكون شيئاً عدا الملابس التي يرتدونها»(20).

الأجانب في بريطانيا وألمانيا

خلقت الدوافع السياسة والدينية والاقتصادية منها على وجه الخصوص جالية مكونة من أكثر من 53 ألف ألماني عاشوا في بريطانيا عشية الحرب العالمية الأولى. وعاش

أكثر من نصفهم في العاصمة لندن. وكان لديهم دوافع قوية للعيش في إنجلترا، وذلك لأن إتقانهم للغة الإنجليزية حَسّن من فرص عملهم في الكثير من دول العالم. وعمل المهاجرون الألمان كمساعدي خبازين حتى أتقنوا العمل. وفضل بعض أولئك الألمان البقاء في إنجلترا. وعلى الرغم من حقيقة احتفاظ الكثير منهم بجنسيتهم الألمانية، إلا أنهم تزوجوا من نساء إنجليزيات وأصبح لديهم أطفال في وطنهم الثاني.

كانت ألمانيا أيضاً مكاناً لتجمع الأجانب. فقد أتاحت صناعتها المتقدمة فرص عمل للمهندسين والتقنيين القادمين من الخارج. كما جذبت المدارس والجامعات الألمانية المتميزة الطلبة من جانبي الأطلسي، ودفع اهتمام ألمانيا المتنامي بالرياضة العديد من المحترفين للإقامة هناك لفترة من الوقت. وكانت الموانئ الألمانية دائماً مليئة بالسفن الأجنبية وطواقمها. واجتذبت العطلات الصيفية وصناعة السياحة الألمانية الثابتة آلاف الزائرين الذين أتوا لقضاء فترة وجيزة في الرايخ. وفي الوقت نفسه، وجد بعض الألمان أنفسهم يُعاملون كأجانب داخل ألمانيا نفسها. فقد ولدوا لآباء ألمان كانوا قد أقاموا بشكل مؤقت في بريطانيا أو في بلد أجنبي آخر. وبعضهم الآخر ولد في ألمانيا نفسها لمواطنين بريطانيين حصلوا على الإقامة الدائمة في ألمانيا.

في بريطانيا، كان الكثير من عمال الفنادق والمطاعم - حتى كبير طباخي الملك جورج- من الأجانب الأعداء الذين سارعوا إلى الفرار من البلد. أما أولئك الذين بقوا داخل البلد فقد أُرغموا على التسجيل في أقسام الشرطة، وأجبرت الحكومة زهاء 19 ألفاً إما على الفور أو في أوقات لاحقة على الإقامة في معسكرات الاعتقال. ووجدت العائلات الإنجليزية المجنسة من أصل ألماني أنه من المستحسن تغيير أسمائها التي أصبحت بشكل مفاجئ مسميات مزعجة مثل «شتاينديكر» و«ستاوهوزر» إلى أسماء إنجليزية مقبولة مثل «ستانلي» و«ستو». وفي أكتوبر 1914، استجابت الحكومة لغضب ابن البلد الذي عُبر عنه في افتتاحيات الصحف ومقالات محرري الأعمدة وحظر تغيير مثل هذه الأسماء بدون إذن رسمي.

وفي بريطانيا، واجه الأجانب من البلدان المعادية وحتى أولئك من الدول المحايدة مجموعة من القيود. وكان عليهم تسجيل أسمائهم لدى الشرطة، كما منعوا

من التجول ما بين الساعة التاسعة مساءً والخامسة صباحاً دون تصريح من الشرطة. وكانت السلطات تنظر بعين الشك والريبة لسفر الأجانب وتمنعهم من الاقتراب من المناطق العسكرية الحساسة، ولا سيما الساحلية منها. كما طُلب من الفنادق وبيوت الإيواء تسجيل الأجانب والإبلاغ عنهم.

وفي مطلع أغسطس 1914، اقتضت أوامر الحكومة اعتقال المواطنين الألمان الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية. وكان الدافع الأول لدى الحكومة البريطانية حصر جميع الألمان والنمساويين الموجودين داخل البلاد. في بادئ الأمر زُج بأولئك الذين شكلوا تهديداً على الأمن القومي وراء القضبان، ولكن بحلول نهاية الشهر، وجد زهاء 4800 شخص أنفسهم في الحجز. وكانت المشاعر القاسية التي سادت في بداية الحرب تتفاقم مع مرور الوقت. ففي أواخر أكتوبر 1914 اجتمع ممثلو خمسين ناد للغولف لتطبيق العقوبات الاجتماعية التي فُرضت على العناصر أجنبية المولد وعلى الأفراد الذين من المفترض أنهم يشكلون خطراً على المجتمع. وأقرّ هؤلاء الممثلون بشبه إجماع ومعارضة صوت واحد فقط، بعدم السماح للاعبين الأجانب من أصل ألماني أو نمساوي من استخدام ملاعبهم طوال مدة الحرب، أما الأجانب الأعداء فقد تلقوا عقوبة أشدّ وهي الطرد المباشر من نوادي الغولف طوال تلك المدة.

انتقل بعض المعتقلين الذين أُفرج عنهم من بعض المقاطعات إلى الإقامة في لندن. مما حدا بالصحافة والجمهور على حد سواء للإعلان عن قلقهم من تنقلات أولئك الذين وصفوهم بجنود الاحتياط الألمان في عاصمة بلادهم الوطنية. كما زاد غرق السفينة البريطانية «لوزيتانيا»[1] في مايو 1915 من قِبل غواصة ألمانية من حدة العداء تجاه الأجانب الأعداء. وأثارت الخسارة الكبيرة والمفاجئة في الأرواح نتيجة لتلك المأساة موجة من الغضب الشعبي التي أججتها الصحف الوطنية. فقامت مجموعات من الحشود الغاضبة بنهب المتاجر الألمانية في أقصى شرق لندن، كما طردت بورصات لندن السماسرة من أصل ألماني حتى أولئك الذين حصلوا على الجنسية الإنجليزية،

(1) نُسفت من قبل غواصة ألمانية في 8 مايو 1915 على بعد 8 أميال من سواحل أيرلندا مما أسفر عن مقتل 198راكباً.

وكذلك الأمر بالنسبة للجزارين الألمان الذين وجدوا أنفسهم مطرودين من أعمالهم من قبل زملائهم البريطانيين. ودمّرت الغوغاء المتاجر الألمانية والمخابز النمساوية التي زودت شرق لندن وجنوبها بالكثير من الخبز. ونتيجة لذلك، أعلنت الحكومة فعلياً أن جميع الأجانب الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية وما زالوا طلقاء سوف يتم اعتقالهم، أما الأجانب الأكبر سناً والنساء والأطفال فأجبروا على مغادرة البلاد.

قام الكثير من الأجانب الألمان، المدركين لهشاشة وضعهم، بتسليم أنفسهم طواعيةً لمراكز الشرطة المحلية ليتم حجزهم. وذلك لأن أحداث الشغب الأخيرة أظهرت لهم مدى الخطر الذي يحيق بهم. أما بعضهم الآخر فتصرف بطريقة مغايرة عندما اندلعت أعمال العنف فقاموا بالاختباء. مما دفع شرطة لندن وخاصة في المنطقة الشرقية حيث يقطن الكثير من الأجانب إلى العمل لساعات إضافية لملاحقة أولئك الذين لم يكونوا على استعداد لتحديد أماكن إقامتهم.

وقعت الموجة الأخيرة من العداء ضد أي شخص له صلات مع الألمان خلال صيف 1918 الذي كان شديد التوتر. وتزامن ضغط الحرب الطويلة والمكلفة مع أنباء هجوم الربيع المُروع على الجبهة الألمانية لزيادة كره الأجانب. وعمل بعض المسؤولين المحليين في لندن على تغيير أسماء الشوارع التي بدت غير وطنية في زمن الحرب. فعلى سبيل المثال، تغير اسم شارع «هانوفر» إلى شارع «أندوفر». حتى الأوساط العلمية تصرفت بالمثل، فأيدت جمعية لندن الملكية المشهورة قرار طرد الأجانب الأعداء. وفي الوقت نفسه، احتشد مئات الآلاف في وسط لندن رداً على الشائعات التي انتشرت عن استمرار وجود أعداد غير محتجزة من الأجانب الأعداء.

كما هدد رئيس الوزراء، ديفيد لويد جورج، أولئك الذين لهم صلات بالألمان. وكان الهجوم النهائي الألماني في فرنسا ما زال دائراً عندما ألقى خطابه في مجلس العموم في 11 يوليو، إذ ادعى في خطابه بأن أي إعاقة للتقدم البريطاني تعود إلى «الرسائل المجهولة التي كُتبت من قبل الألمان القاطنين في هذه البلاد والذين ينعقون فوقها». ثم سأل، بثقة شديدة ومكتبه الفخم ظاهر من خلفه، «أين هم الآن؟»، ثم صرخ قائلاً: «أشعر بأن مثل هذا الأمر يجب أن يتوقف»(21).

وفي ألمانيا، ألقت السلطات القبض على أعداد كبيرة من البريطانيين فور اندلاع الحرب. وكان بحارة السفن التجارية الذين وجدوا أنفسهم محتجزين في الموانئ الألمانية في مطلع أغسطس من أوائل تلك الأهداف. وبقي بعض من حملوا الجنسية البريطانية أحراراً لبعض الوقت، ولكنهم كانوا مطالبين بالتسجيل لدى الشرطة المحلية وإثبات وجودهم لتلك السلطات بشكل منتظم. أما الإناث الأجنبيات البريطانيات فاحتفظن بحريتهن طوال فترة الحرب. وإذا رفضن العودة إلى وطنهن عبر هولندا، كُن ملزمات رغم ذلك بالبقاء على اتصال مع أقسام الشرطة المحلية.

وبخلاف بريطانيا، لم تشهد ألمانيا أي نوبات غضب تذكر ضد الأجانب. ولكن الحكومة الألمانية تصرفت بسرعة وطالبت بإطلاق سراح الألمان المعتقلين في بريطانيا. وعندما لم تلق تلك الدعوة أي استجابة، باشرت على الفور في اتخاذ تدابير قوية لحجز الأجانب الذكور من أصل بريطاني.

تجارب الاعتقال

في الحجز الألماني

دخل الرجال البريطانيون الذين تم احتجازهم بحلول 6 نوفمبر 1914، الآن السجن «كمعتقلين». وكانت مواطنهم الجديدة عبارة عن معسكرات اعتقال مدنية، وأشهرها معتقل «روليبين»[1]، مضمار سباق في ضواحي برلين. الذي تراوح عدد المعتقلين فيه من ألف إلى 550 معتقلاً أمضوا جميعهم فترة الحرب بأكملها. وقد أُمرَ الرعايا البريطانيون بالتوجه إلى هذا المعسكر إذا كانوا من الذكور وإذا كانت أعمارهم ما بين 17 و55 عاماً.

جمع هذا المأزق مجموعة متنوعة من البشر في معتقل «روليبين»، ومنهم «مديرو الشركات والبحارة والعازفون الموسيقيون وعمال المصانع وأساتذة الجامعات والخيالة.

(1) معسكر أسرى حرب مدني، يقع على بعد 10كم إلى الغرب من برلين. وضم المواطنين الذكور لقوات الحلفاء الذين كانوا يسكنون أو يدرسون أو يعملون في ألمانيا عند اندلاع الحرب.

قلة منهم كانوا قد التقوا في السابق، وكان الرابط الوحيد الذي جمعهم هو مواطنتهم البريطانية»(22). وكانت المعاناة الرئيسية، علاوة على التوتر النفسي للسجن، هي البرد الشديد، والسكن غير المريح، والطعام المقيت. غير أن مشكلة الطعام بدأت تخف حدتها في فبراير 1915 وذلك عندما بدأت الحكومة البريطانية بتزويد كل معتقل بأربعة ماركات كل أسبوع. وهكذا مبلغ، مكن الأفراد من استكمال الحصص الغذائية الضئيلة التي كانت تقدمها السلطات الألمانية؛ فقد كان الألمان يدفعون لكل معتقل مبلغاً يومياً زهيداً قدره 66 «بفنغ»[1].

كانت الإقامة في ذلك المعتقل تعني العيش خلف الأسلاك الشائكة تحت حراسة الجنود المتأهبين دوماً لمنع أي عملية هروب. وكان ذلك المعسكر يقع في منطقة مليئة بالمستنقعات الجافة غرب برلين، على مساحة عشرة فدادين. فكان مكاناً مقبولاً في فصل الصيف، «وفي الشتاء كان رطباً، كئيباً وعاصفاً». وسرعان ما اكتشف السجناء المتعلمون الذين سعوا إلى قضاء الوقت في القراءة أن المكان مُعد، بشكل ملائم بما يكفي ليكون إصطبلاً، إذ كان يوجد نقص في الإضاءة الداخلية. كما تسبّب المراحيض التي تقع على مسافة من الثكنات المحسنة، المشقة في البداية. ولكن بناء وحدات جديدة منها في يونيو 1915 خفف من حدة المشكلة. ونظراً لرطوبة التربة وسوء الصرف الصحي، لم يتمكن نظام الصرف الصحي من التخلص من الفضلات بكفاءة. وظل السجناء يتذكرون رائحة ذلك المعسكر النتنة، حتى بعد فترة طويلة من إطلاق سراحهم(23).

كان المعتقلون المدنيون في معتقل «روليبين» مثلهم مثل الضباط العسكريين المسجونين غير ملزمين بالعمل لصالح آسريهم الألمان. مما سمح لهم باستغلال أوقاتهم. وكان المعتقلون ينامون في «صناديق» الخيل التي يتسع الواحد منها لستة أشخاص، وغدت هذه المجموعات بمثابة عائلة تلعب دوراً جوهرياً في التفاعل الاجتماعي، إذ ضمت هذه المجموعات التي اجتمعت مكرهة أعداداً هائلة من الموهوبين مما أدى إلى خلق مجموعة من الأنشطة: الموسيقيون منهم أنشأوا فرقة موسيقية، أساتذة الجامعات

(1) البفنغ جزء من مائة من المارك الألماني.

أقاموا فصولاً دراسية لتعليم المعتقلين، ونظم الرياضيون مسابقات كرة القدم، كما قدمت الفرق المسرحية بعض العروض. وساعدت بعض الألعاب مثل الشطرنج والداما والورق وبطاقات اليانصيب، أولئك الذين أُجبروا على البقاء في المبنى بسبب الشتاء الألماني الممطر على تمضية الوقت. وفي الحال بدأ المعتقلون في تطوير إدارة معسكرهم، مما دفع أحد المراقبين الألمان إلى الإعلان قائلاً: «يبدو أيها الإنجليز أنكم تقومون بعملكم بنشاط كما لو أنكم تؤسسون لبناء مستعمرة جديدة». وتلقى الضباط الألمان المسؤولون عن حراسة المعتقل آلاف الطلبات المطالبة بتحسين الأحوال المعيشية في المعتقل. وغالباً ما كانوا يردون على مُعتقَليهم بشكل محبط بالقول: «يبدو أنكم تنسون أنكم مسجونون».

أدى الحجز إلى انتشار موجات من الشائعات. وكانت شائعة أن البريطانيين سيطروا على الموانئ البلجيكية واحدة من الحكايات المفضلة، ومن الشائعات الأخرى المفضلة أن البحرية الملكية أغرقت الكثير من سفن أسطول أعالي البحار الألماني. ولكن المعلومات الأكثر جدية كانت متوافرة في الصحف الألمانية التي تباع داخل المعسكر. وعلاوة على ذلك، كان هناك تزويد منتظم بالصحف الإنجليزية المهربة. وبالتالي، ارتفعت الروح المعنوية من خلال كمية الأخبار المقبولة عن مسار الحرب. وعلى الرغم من الضغوط النفسية التي سببها السجن، كان هناك نسبياً بعض حالات من الانهيار النفسي. ولكن بعض الرجال فقدوا فعلاً قدراتهم العقلية. بالنسبة إليهم، كان الأمل الدائم المصحوب بالإحباط، بإطلاق سراحهم أكبر من طاقتهم على التحمل. وأصيب بعض الشبان صغار السن بالإحباط لأنهم حرموا من أداء الواجب العسكري الذي كان يقوم به أبناء جيلهم تجاه وطنهم. وكان شعورهم بأنه من المنفر أن يحيا الواحد منهم حياة آمنة نسبياً في الوقت الذي يخوض فيه مواطنوه دوامة الحرب على الجبهة الغربية.

السجن البريطاني

لم تتوافر لدى الحكومة البريطانية الخطط لحجز أعداد كبيرة من الأجانب الأعداء.

ومع ذلك، وبحلول منتصف صيف عام 1915، كان ما يقرب من 46 ألف ألماني ونمساوي هنغاري تحت سيطرتها ووضعوا في معسكرات أُديرت إما من قِبل وزارة الداخلية أو وزارة الحرب. في بادئ الأمر، حجزت السلطات أولئك المعتقلين في مصانع حُولت على عَجل إلى معتقلات أو معسكرات، أو حتى في سفن استخدمت كمعتقلات. وأوضح الحراس المسلحون وبشكل جلي أن المعتقلين، وعلى الرغم من أنهم مدنيون، إلا أنهم لا يتمتعون بأي حرية. وتذكر أحد المعتقلين النمساويين لحظة وصولهم إلى أحد المعتقلات في «جزيرة «آيل أوف مان»»[1]. عندما أخبرهم قائد المعسكر المسن: «إذا أطعتم أوامري فسوف أعاملكم بلين واحترام. أما إذا حاول أحدكم الهرب فسوف يطلق عليه النار»(25).

تذكر المعتقلون دخولهم إلى المعسكر ببعض الحسرة والمرارة. وكيف كانت ممتلكاتهم الشخصية تخضع للفحص الدقيق وكيف كان الحراس يستولون على أي شيء وكل شيء أرادوه. كما خلقت الحوادث العرضية القاسية التي وقعت داخل المعسكرات جواً مخيفاً وفظاً. ففي نوفمبر 1914، قُتل خمسة معتقلين جراء وابل من النيران. إراقة دمائهم هذه تلت أعمال شغب جرت في قاعة الطعام في معسكر «دوغلاس» على جزيرة «آيل أوف مان».

ومع ذلك، مر المعتقلون الألمان بتجربة مشابهة لتجربة البريطانيين في معتقل «روليبين». حيث حُجز معظم الألمان في معسكرات في جزيرة «آيل أوف مان»، الواقعة على البحر الأيرلندي. وكحل لحالة الضجر في المعسكر، ظهرت الفرق المسرحية، ودروس الوعظ والتدريس. وتساوى معدل وفيات الأطفال في تلك الفترة مع معدل ولادتهم في زمن السلم. وجاءت مصادر الآلام الرئيسة من الحجز نفسه، وانعدام الخصوصية، والانفصال عن الأحباء. وكما تذكر أحد السجناء: «لم تكن هناك خصوصية، ولا احتمال لأن تنفرد بنفسك، ولا إمكانية لتوفر الهدوء. إنه وضع لا إنساني، وقاس ومخيف بأن تُجبر إنساناً على العيش في مجتمع مزدحم جداً لعدة

(1) جزيرة تقع في البحر بين جزيرتي بريطانيا وأيرلندا. ليست جزءاً من المملكة المتحدة ولكنها تتمتع بالحكم الذاتي التابع للتاج الملكي.

سنوات»(26).

كان لدى المعتقلين الذين حُجزوا في لندن امتياز جميل ومؤلم في آن واحد، وهو حرية الوصول لعائلاتهم. فهذه المعسكرات كانت تضم بشكل أساسي الرجال الألمان الذين لديهم زوجات بريطانيات. إذ كان يسمح لكل معتقل بمقابلة عائلته لفترة وجيزة مرة كل أسبوعين. وتساءل أحد المراقبين عما إذا كانت مثل تلك اللقاءات قد خففت فعلاً من الآلام النفسية للمعتقلين، لأن هؤلاء الزائرين كانوا: «يؤاسون بعض المعتقلين ولكن في الوقت نفسه يعمقون جراح بعضهم الآخر». وكان هذا المراقب نفسه قانعاً بعدم وجود زائرين له، لأنه وحسب وصفه: «إنه لمن الوحشية أن تسمح لهؤلاء التعساء بالاقتراب من عالمهم الخاص ومن ثم تنتزعهم منه خلال لحظات قليلة»(27).

الحواشي

1. باربرة توشمان، «بنادق أغسطس» (نيويورك، ماكميلان، 1962)، ص. 172–74.
2. إي. إتش. كوزمان، «البلدان المنخفضة 1490–1780» (أكسفورد، منشورات كلارندون، 1987)، ص. 522–523. مارك ديريز، «لهيب لوفيان: تجربة الحرب لمجتمع أكاديمي»، في «مواجهة المعركة الفاصلة: تجربة الحرب العالمية الأولى»، تحرير: هيو سيسل وبيتر ليدل (لندن، ليو كوبر، 1996)، ص. 618.
3. جون هورن وألن كريمر، «الفظائع الألمانية والرأي العام الفرنسي– الألماني 1914 دليل مفكرات الجنود الألمان»، مجلة التاريخ الحديث، 1994، ع 1، ص. 7، 10–11، 17، 66.
4. ريتشارد كوب، «الفرنسيون والألمان، والألمان والفرنسيون: تحليل شخصي لفرنسا تحت احتلالين، 1914–1918/1940–1944»، (هانوفر، نيو هامشير، مطبعة جامعة إنجلترا الجديدة، 1983)، ص. 11–12؛ أنيت بيكر، «الحياة تحت الاحتلال– الحرب الإنسانية والحرب الثقافية: المدنيون المُحتلون، أسرى الحرب، السجناء المدنيون» (باريس، إصدارات نوسيز، 1998)، ص. 42.

5. هيلين ماكفيل، «الصمت الطويل: الحياة المدنية تحت الاحتلال الألماني في شمال فرنسا، 1914–1918» (لندن، آي. بي. تورس، 1999) ص. 45، 172–173؛ أنيت بيكر، «الحياة تحت الاحتلال»، في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير: سيسيل وليدل، ص. 635؛ أيضاً بيكر، «المنسيون»، ص. 69–73.
6. ماكفيل، «الصمت الطويل»، ص. 51.
7. المصدر نفسه، ص. 109.
8. المصدر نفسه، ص. 13.
9. مقتبس من لين ماكدونالد، «1914»(نيويورك، أثينيوم، 1988)، ص. 408–409.
10. تريفور ويلسون، الوجوه المتعددة للحرب: بريطانيا والحرب العظمى، 1914 – 1918» (كيمبردج، إنجلترا، مطبعة بوليتي، 1986) ص. 157.
11. مقتبس من ريموند هـ. فريديت، «اندلاع النار في السماء: المعركة الأولى لبريطانيا، 1917–1918، وميلاد القوة الجوية الملكية» (نيويورك: هولت، رينهارت وينستون، 1966)، ص. 32.
12. روجر تشكرنج، «ألمانيا الإمبراطورية والحرب العظمى، 1914–1918» (كيمبردج، مطبعة جامعة كيمبردج، 1998)، ص. 100.
13. فريديت، «اندلاع النار في السماء»، ص. 4–5.
14. المصدر نفسه، ص 53–61 ؛ جون ويليامز، «ساحة القتال الأخرى: الجبهات الداخلية: بريطانيا وفرنسا وألمانيا، 1914–1918» (شيكاغو، هنري ريجنري، 1972)، ص. 196.
15. ويليامز، «ساحة القتال الأخرى»، ص. 77، 146، 222.
16. المصدر نفسه، ص. 267–268.
17. مقتبس من لين ماكدونالد، «ورود الأرض المحايدة» (لندن، مايكل جوزيف، 1980) ص. 139–140.
18. مقتبس من أي. أي. هويلنج، «الحرب العظمى في البحر: لمحة تاريخية للمعركة البحرية، 1914–1918» (نيويورك، اليونسكو المتخصصة، 1965) ص. 185–188.

19. المصدر نفسه، ص. 193—194.
20. مقتبس من ريتشارد بي. سبيد، «السجناء والدبلوماسيون، والحرب العظمى: دراسة في دبلوماسية الأسر» (نيويورك، مطبعة جرينوود، 1990) ص. 142.
21. مقتبس من ويلسون، «وجوه لا تعد ولا تحصى»، ص. 643.
22. جي. ديفيدسون كتشم، «روهبلين: مجتمع معسكر السجن» (تورونتو، منشورات جامعة تورونتو، 1965)، ص. 3.
23. المصدر نفسه، ص. 13—18.
24. المصدر نفسه، ص. 29—30.
25. مقتبس من سبيد، «السجناء»، ص. 146.
26. مقتبس من بانيكوه باني، «العدو بيننا: الألمان في بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى» (نيويورك، بيرغ، 1991)، ص. 128.
27. المصدر نفسه، ص. 129.

الفصل الحادي عشر

الغذاء

أثرت الحرب تأثيراً عميقاً على نوعية طعام السكان في كل دولة من الدول المتحاربة. ووصلت الحاجة إلى توزيع المصادر القومية، والتوترات التي خلفها المجهود الحربي، وحتى الهجوم المباشر للعدو على إمدادات الغذاء، إلى داخل المطابخ وغرف الطعام في كل مكان. وشعر الأفراد في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا بدور الحكومة الجديد في تنظيم السلوك الشخصي في مجال الغذاء أكثر من أي مجال آخر من مجالات الحياة اليومية. ففي ألمانيا كان التأثير شديد الفداحة. هناك، شعر جميع السكان بألم الجوع والإذلال اليومي المتأتي من الوقوف في طوابير الغذاء والبحث عن الطعام والاشتراك في السوق السوداء.

وحتى في ظل وجود مستوى عال من التعاون، كان توجيه سلوك الأمة الغذائي أمراً معقداً بشكل كبير. ففي ألمانيا، حصل سكان البلاد البالغ عددهم 65 مليوناً على معظم حاجاتهم من الغذاء من عمل خمسة ملايين عائلة تعمل في الزراعة. وكانت معظم المزارع عبارة عن مصانع صغيرة، وشركات تعالج منتجات المزارع صناعياً، مثل الـ 341 مصنعاً التي عالجت سكر الشمندر، وكانت تدار أيضاً على نطاق ضيق(1).

وسرعان ما أدرك الموظفون الحكوميون الذين حاولوا أن يغيروا نظام الأمة الغذائي أنهم سيفجرون مقاومة واسعة الانتشار، إذ شكلت «ثقافات الغذاء» عائقاً كبيراً

للمنظمين لعادات الطعام حتى يتغلبوا عليها. وبشكل عام، كانت قلة من الناس مستعدة للتخلي عن الأطعمة التي اعتادت تناولها منذ الطفولة واستبدالها بأطعمة جديدة غالباً ما كانت بغيضة وغير لذيذة المذاق؛ وعلاوةً على ذلك، تشبث العديد بنوع معين من النظام الغذائي كعلامة على مكانته أو تطلعاته الاجتماعية.

النظام الغذائي وإمدادات الغذاء في 1914

خلق الرخاء الاقتصادي الواسع في ثلاثة بلدان من البلدان المحاربة – ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة – نظاما غذائياً أوفر وأكثر تنوعاً للكثير من السكان. كما شهدت فرنسا مزيداً من التغير التدريجي في الاتجاه عينه. ومنحت العقود التي سبقت العام 1914 الفرصة لكثير من الناس لكي يستهلكوا المزيد من اللحوم ومنتجات الألبان. وبات ممكناً للكثير منهم الحد من الاعتماد بشكل ما على الخبز والحبوب.

وفي الوقت نفسه، كان علم التغذية – الذي تأصل في ألمانيا لكنه انتشر في بريطانيا والولايات المتحدة – يتطور على نحو سريع. كما تحدث بعض مؤيدي هذا العلم عن مزايا اتباع نظام غذائي بسيط بدلاً من نظام غذائي أغنى وأوفر، فقد أوحت المعرفة الجديدة بالقيم الغذائية بأنه من الممكن استبدال طعام ما بآخر له القيمة الغذائية نفسها الموجودة في أصناف عدة. ومنح نقص الغذاء وأزماته الناتجة عن الحرب اختصاصيي التغذية فرصة لاستمالة الحكومات إلى برنامجهم الغذائي.

كما تغير النظام الغذائي للكثير من الألمان مع عقود الوفرة التي سبقت العام 1914. وظلت البطاطا المزروعة محلياً طعاماً رئيسياً للكثير من رعايا القيصر فيلهلم الثاني، ومع ذلك، أصبح استهلاك كميات كبيرة من المنتجات الحيوانية، وخصوصاً لحم الخنزير والزبدة، عادةً عند تناول الطعام بالنسبة إلى الكثير من سكان البلاد. وحدث تغير شديد آخر في إمدادات الخبز؛ فقد أفسح الخبز المصنوع من الجاودار[1] – وهو محصول محلي – على نحو متزايد المجال للخبز الأبيض المحتوي على القمح المستورد

(1) نبات ينتمي لفصيلة القمح ويستخدم في صناعة الخبز والجعة والويسكي والفودكا كم يستخدم علفاً للحيوانات.

من الخارج. وأصبح مصطلح «النظام الغذائي الألماني» يعني استهلاك أكثر من ثلاث وجبات يومياً.

وعلى الرغم من أن ألمانيا تمتّعت باقتصاد زراعي غني جداً، إلا أن الدولة اعتمدت بصورة كبيرة على شحنات المواد الغذائية المنتظمة المستوردة من الخارج. كانت كميات اللحم والسمك والبيض ومنتجات الألبان - التي تشكل ما يقرب من 25٪ من إمدادات الأمة الغذائية - تأتي من مصادر أجنبية. وبجانب البطاطا، أنتجت المزارع وبساتين الفاكهة الألمانية الجزر والشمندر والهليون، تماماً مثل التفاح والعنب والفراولة. ولكن الكثير من الفواكه والخضراوات التي استهلكها السكان كان يأتي من إيطاليا واليونان. كما كان اللفت الوحيد الذي يمكن إنتاجه محلياً بكميات تضاهي تلك التي للبطاطا المحبوبة من العامة.

وفي بريطانيا العظمى كذلك، رَمزَ التحول عن المواد النشوية إلى نهضة في الثروة القومية. فبالنسبة إلى الكثيرين، جاء التغير تدريجياً؛ إذ بقيت البطاطا والخبز على وجه الخصوص السلع الرئيسية لعائلات الطبقة العاملة التي استهلكت كميات من اللحم والدهون والحليب أقل بكثير من الكميات التي استهلكتها القاعدة العامة من السكان. كما احتوى غذاء الطبقة العاملة على قدر محدود من الفواكه والبيض والخضار. ومع ذلك، استطاع المزيد من البريطانيين أكثر من أي وقت مضى، بمن فيهم المستويات العليا من الطبقة العاملة، تناول وجبة غذائية تحتوي على كميات كبيرة من اللحم والحليب والجبن والزبد. كما تزايدت إمدادات الأمة الغذائية من اللحم المجمد. وسمح هذا بنقل اللحم المجمد من مناطق بعيدة مثل الأرجنتين وأستراليا إلى الموائد البريطانية. وتناول البريطانيون الأكثر فقراً لحماً اقل جودة من مثل تلك المصادر، في حين اعتمد أفراد المجتمع الأكثر ثراء على اللحم الآتي من مصادر محلية.

وأكد التفضيل القومي للخبز الأبيض المصنوع من القمح أهمية روابط بريطانيا بالعالم الخارجي. ففي القرن السابق، حولت الدولة نفسها إلى مجتمع صناعي متمدن؛ وجاء هذا التغيير بالتوازي مع الانحدار في الزراعة البريطانية. وكنتيجة لهذه التغيرات التي حدثت في الأربعة أو الخمسة عقود التي سبقت العام 1914، كان 60٪ من السعرات

الحرارية التي يستهلكها البريطانيون مستوردة بالكامل. وهذا يعني أنه توجّب استيراد معظم الفواكه والخضراوات التي تضمنها النظام الغذائي الوطني، وأن 80٪ من القمح الذي دخل في صناعة الخبز البريطاني يأتي من الخارج. وكان الأمر كذلك بالنسبة للمؤن الأساسية البريطانية من السكر، إذ استهلك البريطاني العادي تقريبا رطلين من السكر أسبوعياً، واشترت العائلات العاملة كل حسب استطاعتها. وكما عبرت عن ذلك مارغريت بارنيت قائلة: «لقد كان اعتقاداً سائداً في الطبقات العاملة أن الأطفال سيموتون إن لم يتناولوا رطلاً من السكر أسبوعيا»(2).

وكان السكان في الولايات المتحدة الأمريكية يرفعون مستوى استهلاكهم من اللحم الطازج والبيض والزبد. وقدمت الولايات المتحدة بمجتمعها متعدد الثقافات وبمناطقها المتعددة صورة مقلقة ومعقدة على نحو استثنائي. ومع ذلك، تزامن تناول اللحم والزبدة بالإضافة إلى شرب الحليب مع الرخاء المتنامي للكثيرين في المجتمع الأمريكي. فأصبحت القهوة المستوردة والفواكه الاستوائية مثل الموز، تنم عن إشارات لنمط حياة ممتاز في أوروبا، بات متاحاً لعدد كبير من الأمريكيين. كما باتت الفواكه والخضراوات المعلبة، غالباً من منتجين محليين، متاحة بشكل متزايد، حتى لذوي الدخل المحدود. ومع مجيء عربات السكة الحديدية المبردة بعد العام 1869، أصبحت الفواكه والخضراوات الطازجة تتدفق بصورة متزايدة من المناطق الريفية في كاليفورنيا وتكساس وجورجيا والغرب الأوسط. وحتى الأمريكيون الأكثر فقراً استطاعوا شراء التفاح، الذي اعتبر الفاكهة الأكثر توافراً بشكل عام.

كما ميّزَ الاستهلاك الواضح حياة الطبقة العليا الاجتماعية. ففي أبريل 1913، وقد أوضحت هذا التوجه حفلة عشاء اجتماعية لتكريم المهندس المعماري الذي صمم «مبنى ولوورث» الجديد في نيويورك. وقد شملت القائمة الجزئية للطعام الذي دُعي له الضيوف «الكفيار والمحار وحساء السلاحف وبوتقة من سمك البومبانو مع البطاطا النمساوية، وصدر الغرغر (ديك الحبش) مع صلصة النسلرد»[1]، بالإضافة إلى أصناف النبيذ والحلويات الخاصة. وفي غضون ذلك، تمتع الكثير من العمال المهاجرين

(1) مزيج من الثمار المسكرة والجوز ويستعمل في الحلويات والمرطبات.

على الجانب الآخر من السلم الاجتماعي بنظام غذائي عكَس صورة مجتمع يتميز بالغزارة. وكان من المحتمل لعامل الحديد العادي في بيتسبرغ قبل اندلاع الحرب في أوروبا بوقت قصير أن يستهلك وجبة غذائية تتضمن البيض والزبدة بالإضافة إلى دقيق الشوفان أو الفطائر المحلاة في كل فطور. كما أخذ معه غذاء مشبعاً إلى مكان عمله، وتضمن عشاؤه بشكل ثابت اللحم والبطاطا والفاكهة. وأشارت عائلات الطبقة العاملة التي امتلكت موارد مالية فائضة لإنفاقها على الغذاء إلى رخائها من خلال شراء الفاكهة الطازجة والحليب، بالإضافة إلى الحلوى في شكل كعك وأرغفة(3).

وبخلاف الأطراف المتحاربة الرئيسية الأخرى، لم تنتج الولايات المتحدة معظم الغذاء الذي تناوله الأمريكيون فقط، بل قامت بتصدير كميات كبيرة من الحبوب واللحوم. وتوسع هذا الدور بمجرد أن بدأ الأوربيون صراعهم. وخلال العام 1916، سمح الفائض من محصول العام الماضي الوفير بتصدير كميات كبيرة. ومع ذلك، أدى الارتفاع السريع في أسعار السلع الغذائية الرئيسية في شتاء 1916–1917 إلى أعمال شغب في المدن الرئيسية في شرق الولايات المتحدة. حتى قبل أن تعلن الحكومة الأمريكية الحرب ضد ألمانيا في 6 أبريل 1917، أصبح نقص الغذاء الذي يُشتم من رائحة أجواء الحرب واضحاً.

ومن بين جميع الأطراف المتحاربة الرئيسية، اتبعت فرنسا التغيير التدريجي في عاداتها الغذائية في الأعوام التي سبقت العام 1914. فظل الكثير من سكانها مرتبطاً بنظام غذائي كانت أرغفة الخبز محوره. وكان المواطن الفرنسي العادي لم يزل يتناول أربع أوقيات فقط من اللحم يومياً. ولكن القمح الذي أُستخدمَ في صنع هذا الخبز جاء من داخل البلد، وكذلك الأمر بالنسبة لمعظم المنتجات الأخرى – بما في ذلك الفاكهة والخضراوات. ولم تصدر فرنسا كميات كبيرة من الطعام، لكنها وحدها من بين القوى الأوربية على الجبهة الغربية أنتجت معظم ما هو مطلوب لإشباع بطون الأمة–على الأقل في زمن السلم.

توقف الإمدادات الغذائية في زمن الحرب

ضربت الحرب واسعة النطاق والمكلفة الإمدادات الغذائية للأطراف الأوربية المتحاربة على نحو سريع. واحتاج الجنود على الجبهة إلى نظام غذائي أكثر وفرة من ذلك الذي استهلكه هؤلاء الجنود كمدنيين. كما أضاف العديد من العمال العاملين في مصانع الأسلحة مطالب جديدة شكلت عبئاً على إمدادات الأمة الغذائية. ومع استمرار الحرب، نبّه مثال روسيا القيصرية الحكومات إلى المخاطر المترتبة على السكان الجياع؛ فقد أطلقت النساء المحتجات على نقص المواد الغذائية في العاصمة «بتروغراد» سلسة من أعمال العنف أطاحت النظام الملكي. وحتى قبل تلك الأحداث المثيرة التي وقعت في مارس 1917، دفع نقص المواد الغذائية جزءاً من السكان في بريطانيا وفرنسا إلى النزول إلى الشوارع للاحتجاج.

سرعان ما أظهرت ألمانيا قابلية تعرضها للنقص في المواد الغذائية على الرغم من مظاهر اكتفائها الذاتي الظاهر. وذلك بسبب اعتماد إنتاجها المحلي على كميات كبيرة من الأسمدة الأجنبية لتسميد حقولها، كما احتاجت أيضاً إلى العلف القادم من الخارج للحفاظ على حيوانات مزارعها. كما استنزف استدعاء الملايين من الرجال الأصحاء للخدمة في الجيش العمالة الزراعية وتسبب في تراجع الإنتاج. وكذلك كان الحال بالنسبة لغياب مئات الآلاف من عمال المزارع من بولندا الروسية، الذين جاءوا في سنوات زمن السلم لجني محصول الحبوب في ألمانيا الشرقية. كما وضع العدو ألمانيا تحت ضغط اقتصادي متزايد من خلال محاصرة موانئها. وعلاوة على ذلك، اعتبر الحلفاء آنذاك المواد الغذائية المحمولة على السفن المحايدة المتوجهة إلى ألمانيا «سلعاً مهربة»، أي أنها مواد حربية عرضة للمصادرة.

قلص نشاط العدو البحري الكبير إمدادات ألمانيا الغذائية بطرق أخرى. فقد هدد البريطانيون باتخاذ إجراءات ضد الدانمارك وهولندا– وهما مصدران تقليديان للغذاء بالنسبة لألمانيا. ونتيجة لذلك، لم يتجرأ هذان البلدان أن يرسلا إلا كميات محدودة من المواد الغذائية إلى ألمانيا. وأصرّ البريطانيون على مستوى من هذه التحويلات الغذائية لا يزيد عن ذلك الذي كان في وقت السلم. عموماً، خفضت آثار الحصار البريطاني

الإنتاج الغذائي الألماني بنسبة 25٪.

غدا عجز بريطانيا عن مواجهة الأزمات واضحاً ولكن على نحو أكثر بطئاً. ومع ذلك، ظهرت أزمة مبكرة في السكر، الذي كان جزءاً مقبولاً من غذاء السكان، فاضطُر البريطانيون إلى استيراد كامل إمداداتهم. كما كانت النمسا – المجر، التي غدت الآن دولة معادية، المُورّد الرئيسي لبريطانيا قبل العام 1914. ونتيجة لذلك، تفشى الذعر. وقد أدى الشراء المتلهف في الأيام الأوائل من الحرب إلى رفع أسعار السكر والسلع الأخرى على حد سواء، مما منح أصحاب المحلات الغذائية أرباحاً مفاجئة وغير متوقعة. كان الزبائن يأتون إلى المحلات حاملين صفائح القمامة المعدنية والأحواض لتعبئتها بالمواد الغذائية؛ وقيل إن امرأة اشترت 144 علبة مربى وطناً ونصف الطن من الدقيق. وكان سائقو سيارات الليموزين يقفون في طوابير خارج محلات المواد الغذائية حيث اشترى خدم الأغنياء مخزون الأغذية لأرباب عملهم. وعلى الرغم من أن الذعر الذي انتشر في البداية كان قد تلاشى، إلا أن أسعار العديد من السلع استمرت في الارتفاع.

في أوائل العام 1917، استخدمت ألمانيا الغواصات لقطع الإمدادات الغذائية الخارجية عن بريطانيا. وسرعان ما نشأت أزمة وطنية حيث تعرضت الحبوب واللحوم التي اعتمدت عليها البلاد لهجمات العدو. فبدأ الألمان بإغراق سفينة من بين كل أربع سفن تجارية مبحرة إلى إحدى الموانئ البريطانية، وانخفض احتياطي بريطانيا من القمح إلى معدلات دون الوضع الطبيعي بكثير. كما توجب إخضاع الإحصائيات الحكومية الرسمية للرقابة حتى لا يعلم الجمهور بانخفاض واردات القمح.

وعلى الرغم من مصادر فرنسا الزراعية الغنية، إلا أن ذلك البلد وجد نفسه يواجه عجزاً غذائياً متزايداً؛ إذ تم تجنيد واحد من كل أربعة من الـ5،2 مليون مزارع وعمال مزارع في العام 1914. كما أن عشر مقاطعات في شمال شرق فرنسا، التي كانت توفر جزءاً كبيراً من غذاء فرنسا، وقعت تحت احتلال العدو. كما صادر الجيش الكثير من الخيول التي وفرت القوة الدافعة للمزارع الفرنسية، ولم تكن السكة الحديد المعطلة قادرة على إيصال إمدادات الأسمدة الاعتيادية. وأدى نقص الوقود إلى صعوبة



ملصق لطعام أمريكي، بموافقة محفوظات معهد هوفر

تشغيل الجرارات الزراعية، وأدى نقص الفحم إلى تعطيل درّاسات الحبوب. كما تعرضت الإمدادات الغذائية لضغط إضافي من جيش البلاد الضخم. إذ احتاج الجنود الفرنسيون على الجبهة إلى غذاء شمل إحدى عشرة أوقية من اللحم يومياً(5).

بحلول عام 1917، أصبح الانخفاض في قطاع الزراعة الفرنسية أزمة وطنية. كما أدى نقص العمالة في «إيسير»، تلك المقاطعة في جنوب شرق فرنسا، إلى توقف مزرعتين من بين كل خمس مزارع عن العمل. كما وجدت النساء والأطفال وكبار السن من الرجال في المجتمع أنه أضحى من المستحيل تلبية الاحتياجات البدنية المطلوبة لحراثة الحقول. وفي تلك السنة نفسها، انخفض مستوى إنتاج القمح الفرنسي إلى 40٪ فقط عن مستواه قبل الحرب. وكما حدث في بريطانيا، واجهت فرنسا المجاعة من دون مساعدة كبيرة من الخارج(6).

ومن ناحية أخرى، اختلف الحال في أمريكا اختلافاً جذرياً؛ فلم تبدأ الطلبات على

الإمدادات الغذائية في زمن الحرب إلا في شتاء 1916– 1917 عندما كانت البلاد على وشك الدخول في الحرب. كما تمتعت الولايات المتحدة بوفرة في الأغذية وبدور ثابت كبلد مُصدر للمواد الغذائية. لذا فقد احتاجت الآن إلى جمع وشحن أكبر قدر ممكن من المواد الغذائية لحلفاء أمريكا الأوروبيين.وتطلب هذا خلق فائض أكبر من المعتاد عن طريق جعل السكان الأمريكيين يخفضون استهلاكهم من السلع الرئيسية مثل اللحوم والقمح.

قوى الطبيعة

لم تستطع أي من الدول المتحاربة الإفلات من عوامل الطبيعة مثل الطقس والصعوبات التي تسبّب بها. فقد تسبّب المحصول الضعيف في العام 1916، الذي لوحظ في كافة أنحاء العالم،بمشكلات لجميع القوى المتحاربة. فبالنسبة لألمانيا، أدى ذلك إلى بداية أزمة جدية، إذ انخفض مستوى إنتاج الحبوب فيها انخفاضاً كبيراً، وبدأ سكان البلاد يشعرون بأزمة في الإمدادات الغذائية أكبر بكثير من مجرد النقص الذي جرى في السنوات التي انقضت. وبينما كانت الدول الأخرى تعاني، واجه الألمان احتمالات قاتمة للغاية فيما يتعلق بإمداداتهم الغذائية.

وقد تضافرت الأمطار الغزيرة في أواخر 1916 مع الشتاء البارد، لتشل الإنتاج الزراعي الألماني. فقد كانت البطاطا عنصراً رئيسياً في النظام الغذائي الألماني، في أوقات الرخاء والشدة. وعلى سبيل المثال، اعتمد عمال بلدية «برلين» وعائلاتهم في 1915 على مؤونة مكونة من رطل واحد من البطاطا لكل شخص يومياً. كما احتوى خبز سنوات وقت الحرب المغشوش على مقدار كبير من دقيق البطاطا.

وعندما دمرت تقلبات الطقس محصول البطاطا، شعر الألمان بذلك التأثير بقوة استثنائية في الأشهر الأولى من العام 1917. إذ كانت الحيوانات تماماً مثلها مثل الإنسان تعتمد على البطاطا، وقلَب الانخفاض الحاد في إنتاج هذا المحصول–تقريباً نصف محصول البطاطا الشتائي– عادات الطعام الألمانية. كما أصبح اللفت، وهو خضار غير شهي ومصدر هزيل للتغذية،بمثابة الركيزة الأساسية في النظام الغذائي الألماني خلال

«شتاء اللفت» في عامي 1916–1917. وكانت الأزمة الغذائية الناتجة هائلة مقلقة، وكانت الأسوأ حتى ذلك الوقت لأي من الدول المتحاربة الرئيسية على الجبهة الغربية. ولكن الشعوب الأخرى واجهت صعوبات مماثلة في النوع إن لم يكن في الكمّ. فشح محصول القمح في الأرجنتين، وأوقفت الحكومة جميع الصادرات. وبالتالي، واجهت بريطانيا وفرنسا، اللتان اعتمدتا على هذا المُصدر من القمح، تدهوراً في إمدادات الخبز.

التكيف مع الأزمة

ألمانيا

اتخذت السلطات الألمانية الخطوات الأولى من بين الأطراف المتحاربة الرئيسية لتنظيم إمدادات الغذاء في زمن الحرب. فدخل نظام مراقبة أسعار الخبز والحليب والبطاطا حيز التنفيذ على الفور. وبحلول عام 1915، بدأت الحكومة بتقنين الخبز. ولكن سرعان ما بدت مثل هذه التدابير غير فعالة بالنسبة لكثير من سكان البلاد. لذا عبّر الطبيب وعضو البرلمان الألماني ألفريد غروتجن عن قلقه في مذكراته اليومية في فبراير 1915 قائلاً: «نحن ننزلق بالتدريج نحو مجاعة لا تزال حتى الآن منظمة بشكل جيد»(7).

اعتمدت حكومة ألمانيا في زمن الحرب على كبار الضباط الموجودين في مناطق البلاد العسكرية الأربع والعشرين. فنظم أولئك الضباط السياسة الغذائية للبلاد على المستوى المحلي بما في ذلك الأسعار. ولأن كل ضابط وضع قوانينه الخاصة، سرعان ما أظهر ذلك النظام عيوبه. تصرف المزارعون والسماسرة وفق مصالحهم الشخصية، فقاموا بشحن المواد الغذائية إلى تلك المناطق حيث أمكنهم الحصول على أفضل الأسعار. كما ردّ المزارعون على تحديد سقف أسعار الحبوب بتغذية حيواناتهم بتلك الحبوب، وبالتالي محولين منتجاً غذائياً إلى آخر أكثر ربحاً. وفي 1916، فشلت محاولة لإقامة نظام أكثر مركزية لقطع الطريق على فوضى وتخبط

السلطات المحلية والمعارضة الصامتة لمزارعي ألمانيا.

طورت ألمانيا وحدها من بين الأطراف المتحاربة الرئيسية على الجبهة الغربية، سوقاً سوداء اشتهرت برداءة السمعة. ففي برلين، كان من المعروف جيداً أن أولئك الذين يمتلكون الثروة والمراكز استطاعوا الحصول على كميات وافرة من المواد الغذائية. حتى إن تجار السوق السوداء وضعوا إعلاناتهم في الصحف. وعلى الرغم من حظر ذلك قانونياً، إلا أن الكثير من سكان المدينة أمضوا ساعات أو أياماً إضافية في السفر إلى الريف للبحث عن الطعام. انتقل الكثير من سكان ألمانيا مؤخراً من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، وكان لدى الكثير من الألمان اتصالات وثيقة مع أولئك الذين بقوا في المزارع. لكن آخرين، من دون مال ومراكز، كانوا يعانون الجوع على نحو متزايد بعدما أثبتت الحكومة عدم مقدرتها على التحكم بالإمدادات الغذائية وأسعار المواد الغذائية. وبالتالي فرضت الثروة والمراكز شكل النظام الغذائي في الحياة الألمانية. وعلى سبيل المثال، تحولت سلسلة من متاجر المواد الغذائية إلى منافذ للبيع في الأحياء الأكثر غنى حيث يمكن لمدراء هذه المتاجر طلب أسعار أعلى.

ومن إحدى الوسائل التي طوّرها المجتمع الألماني للتعامل مع أزمة الغذاء المتزايدة، كانت مجموعة من السلع الاصطناعية (أو البديلة). فالقهوة البديلة يمكن أن تكون شراباً من الشعير المحروق أو لُحاء الأشجار، والزبدة البديلة يمكن صنعها من مزيج الدهون الاصطناعية والماء. كما انبثقت خلال «شتاء اللفت» في عامي 1916–1917 سلسلة واسعة من الأطعمة، التي لم يستسغها معظم الألمان، من السلعة الوحيدة المتاحة وهي اللفت: وقد كان مربى اللفت واحداً من الأمثلة على ذلك.

كما أصبح الوقوف في طابور الغذاء– المعروف في اللغة العامية كمن «يرقص رقصة البولونيز» – مظهراً من مظاهر الحياة الألمانية. فقد خاض معظم الألمان ممن لا يمتلكون الموارد المالية التجربة المحبطة المتمثلة بالوقوف في مثل هذا الطابور، ربما طيلة الليل. وعندما يصلون أخيراً إلى منضدة المواد الغذائية، غالباً ما كانوا لا يجدون أي سلعة بقيت ليشتروها. وفي ضربة واضحة للإنتاج الحربي، دفع نقص المواد الغذائية عمال مصانع الذخيرة، خصوصاً النساء، إلى التخلي عن وظائفهم. وذلك لأنهم

علموا أنه من المستحيل أن يقضوا الساعات المطلوبة في المصنع وأن يجدوا الوقت الكافي أيضاً ليرقصوا رقصة البولونيز (ليصطفوا في طوابير الطعام).

بريطانيا العظمى

بالمقارنة مع النظام اللامركزي العاجز في ألمانيا، خلقت بريطانيا نظام تقنين المواد الغذائية الخاضع للرقابة المركزية. واضطلع مكتب المراقبة الغذائي، الذي تولى منصبه اللورد روندا، النشط والفعال، منذ يونيو 1917، بعبء نظام الأمة الغذائي المكثف على نحو متزايد. كما دعمت الحكومة أيضا برنامجاً ضخماً لزيادة الإنتاج الزراعي، مما عكس وجود توجه نحو الزراعة البريطانية الذي وهنَ منذ قرون. وأصبح إنتاج الحبوب بدلاً من الماشية شعاراً للبرنامج، بعدما أصبح استخدام الأرض الزراعية لإنتاج المحاصيل مثل القمح أكثر فعالية من استخدامها لرعي الحيوانات.

بدأت المخابز، بأمر من الحكومة، باستعمال الحبوب بطريقة أكثر فعالية في إنتاج الخبز: وكان لابد من استخراج المزيد من الدقيق من مخزون القمح. وإضافة إلى ذلك، خفف الشعير والشوفان والأرز والبطاطا كمية الدقيق التي تدخل في صناعة الخبز. وكان «خبز الحرب» المخفف بديلاً قائماً عن خبز زمن السلم. وكانت الملاحظات التي سُجلت في مدينة في وسط البلاد الإنجليزي، وربما قيلت على نحو متكرر في جميع أنحاء الجزر البريطانية، تقول: «لا أستطيع أكل الطعام، فمجرد لونه يزعجني». كما ساعدت القيود المفروضة على إنتاج الجعة على توفير الحبوب. وفي وقت مبكر من العام1917، خفضت مثل هذه القيود من مستوى إجمالي الجعة المتاحة لأكثر قليلاً من ربع ما كانت عليه قبل الحرب(8).

أثر التقنين الطوعي على الأطعمة الأخرى منذ بداية العام 1917. فطُلب من كل فرد في سكان البلاد أن ينتبه للقيود بشأن ما يأكله كل أسبوع: أربعة أرطال من الخبز والحبوب، وثلاثة أرباع الرطل من السكر، ورطلان ونصف الرطل من اللحم. لكن الجمعية الملكية اللندنية، هيئة الأمة القيادية العلمية، احتجت على الفور. وكانت هذه الهيئة قد أُنشئت لمساعدة الحكومة في صياغة السياسة الغذائية للبلاد. وأشارت هذه

الجمعية إلى أن العائلات العاملة الفقيرة تعتمد على الخبز إلى حدٍ كبير وأن الرجال العاملين المسنين داخل هذه العائلات اعتمدوا على تناول ما يصل إلى أربعة عشر رطلاً من الخبز أسبوعياً.

لكن الحكومة البريطانية لم تقنن الخبز على الإطلاق، وأراح ذلك سكان البلاد الذين واجهوا القيود على معظم موادهم الغذائية الأخرى. كتب بارنيت: «لقد كانت أيضاً سياسة نفسية جيدة، منحت الجمهور البريطاني الطمأنينة فعلى الرغم من الأشياء السيئة التي كانت تحدث في البلدان الأخرى إلا أنه لا زال هناك قدر معين من الحياة الطبيعية يسود في بريطانيا»(9). لم يعن رفضهم التقنين أن تتجنب الحكومة حثّ البريطانيين على تقليص أكلهم للخبز. فقد أعادت سلطات المواد الغذائية إلى الأذهان بياناً يرجع إلى الحروب النابليونية بشأن تقييد استهلاك الخبز. إذ سمع كل شخص حضر أحد الطقوس الدينية ابتداء من مايو 1917 إصداراً مجدداً من هذا النداء الكلاسيكي للسكان البريطانيين من قبل زعيمه أو زعيمها الروحي. ووُضع هذا النداء في 1600 صحيفة كما ظهر في الإعلانات العامة في جميع مكاتب البريد.

بدأ التقنين الإجباري للمواد الغذائية الأساسية تحت رعاية السلطات المحلية في أواخر 1917، وفي ذلك الوقت، كانت طوابير المواد الغذائية تصطف خارج محلات البقالة من الساعة الخامسة صباحاً. فقد أشار ذلك إلى الكيفية التي بدأ بها النقص في لحم الخنزير والسمن والجبن – العناصر المألوفة في النظام الغذائي للطبقة العاملة – بالضغط على السكان بشكل مُوجع. ففي ديسمبر، اصطف حشد يزيد على ثلاثة آلاف شخص أمام متجر في جنوب شرق لندن للحصول على الزبد النباتي. وفي هذه الأثناء، أشعل مقال صحافي يصف العشاء المكون من ستة أصناف الذي كان متاحاً للأغنياء في فنادق «ريتز» الاستياء الشعبي إزاء الوضع الغذائي. فقد وصف هذا المقال وجبة طعام كاملة بالسلمون المدخن وكميات غير محددة من القشدة والجبن.

وبحلول يوليو 1918، طبقت الحكومة نظاماً مركزياً راقب بشكل مباشر الأسعار وتوزيع معظم إمدادات الأمة الغذائية بشكل مباشر. واستلم كل شخص بطاقة تموينية تحدد مشترياته من السكر والزبدة والسمن وشحم الخنزير واللحم. فعلى سبيل المثال،

كفلت كوبونات منفصلة إمكانية أن يشتري الشخص أسبوعياً أربع أوقيات من الزبد أو السمن بالإضافة إلى أوقيتين من شحم الخنزير. كما سمحت كوبونات اللحم بشراء نحو رطل من اللحم ومن أربع إلى ثماني أوقيات من لحم الخنزير. وفي الوقت نفسه استمر التقنين المحلي للسلع الغذائية مثل الشاي والجبن والمربى تبعاً لقرارات السلطات المحلية. ودفعت الحكومة الأمة بأكملها إلى تناول المزيد من الحبوب والبطاطا عن طريق الحد من توافر اللحوم والدهون. وكان للسياسة الغذائية الجديدة أثرٌ بالغٌ على الأنماط الغذائية للأغنياء. فقد كتب أحد الأثرياء الإنجليز إلى أحد أقاربه في الخارج مبيناً أن عائلته باتت تحصل على حصة صغيرة فقط من اللحم لمرة واحدة كل أسبوع. ومع ذلك، كان لدى الفقراء فرصة مستمرة– ربما مُحسنة– لشراء المواد الغذائية الأساسية. كما قابل الفقراء حاجاتهم الغذائية باستبدال لحم الخنزير المقدد، الذي كان الكثير منه يُجلب من الولايات المتحدة، باللحوم غير المعالجة والسمن بالزبدة والخبز والبطاطا بالبروتينات مثل اللحم والجبن(10).

وفرت الأجور المحسنة للعمال خلال الازدهار الاقتصادي لزمن الحرب الفرصة لشراء الكماليات الغذائية (التي يسميها البريطانيون «أطعمة الجشع»). فقد كتب ابن بقال في وقت لاحق كيف أنه خلال زمن الحرب «بدأ المحرومون فيما مضى بتذوق الأطعمة الغريبة» من الخيارات الغذائية. وذكر كيف استفسرت «إحدى زبائننا، وهي زوجة عامل سبك معادن سابق، وكلاهما الآن يجني مالاً طائلاً من العمل في مصانع الذخيرة» عن موعد بدء محل البقالة البسيط ببيع مأكولات مثل «علب جراد البحر» أو «العبوات الكبيرة من مخلل الخيار المحبب!»(11). وفي الوقت نفسه، ربما كانت القيود المفروضة على الباعة قاسية ومؤلمة. فقد باع احد البقالين في ضاحية بلندن الزبد النباتي بسعر أعلى مما سمح به القانون، قائلاً: «المتجر متجري، والزبد زبدي، وسأفعل ما يحلو لي به». فعاقبته الحكومة بغرامة كبيرة وفترة سجن لمدة ستة أسابيع(12).

فرنسا

في فرنسا، جاء أول جهد لتنظيم إمدادات الغذاء على المستوى المحلي. ففي

«إيسير»، على سبيل المثال، تعامل مديرو الشرطة ورؤساء البلديات بنجاح مع ارتفاع تكاليف الغذاء مع بداية الحرب. فوجهوا نداءً إلى التجار المحليين بعدم رفع أسعارهم، ونشروا أسماء المخالفين من التجار، وهددوا باستخدام سلطاتهم بموجب «قانون العقوبات» ومصادرة المواد الغذائية من المتاجر. وفي باريس، دفع الخوف من الاضطرابات المشؤومة بسبب أسعار الخبز السلطات، إلى أن تضع على الفور قانوناً يرجع تاريخه إلى عام 1791 موضع التنفيذ. وبتطبيق هذا القانون استطاعت الحفاظ على الأسعار التي كانت في عام 1914 دون تغيير تقريباً حتى نهاية الحرب. وبعد ذلك، دفع القلق من اضطراب محتمل في عاصمة البلاد الحكومة إلى وضع إمدادات الخبز في باريس تحت سيطرة السلطات المحلية العسكرية. وبعد ذلك، في بداية 1916، بسطت وزارة الحرب سلطتها الشاملة على مخازن القمح الباريسية ومطاحن الدقيق والمخابز.

واجه المستهلكون الفرنسيون نقصاً شديداً وارتفاعات في الأسعار في العام 1916. ورداً على ذلك، تدخلت الحكومة لوضع سقف لأسعار السلع الغذائية الرئيسية. وقد استهدفت السلطات، من بين سلع أخرى، السكر والبطاطا والحليب والقهوة. كما بدأ تقنين السكر في أوائل 1917. ومع انزلاق الوضع الغذائي نحو الأزمة، فرضت الحكومة مزيداً من القيود على استهلاك وبيع اللحوم والجبن والخبز. وقد حُدد سعر الخبز على المستوى المحلي، ابتداءً من يوليو 1917، وعلى مدار عامين. وفي أغسطس 1917، أقرّ مجلس النواب الفرنسي قانوناً شاملاً يضع جميع المواد الغذائية في البلاد تحت سيطرة الحكومة. وفي يناير التالي، بدأ تقنيين الخبز. وسُمح فقط للبالغين الذين يعملون في وظائف حيوية بالحصول على حصة الأربع عشرة أوقية اليومية والتي ناهزت ما كان يأكله الفرنسيين في زمن السلم.

الولايات المتحدة الأمريكية

في الولايات المتحدة الأمريكية، تجنبت الحكومة التقنين الصريح؛ لأنه لم يكن من المرجح أن يحظى هذا الإجراء بالدعم الشعبي. ومع ذلك، وقعت مظاهر الإمدادات

الغذائية تحت السيطرة الرسمية بسرعة. وكان المهندس الشاب وقطب صناعة التعدين هربرت هوفر هو الشخصية الرئيسية التي لعبت دوراً كبيراً في هذا المجال. فمن بيته في لندن، كان قد لعب دوراً رئيسياً في تزويد السكان الجياع في بلجيكا بالغذاء الأجنبي منذ بداية خريف 1914. وبعد فترة وجيزة من دخول أمريكا الحرب، عين الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون المهندس هوفر مديراً لإدارة الأغذية الأمريكية(13).

بدأ هوفر برنامجاً يستند في المقام الأول على توجيه نداء إلى الشعب الأمريكي. وبسبب إمداداتها الغذائية الوفيرة، لم تكن أمريكا في خطر رؤية سكانها جياعاً. ومع ذلك، كانت هناك حاجة ملحة لإرسال كميات كبيرة من الأغذية، وخاصة منتجات القمح واللحوم، إلى حلفائها الأوروبيين. وكان هذا يعني جعل السكان الأمريكيين يتناولون كميات اقلّ من الطعام وبطريقة مختلفة عما كانوا عليه في السابق.

وفي صيف 1917، شرع هوفر بربط جميع ربات البيوت الأمريكيات بعمل إدارة الأغذية الأمريكية. فقد تأمل هوفر أن يحصل على وعود من ربات البيوت باتباع نظام طوعي للرقابة على الأغذية في مطابخهن وعلى موائدهن. وعلى وجه التحديد، كان عليهن التعهّد بخفض استهلاك عوائلهن من القمح واللحوم، وذلك بشراء كميات اقل من اللحوم وتقديمها بمقادير محدودة صغيرة. وكان على ربات البيوت خفض استخدام الزبدة في الطهي وزيادة استهلاك أسرهن من بعض الأطعمة مثل الخضراوات. كما وجه هوفر نداءً إلى العائلات الأمريكية بالتقيد بقضاء أيام الاثنين والأربعاء بلا قمح وأيام الخميس بلا لحوم، وبالإضافة إلى ذلك، التقيد بوجبات طعام بلا قمح وبلا لحوم في أوقات أخرى خلال الأسبوع.

وفي خريف 1917، استقبلت ما يقرب من نصف ربات البيوت في جميع أنحاء الولايات المتحدة ورحبت بواحدة من الخمسمائة ألف متطوعة من إدارة الغذاء الأمريكية اللواتي قمن بزيارتهن. حاولت هؤلاء المتطوعات، اللواتي ارتدين زياً على الطراز العسكري تكون من تنوره وبلوزة بيضاء وعصبة على الذراع، إقناع ربات البيوت الأمريكيات بالالتزام بتوصيات هوفر. كما وجد الأمريكيون المسافرون بالسكة الحديدية أو بالترام أنفسهم أمام إعلانات تروج لبرنامج هوفر.



إحدى العاملات الأمريكيات في برنامج الغذاء، بموافقة محفوظات معهد هوفر

مستخدماً سلطة القانون، طلب هوفر من المطاعم الحدّ من كمية الخبز والزبدة واللحم التي يقدمونها إلى الزبائن. واقتداءً بالحكومات الأوروبية، طلبت السلطات الأمريكية من أصحاب المطاحن أن يستخرجوا دقيقاً من الحبوب أكثر مما جرت عليه العادة في زمن السلم. وكان على الخبز والسلع الأخرى المخبوزة المصنوعة من القمح أن تحتوي على جزء كبير من الدقيق المصنوع من الحبوب المختلفة. كما زود اختصاصيو التغذية الحكوميون ربات البيوت بنموذج قوائم الطعام؛ اشتمل مثل هذا الكتاب لقوائم الطعام على ثلاث وجبات يومياً لمدة عام كامل.

في جنوب أمريكا وغربها، أثار برنامج هوفر ردة فعل قوية بشكل خاص. فقد علم المواطنون العاديون أن معارضة حماسة جيرانهم للحفاظ على المواد الغذائية يمكن أن تولد خطراً عليهم. إذ أعلنت السلطات البلدية المحلية في أوكلاهوما أنه طبقاً

للقانون البلدي المحليّ فإن عدم التقيد «بأربعاء بلا قمح» يعتبر نوعاً من العصيان. وعندما رفض صاحب مطعم «برمنغهام» في ألاباما، حذف منتجات القمح من قائمة الطعام التي كانت تُقدم في مطعمه، نهب حشد من المواطنين الغوغاء مطعمه.

كما روج هوفر لشعار «الغذاء سوف يكسب الحرب» خلال السنة الأولى التي خاضت فيها أمريكا الحرب العالمية الأولى. لكنه استخدم هذا التعبير بشكل أقلّ وضوحاً منذ صيف العام 1918 عندما بدا هذا التعبير غير ملائم إلى حد مربك. ففي ذلك الوقت، وجدت أعداد كبيرة من القوات الأمريكية نفسها تموت في ساحة المعركة في فرنسا، وكان من الواضح أن القوات المسلحة تكسب الحرب. وبما أن أمريكا أنتجت محصولاً وفيراً جداً في ذلك الصيف، وجد هوفر أيضاً، في أغسطس 1918، أنه بالإمكان إنهاء بعض مطالبه إزاء الاستهلاك المقيد -على سبيل المثال، برنامج أيام بلا قمح.

حظيت الجهود التي بذلها مدير دائرة الغذاء ببعض النجاح. فقد آتى نداؤه الوطني بالحد من استهلاك المواد الغذائية ثماره على صعيد الأسر الثرية وأسر الطبقة المتوسطة. إلا أن حملته كان لها تأثيرٌ أقل على الفئات الأخرى. ومع ازدهار الاقتصاد في زمن الحرب، كان لدى العائلات في الطبقة العاملة دخلٌ متاحٌ للاستهلاك أكثر بكثير مما كان عليه في السابق. فالكثير من هذه العائلات الفقيرة استخدمت عائداتها المتصاعدة لتضاعف من استهلاكها الغذائي. وكان هذا يعني شراء كميات أكبر من اللحوم، وغالباً بجودة أفضل، أكثر مما كانوا يحصلون عليه قبل الحرب. كما استخدم عمال المزارع الأمريكيون الأفارقة في الولايات الجنوبية الشرقية دخلهم المرتفع الذي جلبته لهم الحرب لاستبدال لحم الخنزير المجفف المملح بشرائح لحم الخنزير المعالجة بشكل أفضل(14).

وفي الوقت نفسه، ساهمت العادات الغذائية عند كثير من الجماعات الأمريكية في تحقيق أهداف هوفر. فقد كانت العائلات الإيطالية الأمريكية معتادة على توسيع استهلاكها من اللحوم بأطعمة مثل صلصة المعكرونة. وغالباً لم يشتروا المزيد من اللحوم لمجرد أن مداخيلهم قد ارتفعت. كما أن بعض الجماعات من أوروبا الشرقية،

مثل الليثوانيين، لم تكن لديهم رغبة في تناول الخبز الأبيض المصنوع من القمح. حتى في زمن السلم. لذا فقد كانوا سعداء في وقت الحرب في استهلاك خبزهم القاسي المعتاد المصنوع من الشعير.

وبالنسبة لأمة غنية، لم تعنِ غالباً التضحيات التي نادى بها هوفر الكثير، فهي لم تزد عن استبدال أحد أشكال متعة تناول طعام بنوع بآخر. وقد قدمت محطة سكة حديد شيكاغو وميلووكي وسانت بول لزبائنها الدائمين قائمة طعام صُممت لجعل أيام «ثلاثاء بلا لحم» أكثر قبولاً عند الزبائن. ذلك أن لحوم البقر أو الخنزير لم تكن متاحة، ولكن وجبة الإفطار قدمت فواكه وعصائر طازجة والسمك الأبيض وسمك الأسقمريّ والمحار والدجاج المشوي وفرخ الحمام المشوي(16).

كما أدى احد التدابير المتخذة خلال حالة الطوارئ في زمن الحرب إلى تحول أساسي في القانون الأمريكي. فمنذ بداية سبتمبر 1917، بدأت الحكومة بتقييد محتوى الكحول في الجعة وكمية الحبوب التي يمكن استخدامها في التخمير. ثم تبع ذلك المزيد من القيود الإضافية. فرض هذا الإجراء الذي اتُخذ في زمن الحرب لتقليل الضغط على الإمدادات الغذائية، وأصبح نقطة الانطلاق القانونية، الحظر على الكحول في فترة ما بعد الحرب.

ألم الحرمان

واجه الألمان بصورة خاصة شحّ المواد الغذائية على مدار السنوات الأربع من الحرب. وربما تمثل الألم في الجوع الدائم الذي يزيد حدةً إذا ما قورن بذكريات الوفرة والغزارة الأخيرة. فقد تذكرت امرأة ألمانية، عندما كانت طفلة من عائلة غنية تسكن في برلين خلال سنوات الحرب، قائلة: «سرعان ما انحدرت كميات الطعام المتناول في أيدينا وجودته، بشكل كبير جداً لدرجة أننا كنا دائماً نشعر بالجوع. مع ذلك، كنا أربعة أطفال يافعين مفعمين بالحياة ولكن نسينا على أية حال الوجبات التي استمتعنا بها ذات يوم... أصبح الكعك والقشدة المخفوقة واللحم المخلوط بالعظم والدجاج ولحم الخنزير والحلويات اللذيذة من الذكريات المشوقة». كما زودت الحاجة الملحة

لتقنين غذاء الفرد امرأة أخرى نشأت في ظروف الحرب بألمانيا بذكريات قاسية: «أذكر أنني عندما كنت أذهب إلى المدرسة كنت أتناول رغيفاً واحداً من الخبز أسبوعياً... قمت بقياس الرغيف بالسنتيمترات وكنت أتناول قطعة من الرغيف يومياً ربما بلغت سنتيمترين أو ثلاثة سنتيمترات»(17).

أصبح البحث اليائس عن الطعام جهداً مستمراً لمعظم الألمان. كما أصبح الوقوف في طوابير الغذاء، وفي كثير من الأحيان لساعات طويلة في جو الشتاء القاسي، النمط السائد عند الكثير من النساء الألمانيات. سجل مراسل صحيفة أمريكية في ألمانيا، هو جورج شراينر، صورة من تلك التجمعات البائسة: «لم يكن أحد من بين الثلاثمائة شخص الذين تقدموا لطوابير الغذاء هناك ما يكفيه ليأكل لمدة أسابيع. أما في حالة النساء الشابات والأطفال فقد التصق الجلد بالعظم وبالأجسام التي خلا منها الدم بدرجة شديدة. وغارت الأعين في المآقي على نحو أعمق. وأصبحت الشفاه شاحبة بلا لون»(18).

كما شغل البحث عن الطعام في الريف فكر الألمان من جميع الطبقات الاجتماعية. فقد كان بمقدور الأثرياء الذهاب إلى الريف للبحث عن الطعام خلال أيام الأسبوع؛ أما الأقل ثراءً فكان عليهم أن يستغلوا الوقت في إجازات نهاية الأسبوع. كما كان على الجميع التجول للتفاوض مع المزارعين عن شيء يمكن العودة به إلى المدينة. حتى إن السياسي الاشتراكي البارز فيليب شيدمان كان عرضة لهذا الإذلال. فصرح قائلاً: «من كان يعتقد أن مثل هذا الشيء سيحدث؟ أنا الذي كنت غارقاً في العمل، أُجبر على قضاء الوقت لتسول بضعة أرطال من البطاطا جنباً إلى جنب مع النساء والأطفال»(19).

كما وجهت السوق السوداء ضربة أخرى للروح المعنوية الألمانية، وكانت هذه الضربة قد بدأت في وقت مبكر من الحرب. بحلول عام 1918، جاء أكثر من ثلث إجمالي إمدادات الغذاء في برلين من مصادر غير مشروعة. فقد كان الشراء من السوق السوداء يعني دفع أسعار مرتفعة تعادل عشرة أضعاف السعر في زمن السلم؛ ولم يكن لأولئك أصحاب المداخيل المحدودة فرصة للاستفادة من هذا المصدر. وعلى الرغم

من أن الكثير من الأثرياء الألمان كانت لديهم هذه الوسيلة البديلة للحصول على الطعام، إلا أن أسعارها كانت مرتفعة بشكل خيالي. كما عبّر عن ذلك أفنير أوفر، قائلاً: «أثار اللجوء المستمر للسوق السوداء الغضب والإذلال والخطيئة». بالنسبة للكثير من الألمان الذين كانوا يفخرون بإخلاصهم للقانون، كانت الحاجة إلى خرق القانون لإطعام أسرهم مهينة للغاية. وكذلك كان الأمر مهيناً فيما يخص الحاجة إلى بيع مجوهرات العائلة لجمع المال لتلبية متطلبات الأسعار الباهظة. وإذا كان بمقدور الواحد منهم فعل ذلك، ومع ذلك لم يكن باستطاعته تحمل الأسعار المرتفعة، «زاد العمل غير المشروع من الضغينة في ذهنه بشكل أكبر»(20).

بعض النتائج

أصبح الضغط على إمدادات الغذاء في ألمانيا لا يطاق في نهاية المطاف. وبحلول السنة الأخيرة من الحرب، كان معظم سكان البلاد يعانون من سوء التغذية. اعترض بعض المؤرخين على الرأي القائل بأنه كانت هناك مجاعة حقيقية، ولكن لا يوجد خلاف بشأن وجود ضغوط غير عادية على المواطن الألماني العادي.

بدأت أعمال الشغب بسبب الغذاء في برلين في أكتوبر 1915. وفي الصيف التالي، عمّت أعمال الشغب البلاد من أقصاها إلى أدناها. فقد دفع خطر مثل هذه الانفجارات الشعبية رجال الشرطة إلى تكريس موارد كبيرة للسيطرة عليها على نحو متزايد. وأصبح مثال «ثورة مارس» في 1917 في روسيا مثالاً ذا صلة لا يمكن تجاهله. وشكل طابور غذاء ربات البيوت الألمانيات نواة خطيرة للسخط الاجتماعي الذي تراءى للانفجار. كما أن المعرفة واسعة الانتشار بأن برلين، وربما غيرها من المدن الكبرى الرئيسية، فيها سكان من النخبة بمنأى عن معاناة نقص المواد الغذائية، زادت من الغضب الشعبي. وقوض إخفاق الحكومة سواء في تأمين إمدادات غذائية ثابتة أو توزيعها بعدالة، السلطة السياسية القائمة، بصورة بالغة.

وربما كان الجوع الشديد والطويل بالإضافة إلى غيره من صعوبات الحرب قد أفسد الحياة الألمانية لعدة عقود. وأكد بيتر لوفينبرغ أن نقص الغذاء ساهم في الصدمة

العاطفية التي أخافت أجيال أطفال ألمانيا في زمن الحرب. فقد كانت هناك علاقة «سببية» بين الحرمان في زمن الحرب واستعداد هؤلاء الأفراد، كأفراد بالغين، للاتجاه نحو الشخصيات المتطرفة في زمن الأزمات مثل أدولف هتلر(21).

ساعدت السيطرة الفعالة على الغذاء من قبل السلطات العليا في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة في الحفاظ على مستوى عال من الوحدة الوطنية. كما دعمت قدرة الحكومة في هذا المجال الحاسم الولاء السياسي والتماسك الاجتماعي اللذين داما حتى نهاية الحرب. ومن خلال توزيع الغذاء بكفاءة وعدالة منحت السلطات المجموعات الأكثر فقراً في المجتمع البريطاني بالتحديد غذاءً أفضل وأكثر صحة خلال المراحل الأخيرة من الحرب فاق بكثير كمية الغذاء الذي تناولوه في زمن السلم.

الحواشي

1. أفضل نقاش حول وضع ألمانيا الغذائي في كتاب روجر تشكرنغ، «ألمانيا الإمبراطورية والحرب العظمى، 1914–1918» (كيمبردج: مطبعة جامعة كامبرديج، 1998)، في ما يتعلق ببريطانيا، انظر مارغريت بارنيت، «السياسة الغذائية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى» (بوسطن: ألان وأونوين، 1985)، بالنسبة للولايات المتحدة، انظر هارفي أي. ليفنستين، «ثورة على المائدة: التحول في النظام الغذائي الأمريكي» (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1988)، وبالنسبة لفرنسا، انظر ميشيل أوجيه لاريبه و بي. بنوت، «الزراعة والإمدادات الغذائية في فرنسا خلال الحرب» (نيو هايفن: مطبعة جامعة ييل، 1927).
2. بارنيت، «السياسة الغذائية البريطانية»، ص. 30.
3. ليفنستين، «الثورة»، ص. 96، 101–102، 106.
4. بارنيت، «السياسة الغذائية البريطانية»، ص. 35–36.
5. أوجيه لاريبه، «الزراعة والإمدادات الغذائية»، ص. 39، 55، 63–68، 74.
6. بي. جي. فلود، «فرنسا، 1914–1918: الرأي الشعبي والحرب» (إنجلترا: ماكميلان، 1990)، ص. 120؛ أوجيه لاريبه، «الزراعة والإمدادات الغذائية»، ص. 35.

7. مقتبس من وبيتر لوينبيرغ، «ألمانيا، الجبهة الداخلية،(1): العواقب المادية والنفسية المترتبة على معاناة الجبهة الداخلية»، في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى: تجربة الحرب العالمية الأولى»، تحرير: هيو سيسيل وبيتر ليدل (لندن: ليو كوبر، 1996)، ص. 555.

8. تريفور ويلسون، «الوجوه المتعددة للحرب: بريطانيا والحرب العظمى، 1914–1918» (كيمبردج: مطبعة بوليتي، 1986)، ص. 514؛ بارنيت، «السياسة الغذائية البريطانية»، ص. 105–106.

9. بارنيت، «السياسة الغذائية البريطانية»، ص. 112.

10. المصدر نفسه، ص. 149، 151–152؛ جي.م. وينتر، «الحرب العظمى والشعب البريطاني» (لندن: ماكميلان، 1986)، ص. 216؛ بيتر ديوي، «التغذية ومستويات المعيشة في بريطانيا في زمن الحرب»، في «اضطرابات الحرب: الأسرة، العمل والرعاية الاجتماعية في أوروبا، 1914–1918»، تحرير: ريتشارد وول وجاي وينتر، كيمبردج (إنجلترا: مطبعة جامعة كيمبردج، 1988)، ص. 209–210.

11. مقتبس من وينتر، «الحرب العظمى»، ص. 240.

12. ويلسون، «الوجوه المتعددة»، ص. 515.

13. أفضل تناول لدور هوفر كمدير لدائرة الغذاء الأمريكية يمكن العثور عليه في جورج إن. ناش، «حياة هربرت هوفر»، المجلد 3، «سيد حالات الطوارئ، 1917–1918» (نيويورك: نورتن، 1996).

14. ليفنستين، «الثورة»، ص. 144–145.

15. المصدر نفسه، ص. 143.

16. المصدر نفسه، ص. 141.

17. أليسون جاكسون، «ألمانيا، الجبهة الداخلية (2): الحصار والحكومة، والثورة» في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير: سيسيل وليدل، ص. 564–566.

18. جورج آبيل شراينر، «الحصص التموينية الحديدية: ثلاث سنوات في أوروبا المركزية المتحاربة» (نيويورك: هاربر ورو، 1918) ص. 258.

19. مقتبس من لورانس موير، «النصر يجب أن يكون حليفنا: ألمانيا في الحرب العظمى، 1914–1918» (نيويورك، منشورات هيبوكرين، 1995)، ص. 214.
20. افنر أوفر، «الحرب العالمية الأولى: تفسير زراعي» (أكسفورد: مطبعة كلارندون، 1989) ص. 58–59.
21. لوينبرغ، «ألمانيا»، في «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى»، تحرير: وسيسيل وليدل، ص. 559–560.

الفصل الثاني عشر

النساء في الجبهة الداخلية

سرعان ما اكتشف المشاركون الرئيسيون في الحرب أنه لا يمكنهم خوض الصراع من دون مساعدة نساء بلادهم. ولأن الرجال دخلوا الجيش بالملايين، بقي عملهم ليقوم به آخرون– وكانت المرأة جاهزة وراغبة في القيام بذلك.

دخول المرأة القوة العاملة في زمن الحرب

شكلت النساء جزءاً كبيراً من القوة العاملة في فترة ما قبل الحرب في جميع الدول الأربع الرئيسية التي حاربت على الجبهة الغربية. ولكن أدوارهن قُيدت بطرق متنوعة. فقد عمل زهاء 32٪ من النساء البريطانيات خارج بيوتهن. وكانت أكثر النساء العاملات بشكل عام خادمات بيوت وعاملات في مصانع المنسوجات. كما كان معظمهن من غير المتزوجات. أما خادمة المنزل التي تقاضت أجراً زهيداً وأُرهقت في العمل فكانت على الأرجح فتاة شابة، وكانت على استعداد لترك هذا النوع الكئيب من العمل إذا تمكنت من الزواج. أما عاملة النسيج فكانت في الغالب أكبر سناً وأفضل أجراً. كما كانت امرأة متزوجة تساعد في إعالة أسرتها. ولكن ظلت فرصها في الحصول على وظائف على درجة عالية من المهارة ضئيلة، حتى في الصناعة التي كان تواجدها فيها مكثفاً(1).

وفي فرنسا، طالبت 39٪ من إناث الأمة بوظائف عمل. وكانت 10٪ فقط يطلقن على أنفسهن خادمات منازل، وعملت الأغلبية العظمى منهن في أنواع من الصناعة أو على الأرجح في الزراعة(2). أما في الولايات الأمريكية المتحدة، فقد شغلت نحو 24٪ من النساء وظائف مدفوعة الأجر خارج المنزل. ففي ذلك البلد، فتح الاقتصاد الصناعي المتقدم والفرص التعليمية الواسعة النطاق الكثير مجالات العمل خارج المصنع والمزرعة وأماكن الخدمة. فكانت وظائف مثل السكرتارية، وعاملات الهاتف، وموظفات الخدمات الاجتماعية، والمدرسات في متناول اليد بالنسبة لبعض النساء من الطبقة الوسطى المزودات بتعليم دراسي يفوق المستوى الابتدائي(3). ومع ذلك، ظلت فرص النساء العاملات متفاوتة. ويوضح ذلك أحد المسؤولين بالقول: «كانت النساء... يعثرن على عمل اعتيادي في مكاتب الشركات والمحلات التجارية الكبيرة والمقاسم الهاتفية في المناطق الحضرية»، ولكن «ظلت القوة العاملة الأمريكية تُفرّق بين الجنسين. إذ ما زالت خدمة المنازل والخدمة الشخصية تضم العدد الأكبر من النساء العاملات، كما ألقت الأشكال طويلة المدى من العمالة النسائية في صناعة الملابس والمنسوجات بظلالها على استخدام النساء كعاملات على الآلات الميكانيكية في الوظائف الصناعية الجديدة»(4). وكان نمط العمالة بالنسبة للنساء الألمانيات مشابهاً. فقد عمل زهاء 25٪ من إجمالي النساء الألمانيات لكسب الأجور. وارتفع هذا الرقم ليصل إلى 35٪ في المناطق الريفية مثل بافاريا(5).

كما وجدت النساء في جميع الدول المتحاربة على الجبهة الغربية أن الحرب فتحت المجال لفرص جديدة هائلة للعمل. ومع ذلك، لم يزدد بأي حال من الأحوال مجموع القوة العاملة النسائية بشكل كبير. ولكن وجدت الكثير من النساء أنه من الممكن وللمرة الأولى الانتقال من الوظائف ذات الأجور الزهيدة مثل العمل كخادمة منزل إلى عمل أعلى أجراً. وظهرت فرصٌ جديدة كفرص العمل في مصانع الأسلحة ولكن في وقت متأخر. وفي كثير من الأحيان، عانت العاملات البريطانيات والفرنسيات والألمانيات من فترة من البطالة إذ اختفت فرص العمل التي كانت متوافرة في زمن السلم عندما دخلت مجتمعاتهن الحرب.

كما تقلص في كل مكان حجم تجارة الملابس الجاهزة ومصانع النسيج التي وظفت الكثير من النساء في زمن السلم. ووجدت الخياطة الصغيرة أن زبائنها الدائمات من الطبقة المتوسطة لم يعدن مهتمات باللباس على أحدث طرز. وسرحت الكثير من العائلات الميسورة خادمات منازلهن، في أحيان كثيرة لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل تكاليفهن، وفي أحيان أخرى كإشارة إلى «القيام بقسط من الواجب» من خلال تبني أسلوب حياة أكثر تقشفاً. كما تم تسريح النساء العاملات في تنظيف الأسماك التي يصطادها الصيادون البريطانيون عندما جعلت الحرب البحرية من عمل أسطول الصيد البحري أمراً خطيراً. ولكن سرعان ما وجدت بعض النسوة البريطانيات فرص عمل أفضل. إذ زاد رحيل الرجال الذين تطوعوا للخدمة في الجيش في الأشهر الأخيرة من العام 1914 الحاجة إلى بائعات في المحلات التجارية وإلى كاتبات في المكاتب، وحلت النساء مكان أولئك الرجال. وكانت هذه إشارة إلى فرص قادمة في زمن الحرب أكبر بكثير من تلك التي كانت في زمن السلم.

بحلول منتصف 1915، جذبت وتيرة تقدم الإنتاج العسكري المقرونة بالعمر القصير لرجال القوات المسلحة في البلدان المتحاربة المزيد والمزيد من النساء إلى المصانع الحربية. وبحلول 1916، ازداد الضغط على أرباب العمل لقبول– وحتى للبحث– عن النساء العاملات بشكل كبير. فقد خلق بدء التجنيد في بريطانيا العظمى والخسائر الفادحة في القوة البشرية لكل من فرنسا وألمانيا في معركة فردان في 1916 حاجة واضحة لتشغيل المزيد من النساء في المصانع.

غالبا ما كانت النسوة اللواتي باشرن العمل في المصانع الحربية عاملات ذوات خبرة في مجالات أخرى في اقتصاد بلادهن. فبعضهن ترك «وظائف النساء» ذات الأجر المنخفض مثل الغسالات وخادمات المنازل. وهجرت أخريات الصناعات مثل صناعة النسيج التي كانت تعتمد على القوة العمالية النسائية. وسرعان ما أظهرت هؤلاء العاملات الجدد أنه بمقدورهن القيام بمجموعة متنوعة من الأعمال التي كانت حكراً على الرجال فيما مضى. ومع ذلك، أصبحت أيضا حدود التغيير واضحة المعالم.

كما وجدت الكثير من النساء اللواتي شغلن وظائف في زمن الحرب أنفسهن يشغلن آلة من نوع ما. واتحدت الأفكار حول قدرة النساء على القيام بمهمات معقدة مع الحاجة الملحة لزيادة القوة العاملة في أسرع وقت ممكن. وبالتالي، تلقى عدد قليل نسبياً من النساء تدريباً مهنياً واسعاً. كما عين أرباب العمل المرأة العاملة للقيام بمهمات بسيطة تتسم بالتكرار نتجت عن تجزئة الأعمال التي تتطلب مهارة، إلى أجزاء عديدة. فالعمل الذي كان يقوم به مشغل الماكينات الماهر يمكن تجزئته إلى عشرين مرحلة أو أكثر، كل واحدة منها يمكن أن تتعلمها وتقوم بها المرأة بسرعة. ووجد أرباب العمل- أو على الأقل اعتقدوا- أن المرأة لديها استعداد خاص للقيام بالمهمات التي تتضمن حركات حذرة متكررة.

في هذه الأثناء، كثيراً ما كان التعبير عن الرغبة من قبل قادة نقابة العمال لاستعادة النظام الصناعي القديم من دون المرأة واضحاً. ففي 1916، مع وصول الصراع وضحايا الحرب إلى الذروة، ذكر مصنع «تايمز» البريطاني أن النساء اللواتي أدخلن للعمل في مجال الصناعة خلال الحرب «يقمن بعمل غير مناسب أو لا يتماشى مع طبيعة المرأة» وطالب قائلاً: «يتوجب علينا إعادة المرأة إلى البيت بأسرع وقت ممكن. إن ترك النساء لبيوتهن هو من النتائج الشريرة للحرب»(6). وفي السنة التالية، عبرت نقابة الحدادين الفرنسيين عن ذلك بقوة مضاهية: «إن دخول المرأة المنظم في ورش العمل يتعارض تماماً مع عملية تأسيس البيوت والحياة الأسرية وحفظها»(7).

عملياً، جندت فرنسا جميع شُبانها، وشغلت النساء الوظائف الحكومية والصناعية بأعداد هائلة. وفي حين أنه لم يكن لأيّ من الإناث وظيفة مدنية كسكرتيرة أو كمحاسبة للجيش قبل الحرب، حصلت أكثر من 130 ألف امرأة على مثل هذه الوظائف في بداية العام 1918. فقد انضم إلى كل امرأة شغلت عملاً في صناعات الحديد والصلب قبل الحرب ما يقرب من ست عاملات أخريات بحلول الأشهر الأخيرة من الحرب. كما ضاعفت النسوة العاملات في قطع الأحجار والبناء أعدادهن إلى ثلاثة أضعاف خلال الحرب، وضاعفت مصانع الذخيرة أعداد النساء العاملات إلى أربعة أضعاف فقط في السنتين الأخيرتين من الحرب. وشغلت بعض النساء على الأقل مهمات تتطلب

مهارة عالية في مصانع الأسلحة. وحتى في 1915، كان لدى النساء ما يشبه الاحتكار لمهمات التفتيش على الذخائر المصنعة وتمتع أيضاً عدد قليل منهن بسلطة على العمال الذكور.

وقد واجهت المرأة ظروفاً قاسية في كل مكان. فقد كان على امرأة من كل ثلاث نساء فرنسيات عملن في مصنع في زمن الحرب أن تشغل عملاً في الوردية الليلية. ووجدت النسوة العاملات أنفسهن، مثل أخواتهن في ألمانيا، محرومات من حماية أنظمة العمل في فترة ما قبل الحرب، والتي حدت أو منعت تشغيل النساء من العمل ليلاً. ففي وقت مبكر من الحرب، أوقف بعض أرباب العمل الفرنسيون عادة جعل يوم الأحد يوماً للراحة. ولكنهم تراجعوا عن هذه المحاولة القاسية ليبتزوا العمل من الموظف المنهك حيث أصبح النظام الصناعي أكثر تنظيما لتلبية متطلبات الحرب. وحتى مع ذلك، ساعدت الحكومة في إنشاء نظام من ثلاثة عشر يوماً من العمل، تبعها يوم واحد من الراحة.

ومن ناحية أخرى، بحلول عام 1917، توقعت عاملة الذخيرة في فرنسا أن تكسب ضعف راتب المرأة التي تعمل في مصنع ملابس. ووصف زائر إلى مصانع ذخيرة «سيتروين» في ربيع 1918 ظروف عمل آلاف النسوة هناك بمزيج من الإعجاب والدهشة. ففي ما يشبه «الأتون الملتهب» كانت العاملات يشكلن قضبان الحديد الصلب إلى قذائف فارغة، ومن ثم يركبن عربات كهربائية، حاملات كراسي تحميل قذائف الرصاص المستخدمة لنقل قذائف الشظايا إلى غرفة اللمسات الأخيرة؛ وهناك، في ورشة «هائلة كمحطة سكة حديد»، يجمّعن القذائف، ويملأنها بالشظايا، ويغلفنها ويشحنها إلى سكة حديد المصنع الداخلية(8).

كما شرعت الكثير من النساء الألمانيات اللواتي عملن في السابق خادمات منازل أو عاملات في الملابس الجاهزة، في العمل بالمصانع. غير أنه ومثل البلدان المتحاربة الأخرى، شهدت ألمانيا زيادة بسيطة فقط في العدد الإجمالي للنساء العاملات خارج البيوت. وشرعت بعض النساء في ألمانيا أثناء الحرب بالقيام بأنواع من العمل الثقيل الذي أحجمت عنه النساء البريطانيات والفرنسيات. فالمرأة الألمانية العاملة في المنجم

المفتوح، وفي حفر الخنادق، وحتى العاملة في نفق برلين، أوضحت نطاق الوظائف التي شغلتها النساء في ذلك الوقت. وفي خريف 1914، تلقت النساء الحضريات أيضا تذاكر سكة حديد مجانية حتى يتمكنّ من المساعدة في الحصاد.

وفي مقابل كل امرأة ألمانية عملت في الصناعات الحديدية والكهربائية في فترة ما قبل الحرب، دخل أكثر من ثماني نسوة عاملات بحلول الأشهر الأخيرة من الحرب. كما تضاعف عدد العاملات في المصانع الكيميائية من عاملة واحدة في أوائل العام 1914، إلى أكثر من أربع عاملات بحلول خريف العام 1918. إذ احتلت الحاجة إلى زيادة الإنتاج أولوية واضحة بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى. وكان يُتوقع من المرأة العاملة في مصنع الأسلحة الألماني أن تعمل طوال خمس عشرة ساعة في يوم العمل الواحد، وفي الليل، طُلب منها أن تناوب لمدة اثنتي عشرة ساعة. هذا وأقر ممثل عن الحكومة في شهادة أمام لجنة البرلمان الألماني بأن النساء الألمانيات يعملن في ظروف تعرض سلامتهن الصحية ونظرتهن للأمومة للخطر. ولكنه أكد على أن مثل هذه الأمور كان لها أولوية أقل من أولوية تدفق الأسلحة إلى الجنود على الجبهة. وردّد صدى ذلك القاضي البريطاني الذي رفض في 1914إدانة مديري مصنع ذخيرة لإبقائهم النساء في العمل لمدة خمس وعشرين أو حتى ثلاثين ساعة متواصلة. وأعلن القاضي قائلاً: «إن الشيء الأكثر أهمية في العالم اليوم هو أن تُصنع الذخائر»(9).

لكن الكثير من النسوة مع ذلك رأين في فرصهن الجديدة قفزة خطوة أو اثنتين إلى الأعلى. فالمرأة العاملة النموذجية في بريطانيا في زمن الحرب كانت قد عملت على الأرجح كخادمة منزلية قبل أغسطس 1914. وفي دورها السابق، كانت تعمل ثمانين ساعة في الأسبوع مقابل أجر بسيط. وحيث أنها مجبرة عادة على العيش مع أرباب عملها، وتحت مراقبتهم في كل ساعات العمل وأثناء وقت فراغها الضئيل. وتحت العين المراقبة لأصحاب البيت الذين مثلوا الآباء الذين لا يبدون أي عطف تجاه أبنائهم، لم تستطع استضافة المتقدمين للزواج وأمضت أمسياتها الانفرادية في مطبخ الخدم القاحل.

علمت المرأة من الصحف والملصقات الحكومية أنها باتت مطلوبة. فخبرتها

العملية السابقة، ودرجة تعليمها وحتى عمرها لم يكن موضع اهتمام ما دامت مستعدة للعمل في مصنع الأسلحة. كما أنشأت وزارة الذخائر العديد من المصانع الحربية بعيداً عن المناطق الآهلة بالسكان في جنوب من بريطانيا العظمى لتجنب هجمات العدو الجوية. وبتحول المرأة الشابة إلى العمل كعاملة ذخائر، كان من المرجح أن تنتقل إلى مواقع نائية مثل «جريتنا» في جنوب اسكتلندا. فعملت مع مئات من النساء الأخريات والعديد من الرجال في بيئة مختلفة عن موقع عملها السابق كاختلاف الليل والنهار. وتضاعف أجرها مرتين أو حتى ثلاث مرات، وعلى الرغم من ساعات العمل الطويلة في زمن الحرب، إلا أنها كان لديها وقت فراغ أكثر من أي وقت مضى في حياتها العملية. كما وجدت مسكناً بمساعدة جهاز حكومي، ربما في نُزل العمال أو في نُزل خاص. وكانت سلطات المصنع ترعى الفرق الرياضية، ومجموعات المسرح، وأنشطة أخرى، لكن العاملة كانت حرة في البحث عن أي وسيلة تسلية أخرى مثل دور السينما وصالات الموسيقى- التي قد توفرها المنطقة.

ربما كانت التكلفة غير المالية لمثل هذا العمل كبيرة. حتى قبل الحرب، خاطر عمال الآلات وعمال الذخائر بالإصابة، وتضاعفت المخاطر الآن مع زيادة ساعات العمل وتسارع وتيرة الإنتاج. كان هذا يعني «تحطم الأصابع واليدين في المكابس الثقيلة، والملابس والأطراف تسحبها الأحزمة الدائرة التي تدفع الآلات، بالإضافة إلى الحروق وإصابات العين الناتجة عن شظايا المعدن الملتهب المتطايرة من المخرطة»(10).

بالنسبة للكثير من النساء، كان العمل في مصانع الذخيرة يعني التعامل مع مواد غير صحية وحتى مع مواد سامة. واجهت المرأة التي تعاملت مع مادة «تي أن تي» احتمال إصابتها باليرقان، وأصبحت واحدة من تلك النساء اللواتي أطلق عليهن البريطانيون لقب «فتيات الكناري». ففي بعض المصانع البريطانية، تم عزل العاملات اللواتي تعاملن مع مادة «تي أن تي». حتى إنهن كن يأكلن في مقاصف خاصة، لأن كل شيء لمسنه يغدو أصفر اللون. وذكرت عاملة من عاملات الـ «تي أن تي» قائلة: «كانت الواحدة منا تغتسل مراراً دون أن يجدي ذلك نفعاً... كان الجسم بأكمله مصفراً»(11). وعمل الكثير من النسوة في مصانع الطائرات حيث كان الطلاء



عاملات اسكتلنديات ينتظرن زيارة الملك جورج الخامس-بموافقة محفوظات معهد هوفر

المستخدم على جسم الطائرة ساماً للغاية.

عرف العمال في المصانع في جنوب إنجلترا أنه من المحتمل أن يداهمهم العدو. وكان أول ظهور لسفن «زيبلن» الجوية في 1915، ومع استمرار الحرب انضمت إليها الطائرات القاذفة الألمانية. وحتى دون تدخل العدو، وقعت حوادث قاتلة. وإن لم تشهد عاملة المصنع انفجاراً عرضياً، كانت تخبرها الشائعات بأن مصانع مشابهة وقعت بها مثل تلك الانفجارات. كما تكتمت جميع الحكومات على مثل هذه الأنباء التي مثلت خطراً على الروح المعنوية، ولكنه لم يكن هناك أي وسيلة لإبقاء العديد من الحوادث طي الكتمان.

كانت هامبورغ مسرحاً لانفجار قاتل واحد على الأقل في مصنع للبارود. وفي الأقاليم الفرنسية، دفع اثنان من الانفجارات المشهورة والشائعات بشأن انفجارات أخرى العمال إلى أن يطلقوا على المصانع الحربية لقب «مصنع الموت». وكان الانفجار

الذي وقع في مصنع للقنابل في 1916 مذهلاً للغاية لدرجة لا يمكن معها أن تتجاهله الصحافة الفرنسية. وتحدثت التقارير الصحفية عن 30 قتيلاً، ولكن المراقبين قالوا إنهم رأوا أكثر من مائة جثة تنقل بالإضافة إلى حشد من المصابين بإصابات بالغة. وفي السنة نفسها، قُتلت 35 امرأة بريطانية جراء انفجار في مصنع للقذائف في «ليدز». وذكرت جميع التقارير، أن 300 بريطانية على الأقل قُتلن في حوادث في المصانع الحربية.

وغالباً ما كانت أفضل الوظائف التي تحصل عليها النساء هي العمل في المصانع التي يعمل فيها أزواجهن. وعادةً ما تلقت النساء أجوراً على أساس أسعار المقاولة أقل من تلك الأجور التي أعطيت للرجال. وغالباً ما «كافأ» أرباب العمل إنتاجية النساء المرتفعة بإنقاص السعر المدفوع. إذ كان لدى أرباب العمل في جميع الدول عذر عام لدفع أجور للنساء أقل من أجور الرجال: إذ زُعم انه كان من الضروري إجراء تعديلات باهظة الثمن للآلات حتى تتمكن المرأة العادية من تشغيلها.

كما ادعى أرباب العمل أن الحاجة لتزويد النساء العاملات بمراحيض وغرف خلع ملابس منفصلة شكلت عبئاً اقتصادياً عليهم مبررين بذلك ضرورة دفع أجر أقل. كما تشبث الكثير منهم برأي ساد قبل الحرب مفاده أن النساء يجب أن يدفع لهن الأجر وفقاً لاحتياجاتهن وليس لما يستحققنه. كما اعتبر أن المرأة، بوصفها الزوجة الفعلية أو المحتملة، لديها احتياجات مادية أقل من تلك التي يحتاج إليها العامل الذكر.

وعندما كانت المرأة البريطانية تحصل على أجر مماثل لأجر الرجل، فإنها تدرك أن ذلك ليس من باب المساواة. فحقيقة الأمر النقابات العمالية التي يهيمن عليها الذكور الحريصين على أن تُمنع المرأة من تقويض أجور العمال الذكور حولهم من الطبقة العاملة، كانت تطالب بذلك. وبالنسبة لمعظم النساء، بدا أن غالبية العمال، رجالاً و نساءً على حد سواء، يقومون بمهمات مماثلة. ولكن في جميع الدول المتحاربة، سمعت النساء أرباب عملهن يدّعون أن العمال الذكور الذين يتلقون أجراً مرتفعاً أعلى من أجر النساء ويشغلون وظائف تتطلب براعة ومهارة فائقة أكثر من الوظائف التي تشغلها النساء. وعلاوة على ذلك، كان يمكن للرجال المهرة جداً أن يفرضوا

مطالب مالية على النساء العاملات معهم في ورش العمل. فربما تعتمد المرأة على مُعد الآلات الذكر ليُجهز آلتها لمرحلة الإنتاج التالية. وكان ذلك يعني في الغالب أن تمنحه المرأة العاملة جزءاً من أجرها.

كان بمقدور بعض النساء البريطانيات الميسورات دفع الرسوم للتوجه إلى كليات التدريب الصناعي التي ترعاها الحكومة و«جمعية حق المرأة في الاقتراع». وبتأخير دخولهن إلى المصانع، فقد تأهلن لشغل وظيفة تتطلب براعة ومهارة فائقة. ولكن الكثير منهن وجد أن ذلك لا يعني أنها ستكون مقبولة ضمن فئة العمال المهرة. فقد يرد العمال الذكور على وصول مثل أولئك النساء بتعطيل الماكينات، ووصل الاحتكاك مع زملائهن الذكور أحياناً إلى المستوى الذي نطلق عليه في عصرنا «التحرش الجنسي».

فتتذكر إحدى النسوة المهرة: «أعطاني كبير العمال مراراً تعليمات خاطئة أو ناقصة ومختلفة بطريقة جعلتني أعمل المزيد من ساعات العمل». كما كان لدى زملاء العمل أساليب أكثر خيالاً للتحرش: «كنت أجد درجي الخاص يقفل بالمسامير من قِبل أولئك الرجال، وكان الزيت يُسكب على كل شيء بداخله من خلال شق في ليلة أخرى». وحتى النسوة غير الماهرات كن يشكلن ما يكفي من التهديد ليجدن العقبات في طريقهن. وأحيانا وجدن أنفسهن يحاولن تشغيل المخارط القديمة جداً في ورشة العمل، وتعرضن لتأخيرات طويلة قبل أن يوافق منظم الآلات على ضبط أجهزة التشغيل(12).

أما في بريطانيا، فقد عملت النساء العاملات، مثل زملائهن الرجال، في ظلّ قيود قانونية مرهقة بهدف إبقائهن في وظيفة معينة. فمن دون «شهادة مغادرة خطية» من رب عملهن، لم يتمكن من شغل وظيفة أخرى دون تأخير لفترات طويلة. وكان يعني هذا الانقطاع الإجباري في دورة العمل قضاء أسابيع بلا أجر. ووضعت مخالفة قوانين العمل الكثير من النساء أمام محاكم الذخائر الخاصة التي لديها صلاحيات واسعة لمعاقبة حالات عدم الانضباط أو حتى الأخطاء. فقد قادت امرأة مباراة في منطقة محظورة في مصنع «كوفنتري» للذخيرة فتلقت عقوبة بالسجن لمدة 28 يوماً.

وظيفة أخرى نشأت في زمن الحرب في بريطانيا هي وظيفة ضابطة الشرطة. فمع

بدء الحرب، جندت عدة منظمات نسائية الإناث للقيام بدوريات في المناطق المحيطة بمعسكرات الجيش، وفي وقت لاحق حول مصانع الذخيرة. وكن قد تلقين تعليمات بفرض المبادئ الأخلاقية عند النساء الشابات وسريعات التأثر اللواتي يتم استدراجهن إلى هذه المناطق. وكان توظيف الشرطة النسائية قد نوقش قبل الحرب، ولكن الحكومة لم تكن قد تبنت هذه الفكرة بعد. فعملت هؤلاء النساء بصفة غير رسمية في الفترة الأولى من الحرب. ومع مرور الوقت أقرت الحكومة عضويتهن، وفي 1916، بدأن في الحصول على رواتب من الدولة. وعكس دخول نساء الطبقة المتوسطة هذا العمل جهود المجتمع للحدّ من آثار الحرب. كما عكس أيضاً دورهن الجديد، بشكل متناقض، إلى أي مدى كانت الحرب قادرة على إحداث التغيير.

ويُعدّ وجود عاملة الخدمة الاجتماعية في المصنع أو مشرفة الرعاية الاجتماعية مثالاً آخر على وضع نساء الطبقة العاملة حدوداً لمكانتهن الاجتماعية الأضعف المسلم بها. فظهرت مثل هؤلاء الموظفات في بريطانيا في 1915. وتقليداً لبريطانيا، وضع الفرنسيون مثل هؤلاء الموظفات في بعض مصانع ذخيرتهم في 1917، حيث اعتنت هؤلاء الباحثات الاجتماعيات الفرنسيات والبريطانيات بتحسين أحوال حشد العاملات الإناث اللواتي يتم جلبهن إلى المصانع. وعلى الأقل، كان هذا يعني ضمان سلامة مكان العمل ونظافته. ولكن غالباً ما وجّهت هؤلاء الموظفات عملية التوظيف في حد ذاتها، تماماً مثل وضع القوانين الخاصة بنزل العمال. وأحدثت المشرفة الاجتماعية أثراً قوياً في النساء الشابات اللواتي تم إخبارهن بأن بوابات سكنهن ستغلق عند الساعة العاشرة مساءً، وأن دخول الرجال أو الكحول إلى داخل النزل أمر غير مسموح به، وأن التوجه المفرط إلى دور السينما يمثل خطراً على الأخلاق.

ورأى الكثير من النساء في العاملات المشرفات الاجتماعيات شخصيات فضولية تتطفل على سلوك العاملة في ساعات الراحة. غير أنهن وفرن كذلك نوعاً من الحماية رحّبت بها العاملات، إذ ساعدن في تسوية الخلافات حول الأجر الذي كانت تكسبه العاملات البريطانيات والفرنسيات في نظام الأجر مقابل العمل المياوم أثناء الحرب. فقد وصفت إحدى العاملات البريطانيات رئيسة المشرفات في المصنع الذي كانت

تعمل فيه قائلة: «فظة إلى أبعد الحدود» ولكنها «لم تسمح بوجود أي خطأ في مصنعنا. لقد كانت أشبه بفأس الحرب القديمة الحقيقية وكانت على استعداد لأن تناضل من أجلك»(13).

كما سلكت الحكومة الألمانية المسار نفسه عندما عززت دور ممرضات المصنع للعناية بالوضع الصحي للعاملات الإناث. وشملت واجباتهن التمريضية ضمان أنظمة السلامة داخل المصنع وزيارة المرضى. ولكنهن عملن كذلك كعاملات اجتماعيات، إذ أدرن نزل النساء اللواتي يعملن بعيداً عن ديارهن، وساعدن النساء العاملات على ابتداع طرائق لرعاية الأطفال وللتعامل مع نقص الغذاء القائم. وفي صيف 1914 وصل عددهن إلى عشرين ممرضة فقط، ولكن عدد المجموعة ازداد ليصل إلى 752 ممرضة مع الوصول إلى الهدنة. وساعدن في رعاية ما يقرب من 800 ألف عاملة(14).

وما إن دخلت أمريكا الحرب في أبريل 1917، حتى وجدت النساء الأمريكيات أن هناك طلباً على خدماتهن. فقد توقف مع اندلاع الحرب تدفق المهاجرين الأوروبيين الذين كانوا يحلون بشكل تقليدي مشكلة حاجة البلاد إلى عمال جدد. وبالإضافة إلى ذلك، سحبت الخدمة العسكرية ملايين الشبان بعيداً عن أعمالهم المعتادة. وكنتيجة لذلك، أتيحت فرص جديدة للنساء للعمل في قطاع الأعمال أو في القطاع الحكومي. ومثلت خادمة المنزل الشابة التي تركت عملها لتباشر العمل في مصنع حربي واحداً من تلك التغيرات. ومثالٌ أخر أظهرته بوضوح السكرتيرة الشابة الآتية من بلدة صغيرة في الجنوب أو الغرب الأوسط التي انتقلت إلى واشنطن العاصمة لتضع مهارتها تحت تصرف الحكومة. كما جسّدت الفتاة العاملة كنادلة في السابق والتي عملت الآن مفتشة تذاكر في الحافلات مثالاً ثالثاً.

ولكن الموجة الكبرى في فرص العمل جاءت بعد أن ازدادت نداءات التجنيد في أغسطس 1918. فقد جند أرباب العمل النساء باستخدام إعلانات مطبوعة كبيرة في صحف البلاد ومن خلال دوائر التوظيف الحكومية. وبما أن نقص العمال أصبح أمراً ملحاً، وجدت النساء أنفسهن في بعض المناطق أهدافاً لحملات التوظيف الهائلة. ودفع النقص في عمال مصانع الذخيرة في «بريدجبورت» بولاية كونيتيكت

في الأشهر الأخيرة من الحرب أرباب العمل إلى استخدام الطائرات لنشر إعلانات التوظيف المطبوعة من السماء. وكانت النتيجة وجود قوة عاملة بها نساء في وظائف الذكور السابقة أكثر مما يمكن أن يتخيله أحد قبل دخول أمريكيا الحرب. إذ بلغ عدد النساء العاملات في صناعة الحديد والصلب أكثر من ثلاثة أضعاف العدد السابق في السنة والنصف التي شاركت فيها الولايات المتحدة في الحرب.

كما كانت بعض النساء محظوظات بما فيه الكفاية للعمل لدى أرباب عمل مستنيرين مثل شركة «دايتون، أوهايو» لآلات التسجيل والحوسبة، حيث دخلت العاملات هناك برنامجاً تدريبياً صمم بعناية. فقد قسّم هذا البرنامج النساء إلى أولئك القادرات على التعامل مع الآلات الثقيلة وأولئك اللواتي يستطعن القيام بعمل أيسر. وتكون فريق التدريب من النساء اللواتي كن قد نجحن من قبل كعاملات إنتاج واللواتي يمكن أن يلعبن دور القدوة التي تبعث على الاطمئنان.

كما استفادت نساء أخريات من جهود المفتشات الإناث اللواتي تم توظيفهن من قبل «قسم إدارة الذخائر» في الجيش. فقد شجعت هؤلاء الموظفات النشيطات والمثاليات الشركات مثل شركة «بيت لحم» للحديد والصلب ليصبحن قدوة لأرباب العمل، وذلك بتدريب النساء ليصبحن مشغلات ماكينات ماهرات بدلاً من كونهن مجرد عاملات إنتاج. كما حطمت أيضاً شركت «بيت لحم» النمط القائم للعمالة في صناعة الصلب من خلال تأسيس نظام الثماني ساعات عمل في اليوم.

وجذب افتتاح محطات السكك الحديدية الوطنية الكثير من المتقدمات للوظائف. كما أن سيطرة الحكومة على نظام السكة الحديدية في أواخر العام 1917 جعل من الوظائف أموراً جذابة على وجه الخصوص. فقد أقرت الحكومة سلم رواتب سخياً، وتقاضت النساء الأجور نفسها التي تقاضاها الرجال. إلا أن معظم عاملات السكة الحديدية وجدن أنفسهن في وظائف كتابية لا تتطلب أي مهارة مع عدم وجود أي فرصة للتقدم. ولكن على الأقل، تدرب بعض النسوة على العمل الماهر مثل تسوية دعاوى الحوادث، وصعدت أخريات لمناصب إشرافية– بل صعد عدد قليل إلى مناصب تنفيذية. ومنح العمل بالسكة الحديدية تذاكر مجانية للسفر بالسكة الحديدية وبالتالي



عاملات السكة الحديدية الأمريكيات- بموافقة محفوظات المعهد الوطني

أعطى النساء حرية لم يسبق لها مثيل للسفر بشكل كبير في أوقات فراغهن. وعلاوة على العمل الكتابي، كان هناك العديد من الفرص الملائمة للعمل في محطات السكة الحديدية للعمالة غير الماهرة. فقد شغلت العديد من تلك الوظائف النساء الأفريقيات الأمريكيات، اللواتي وضع مجتمعهن العنصري إجراءً لقصر الاستفادة من فرص زمن الحرب على أخواتهنّ ذوات اللون الأبيض.

وعندما دخلت النساء الأمريكيات عالم القاطرات والورش، واجهن المقاومة عينها التي واجهتها نظيراتهن في أوروبا. فنظر إليهن كدخلاء في عالم الذكور، وكان يُخشى أيضاً من أن يُستخدمن كأداة للإدارة. وكان الرجال يشعرون بالقلق من أن رؤساءهم سيستخدمون النساء لتجزئة الأعمال التي تتطلب مهارة إلى مهمات يمكن أن تقوم

بها عاملات أقل تأهيلاً وبأجور أرخص. ومع ذلك، قضت بعض النساء شهور زمن الحرب على الأقل في القيام بأعمال تتطلب براعة فائقة مثل القيام بصيانة المحركات وإصلاحها.

وما أن شغلت النساء الأمريكيات الوظائف الجديدة في محطات السكة الحديدية، حتى بدأ التحرش الجنسي في الظهور. فقد كانت النساء يتعرضن للتحرش من قبل المشرفين على العمال، والمشرفين في المكاتب وساحات السكة الحديدية بدءاً من ولاية مونتانا إلى ولاية فرجينيا. كما أثار الرجال في مواقع السلطة العديد من الحوادث، وغالباً ما كانت تمر مثل هذه التجاوزات دون الإشارة إليها. ومع ذلك، فان إدارة الحكومة للسكك الحديدية سلطت الضوء على بعض الحوادث. فقد كشف العمال أنفسهم، وفي كثير من الأحيان، الموظفات الإناث في إدارة السكك الحديدية الحكومية بعض الشكاوى. ففي حادثة على سبيل المثال، طُرد مدير في مكتب مدينة ريتشموند لمحطة السكة الحديدية «تشيسبيك وأوهايو».

كانت الوظيفة البارزة للنساء في كل مكان هي قاطعة تذاكر الترام. فمن سان فرانسيسكو إلى برلين كان السكان الذين يستخدمون المواصلات العامة، يشاهدون النساء اللواتي تولين هذه الوظيفة التي شغلها الذكور على نحو تقليدي. فقد بدأت النساء هذا العمل في العاصمة الألمانية في وقت مبكر من أغسطس 1914. وسرعان ما انتشرت شائعة تقول إن قاطعات التذاكر الألمانيات يغرزن دبابيس قبعاتهن المرعبة في أجساد المسافرين المزعجين لجعلهم يتأدبون. ولكن العمل الذي كان حكراً على الرجال قبل الحرب، عَرّضَ صحة قاطعة التذاكر وسلامتها للخطر من خلال تعرض جسدها للأحوال الجوية السيئة ولاهتزاز الترام. ولكن، مثل فرص زمن الحرب الأخرى، .جذبت هذه الوظيفة المتقدمات للوظائف بسبب الأجور العالية التي عرضتها. فحصلت مئات النساء الأمريكيات في اثنتي عشرة مدينة على وظائف كقاطعات تذاكر. وقد ضاعفت امرأة أمريكية عملت في السابق كبوابة دخلها إلى أكثر من الضعف بحصولها على عمل في خط الترام المحلي(15).

النساء والمزرعة

لعبت النساء في فرنسا وألمانيا في فترة ما قبل الحرب دوراً رئيسياً في العمل في فلاحة الأرض. وتولت الفلاحات الفرنسيات والألمانيات مسؤوليات كبيرة منذ الأيام الأولى للحرب. إذ تركت تعبئة الرجال للحرب في صيف 1914 الأرض للنساء والأطفال ليقوموا بالحصاد. وخلال السنوات التي تلت، استمرت العاملات الإناث في الهيمنة على القوة العاملة الريفية، وذلك بالرغم من وعود الحكومة بأن تعيد الرجال إلى بيوتهم في موسم الحصاد وأن تخصص أسرى الحرب للعمل في المزارع. كما قاد الجهد المبذول لتشغيل المزرعة دون الرجال، بعض النساء إلى اليأس. وتذكرت امرأة فرنسية أن أخاها علمها كيفية حراثة الأرض قبل أن يغادر إلى الجيش. ولكن مع واقع أن المحراث صمم ليناسب الرجال، ذكرت هذه المرأة «في كل مرة كنت أصطدم بها بحجر كان مقبض المحراث يصيبني في الصدر أو في الوجه. كانت الحراثة بالنسبة لي الطريق إلى الجلجلة». وتذكرت امرأة أخرى حاولت فلاحة مزرعة العائلة بمساعدة أخيها الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط، سنوات الحرب بمرارة عميقة قائلة: «كثيراً ما كان يهدّنا الإرهاق والإحباط. كنا في أحاديثنا وفي أفكارنا نتحدث عن بعض الرحلات لنحرر أنفسنا من بؤسنا»(16).

لعبت النساء دوراً أقل في مجال الزراعة في بريطانيا وإن كان عملها موضع دعاية كبيرة. وعلى النقيض من فرنسا وألمانيا، تمكنت بريطانيا من الحفاظ على إنتاجها الغذائي دون تدفق كبير للنساء العاملات إلى هذا المجال. إذ شرع الذكور فوق سن الخدمة العسكرية وتحتها في معالجة الركود الذي سببته التعبئة في زمن الحرب. كما ساعد في ذلك الأمر أسرى الحرب والجنود البريطانيون الذين تم إعادة انتدابهم مؤقتاً من الخدمة العسكرية وكذلك الأمر بالنسبة للاستخدام الكبير للآلات الميكانيكية.

ولكن بعض النساء البريطانيات، وكثير منهن من الطبقة الثرية، استجبن لنداء الحكومة لتوفير العمالة الزراعية في السنوات الأخيرة من الحرب من خلال الانضمام إلى «جيش الأرض»[1]. فقد منحت هذه المنظمة المرأة الشابة فرصة لمغادرة البيت،

(1) منظمة مدنية بريطانية أنشئت خلال الحرب العالمية الأولى لتجنيد النساء للعمل في الزراعة بدلاً من الرجال الذين تفرغوا للجيش.

والقيام بعمل يدوي مفيد في المزرعة، وبالتالي لتساهم في المجهود الحربي. كما كانت صورة الفتاة الإنجليزية اليافعة ذات العشرين أو نحوه، المرتدية سترة المزارع والتي تحمل المجرفة، وسيلة قوية للدعاية. لكن 48 ألف امرأة فقط وقعن عقود عمل. وكان الشك يساور المزارعين بشأن ما يمكن أن تساهم به العاملات القادمات من المدينة. فقد تلاشت حماسة العديد من العاملات المحتملات عندما وجدن أن العمل في المزرعة يزيد قليلاً عن شغل وظيفة كعاملة عادية.

المرأة كهدف للانتقاد

لم يزل كل من الرأي العام والسلطات الحكومية متضايقين بشأن وضع المرأة في المجتمع في زمن الحرب. فقد وجدت بعض النساء أنفسهن كبش الفداء للضغوطات التي فرضتها الحرب على عاتق جميع قطاعات المجتمع. ففي الأشهر الأولى من الحرب، تم وصم الكثير من النساء الألمانيات بأنهن لا يستحققن المساعدة المالية بوصفهن «زوجات الجنود». ولكن المخصصات التي تلقتها هؤلاء النساء لم تكن كافية لإعالة أسرهن في كثير من الحالات. ومع ذلك، فان الدعم المالي الهزيل الذي تلقينه من الحكومة وحقهن في حصص المواد الغذائية دفع ألماناً آخرين، بمن في ذلك من النساء، إلى وصفهن بالمدللات. فقد عشن على نحو مفترض بشكل جيد من دون أن يساهمن بشيء في المجهود الحربي. وعبر أحد المسؤولين المحليين في ديسمبر 1914 عن أسفه لكيفية إنفاق نساء الطبقة العاملة مبالغ كبيرة من المال على «الحلويات والملابس المبهرجة والسلع الكمالية الأخرى» في حين «أهملن شؤون المنزل والعناية بالأطفال، ويعشن إلى جانب أطفالهن على الخبز والزبد واللحم»، وذكر أن سهولة الحصول على المال وغياب تأثير الزوج المقيم، والقدرة على البقاء دون عمل كانت تؤدي إلى غرس الآفات الاجتماعية الخطيرة في قرى الطبقة العاملة الصغيرة(17).

خفض رحيل الزوج الألماني في بعض الأحيان النفقات العائلية بما يكفي لمنح الزوجة مالاً أكثر قليلاً من المال الذي حصلت عليه في زمن السلم. وعلاوة على

ذلك، كان غياب الرجل يعني أن زوجته تتمتع بسيطرة مباشرة على دخل الأسرة للمرة الأولى. كما تضاءلت حدة الانتقاد بدخول الكثير من السكان الذكور الخدمة العسكرية وانطبق لقب «زوجة الجندي» على أعداد أكبر من النساء. ومع ذلك، ألهب الجهد المبذول في 1916 لزيادة الدعم الحكومي لزوجات الجنود اللواتي تركن وحدهن، الموقف مرة أخرى.

ومع استمرار الحرب، عانت زوجة المزارع الفرنسية في 1914 من تغير صورتها البطولية في المجتمع. فصارت تصور على نحو متزايد على أنها استغلالية جشعة تبيع السلع النادرة بأسعار باهظة لسكان المدينة البائسين. وبدا أيضاً أنها تستفيد مادياً من وحدة الجنود وابتعادهم عن الديار. وفي الشهور الأولى من الحرب، أشاد الجنود الفرنسيون بنسائهم الريفيات المجاورات للجبهة لما قمن به من تزويدهم بالطعام والشراب وأماكن الإقامة المؤقتة. وعندما وصلت الحرب والتحركات العسكرية إلى طريق مسدود، صور الجندي الفرنسي على خط الجبهة هؤلاء النساء اللواتي يشغلن متجراً صغيراً أو مقهى بالقرب من منطقة القتال بأنهن طفيليات حقيرة. والأشد من ذلك إدانة، هو أنهن أظهرن للجنود وكأنهن يرغبن في أن تستمر الحرب لأطول وقت ممكن.

كما واجهت النسوة العاملات في مصانع الذخيرة انتقاداً شرساً بوصفهن مستغلات للحرب. ففي حين يموت الرجال في الخنادق، حصلت الإناث البالغات في عائلاتهن على نحو افتراضي على أجورهن السخية وأنفقنها على الأمور التافهة. ففي فرنسا، صورت رواية محرفة للواقع في تعليقات الصحف والمجلات عاملات مصانع الذخيرة اللواتي ارتدين مشابك شعر من الماس وجوارب من الحرير أثناء العمل، واتخمن أنفسهن بأكل القشدة والفطائر المحلاة، واشترين الدجاج والبرتقال، اللذين يدلان بشكل رمزي على اثنين من المواد الغذائية النادرة وباهظة الثمن، من دون أدنى تفكير بالتكلفة. كما كانت عاملة مصنع الذخيرة تسلي نفسها بعد خروجها مسرعة من المصنع بموعد مع مصففة الشعر تلاه عشاء بالخارج وزيارة إلى دور السينما. وظهرت عاملة المصنع الأنثى هذه في بعض الروايات كإنسانة بذيئة، تشرب الكحول، وتدخن

السجائر، وتكيل الشتائم، وتشبع رغباتها الجنسية كما لو كانت رجلاً. كشقيقتها الريفية المتخيلة في منطقة الحرب، فقد رغبت على نحو مفترض في أن تستمر الحرب إلى الأبد. وفي بريطانيا، تناول القيل والقال ذلك الأمر بأن فتاة المصنع الثرية كسبت بعض ثروتها من خلال الاتجار والترويج لامتيازاتها الجنسية في وقت فراغها، الذي سمّي «المناوبة الإضافية».

حتى الممرضات المتطوعات أثرن تعليقات لاذعة بشان دوافعهن وسلوكهن. ففي فرنسا واجهن الاتهامات بتسويق أنفسهن بهدف الحصول على عمل بمستشفى «راقٍ»، وبتصوير خدماتهن كفرصة لخوض مغامرة، كمن يجرب «رياضة أو لعبة جديدة أو أشكالاً أكثر إثارة من الغزل ورقصة التانجو». وقد زعموا أنهن رفضن تلقي الأوامر، مقوضات بذلك نظام المستشفى الحيوي، وحاولن ظاهرياً تقديم يد العون للضباط والوسيمين، مع رغبتهن بتفضيل العمل مع أولئك الذين كانت إصاباتهم طفيفة(18).

وكانت الحكومات تنظر إلى الدور الذي تلعبه النساء بنوع من القلق المتزايد. فقد أدارت الحكومة الألمانية المجتمع الذي واجه النقص الأكثر إيلاماً أكثر من أي بلد من البلدان المتحاربة. إذ كان قادتها قلقين بشأن سلوك النساء في طوابير الغذاء القائمة. وعندما طُلب في 1916 من الرجال أن يوقعوا عقوداً للعمل في الخدمة الصناعية، أخذت الحكومة بعين الاعتبار إلقاء العبء نفسه على كاهل النساء. ثم تراجعت الحكومة عن ذلك، خوفاً من المعارضة التي ستثيرها مثل هذه الخطوة.

ثم اكتشفت السلطات أن كثيراً من النساء يرفضن العمل في المصانع بشكل تطوعي. ففي مجتمع يحكمه حصار الحلفاء، لم تمنح حتى الأجور المرتفعة النساء أي ضمان للحصول على الطعام لعائلاتهن. كما أن العمل بالمصنع جعل وقوفهن في طوابير الطعام الطويلة بحثاً عن الوسائل لإطعام عائلاتهن أمراً مستحيلاً. إلا أن الحكومة استطاعت جذب بعض النساء للعمل داخل المصانع فقط من خلال تقديم الضمان للنساء بشغلهن مركز العامل المنتج والحصول على الحق نفسه الذي يحصل عليه من حصص غذائية أكبر.

لكن وعلى الرغم من تلك الضمانات إلا أن ربة المنزل الألمانية النموذجية ظلت مترددة بشأن الاستجابة لذلك. فالمخصصات المالية التي كانت تصرفها الحكومة لعائلات الجنود المقاتلين، إلى جانب تخفيضات الإيجار الإلزامية وهبات رب العمل السابق للجندي كانت تكفي– بشقّ النفس– لتلبية احتياجات عائلة ألمانية من الطبقة الوسطى. وبدا الامتناع عن دفع مخصصات العائلة المالية لإجبار ربة المنزل على العمل في المصنع أمراً خطيراً جداً لا يمكن المجازفة به: لم يرد أحد ضرب معنويات العديد من الجنود في الجبهة عبر الزج بعائلاتهم في الفقر المدقع. فحاولت الكثير من ربات البيوت الألمانية الموازنة بين مختلف الأعباء الملقاة على عاتقهن بالعمل في البيت. ولمواجهة الواقع، زودت السلطات العسكرية ربات البيوت بمهمات يمكن أن يقمن بها في منازلهن، على سبيل المثال، صناعة أكياس الرمل وأصناف الملابس للقوات المسلحة.

كما عمل الكثير من أسرى الحرب في النظام الاقتصادي الألماني. ونظرت السلطات إلى العلاقات الجنسية بين النساء الألمانيات وهؤلاء الأجانب على أنها أمر يؤدي إلى القلق بشكل خاص. وعلى الرغم من أن العلاقات الجنسية كانت واضحة في المناطق الصناعية، إلا أن هذه العلاقات الخارجة عن نطاق الزواج كان يعتقد أنها أكثر شيوعاً في المناطق الريفية. فعندما عمل هؤلاء الأسرى كعمال زراعيين، كان يتم الإشراف عليهم في الغالب بشكل متساهل وحتى إنه رُحب بهم في المجتمع المحلي.

وللسيطرة على النساء اللواتي أظهرن «القليل من الشعور بالوعي الوطني»، اتخذ المسؤولون العسكريون والمدنيون إجراءات صارمة كالحكم بالسجن ودفع غرامات ضد النساء اللواتي تتم إدانتهن بمعاشرة العدو. وشجعوا كذلك الصحف القومية، على المستوى المحلي والوطني على نشر أسماء ومواقع النساء اللواتي شوهن سمعتهن بهذا الشكل.

كما كان لدى الحكومات أيضاً ما يدعوها للقلق بشأن دور النساء في الإضرابات عن العمل، مثل تلك الإضرابات التي اجتاحت منطقة باريس في ربيع 1917. إذ شكلت النساء الفرنسيات في هذه الإضرابات العمالية نسبة كبيرة من المضربين عن

العمل المحتجين على محاولة أرباب العمل خفض أجرة العمل المياوم. فقد أخرج المضربون الأوائل النساء من عدة مصانع أخرى للانضمام إليهم، ووسعوا نطاق شكواهم بالمطالبة بوضع نهاية للحرب- أو على الأقل تجنيد الرجال الذين تهربوا من القرعة للخدمة العسكرية متظاهرين بكونهم من العمال المهرة الأساسيين. ركزت تحقيقات الشرطة مع قادة الإضراب على سلوكهن الجنسي- فقد افترضت السلطات أن الحالة النضالية للعاملة الأنثى أو اهتماماتها السياسية كانت مرتبطة بدافع جنسي غير منضبط. في هذا الوقت بالذات اندلعت إضرابات واسعة في ألمانيا حيث احتج عمال برلين، كثير منهم من النساء أيضاً، على خفض الحصص التموينية من الخبز.

الجهود الجماعية المبذولة لزيادة معدل المواليد

وجدت النساء في بريطانيا وفرنسا وألمانيا أنفسهن هدفاً لحملة لزيادة معدلات المواليد في البلاد. هدفت الحملة لملء المهود الفارغة للتصدي لخسائر ميدان المعركة التي أثقلت كاهل فرنسا. ففي ذلك البلد كان معدل المواليد يتناقص على مدار قرن من الزمان قبل اندلاع الحرب. فقد رأت فرنسا أن حجم سكانها انخفض بشكل كارثي وتجاوز الانخفاض في عدد سكان أعدائها الألمان في الفترة الواقعة بين 1871 و1914. لذلك أثارت مجموعة من الأطباء والنقاد الاجتماعيين وشخصيات أخرى من نخبة الأمة جلبة حول هذا الأمر داعين إلى بذل الجهد لعكس هذا الاتجاه. ولكن بدا أن الحرب زادت من حدة الأزمة. إذ وجد معظم الرجال الذين هم في سن الزواج أنفسهم بعيداً في الجيش. كما حدد النظام المشوش للإجازات العسكرية متى يمكن للجنود القيام برحلة قصيرة للبيت، وبدأ هذا النظام بالعمل بشكل صحيح فقط في أواخر 1915. ونتيجة لذلك، بينما وُلد 594 ألف طفل في 1914، انخفض ذلك العدد إلى زهاء النصف في 1916.

تسلل الإحساس بالأزمة إلى أذهان السكان بصورة عامة. فقد سلكت إحدى الصحف النسائية التي أثير محرروها بمطالب المروجين لزيادة معدل المواليد قبل الحرب، مساراً مختلفاً جداً بحلول العام الثاني من الحرب. ففي ديسمبر 1915، دعت هذه

الصحيفة النساء لقبول التعهد بإنتاج «الأطفال، الكثير من الأطفال لملء الفجوات».
كما حثت الأشكال الشائعة من التواصل مثل البطاقة البريدية المصورة الرجال على الزواج كما شجعت الجنود على استخدام الإجازات المنزلية كمناسبة لإنتاج «طفل الإجازة». كما دُعيت النساء، بلغة مقنعة إلى حدٍ ما، لإبداء الترحيب الحار بزوجها أو صديقها حتى يتمكن من خدمة فرنسا في أثناء إجازته في البيت بزيادة عدد السكان.
وعلى الرغم من أن المجتمع الفرنسي عبس في وجه تصوير النساء الحوامل، أظهرت البطاقات البريدية في زمن الحرب على نحو مستحسن صورة «ماريان»، رمز الأنثى في فرنسا بثديين ممتلئين وبطن منتفخة(20).

تدخلت مشرفات الرعاية الاجتماعية في المصانع الفرنسية في 1917 بشكل كبير لحماية صحة الأمهات الحاليات والأمهات المستقبليات في القوة العاملة. كما منعت القوانين الحكومية النسوة الحوامل من العمل ليلاً، وحظرت السلطات على أرباب العمل إقحام الأمهات اللواتي ينتظرن مولوداً في مهمات مثل عمل تجميع أجزاء الآلات أو تركيبها والتي قد تلد الأمهات الحوامل أثناء القيام بها. واضطرت المصانع لتوفير غرفة للحضانة لرعاية الأطفال الرضع خلال فترة مناوبة العاملة؛ وكان للأم الحق في القيام بزيارات منتظمة لإرضاع طفلها.

كما كانت المخاوف بشأن معدل المواليد واضحة في بريطانيا في فترة ما قبل الحرب على حدٍ سواء. إذ جعل هنا معدل المواليد المنخفض التعليقات بشأن «المهود الفارغة» و«دور الحضانة الصامتة» أمراً شائعاً في المناقشات التي تدور بشأن مستقبل الأمة. وخلال مسار الحرب، أدّت السياسة الوطنية إلى توسع هائل في جهود الرعاية الاجتماعية لمساعدة الأسرة، وتضاعف عدد مراكز الأمومة ورعاية الأطفال في بريطانيا العظمى في هذه السنوات. ودعت قائدة اتحاد نسائي بارزة النساء لوضع العناية بأطفالهن على سلم أولوياتهن. واعترفت أن العمل في المصانع ساعد الأمة، «ولكن الطفل أكثر جمالاً من الرشاش». وأضافت قائلةً: «أعتقد أن اليد التي تهز المهود ستبقى مفعمة بالحيوية بينما لن تكون اليد الأخرى سوى ذكرى بغيضة»(21).

كما أخبرت الشخصيات الألمانية البارزة نساء الأمة أيضاً بأن إنتاج جنود المستقبل

مهمتهن الملحة. فمعدل مواليد ألمانيا لم يكن منخفضاً كما في فرنسا وبريطانيا، إلا أنه انخفض بشكل مضطرد منذ سبعينيات القرن التاسع عشر. وأضفت الحرب نغمة من الإلحاح على النقاش الدائر بشأن هذا التوجه الوطني. وقال اشتراكي بارز عمل كبروفسور في جامعة برلين في 1915 إن إنجاب الأطفال «هو المساهمة الوحيدة للإناث في الحرب والقوة العسكرية التي تعادل» الخدمة العسكرية في زمن الحرب التي يتوقع من الرجال القيام بها. وأكد أن إنجاب الأطفال وملء الثغرات في عدد السكان التي خلفتها الحرب هما «أمران لا مفرّ منهما في سبيل الارتقاء الوطني». وقد رفض هذا الاشتراكي جهود النسوة العاملات باعتبارها «ليست ذات صلة بالإنتاج القومي لكنها قاتلة فيما يتعلق بنمو السكان»(22). وبالتالي تلقت النساء رسالة تتعارض بشكل مباشر مع ملصقات التوظيف وغيرها من الوسائل التي اسُتخدمت من أجل جذب النساء إلى العمل في المصانع.

ووجدت المرأة الألمانية في سن الإنجاب أن الحكومة تعمل على تعزيز حملها. كما حثّت الحكومة الوطنية في برلين السلطات المحلية على اتخاذ الإجراءات اللازمة. وفي الحال، منعت العديد من الولايات الألمانية الصحف في أراضيها من نشر عناوين الأزواج الذين سجلوا لدى السلطات عزمهم على الزواج. وبالتالي، لم تعد المرأة وزوجها المستقبلي يتلقيان قوائم وسائل موانع الحمل التي تناولها الأزواج المخطوبون رسمياً قبل الحرب. ولم تعد قادرة على العثور على وسائل منع الحمل التي كانت تعرض أو يعلن عنها، وحتى الباعة المتجولون لم يعد يسمح لهم ببيع مثل هذه الوسائل.

وقد أعاقت القيود المفروضة على الاستخدام المدني للمطاط النساء الألمانيات من شراء وسائل منع الحمل النسائية التي استخدمت هذه المادة، على الرغم من أن شريكها في العملية الجنسية لم يزل بإمكانه العثور على الواقيات المطاطية – المعروفة كوسيلة لمكافحة الأمراض المنقولة جنسياً – دون صعوبة تذكر. وكان طبيبها على الأرجح قد تلقى تعليمات من الحكومة لتقديم شرح على نحو صارم بشأن تعريف عملية الإجهاض التي تُجرى لأسباب طبية. وظلت عمليات الإجهاض الطوعية غير مشروعة وتؤدي إلى عقوبة سجن إجبارية لأي امرأة تُجريها.

كما عرضت الحكومة حوافز ايجابية للنساء الحوامل. فقد وجدت الأم الألمانية المستقبلية أنها ستحصل على علاوة بدل أمومة خاصة. وفي 1915، غدا ممكناً أن تحصل المرأة الحامل غير المتزوجة على مثل هذا الدعم. فقبل الحرب، كانت إمكانية فقد الطفل الجديد في السنة الأولى من عمره لدى الأمهات غير المتزوجات تزيد مرتين عن النساء المتزوجات. وهكذا، ساهمت إجراءات الحكومة بشكل ملموس في إحداث فرق بين الحياة والموت بالنسبة للكثير من الأطفال الذين وُلدوا خارج نطاق الزوجية في كل عام في ألمانيا والبالغ عددهم 180 ألف طفل.

وعلى الرغم من الضغوطات لإنتاج المزيد من الأطفال، إلا أن معدل المواليد في زمن الحرب في ألمانيا هبط إلى مستوى أقل من ذلك المستوى الذي كان عليه في 1914. وفي 1918، كان معدل المواليد في أدنى نقطة سجلت على الإطلاق. فعندما فحص أحد الأطباء في برلين 300 حالة من الأزواج المتزوجين في 1916، وجد أن أكثر من 200 منهم يستخدمون وسائل منع الحمل. وكان دافعهم لفعل ذلك هو تعزيز الرخاء لأسرهم عن طريق الحدّ من عدد الأطفال الواجب إعالتهم. وظلت ألمانيا البلد الذي كان به العزل الجنسي هو الشكل المفضل لتحديد النسل وكان الإجهاض أمراً شائعاً. وهكذا، كان لدى القيود التي فرضتها الحكومة على توفير وسائل منع الحمل فرصة ضئيلة لتحقيق هدف زيادة عدد السكان.

وعلى الرغم من موجة الأفكار والإجراءات المتعلقة بمعدل المواليد، صور الكثيرون في المجتمع الألماني المرأة الحامل ببعض الانزعاج. إذ أنها لم تستطع الإسهام مباشرة في المجهود الحربي، لكن حاجتها للغذاء كانت تعني طلباً قوياً على إمدادات الغذاء المحدودة. كما وجدت النساء الألمانيات ذوات الأعداد الكبيرة من الأطفال أنفسهن محلاً للريبة العامة. فقد زُعم أنهن يستهلكن المواد الغذائية المخصصة لأبنائهن. كما وجدت الكثيرات من الأمهات الألمانيات ذوات الموارد المادية البسيطة أن الدولة لا توافق على جهودها المبذولة للبقاء في البيت. وحتى مع وجود علاوة بدل الأمومة، ظلت الشؤون المالية للأسرة غير مستقرة. لذا فقد كان الخروج للعمل، حتى وإن على حساب إهمال أطفالها، هو السبيل الوحيد لمثل هذه المرأة لتغطية نفقاتها.

أما في فرنسا، فقد أصرت كل من السلطات الطبية وبعض عموم السكان على أن المرأة الحامل غير ملائمة للعمل في المصنع الحربي. وفي ديسمبر 1916، فتح أحد رواد التوليد في فرنسا، الدكتور أدولف بينارد، نقاشاً لاذعاً بشأن هذا الموضوع. وقد لخصت إحدى الصحف الفرنسية موقفه بعنوان لافت للنظر: «المصنع، قاتل الأطفال». وأضاف أحد مناصري بينارد أن المصنع أسوأ من الحرب نفسها: «إنه يقتل، لكنه يقتل أصغر الأبناء والضعفاء، إنه يقتل المستقبل»(23).

الحريات الجديدة والتغيرات طويلة الأمد

بما أن النساء أصبحن قادرات على التنقل، ومستقلات في الإشراف على الأسرة، وقادرات على إيفاء جميع النفقات المالية، فقد بدون حتى خلال الحرب وكأنهن يُقوضن العادات الوطنية. كما أثار دور النساء الموسع في الحياة الوطنية- وبروزهن في الجبهة الداخلية- بشكل حاد مسألة تحديد حقوقهن في فترة ما بعد الحرب. وبدا أنه من المرجح، على الرغم من صعوبة تجرئهن على التقاليد التي تحكم الجنسين، أن النساء سيواصلن لعب دور كبير خارج ميادينهن الطبيعية في البيت. ومع ذلك، بقيت مواقف الرجال تجاه منزلة المرأة في المجتمع صلبة.

وعلى الرغم من الاضطرابات الاجتماعية الناجمة عن سنوات الحرب المكثفة، شهدت النساء في البلدان المتحاربة تغييراً محدوداً في وضعهن في السنوات التي تلت الحرب. فلم تحتفظ النساء بموطئ أقدامهن في مجالات الاقتصاد التي كانت قد فتحت لهن بشكل مؤقت. كما منحت بريطانيا النساء الحق في الاقتراع في 1918، وكذلك فعلت ألمانيا. ثم تبعتهما الولايات المتحدة في 1920. لكن ظل حق الانتخاب في فرنسا بعيد المنال حتى 1944.

أُجبرت الكثير من النساء اللواتي وجدن عملاً في النظام الصناعي على ترك العمل بنهاية الحرب. كان وجود النساء سمة اعتيادية في الاقتصاد الفرنسي قبل الحرب، ولم يزدد عددهن الإجمالي بشكل ملحوظ على مدار السنوات 1914-1918. وشهدت الهدنة تقلص دورهن الجديد في الصناعات الحربية إلى مستويات ما قبل الحرب

بحلول 1919. وبشكل عام، بدأت نسبة النساء في القوة العاملة الفرنسية في الانحدار الشديد بعد الهدنة.

أصبحت التغيرات، وإن كانت محدودة، في بعض مجالات الأنظمة الاقتصادية المختلفة تتسم بالثبات. فقد منحت صناعة المعادن البريطانية والفرنسية النساء فرص العمل في زمن الحرب، ثم فرضت تسريحات جماعية للعاملات بعد الهدنة. ولكن الشركات في كلا البلدين بدأت بتوظيف النساء مرة أخرى بعد 1919. وشهدت الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية تضاعفاً لعدد النساء العاملات في هذه الشركات يفوق المستويات التي بلغتها قبل 1914. ومع ذلك، بقيت النساء حبيسات الوظائف التي لا تتطلب مهارة كبيرة، وتراجعت أجورهن دون أجور العمال الذكور. وتعاظم عدد النساء الألمانيات العاملات في الصناعات الكيميائية وصناعات المعادن بشكل مؤقت خلال الحرب العالمية الأولى. وعلى المدى الأطول، في الفترة الممتدة من بداية القرن إلى منتصف العشرينيات، نما الحجم الإجمالي لفريق النساء في هذه القوة العاملة– إنما بقدر بسيط. ومن ناحية أخرى، غيرت النساء الفرنسيات والبريطانيات اللواتي شغلن خلال الحرب وظائف في العمل المكتبي في البنوك وشركات التأمين بنية القوة العاملة بشكل دائم.

كما وجدت النساء البريطانيات أن الأبواب قد أغلقت في وجوههن عندما شكلت الحكومة برامج التدريب المهني بعد الحرب. وجازفت المرأة المعروض عليها عمل في مصبغة أو كخادمة منزل بفقدان استحقاقات العمل إن رفضت ذلك العمل. ولن تقبل الحكومة ادعاء أن العمل في مصنع حربي قد منحها وظيفة جديدة. وبحلول يناير 1919، كانت الصحافة العامة تهزأ علناً من النساء اللواتي توقفن فجأة عن كونهن خادمات منازل. وتساءلت إحدى هذه الصحف: «متى ستتعب فتيات الذخيرة من أيام عطلتهن؟»، وسخرت أخرى من النساء اللواتي يأخذن «يوم عطلة على نفقة الدولة»(24). ومع ذلك، غالباً ما فعلت ذلك النساء البريطانيات اللواتي عُدن إلى كونهن خادمات بتوجه جديد تجاه العمل المنزلي. إذ رفض الكثير منهن العيش مع العائلات التي تشغلهن، كما تجنبن العمل في أسرة كبيرة ذات تسلسل للخدم منضبط

ومنظم بشكل صارم.

كما فقدت معظم النساء الأمريكيات فرص العمل التي كانت قد فتحت لهن في زمن الحرب. ولم تستطع سوى حفنة من المئات من النساء اللواتي عملن كقاطعات تذاكر في الترام الاحتفاظ بوظائفهن. واستعاد العمال الذكور العائدون من الخدمة العسكرية أعمالهم في محطات السكة الحديدية، فصرفت النساء من وظائفهن. وتلاعب المديرون المحليون بتصنيفات الوظائف وقوانين الأقدمية ليُخرجوا الكثير من القوة العاملة النسائية عنوةً. فقد ذكر ميكانيكي بارع في محطة سكة حديد بنسلفانيا في هاريسبيرغ بكل صراحة ووضوح أنه أراد أن «يُعاد الرجال إلى أعمالهم السابقة لما فيه خير للجميع، وينبغي على النساء أن يبدين خضوعاً طوعياً لتلك الحقيقة»(25).

أما في المجال السياسي، فقد طرأ تغيير جدي. فقد ساهمت النساء مساهمة كبرى وربما حيوية في المجهود الحربي لدى جميع الأطراف المتحاربة على الجبهة الغربية. ففي بريطانيا في 1914، وجدت الناخبات المستقبليات أن قادة حركتهن السياسية وضعن الهدف المتمثل في حق الاقتراع جانباً وعملن لصالح تعبئة المجهود الحربي. واتخذ القادة المطالبون بمنح المرأة حق الاقتراع مواقف عدائية صريحة تجاه المعارضين في البلاد. ورفض الاتحاد الوطني لجمعيات حق المرأة في الاقتراع، على الرغم من معارضة بعض قادته، الجهود المبذولة للاتصال بالنساء في ألمانيا. كما رفض التشكيك في الحاجة إلى خوض الحرب لتحقيق نهاية مظفرة.

وبحلول 1917، كان هناك احتمال متزايد بأن بعض النساء البريطانيات على الأقل سوف يفزن في الانتخابات. وبشكل متناقض، ساعد حق الرجال في الاقتراع على إعادة فتح قضية حق المرأة في الاقتراع. ووضعت الخدمة العسكرية الكثير من الرجال في صراع مع الشروط المتعلقة بالسكن حسب قانون الانتخاب البريطاني. فكان لزاماً على هذا القانون أن يُغيّر لحماية حقهم في الانتخاب، وبدت تلك اللحظة المنطقية لجلب بعض النساء على الأقل إلى جمهور الناخبين.

كما حظي الدور الذي لعبته النساء في المجهود الحربي بتغطية إيجابية بل حتى مُمَجّدة في الصحافة. وساعد هذا في تهدئة المعارضة ضد منح المرأة حق التصويت

على الأقل. كما ساعد في هذا الأمر الخوف من الفوضى العامة التي حدثت في روسيا الثائرة على سبيل المثال. وتذكر الكثيرون في بريطانيا كيف أوقعت النساء المناضلات مثل أفراد عائلة بانكهورست[1] الفوضى في الساحة الداخلية قبل الحرب. وبما أن البلاد قد أنهكت بخسائر الحرب المتنوعة، كانت هناك حاجة ملحة لاستعادة الهدوء الداخلي والنظام العام. واعتقد الكثير من قادة المجتمع البريطاني أن تجنب تجدد المواجهات العامة بين الجنسين التي كانت قد خفت حدتها في أغسطس 1914 كان شرطاً أساسياً لتحقيق ذلك الهدوء.

أحيا المعارضون لإعطاء المرأة حق الاقتراع الحجج القديمة وخلطوها بالدروس والعبر المفترضة من الوقت الحاضر. وبدأ المتحدثون في مجلس العموم في 1917 حججهم باتباع الخطوات التقليدية. فاستحضروا في أذهانهم صورة النساء المتقلبات الساذجات وهن يدلين بأصواتهن بجهل، «بشكل أساسي ناخبات ذوات خبرة قليلة وعُرْضة للسيطرة من قبل حجج المحرضين الهستيرية ليصوتن بطريقة حمقاء». لكنهم وضعوا ذلك في سياق الحرب. وصرح معارضو حق المرأة في الانتخاب بأنه كان هناك جماهير من دعاة السلام «ضمن الملايين من النساء اللواتي لا يمتلكن خبرة سياسية ومن المقترح أن يمنحن حق الاقتراع»، وأن مثل هؤلاء النساء يفضلن سلاماً متسرعاً مع ألمانيا غير المنهزمة. وحاولوا التقليل من تأثير المرأة العاملة في المصانع أو الترام بالإشارة إلى أنه، بغض النظر عن مساهماتهن، لم يطلب من النساء أن يخاطرن بحياتهن بالطريقة نفسها التي طلب من الملايين من الرجال القيام بها(26).

لكن كثيرين في بريطانيا رأوا النساء كمحاربات على الجبهة الداخلية، ولم تحمل الحجج المضادة الممتنين لما قامت به المرأة لكسب الحرب على تغيير رأيهم. وقد فصل البرلمان في «قضية المرأة» بمنح بعض النساء على الأقل الحق في الاقتراع في ربيع 1918. وكان هذا شيئاً أقل من المساواة السياسية. كما كان الاقتراع فقط من نصيب النساء اللواتي قد بلغن سن الثلاثين، وبالتالي تم استثناء النساء الأصغر سناً بالرغم من مساهمتهن في المجهود الحربي. وكان على المرأة المقترعة أن تفي بشرط امتلاكها بيتاً،

(1) إحدى العائلات المشهورة في بريطانيا، تزعمت المطالبة بمنح المرأة حق التصويت في الانتخابات.

سواء ملكها الشخصي أو بوصفها زوجة لمالك البيت. وبالتالي، لم تتمكن الكثير من النساء الأكثر فقراً اللواتي بلغن ثلاثين عاماً أو أكثر من الحصول على حق الاقتراع. وعلى النقيض، حصل جميع الرجال الذين بلغوا سن الواحدة والعشرين وتمكنوا من تلبية شرط الإقامة وجيزة المدى على حق الاقتراع في 1918. وعلاوة على ذلك، تأكدت الحكومة من أن أصوات الناخبين الذكور ستبقى تفوق أعداد الناخبات الإناث الجديدات، وذلك من خلال منح حق الاقتراع للرجال في سن التاسعة عشرة إذا كانوا من الجنود المحنكين. إلا أن إصلاح النظام الانتخابي الذي جرى في 1928 والذي خفض سن الاقتراع للنساء إلى الحادية والعشرين وإخضاعهن لشرط إقامة الرجل، هو فقط الذي خلق نظاماً منصفاً(27).

كما حصلت النساء الأمريكيات على حق الاقتراع في أعقاب الحرب. إذ ساعد المثال الذي ضربته المناضلات البريطانيات المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع على إحياء التحرك نحو حقوق المرأة السياسية في السنوات التي سبقت دخول الولايات المتحدة الحرب. ونجحت النساء كذلك في كسب حق الاقتراع في عدة ولايات أمريكية. وتعهدت قائدات الحركة النسائية البارزات، وعلى وجه التحديد كاري تشبمان كات[1]، بتقديم الدعم والإسناد للمجهود الحربي، مدركات أن «قدرة المطالبة بمنح المرأة حق الاقتراع على الدفاع عن قضيتهن ستعتمد إلى حدٍ ما على ما إذا كن قد انخرطن أيضاً في المجهود الحربي الوطني»(28).

وفي زمن الحرب، شغلت النساء وظائف بارزة في وزارة العمل وإدارة الذخائر فضلاً عن لجنة المرأة للدفاع الوطني. وعملت هذه اللجنة على تعبئة النساء لعدم الإسراف في المواد الغذائية وبيع سندات الحرب. وعززت هذه الأدوار الشعبية ضمن إطار المجهود الحربي مطلب النساء بالمشاركة الكاملة في الحياة السياسية للبلاد. كما دعم هدف الحرب الأمريكية المعلن من نشر الديمقراطية في الخارج الدعوات التي نادت بتوسيع نطاق الاقتراع للمرأة في الداخل.

(1) تزعمت الاتحاد الأمريكي الوطني لحق المرأة في الانتخاب لمدة عشرين عاماً وناضلت حتى صدور التعديل التاسع عشر للدستور الأمريكي عام 1920 الذي منح المرأة حق الانتخاب.

وأقرّ مجلس النواب التعديل في حق الاقتراع في أوائل يناير 1918. وفي هذه المرحلة، اتخذ التأثير الذي لعبه الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون دلالة حاسمة. فلم يتخلّ ويلسون مطلقاً عن «توجه مناصر للمرأة إلى حد ما « استمده من نشأته في عائلة جنوبية تقليدية. وعلى الرغم من أنه لم يتبنّ بقوة حق المرأة في الاقتراع كقضية، إلا أنه ربما أحدثت حماسة زوجته الثانية الفطنة وصاحبة العقل الحر وبناته الثلاث نحو منح النساء حق الاقتراع بصمة في هذا المجال. وعلاوة على ذلك، صادق البرنامج السياسي الديمقراطي لعام 1916 على حق المرأة في الاقتراع. والآن، وفي ظروف الحرب ، قام ويلسون أيضاً بالأمر نفسه(29). فقد ظهر شخصياً أمام مجلس الشيوخ في الثلاثين من سبتمبر وأشار إلى أن المواطن الأمريكي العادي الآن يؤمن بأن «الديمقراطية تعني أن النساء سيقمن بأدوارهن في الشؤون العامة جنباً إلى جنب الرجال وعلى قدم المساواة معهم»، وأضاف ويلسون: »إن الحرب لم يكن بالإمكان أن تخوضها أمريكا أو حلفاؤها إن لم تكن تصب في صالح النساء»(30). وحتى مع ذلك، تطلب ذلك انعقاد مجلس الشيوخ الجديد في 1919 لإقرار التعديل، وتمّت المصادقة عليه فقط في يوليو 1920.

كما أثارت سنوات الحرب مسألة توسيع نطاق الحقوق السياسية للنساء في فرنسا. إذ أشارت مقترحات عدة إلى أن القادة السياسيين الذكور شعروا ببعض الانزعاج من حرمان جميع النساء ببساطة حق الاقتراع. فاقترح بعض السياسيين أنه ربما يمكن منح أقارب الجنود الذين ماتوا حق الاقتراع وبالتالي القيام بذلك نيابة عن الرجل الذي مات من أجل فرنسا. وعلى أية حال، كانت مساهمات النساء لكسب الحرب واضحة بشكل لا يمكن تجاهله. ومع ذلك، حاول المعارضون أن يبرهنوا أن النساء الفرنسيات لم تكن لديهن دوافع إلى تحقيق أهداف أنانية مثل الحصول على حق الاقتراع عندما وهبن أوقاتهن وعرقهن لتحقيق هزيمة ألمانيا. بل إن مساهماتهن في المجهود الحربي كانت ثمرة وطنيتهن. وبالتالي لم يكن هناك تضحية تستوجب المكافأة الرسمية. وبشكل إجمالي، شعر السياسيون الفرنسيون من جميع الأطياف بانزعاج متزايد بشأن الإطاحة بنظام التصويت الذي استبعد النساء من الاقتراع.

وقد جعلت الخشية من أن النساء سيشكلن كتلة انتخابية حاسمة تؤثر فيها الكنيسة الكاثوليكية، بعض السياسيين الفرنسيين يترددون. وصرح آخرون بأن الأمومة، لا السياسة، ينبغي أن تكون الفكر والهم الأول للمرأة في زمن السلم. وانقسمت الهيئات في الجمعية الوطنية الفرنسية بشأن هذه المسألة. وأقر مجلس النواب مشروع قانون حق المرأة في الاقتراع في 1919 بفرق شاسع إذ صوت ثلاثة مقابل واحد فقط على تأجيل هذه المسألة من قبل مجلس الشيوخ. وأحبطت تلك الهيئة أخيراً مشروع القانون في 1922. وبحلول ذلك الوقت كان الامتنان الشعبي لدور النساء في الحرب قد تلاشى، وسادت المناقشات في الجمعية العامة لمجلس الشيوخ حول تأثير الكنيسة على النساء المقترعات وحول الحاجة إلى التأكيد على أدوار النساء كأمهات. ويبين تحليلٌ للتصويت الذي جرى أن كل جماعة سياسية الآن تعارض منح المرأة حق الاقتراع، بما في ذلك الكثيرون من السياسيين اليساريين. كما عبر عن ذلك أحد المثقفين قائلاً: «على الرغم من أن كل معارض قدم أسبابه الخاصة، إلا أنه لم يرغب أيّ منهم في مشاركة السلطة السياسية مع النساء. وأن المشاركة السياسية للمرأة ستشوش الحدود بين الجنسين أكثر مما قد فعلته الحرب»(31).

جلبت سنوات الحرب القيل والقال على أرفع المستويات في ألمانيا بشأن تغيير نظام حقوق الاقتراع المعقد في ذلك البلد. فلم تستثن قوانين الانتخاب النساء فقط، بل أولت اهتماماً مفرطاً بالأغنياء على حساب أصحاب المداخيل الأقل. وفي 1917، وعد الإمبراطور بنفسه بنظام سياسي جديد. مع ذلك، حصلت النساء على حق الاقتراع فقط في خضم الثورة في منتصف نوفمبر 1918 عندما استولى الديمقراطيون الاشتراكيون على الحكم بعد وقوع ألمانيا في براثن الهزيمة.

الحواشي

1. جيل برايبون، «النساء العاملات في الحرب العالمية الأولى: التجربة البريطانية» (لندن: كرووم هيلم، 1981)، ص. 24–32.
2. كولن داير، «السكان والمجتمع في فرنسا القرن العشرين» (لندن: هودر و

ستوكتون، 1978)، ص. 12، 17 —18.

3. كندريك أي. كلمنتس، «رئاسة وودرو وياسون» (لورنس، كانسانس: مطبعة جامعة كانسانس، 1992)، ص. 16—17.

4. مورين وينر جرينوالد، «النساء والحرب والعمل: أثر الحرب العالمية الأولى على النساء العاملات في الولايات المتحدة الامريكية»، (كونيتيكت: مطبعة جرينوود، 1980)، ص. 12.

5. يوت دانيال، «الحرب من الداخل: نساء الطبقة العاملة الألمانيات في الحرب العالمية الأولى»، ترجمة مارجريت ريس (أكسفورد: بيرغ، 1997)، ص. 38—45.

6. مقتبس من برايبون، «النساء العاملات»، ص. 176.

7. مقتبس من جل برايبون، «النساء والحرب والعمل»، في «الحرب العالمية الأولى: لمحة تاريخية»، المحرر هيو ستراكان (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1998)، ص. 155.

8. لورا لي داونز، «صناعة اللامساواة: نزاع الجنسين في الصناعات المعدنية الفرنسية والبريطانية، 1914—1939» (نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، 1995)، ص. 15—16.

9. مقتبس من برايبون، «النساء العاملات»، ص. 115.

10. داونز، «صناعة اللامساواة»، ص. 76.

11. مقتبس من أنجيلا وولاكوت، «عليها تعتمد حياتهم: عمال الذخائر في الحرب العظمى» (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا،1994)، ص. 82.

12. داونز، «صناعة اللامساواة»، ص. 98.

13. المصدر نفسه، ص. 165.

14. يوت دانيال، «عمل النساء في الصناعة والأسرة: ألمانيا، 1914—1918»، في «اضطرابات الحرب: الأسرة والعمل والرعاية الاجتماعية في أوروبا،1914 —1918» المحرر ريتشارد وول و ج. وينتر (كيمبردج: مطبعة جامعة كيمبردج، 1988)، ص. 279.

15. جرينوالد، «النساء والحرب والعمل»، ص. 155.
16. مقتبس من مارجريت اتش. دارو، «المرأة الفرنسية والحرب العالمية الأولى: قصص الحرب في الجبهة الداخلية» (أكسفورد: 2000)، ص. 183.
17. مقتبس من يوت دانيال، «الحرب من الداخل: نساء الطبقة العاملة الألمانيات في الحرب العالمية الأولى»، ترجمة مارجريت ريس (أكسفورد: 1997)، ص. 28.
18. دارو، «المرأة الفرنسية»، ص. 147—148.
19. داير، السكان والمجتمع، ص. 49—51، 55—56.
20. مونيك هاس، «تشجيع الإنجاب والفكر الشعبي للطفل في فرنسا في الحرب: دليل البطاقة البريدية المصورة»، في «ثورة الحرب»، المحرر وول وينتر، ص. 329—354. «صورة ماريان الحامل»، ص. 347.
21. مقتبس من ريتشارد سولواي، «تحسين النسل وتشجيع الإنجاب في بريطانيا في الحرب»، في المصدر السابق، ص. 381.
22. كورنيلي أسبورني، «الحمل هو الخدمة الفعلية للنساء: تشجيع الإنجاب في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى»، في المصدر السابق، ص. 389، 397.
23. دارو، «المرأة الفرنسية»، ص. 206— 208.
24. مقتبس من برايبون، «النساء العاملات»، ص. 187— 188.
25. جرينوالد، «المرأة والحرب والعمل»، ص. 129.
26. سوزان كينغسلي كينت، «صناعة السلام: إعادة بناء الجنسين في بريطانيا خلال الحربين العالميتين» (نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستون 1993)، ص. 87—89.
27. تشارلز لوش موات، «بريطانيا ما بين الحربين، 1918—1940» (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، 1955)، ص. 5—6، 343؛ أيضاً أي. جي. بي. تايلور، «التاريخ الإنجليزي، 1914—1945» (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1965)، ص. 93—94، 115—116.
28. إليانور فليكسنر، «قرن من النضال: حركة حقوق المرأة في الولايات المتحدة» (كيمبردج: وكالة بلنب، مطبعة جامعة هارفارد، 1975)، ص. 294.

29. كليمنتس، «رئاسة وودرو ويلسون»، ص. 159.

30. مقتبس من فلكسنر، «قرن من النضال»، ص. 321– 322.

31. بوني جي. سميث، «تغيير حياة الناس: المرأة في التاريخ الأوروبي منذ عام 1700» (ماساشوستس: دي.سي. هيث، 1989)، ص. 398.

الجزء الثالث

النتائج ونهاية الحرب

الفصل الثالث عشر

الأسى

على الرغم من ضخامة حجم الحرب العالمية الأولى، إلا أنها تتشابه وسائر الحروب في مجال واحد محزن، هو الموت والأسى اللذان خلفتهما وراءها. فالجنود الذين نجوا من الموت حتى الآن كان عليهم مواجهة مسألة موت رفاقهم في القتال. كما كان ينبغي على الحكومات أن تجد الوسائل التي تستطيع من خلالها الإعلان عن وقوع مأساة لا يمكن تحملها لأولئك المتواجدين في الوطن. وكذلك الأصدقاء والأحباء كان عليهم أن يفكروا بالموت المحتمل الذي قد يلحق بالجنود الذين يودعونهم. وعندما كانت تصل الأخبار المأساوية، التي كانت غالباً ما تصل، كان عليهم إيجاد القوة الداخلية التي تمكنهم من مواجهتها. وحتى مع استمرار الحرب، بدأت المجتمعات المتحاربة التي فقدت الكثير من شُبانها بالبحث عن طريقة لإحياء ذكرى أولئك الذين قضوا نحبهم.

الضحايا

إن حصيلة الضحايا الأكثر إقناعاً هي تلك التي جمعت بين عدد الجنود الذين قُتلوا فعلاً وأولئك الذين فُقدوا واعتبروا في عداد القتلى. فقد فقدت كل دولة من الدول الأوروبية التي قاتلت على الجبهة الغربية أعداداً كبيرة من شُبانها. وعانت الولايات

المتحدة بشكل فظيع على الرغم من مشاركتها البسيطة نسبياً في المعارك الكبرى التي وقعت في 1918. وبشكل عام، فقدت الدول الأربع مجتمعة ما مجموعه 4،25 مليون جندي تقريباً(1).

قاتلت أعداد كبيرة من القوات الأمريكية لفترة وجيزة فحسب، مما أبقى خسائرها قليلة مقارنةً بالدول الأخرى. فهذه الدولة الأكبر سكانياً بين الدول والتي قاتلت على الجبهة الغربية فقدت ما بين 76 إلى 83 ألف قتيل، قُتل زهاء 50 ألفاً منهم مباشرة في المعارك أو نتيجة للجروح التي أصيبوا بها؛ وتوفي معظم الضحايا المتبقين، وخاصة في صفوف القوات المسلحة الأمريكية، جراء الأوبئة وخاصةً وباء الأنفلونزا الذي تفشى في الجزء الأخير من الحرب. كما زاد عدد القتلى جراء وباء الأنفلونزا الذي أصاب جنود الولايات المتحدة داخل الوطن ليصل إجمالي عدد القتلى إلى 112 ألف جندي.

شهدت الدول الأوروبية المتحاربة فجوات كبيرة خُلقت بين الفئات العمرية لسكانها. وذلك لأن الملايين من شبانها الأصحاء أُقحموا في القتال، ولقي تقريباً واحد من كل ستة حتفه في الحرب. كما أنهت فرنسا الحرب بما لا يقل عن 1،4 مليون ضحية بما في ذلك الجنود الذين أدرجوا كمفقودين وكذلك القوات العاملة في المستعمرات. وقُتل جميعهم نتيجة للقتال المباشر على الجبهة الغربية. وفيما يتعلق بألمانيا التي قاتلت على جبهتين، فقدرت خسائرها على نحو متباين ما بين 1،7 مليون إلى أكثر من مليوني قتيل. أما مجهودات بريطانيا العسكرية فوُزعت على عدة قارات. وخدم أكثر من ستة ملايين جندي في القوات المسلحة، ولكن زهاء 570 ألف ضحية (الأغلبية العظمى من الـ 750 ألف قتيل) كانوا نتيجة القتال على الجبهة الغربية.

كان لدى فرنسا وألمانيا جيوش كبيرة أُقحمت في الحرب منذ بدايتها، وشهدت كل واحدة منهما خسائر فادحة في بدايات القتال. حيث قُتل 400 ألف جندي فرنسي خلال الأشهر الأربعة الأولى من الحرب. وحتى قبل الاستنزاف الكبير الذي بدأ في معركة فردان في 1916، كانت الأمة قد فقدت مليوناً من أبنائها. كما تعرضت ألمانيا لأسوأ خسائرها خلال الأشهر الأولى من القتال في 1914 عندما شنّت عمليات هجومية على كلتا الجبهتين الشرقية والغربية: فقد قُتل أو جُرح نصف جيشها الميداني على الأقل

المكون من 1،5 مليون جندي. وفي ذلك العام، شهدت الجبهة الغربية وحدها موت 116 ألف جندي ألماني والذي يعادل أربع أضعاف المجموع الكلي للقتلى الألمان في الحرب الفرانكو- بروسية المظفرة (1870–71). وبخلاف فرنسا، اتخذت ألمانيا موقفاً دفاعياً في الغرب في 1915 ووجدت أن خسائرها قد تضاءلت تبعاً لذلك.

لقي 90٪ من جنود القوة المسلحة الصغيرة للفرق البريطانية الخمس التي أُرسلت إلى القارة الأوروبية في 1914 حتفهم بنهاية ذلك العام. وكانت القوات البرية البريطانية أول من عانت من الخسائر مقارنةً بالمجموع الكلي لخسائر كل من ألمانيا وفرنسا في معركة «سوم» في 1916. في ذلك الوقت، ظهرت قوات كيتشنر الجديدة على مسرح القتال بأعداد كبيرة، فانسجمت تلك الخسائر البشعة مقارنةً مع ضراوة الهجوم الدامي والعقيم في معركة «باشيندال» (معركة إيبر الثالثة) في خريف 1917. كما ازدادت الخسائر البشرية في صفوف القوات الألمانية عندما قامت بالهجوم، أولاً ضد مدينة فردان في 1916، ثم عندما قامرت وحاولت في ربيع 1918 الفصل بين الجيوش الفرنسية والبريطانية لكسب الحرب تماماً قبل وصول القوات الأمريكية.

وفي بعض الدول، فقدت الطبقات الاجتماعية الرفيعة أعداداً كبيرة من شبانها بشكل مذهل. فالوضع المتميز الذي تمتعت به هذه الفئات في زمن السلم خلق وضعية خطيرة في زمن الحرب، فقد قدم الشبان المتعلمون من الطبقات العليا في المجتمع عدداً غير متكافئ من الضباط المقاتلين على الأرض. وقدم عدد الشبان الذين جاءوا من نخبة الجامعات البريطانية، أكسفورد وكيمبردج، والذين لم يستطيعوا النجاة من تلك الحرب دليلاً مروعاً على ذلك التعميم. فقد الطلبة 31٪ من أعضاء هيئة التدريس الذين التحقوا حديثاً بجامعة أكسفورد في 1913. وكذلك الحال بالنسبة لإحدى المدارس الثانوية الفرنسية التي كان يرتادها ابن أخ وزير في مجلس الوزراء، والتي فقدت 26 من أصل 27 من طلبتها الذين كانوا على وشك التخرج عشية عيد الميلاد 1914. والعضو الوحيد الذي بقي حياً كان قد أُعفي من الخدمة العسكرية بسبب مرض ألمّ به(2).

وعلى الطرف الآخر من خط القتال، قُتلت أعداد كبيرة من طلبة مدرسة «القيصر فيلهلم»، التي تعد واحدة من نخبة المدارس الثانوية في برلين. إذ تطوعوا بدافع

الحماسة الوطنية في الأشهر الأولى من الحرب وتلقوا معموديتهم من النار في منطقة «فلاندرز» في معركة «إيبر الأولى» في أكتوبر ونوفمبر 1914. و فقدوا أعداداً كبيرة من الطلبة السابقين في 1915، وتزايدت أعداد قتلاهم مجدداً في مايو 1916. ولقي زهاء 20 ٪ من الجسم الطلابي والخريجين حتفهم في القتال(3).

مثل تلك الخسائر يشخصها مصير الفتى إدوارد ريفير أوزلر. ابن أحد أبرز أطباء العصر الحديث وليام أوزلر، الكندي المولد. ولد ريفير في الولايات المتحدة في 1895. وكما يدل اسمه فهو سليل عائلة بول ريفيري وذلك لقربه من أمه. ولكونه الابن الوحيد لأبوين طاعنين في السن، كان موضع اهتمام بالغ لكتاب السيرة لعائلة أوزلر معبرين عن عشقهم وقلقهم الزائد عن الحد: «كما لو كان الولد الوحيد الذي كبر في هذا العالم»(4). وعندما تَوج والده وظيفته المرموقة في الولايات المتحدة بقبوله لمنصب أستاذ ملكي لتدريس الطب في جامعة أكسفورد، انتقلت عائلته للإقامة في بريطانيا في 1905. وتلقى ريفير تعليمه في إحدى المدارس البريطانية الداخلية المشهورة ولكنه احتاج إلى دروس خصوصية لكي يتأهل للالتحاق بجامعة أكسفورد.

كما حاول الطالب البالغ من العمر 18 عاماً، وبعد اجتيازه فصلاً دراسياً واحداً في الجامعة، التطوع في كتيبة تضمّ المتميزين اجتماعياً، واستخدمت عائلته نفوذها لتحويله للعمل في وحدة مستشفى عسكري بدلاً من ذلك، ولكن هذا الفتى استطاع في نهاية 1915 إقناع والديه بمساعدته على الالتحاق بإحدى وحدات المدفعية. ولم يكن يساور والدته أدنى شك بالخطر الذي يحيق به، فقد علمت من زيارة لمجموعة تضم سبع عائلات من زملائه في أكسفورد في 1916، أن اثنين من هذه العائلات قتلا وجرح اثنان آخران كما وقع آخر في الأسر وما زال أكثر من سبعة آخرين يخدمون على الجبهة الغربية. وبعد مرور ثلاثة أشهر، استجابت والدته بنوع من اليأس تجاه الخسائر التي وقعت في معركة «سوم» قائلة: «قوائم المصابين مروعة الآن وقراءة الصحف تصيب الإنسان بالمرض وأصدقاؤنا يحيق بهم الخطر من كل اتجاه»(5). وبقي ريفيري حياً لسنة أخرى واحتفل بعيد ميلاده الحادي والعشرين على الرغم من خطر الخدمة كملازم في وحدة المدفعية. ولكن حظه الجيد انتهى خلال معركة «باشيندال– إيبر

الثالثة» في 29 أغسطس 1917عندما أصيب بجروح في الصدر والبطن والفخذ جراء انفجار قذيفة بالقرب منه. وعلى الرغم من جهود اثنين من الأطباء المميزين، أصدقاء والده وليام أوزلر، الذين تصادف عملهم في تلك المنطقة، إلا أن الشاب توفي في صباح اليوم التالي.

كان المجندون يشكلون الأغلبية العظمى من الجيوش المقاتلة وماتوا بأعداد أكبر من أعداد الضباط. وأظهرت الأرقام في الجيش البريطاني أن أربعة من أصل كل مائة جندي مشاة قُتلوا في القتال كانوا من الضباط. وعلى نحو مماثل، كان فقط 3٪ من زهاء مليوني قتيل من الجيش الألماني من فئة الضباط. ولكن لقي 23 من أصل كل مائة ضابط ألماني حتفهم مقارنةً بأربعة عشر من أصل كل مائة جندي. فالمهمة التي أُنيطت بالضباط – لقيادة الجنود في أرض المعركة– عكست ذلك التباين. حيث أنهم كانوا أول من يخرج من الخنادق وأول من يجتاز المنطقة المحايدة، مما جعل هؤلاء الشباب في خطر قاتل دائم. وبالتالي، فإن 96٪ من الضباط الذين لقوا حتفهم في الجيش الألماني كانوا برتبة نقباء أو ملازمين.

اختلفت نسبة الضباط الذين قتلوا في الجيش البريطاني في مقابل نسبة المجندين القتلى خلال مراحل الحرب المختلفة. ولكن الضباط فقدوا دوماً نسبة أكبر من أعدادهم مقارنةً بأعداد الجنود. ففي الفترة الواقعة ما بين خريف 1914 وخريف 1915، سقط 14،2 ٪ من الضباط مقارنة بسقوط 5،8٪ من المجندين. ومات من خريف 1917 إلى الخريف التالي 6،9٪ من الضباط مقارنةً بموت 4٪ من «القوات المسلحة الأخرى». وأظهرت الأرقام الفرنسية كذلك أن مخاطر كونك ضابطاً تفوق تلك التي يواجهها أولئك الذين يخدمون في القوات المسلحة.

في العديد من الدول، لقي الجنود الآتون من المناطق الريفية حتفهم بأعداد كبيرة تفوق أعداد أولئك الآتين من المدن. فالغالبية العظمى من سكان ألمانيا باتوا يعيشون في المدن، ولكن الإعفاءات من الخدمة العسكرية مقابل العمل في الصناعة أبقت أعداداً كبيرة في المناطق الحضرية بعيداً عن نيران الأعداء. أما في فرنسا فما زالت أعداد سكان المناطق الريفية تفوق أعداد الذين يعيشون في المدن. وقدمت المناطق العسكرية التي

أقيمت في المناطق الزراعية مثل «أورلينز» و«ليموج» مشاركةً غير متكافئة من الشبان الذين فقدوا في الحرب، وكان لدى الفلاح العادي فرصة للنجاة من الموت في الزي العسكري أكبر بكثير من نظيره الذي يقيم في المناطق الحضرية.

عانت فئة الشبان أكثر من غيرها من الفئات الأخرى. ففي بريطانيا كان الخطر الأعظم يحيق بالشبان في عمر العشرين. وقد واجه الجنود الذين تراوحت أعمارهم بين 17 و37 إمكانية الموت في هذه السنوات الدامية ما بين مرتين إلى ثماني مرات مقارنةً بزمن السلم. وارتفع معدل الوفيات بين المجموعات العمرية التي تراوحت أعمارها ما بين الثانية والثلاثين والسادسة والأربعين ولكن على نحو أقل شدة من غيرها، وزاد الرجال البريطانيون الذين تجاوزوا هذه الفئات العمرية من متوسط عمرهم المتوقع. وقد تضاءلت فرصة القتل في الحرب من واحد إلى سبعة بالنسبة لأولئك الذين تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين إلى واحد من عشرين لأولئك الذين تجاوزوا سن الأربعين. كما أن نسبة القتلى بين الشبان غير المتزوجين فاقت المتزوجين: اثنان من كل ثلاثة قتلى ألمان كانوا من العُزباء، وعانت المرأة الألمانية المتزوجة من احتمالات لذلك. ففي 1919 كان هناك ثلاثة رجال ألمان فقط لكل أربع نساء ممن هن في سن الزواج.

عرّضت الخدمة في القوات المسلحة في بلد ما الجنود لخطر أعظم من الخدمة في بلدان أخرى. فقد قتل جندي من أصل كل عشرة جنود خدموا في الجيش البريطاني في حين قتل جندي من أصل كل ستة جنود خدموا في الجيش الفرنسي؛ وظهرت الأرقام المروعة جلياً في صفوف الجيش الألماني على حد سواء. وفي تناقض واضح، بلغ معدل الضحايا الأمريكيين أقل من 3٪ (27 جندياً من أصل كل ألف) لأولئك الذين خدموا في القوات المسلحة. كما قدمت الخدمة في فروع الجيش المختلفة فروقاً شاسعة. فكان من المتوقع لجندي واحد فقط من بين كل جنديين عملوا في الجيش البريطاني أن ينهي خدمته العسكرية من دون أن يقتل أو يجرح أو يؤسر، في حين على أرض الواقع قتل جندي من بين كل ثمانية جنود. ومن ناحية أخرى، في سلاح البحرية، فشل جندي واحد من أصل ستة عشر جندياً في البقاء على قيد الحياة. أما في القوات الجوية (سلاح الطيران الملكي) قُتل طيار واحد من بين كل خمسين. ومع ذلك، فإن الخسائر الفعلية

في صفوف الطيارين كانت أكبر من ذلك بكثير بسبب الحوادث القاتلة التي وقعت أثناء فترة التدريب أولاً ومن ثم بسبب ويلات المعارك الجوية.

العائلة المنكوبة

كان للموت الذي يصيب أي فرد في فترة الحرب أثرٌ واضح على حياة الكثير من الأفراد الآخرين، كالخطيبة و أفراد العائلة والأصدقاء. وشهد القرن التاسع عشر هبوطاً واضحاً في معدل الوفيات وخاصة في صفوف الشبان مما جعل العائلات تربط الموت بكبار السن وبالأفراد الواهنين. ففي بريطانيا، هبط معدل الوفيات من 22 لكل ألف في عام 1870 إلى 13 من أصل ألف عشية الحرب. وغدا موت أي طفل يُعد مأساة عائلية غير عادية. كما زاد متوسط العمر المتوقع للذكر من أربعين سنة في منتصف القرن السابق إلى اثنين وخمسين في 1915. ويمكن ايجاد أرقام مماثلة بالنسبة لفرنسا، على الرغم من أن الهبوط في معدل وفيات الأطفال كان تدريجياً بشكل أكبر. كما أصبح الموت العنيف والمفاجئ في صفوف الشبان البالغين في أوروبا الغربية أمراً نادراً(6).

في فرنسا، برز هبوط حاد في ممارسة الشعائر الدينية التقليدية، فضلاً عن الصراع المفتوح بين العلمانيين والمتعصبين للكاثوليكية. فقوضت هذه الاتجاهات الممارسات التقليدية في الحداد على القتلى. وهبط في بريطانيا أيضاً مستوى الممارسة الشعبية للجنائز الموسعة ومراسم الحداد الرسمية طويلة الأمد. ومع هذا، بقيت التقاليد الثقافية جنباً إلى جنب التقاليد الدينية فعالة. ففضلت هذه التقاليد «موتاً جيداً» في بيت العائلة حيث يتجمع الأقارب والأحباء حول سرير الإنسان المحتضر. ووفّرت إقامة مراسم الدفن وإمكانية توديع البقايا الجسدية لأحد الأحباء، المؤاساة للعائلات المنكوبة بفقدان الأحبة.

غير أن الموت صار يقع الآن في بصورة عنيفة في صفوف الشباب وبأعداد لا يمكن تخيلها وخلال فترة زمنية قصيرة. وصار الشباب يموتون بعيداً عن الوطن، وفي أحيان كثيرة لا تستعاد جثامينهم، هذا إن لم تُمحق بالكامل. كما عانى بعض الأسر من وفيات

متعددة في صفوف أبنائها أو من وفاة الابن الوحيد. ويمكن تبيّن حجم المأساة، أو على الأقل تخيله، بالنظر إلى عائلات معينة بارزة على جانبي جبهة القتال.

تصوّر تجربة عائلة أنتوني إيدن، رئيس الوزراء البريطاني المستقبلي، الآلام التي يمكن للحرب أن تسببها. ففي الأشهر الأولى من الحرب، لقي جون، الأخ الأكبر لأنتوني إيدن، الضابط المتفرّغ في الجيش، حتفه في القتال. وفي 1916 غرق أخوه الأصغر نيكولاس البالغ من العمر ستة عشر عاماً بسفينته في معركة جوتلاند. أما الأخ الرابع فكان حَسن الحظ– على الرغم من أنه قد لا ينظر إلى الأمر على هذا النحو– لكونه اعتُقل على حدود النمسا– المجر طوال فترة الحرب. إضافة إلى ذلك، أصيب أخو زوجته بجروح خطيرة، كما اعتقل عمه بعد أن أسقط الأعداء طائرته.

وكان فريدريك ألبرت شخصية قيادية في الحزب الاشتراكي الألماني. وعندما تولى رئاسة الوزراء في نوفمبر 1918 ذكّره سلفه بالمسؤولية الجسيمة في قيادة مستقبل ألمانيا. فرد ألبرت عليه بأن موت اثنين من أبنائه في المعركة لم يدع لديه مجالاً للشك بشأن العبء الثقيل الذي عليه تجشّمه.

سقط الكثير من سليلي العائلات العسكرية البارزة أثناء أدائهم للواجب العسكري. فقد قام استعدادهم لخوض القتال بكل تأكيد على المثال الذي رسخه آباؤهم وعلى إحساسهم بتقاليد العائلة. فقُتل جيرمان فوش، الابن الوحيد للجنرال فرديناند فوش[1] في معركة بالقرب من الحدود البلجيكية خلال الأسابيع الأولى من الحرب؛ كما قُتل صهره في اليوم نفسه وفي الموقع عينه. وتلقى القائد الفرنسي تلك الأخبار المفجعة بعد ثلاثة أسابيع فقط أثناء النتيجة الكارثية لمعركة «مارن». كما قُتل الملازم مايكل أللنبي، الابن الوحيد للجنرال إدموند أللنبي، عندما اخترقت شظية قذيفة خوذته في مدينة «نيوبورت» بالقرب من الساحل البلجيكي في يوليو 1917. لم يكن لدى الجنرال إريك ويدندورف أبناء من صلبه ولكن قُتل اثنان من أبناء زوجته الثلاثة، فرانز وإيريك بيرنت، وكلاهما طياران، على الجبهة الغربية. قُتل فرانز في سبتمبر 1917 أما إيريك فقُتل في مارس من العام التالي. أما الكاتب روديارد كيبلنغ، الذي لم يكن جندياً إنما

(1) فرديناند فوش (1851–1929) تولى قيادة الجيش في معركة السوم عام 1916.

كان الناطق الأدبي باسم الجيش البريطاني، فلجأ إلى منصبه وحصل على منصب في الحرس الأيرلندي لابنه الوحيد جون كيبلنغ. قُتل هذا الأخير الذي كان بالكاد يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً في معركة «لوس» في سبتمبر 1915. وفي بعض الأحيان، ساهمت عائلات بأعداد كبيرة من أبنائها في قوائم ضحايا الحرب. ففقد الجنرال إدوارد دي كاستيلنو أحد أبنائه الثلاثة في بداية القتال في العام 1914؛ أما الاثنان الباقيان فقُتلا لاحقاً في القتال.

كما عانت عائلات أكثر بكثير من الطبقات العادية من السكان من خسائر الحرب الباهظة. بحلول الأشهر الأخيرة من 1915، العام الذي تكبّدت فيه القوات الفرنسية أسوأ الخسائر، فقد أكثر من أربعة أخماس سكان منطقة «إيسير» في جنوب فرنسا على الأقل واحداً من المواطنين الذكور في كل عائلة. ومع نهاية الحرب، كان على سكان إحدى القرى المحلية والبالغ عددهم 400 شخص التسليم بحقيقة أن 30 من شبانها لن يعودوا أبداً.

كانت الأمهات اللواتي يودعن قطارات القوات المغادرة إلى ساحة القتال في 1916 غالباً ما يرتدين ملابس الحداد على من فقدن في أوقات سابقة. وذكر مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» في ألمانيا في يناير 1916 أن الزائرين لمنازل برلين عادة ما كانوا يصادفون إحدى الأمهات الثكالى، والتي غالباً ما كانت تقدم لهم صوراً للعديد من أبنائها بدءاً من الأصغر معلقةً على كل صورة منها بالقول: «لقد سقط»(7). كما وجد الجنود الأمريكيون الذين وصلوا إلى فرنسا أن القرى الريفية التي تدربوا فيها مليئة بالأرامل والأمهات الثكالى وجميعهن كن يرتدين الملابس السوداء.

وتقدّم عائلتا «كوستر» و«شو» الإنجليزيتان أمثلة مروعة عن التضحيات التي قدمتها تلك القرية الريفية. فلم يعد أربعة من أصل خمسة من عائلة كوستر، التي تقطن بلدة «واتفورد»، من القتال؛ قُتل أحدهم قبل أن انتهاء الحرب بفترة قصيرة. وما بين 1916 وأغسطس 1918، فقدت عائلة شو في بلدة «كنت» جميع أبنائها الخمسة الذين شاركوا في القتال. وشهدت عائلة كيكبوش القاطنة في برلين مقتل أحد أبنائها على الجبهة الغربية في الأشهر الأولى من الحرب؛ أما أخوه الأكبر فنجا لمدة عامين من

القتال الذي بدأ في «فلاندرز» في مايو 1916، غير أنه لقي حتفه في اليوم الأول من الهجوم الأخير على «لوديندروف « في ربيع 1918(8).

ترقّب الموت

في مطلع 1915، أعطت قوائم الضحايا الضخمة مؤشراً مخيفاً على أن الجنود المتوجهين إلى الجبهة قد لا يعودون البتة. وتجنبت الكثير من العائلات وحلقات الأصدقاء مناقشة هذا الواقع المرير مع الجنود، إلا أن بعضهم الآخر شعر بأنه مضطر لطرح الموضوع ومناقشته باستفاضة.

وفي إنجلترا، كان لدى فيرا بريتاين وخطيبها رولاند لايتون[1] عام واحد قبل مقتله ليفكرا ملياً في هذه المسألة. فعلى الرغم من ضعف بصره إلا أنه تمكن من التطوع، والحصول على منصب في الجيش وعُين في فرقة «شيروود الحادية عشرة لحراسة الغابات» في أواخر نوفمبر 1914. وفي ربيع 1915 غادر إلى فرنسا. ناقش الاثنان اللذان لم يبلغ أي منهما سن العشرين بعد تلك المسألة، وذلك من خلال الرسائل التي تبادلاها والأحاديث التي تمت بينهما وجهاً لوجه، متسائلين إذا ما كان الموت في أثناء القتال أفضل من الموت بسلام. كما ناقشا ما إذا ما كان الإحساس المبهم بالبطولة يمكن أن يدفع الجندي للمخاطرة بحياته. وفي إحدى المناسبات وعد رولاند تلك الشابة بأنه، إذا مات في الجبهة، فسيحاول الوصول إليها بطريقة ما. حتى في حال موته أراد أن يؤكد لها أن حبه لن يموت.

عموماً، رسم الحبيبان مستقبلاً مشرقاً لحياتهما معاً. وأكد لها أنه كان متيقناً أنه سيعود سالماً. أما هي فأخبرته بأن علاقتهما أعطتهما لمحة من السعادة. ولم تكن تعتقد أن تلك العلاقة سوف تنتهي «برؤيا لأرض الميعاد بغرض إخبارنا فقط بأننا لن ندخلها». ولكن هذا التفاؤل القسري واجه ظروفاً قاسية، إذ كتبت له في وقت لاحق قائلةً: «كل قرع على جرس الباب ينذر بقدوم برقية مشؤومة»، وأضافت: «كل مكالمة تليفونية خارجية تحمل خبراً سيئاً»، وذات مرة حلمت بموت حبيبها فكتبت

(1) رولاند لايتون أوبري (1895– 1915): شاعر وجندي بريطاني.

لتؤكد له أنه مهما حدث فسوف يبقى حياً في قلبها. كان يحدوها الأمل بأن تحمل طفله لكي يكون لديها «شيء خاص جداً يربطني برولاند، شيء منه شخصياً لكي أتذكره به قَبل أن يرحل»(9).

تلقت بريتاين خبر مقتل خطيبها في اليوم التالي لعيد الميلاد في 1915 بعد أن كانت قد رتبت بعناية لإجازة من عملها كممرضة متطوعة وكانت تستعد لاستقباله عند عودته من فرنسا. بدلاً من ذلك، تلقت المكالمة الهاتفية البغيضة والتي أخبرتها وهي تؤدي آخر واجباتها تجاه مرضاها، بأن رولاند تلقى إصابة قاتلة. وبعد ذلك بقليل، تلقت رسائل تعزية من الكولونيل المسؤول عن وحدته ومن زملائه الضباط وخادمه وكاهن الوحدة الكاثوليكي. ولتلبية حاجتها بمعرفة أكبر قدر ممكن من التفاصيل زار أحد رفاقه الضباط الأطباء الذين عالجوه في محطة إجلاء الضحايا.

أظهرت بريتاين رد فعلها المؤلم والمذهل على هذه الأخبار. فأخذت تحدّق في القنال الإنجليزي حائرة مشوشة – غير قادرة على تصديق حقيقة موته– وقلقة بشأن الرحلة البحرية التي سيعبر خلالها تلك القنال لهذا الرحيل. وذكرها منظر الورود في أحد المحلات بتلك الباقة التي قدمها لها قبل فترة وجيزة. كما أجبرتها دودة على الرصيف على التفكير في جثته التي تتحلل في باطن الأرض. وبعد ذلك بستة أشهر أصابتها الراحة التي شعرت بها في يوم ربيعي معتدل بالصدمة لاعتقادها أنها ربما، بإحساسها هذا، «لم تفِ بعهدها تجاهه»(10).

التبليغ عن الخسائر

تلقت العائلات الأخبار المأساوية بطرائق عدة. ففي فرنسا، كان رئيس البلدية المحلي يبلغ بخبر مقتل أحد أفراد بلدته خلال أدائه الواجب العسكري. فكان عليه تجشّم المسؤولية البغيضة التي تمثلت في تبليغ الرسالة إلى عائلة الضحية. وكان الناس يراقبون هذا المسؤول بذعر وهو يسير في الشوارع بحثاً عن منزل بعينه. وفي بعض المناطق أوكلت هذه المهمة المؤلمة لموظف البريد المحلي، والذي غالباً ما غدا من النساء الآن. أما في بريطانيا، فكانت عائلات القتلى والضباط المفقودين تتلقى الخبر عبر

برقية. ومن الذين تلقوا مثل هذا الخبر القاسي نجم الموسيقى الأسكتلندي هاري لودر، وذلك في الأول من يناير 1917، وتذكر في وقت لاحق قائلاً: «لم أجرؤ على فتح البرقية» لأنه كان يعرف محتواها. وصرخ قائلاً: «يا الله! ما أصعب الآلام التي عانيتها في صباح ذلك اليوم المشرق من السنة الجديدة... ابني الوحيد، الابن الوحيد الذي منحنا إياه الله»(11). وفي يونيو 1918 أنذر صوت الطرق المفزع على الباب الأمامي فيرا بريتاين ووالدها إلى تلقي برقية تخبرهما بأن أخاها إدوارد قُتل في إيطاليا.

كما كانت تعلم عوائل القتلى البريطانيين والمجندين المفقودين بما حدث لأبنائهم عبر الرسائل التي تعود إليهم بعد إرسالها، إذ قضت العادة في الجيش البريطاني بإعادة الرسائل إلى ذوي الجنود الذين فقدوا حياتهم، وقد وصمت بالكلمة القاسية «قُتل». وفي بعض الأحيان كانت تلك الرسائل المعادة تصل إلى مُرسليها قبل وصول إخطار رسمي لذويه عن موته. وكانت الطرود التي تصل إلى الجندي الميت تُفتح وتوزّع محتوياتها على أفراد وحدته.

وبسبب بُعد المسافة بين الوطن وساحة المعركة، كانت الرسائل التي كُتبت من قِبل حبيب قبل موته تصل أحياناً في وقت لاحق. فقد كتب كوينتن ابن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت العديد من تلك الرسائل قبل ساعات قليلة من مغادرته في مهمة جوية قُتل خلالها. ووصلت تلك الرسائل إلى عزبة روزفلت في «ساجمور هيل» في نيويورك بعد فترة وجيزة من إبلاغ العائلة بموته. فلم يكن من شأن تلك الرسائل الأخيرة من الشاب المقتول سوى أنها عمقت الغم واليأس الموجود.

وكانت العائلات الثكلى تتلقى وبشكل متكرر رسائل إما من ضابطه الرفيع وفي أحيان أخرى من رفاقه الجنود وكذلك من أولئك الذين كانوا يعملون تحت إمرته. وكان الضباط ذوو المناصب الرفيعة في الجيش يحاولون وبشكل مألوف مؤاساة الأسرة باستخدام مجموعة من العبارات التقليدية، كأن يقال: لقي مصرعه فوراً دون آلام مفرطة. كان دوماً مجتهدا في أداء واجباته ومحبوباً من قِبل رفاقه وحظي باحترام الجنود العاملين تحت إمرته. وكان قادته دوماً قادرين على الاعتماد عليه، وأن الموت اختطفه في لحظة كان يظهر فيها خصال البسالة والشجاعة والولاء. بيد أن الرسائل

التي كانت تصل من رفاقه في الجيش كانت من المحتمل أن تكون صريحة ومؤلمة في تقديم الحقائق الفعلية حول الموت في القتال.

وكانت العائلات البريطانية تتوقع الحصول على متعلقات أحبائهم القتلى. فقد حصل والدا وشقيقة رولاند لايتون، محبوب فيرا بريتاين على ثياب رولاند، بما في ذلك تلك التي كان يرتديها عندما أُصيب بجرحه القاتل. إذ أظهرت سترته الرطبة الموحلة وصدريته الكاكية موضع اختراق الرصاصة القاتلة لجسده، وكانت بقع الدم التي نزفها الشاب المحتضر واضحة. أما السروال فمن الواضح أنه شُق من قِبل أحد رجال الخدمة الطبية الذي حاول إسعافه.

كان الإحساس بالخدر الذي تتبعه أحياناً ردة فعل هستيرية أو الإنكار، هو رد الفعل الشائع على مثل تلك الأخبار المفجعة، كالذي أظهرته فيرا بريتاين. وقد ذكرت ساعية البريد الفرنسية الشابة التي كانت تُسلم الرسائل إلى العائلات الثكلى أن مواطنيها في القرية «كان رد فعلهم بالطبع يختلف من شخص إلى آخر، بعضهم يتلقى الخبر بشكل هستيري، ولكن الغالبية العظمى كان رد فعلهم يشوبه نوع من الصدمة المخدرة وكأنهم يتوقعون ذلك بطريقة ما»(12).

في أحيان كثيرة، لم يُبقِ الموت العنيف الذي يصيب أحد الأحباء في ساحة القتال البعيدة أي أثر لجثمانه، حتى وإن كان القتال قد ترك الجثة سليمة. وغالباً لم يكن هناك جثة حتى لو أكد شهود العيان أن الجندي قد قُتل فعلاً. وفي أغلب الأحيان، كانت العائلات التي تتلقى خبراً مفاده أن أحد أعزائها قد فُقد ويُفترض موته تتشبث بأي عنصر غموض في الرسالة. فبقي روديارد كيبلنغ وزوجته متمسكين لمدة عامين بالاعتقاد بأن ابنهما جون، الذي لم يعثر على جثته، ربما ما زال على قيد الحياة. وأصرت إحدى الأمهات في الريف الإنجليزي، حتى بعد مرور عشر سنوات على الحرب، على أن ابنها لم يُقتل. وكانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أنه، عندما يشفى من فقدان الذاكرة، فسوف يعود إلى بيته. أما أرملة الكاتب إدوارد توماس[1] الذي قتل في فرنسا في ربيع 1917، فتقبّلت موته ولكنها في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، اندفعت مسرعة

---

(1) شاعر وصحفي بريطاني (1878– 1917) قتل خلال معركة آراس بعد وقت قصير من وصوله إلى فرنسا.

نحو حشد من الناس في مدينة لندن مؤكدة أنها لمحته.

الحداد

أصيبت العائلات التي فجعها خبر فقدان أحد أعزائها بصدمة نفسية، ووصل عدد الأفراد المتضررين من جراء ذلك إلى الملايين. وذكرت إحدى التقديرات أنه، في بريطانيا وحدها، زهاء «ثلاثة ملايين... فقدوا أحد الأشخاص المقربين خلال الحرب العالمية الأولى، وهذا الرقم يُعد كبيراً مقارنةً بعدد السكان البالغ عددهم أقل من 42 مليون نسمة». وأبعد من ذلك هناك أولئك المقرّبون بما فيه الكفاية من الشخص المتوفى ليحضروا جنازته، هذا إذا بقي من جثمانه ما يمكن حمله، «مثل أولئك الذين فقدوا ابن عم أو خال أو صهر أو زميل دراسة أو صديق أو جار»(13). وهكذا شعر السكان بأكملهم بالفراغ الذي خلفه رحيل أولئك الذين عرفوهم بشكل شخصي.

وفي خريف 1914 تلقت الفنانة كاثي كولفيتز وزوجها، الطبيب العامل في برلين، خبراً مروعاً بأن ولدها بيتر لقي مصرعه في «فلاندرز». وصرحت لإحدى صديقاتها بأنها شعرت «بجرح لن يندمل يوماً»، ونقلت نبأ خسارتها إلى صديقة أخرى بعبارة حزينة مؤلمة: «إن شالك الجميل لم يعد قادراً على تدفئة ولدنا». وكانت كولفيتز مثلها مثل باقي الأهل المفجوعين تقضي ساعات طويلة في غرفة ولدها الفارغة، مدّعية أنها ما زالت تشعر بوجوده(14).

راودت الأم الثكلى على الفور فكرة إقامة تمثال كنصب تذكاري لولدها. ولكن مع استمرار الحرب، عانت من موقفها المتغير تجاه الحرب، بالإضافة إلى خسارتها الشخصية. ففي 1914 كانت مستعدة وإن لم تكن متحمسة لرؤية ولدها يقاتل دفاعاً عن أرض الأجداد، ولكن بحلول 1916 أصبحت مقتنعة بأن الحرب كانت «مجرد جنون». وبالتالي، واجهت العبء الثقيل المتمثّل بأن ولدها قد مات عبثاً. ولم تتمكن سوى في 1925 من استئناف العمل على النسخة النهائية من التمثال– الذي أطلقت عليه اسم «والدان حزينان»– وأكملته في 1930(15).

تمكن بعض الأقارب والأصدقاء المقربين في الجيش في بعض الأحيان من زيارة

الموقع الذي لقي فيه أحد الأحبة مصرعه. ولكن بالنسبة لمعظم أفراد الأسرة فإن رحلات من هذا القبيل كان لابد من تأجيلها إلى ما بعد انتهاء الحرب. وحتى في ذلك الوقت كان الإجهاد البدني للوصول إلى ساحة المعركة البعيدة هائلاً. وخير دليل على ذلك الرحلة التي قامت بها فيرا بريتاين إلى إحدى القرى الإيطالية إلى الشمال من «فيشنزا» حيث قُتل شقيقها على يد قناص نمساوي في صيف 1918.

فقدت عائلة بيكرستيث المرموقة- صموئيل بيكرستث كاهن ليدز- ولدها الوحيد خلال اليوم الأول الدامي من معركة «سوم» في يوليو 1916. في بادئ الأمر أُعلن جوريس بيكرستيث مفقوداً، ولكن أكدت التحقيقات فيما بعد أنه قُتل بنيران المدفعية. رقد جثمانه في مكان ما على امتداد الأرض المحايدة التي تناوب المتحاربون على السيطرة عليها مراراً خلال السنوات المتبقية من الحرب. ووجدت أم الشاب بعض العزاء في حضورها لحفل تأبيني أُقيم في يونيو 1918 في مدرسة ولدها العامة، «رُجبِي»، وكانت «تناجي ولدها العزيز» بالجلوس بالقرب من السكن الداخلي الذي أقام به الشاب فقط لسنوات قليلة من قبل (16).

كما تمكنت بعض الشخصيات البارزة مثل عضو مجلس الوزراء البريطاني بونار لو[1] مؤاساة نفسه بزيارة قام بها خلال الحرب للوحدة العسكرية التي عمل فيها ولده. فبعد أن فقد لو أحد أولاده الأربعة في منطقة الشرق الأوسط في أبريل 1917، تلقى رسالة بعد ثلاثة أشهر تبلغه بمقتل ابنه البكر في فرنسا. ووصف أحد الزملاء الحزن الذي شعر به لو: «الفجيعة الثانية... كانت بمثابة ضربة رهيبة ساحقة... في تلك اللحظة كان عاجزاً عن العمل، جلس بكآبة فحسب، محدقاً في الفراغ»(17). ولكنه وجد بعض العزاء بالسفر إلى فرنسا وزيارة السرب الذي عمل به ولده. وجلس السيدان العجوزان لعدة ساعات في قُمرة قيادة طائرة مشابهة لتلك التي فقد فيها جيمس حياته. كما نَدب ثيودور روزفلت المريض موت ولده الصغير كوينتن الذي قُتل أيضاً في معركة جوية فوق فرنسا بجلوسه وحيداً على الكرسي الهزاز الذي حمل فيه كل أطفاله، وكان يتمتم بكنية ولده «كوينكيز المسكين، كوينكيز المسكين»(18).

(1) اندرو بونار لو: (1858- 1923) تولى رئاسة وزراء المملكة المتحدة من 1922إلى 1923.

العسكريون في مواجهة الخسائر

استنزفت الخسائر المضطردة للأصدقاء والرفقاء، بالإضافة إلى أحد أفراد العائلة، طاقة الجنود وحيويتهم. فقد واجه هربرت سلزباخ أولاً الفاجعة ضمن محيط عائلته. فقبل مضي شهر على الحرب، لقي صهره، طبيب البحرية، حتفه في معركة بحرية مبكرة. كما وجد سلزباخ أن توديع شقيقته المنكوبة كان أمراً مستحيلاً تقريباً، لأنها «تجد منظري بالزي العسكري مؤلماً للغاية». وعندما أنهت الحرب عامها الثالث، رثى ضابط المدفعية الألمانية الشاب زملاءه الذين تطوعوا في 1914، والذين «قلة منهم خرجت على قيد الحياة»، كما ترك موت صديقه الحميم في ربيع 1918، لديه انطباعاً لا يزول على الرغم من «استمرارك في الحركة دون توقف»(19).

كانت الخسائر المتتالية تدمي القلوب حتى ولو لم يكن القتلى من الأصدقاء إنما من رفقاء الوحدة العسكرية. فقد شهد جيمس دان، الطبيب العسكري البريطاني، كيف تحطمت كتيبته وأُعيد بناؤها مراراً. وبعد مرور عامين ونصف العام، لم يتبق من الكتيبة سوى ضابطين وأربعين جندياً من أصل ثمانمائة. وتذكر ضابط طبي آخر الضغط النفسي الذي عاشه مع إصابة جنود كتيبته واستبدالهم بوجوه غريبة: «جاء سبعة جنرالات وغادروا. ولم أستطع أن أُعوّد نفسي على عدم المبالاة بذلك الغياب». وقد أثارت الجروح النفسية مشاعره وعذبته طوال العقود الثلاثة اللاحقة(20).

توليفة من الإحساس الوطني والإحساس المتجدد بالواجب والتصميم، ساعدت العسكر إلى حدٍ ما. وعندما أوشكت الحرب على الانتهاء، عبّر النقيب هنري لكلوز عن حزنه على فقدان بعض رفاقه الجنود، ولكنه قَرَنَه بالتصميم على القتال حتى النصر. ولكن عندما صادف لكلوز قبر جندي ألماني وحيداً منعزلاً في مقبرة عسكرية فرنسية، اختلطت عليه المشاعر. فقد وقف في مقبرة لورين الصغيرة في شتاء 1916 وتمنى لو أن مصير هذا الجندي هو مقدمة لما سيصيب القيصر فليهلم الثاني، سيد الحرب في ألمانيا. ولكنه لم يستطع منع نفسه من الإحساس بالحزن على موت جندي آخر(21).

قادت الخسائر المستمرة للرفاق بعض الجنود للتعبير عن مزيج من مشاعر الارتياح

والقسوة. كان الإحساس بالراحة المتولدة من أن شخصاً آخر قد مات في حين ما زلت أنت على قيد الحياة، ردة فعل متوقعة لحالة الاستنزاف في الوحدة العسكرية. غير أن القسوة واللامبالاة صدمت حتى أولئك الذين أحسوا بتلك المشاعر. ومع توسع الحرب، دافع الجنود عن أنفسهم نفسياً بالتوقف عن الإحساس بالحزن على الموتى. وعبّر أحد الجنود الفرنسيين في 1917، جورج بونيه[1] عضو مجلس الوزراء المستقبلي، بأن تلك التجربة «حجّرت القلوب بشكل ملحوظ». وفي نهاية الأمر جفف العيش مع حقيقة الموت الثابتة كل الدموع التي كان على الفرد أن يذرفها. ويمضي مضيفاً: «أشقاؤنا، أفضل أصدقائنا، قُتلوا، وأصبح الحزن مألوفاً حتى تحول إلى أمر اعتيادي»، وفي مثل هذه الظروف، «ماتت الشفقة في قلوبنا»(22). وعبَّر ضابط انجليزي شاب عن الفكرة نفسها بطريقة مشابهة فقال: «الموتى، حتى من كانوا أصدقاءنا منهم لم نفرط في ندبهم. كان هناك، في عقلنا الباطن، الإحساس بأن يصيبهم الموت أفضل من أن يصيبني»(23).

دفن الموتى وتذكرهم

لم يكن أحد من الذين دخلوا القتال واثقاً من أن بقاياه ستنال مراسم الدفن اللائقة التي كانت نموذجية في زمن السلم. فقد مُزق الكثير من الجثث بنيران المدفعية الثقيلة إلى أشلاء يصعب تعرّفها، وغرق الكثير منها في الوحل في الأراضي المحايدة أو تعفن على الأسلاك الشائكة. ولم تلق مئات الآلاف من الجثث سوى مكان في مقبرة جماعية. وخلال التدقيق في المقابر في لحظات الهدوء في الحرب، اكتشف الباحثون في بعض الأحيان حليفاً وعدواً مدفونين في حفرة واحدة.

عاش بعض الجنود مدة طويلة بما فيه الكفاية للوصول إلى مستشفى في المؤخرة، ووجد الكثير منهم مثوى في إحدى المقابر الكبرى التي برزت للوجود بالقرب من هذه المراكز الطبية. ذلك أن السلطات البريطانية دشّنت العديد منها بالقرب من ساحل القنال. وهناك، بعد كل هجوم كبير، كانت الأبواق التي تشير إلى مراسم دفن جندي

(1) جورج إتيان بونيه (1889– 1973) سياسي فرنسي وشخصية رائدة في الحزب الاشتراكي.

تُسمع أكثر من عشرين مرة في اليوم، وكان يتوقع من كل قسّ أن يشرف، ما لا يقل عن ست عشرة مرة، على هذه المراسم الجنائزية الكئيبة، ما بين شروق الشمس ومغربها.

ظهرت أثناء الحرب المشكلة العاطفية العميقة المتمثلة في حتمية دفن الجثامين الكثيرة في ساحة المعركة. هل تترك جثامينهم في قبورها الأصلية، أم تُجمع معاً في مقابر عسكرية على الجبهة؟ وجادل بعضهم بضرورة إعادة الجثامين للعائلات للدفن وإقامة الذكرى في المجتمعات المحلية. ولكن تبقت الحقيقة المحزنة والمعقدة في أن بعض الجثث لم يُعثر عليها ولم يتم تعرّفها بشكل قاطع. وكان من المتوقع أن يرتدي الجنود على جانبي خط القتال شارة الهوية لمساعدة السلطات على تقفي أثر الضحايا. ولكن هذا الإجراء حقق نجاحاً جزئياً فقط. فقد مزقت قوة المعركة الكثير من الجثث، محطمةً شارات الهوية، وهذا قضى على أي احتمال بأن تنال الجثة أكثر من مكان في مقبرة جماعية. علاوة على ذلك، لم يطع بعض الجنود المقاتلين الأوامر، أو فقد بعضهم شارات هويتهم. وعندما كانت الجثث تغرق في الوحل في ساحة المعركة مثلما حدث في معركة «باشيندال» فإن شارة الهوية كانت تختفي أيضاً.

منذ بداية الشهور الأولى للحرب، تولى موظف الصليب الأحمر البريطاني فابيان وارد مهمة البحث عن قبور الجنود البريطانيين الذين فقدوا في الحرب وتحديد مواقعها. وبحلول 1916، دُمجت مؤسسته مع الجيش وحصل وارد على رتبة مقدم، ثم تدرج في المناصب العسكرية حتى وصل في نهاية المطاف إلى رتبة عميد. قام وارد بالتفاوض مع الحكومة الفرنسية ومن ثم الحكومة البلجيكية لتزويده بمواقع القبور التي دفن فيها القتلى البريطانيون. ومع نهاية الحرب، تولى زمام مبادرة إنشاء لجنة أضرحة ضحايا حرب الكومنولث. وضمت تلك اللجنة بعد حصولها على تصريح من الحكومة البريطانية ممثلين من الحياة العامة والخاصة. وتعهدت اللجنة بالاعتناء بالمقابر في فترة ما بعد الحرب. حتى خلال الحرب بدأت مؤسسة وارد بإخفاء الأراضي القاحلة لبعض المقابر الجماعية بزرع العشب والشجيرات. وسرعان ما أظهرت المقابر نتائج حب الإنجليز للبستنة وخبرتهم فيها.

أنشأ جيش الولايات المتحدة مصلحة تسجيل القبور في فيلق إمدادات التموين



الملك جورج الخامس ملك بريطانيا يزور مقابر الحرب. بتصريح من أرشيف معهد هوفر.

في أغسطس 1917. وعُين في هذه الهيئة عدد كبير من الجنود الذين لم يعودوا قادرين على الخدمة كجنود، وكانت تلك المصلحة تتبع وحدات الجيش الأمريكي المتقدمة وبحثت عن الجثث غير المدفونة. كما كان أعضاؤها يقومون بإعادة دفن أولئك الجنود الذين سقطوا ودفنوا بطريقة متسرعة في خضم المعركة. وجعل تسجيل موقع دفن الجندي من الممكن نقل الرفات إلى مقبرة دائمة في وقت ما في المستقبل.

في مارس 1918 قرر أمناء الحرب والبحرية الأمريكيون دفن كل الجنود الذين قتلوا في الخارج. ولكنهم قرروا أيضاً إعادة الجثث إلى الولايات المتحدة في وقت ما في المستقبل. ومع نهاية الصراع، تلقت عائلات المتوفين استفساراً من الحكومة يخيرهم ما بين الإبقاء على الرفات في الخارج أو استعادته لإعادة دفنه في «المقبرة الوطنية» في أمريكا. فقرر أكثر من الثلثين – زهاء 64 ألفا – اختيار إعادة رفات قتلاهم إلى أرض الوطن، ولكن بقي زهاء 30 ألف جثة مدفونة في أوروبا. ونتيجة لذلك أُقيمت

ثمانية مقابر أميركية دائمة، واحدة في إنجلترا، وواحدة في بلجيكا، وستة في فرنسا. حيث تضم أكبر تلك المقابر وهي مقبرة «ميوز – آرجون»[1] رفات زهاء 13724 جندياً أميركياً من بينهم 458 جثة غير محددة الهوية. إجمالاً، وصل عدد الجثث الأمريكية في زمن الحرب التي لم تحدد هويتها أو لم يتم العثور عليها إلى زهاء 3100 جثة.

أما في فرنسا، فإن مسألة أين يمكن دفن أعداد الجثث الضخمة التي سقطت في خضم المعارك بقيت معلقة حتى بعد انتهاء الحرب. وعلى الرغم من استمرار الأعمال العدائية في فترة ما بعد الحرب المباشرة إلا أن الحكومة رفضت النداء بالسماح للعائلات باستعادة رفات أحبائهم لتدفن في مقابر مجتمعاتهم المحلية. في الوقت الحاضر، دُفنت معظم الجثث في قبور بالقرب من مواقع القتال. ولكن بعض العائلات رفضت قبول مثل هذا القرار، وتعاقدت مع شركات خاصة للبحث عن رُفات أبنائهم الأعزاء واستخراجها. كما ظهر التوتر بين الكنيسة والدولة في فرنسا بقوة كبيرة لأن المقابر كانت عبارة عن مؤسسات حكومية. فقد شعرت العائلات المنتمية للديانة الكاثوليكية بواجب استعادة رفات أبنائهم وأزواجهم إلى المقابر الأبرشية ومن ثم عودتهم إلى جذورهم الدينية. وفي سبتمبر 1920، سمح القرار النهائي للعائلات الفرنسية بالمطالبة برفات أبنائهم وإعادتها لدفنها في مجتمعاتهم المحلية. وتحملت الحكومة التكاليف التي تطلبها ذلك الأمر، وبلغ عدد الجثث التي نقلت إلى مواطنها بهذه الطريقة زهاء 300 ألف جثة.

وبخلاف فرنسا، قررت بريطانيا دفن جميع الجثث على الجبهة وذلك على الرغم من أن بعض العائلات المرموقة ذات العلاقات الجيدة كان باستطاعتها إحضار رفات أبنائها إلى الوطن. أما ألمانيا فكانت خياراتها قليلة في مسألة التعامل مع قتلاها في الحرب. فقد رقد القتلى في مواقع الدفن في كلٍ من بلجيكا وفرنسا، وتلقت الحكومة الألمانية التي أُنشئت بعد الحرب مُكرهة رخصة فقط لبناء نصب تذكارية لهم.

وعلى خلاف النزاعات السابقة، وضعت الحرب الكثير من سكان البلاد الذكور في الخدمة العسكرية. الآن، بدأ جميع المتحاربين على الجبهة الغربية العمل بطريقة غير

(1) أقيمت تلك المقبرة في فرنسا على بعد 26 كيلومتراً شمال غرب فردان.

مسبوقة لإحياء ذكرى الذين سقطوا في المعارك. وأصبحت القبور الفردية في مقبرة عسكرية والموسومة بما يحدد هوية رفات القتلى هي النمط المرغوب فيه. وحصل الكثير من الجنود على مثل هذه القبور في فرنسا وبلجيكا. ومثّل إقامة نصب تذكاري لأولئك الجنود الذين لم تستعد رفاتهم تحدياً مختلفاً. وكان اختيار لقب «الجندي المجهول»، في فترة ما بعد الحرب، ليتم تكريمه كممثل عن أولئك الجنود الذين فقدوا في الحرب هو أحد الحلول لتلك المسألة. وبحلول يوم الهدنة، عام 1920، اختار البريطانيون والفرنسيون جنديهم المجهول. ووضعت فرنسا النصب في باريس تحت «قوس النصر». أما بريطانيا فوضعته في «دير وستمنستر». وتبعتهما الولايات المتحدة وبعد عام على انتهاء الحرب، واضعةً جنديها المجهول في مقبرة «أرلينغتون» قرب العاصمة. بالإضافة إلى ذلك، أقامت الحكومات والمنظمات الخاصة أنصاباً تذكارية بالقرب من ساحات المعارك نُقشت عليها أسماء الجنود المفقودين. وسجل نصب إدوارد ليوتنز المشهور للذين فقدوا في معركة «سوم» في منطقة «ثيبفال» أسماء 73 ألف جندي. وفي منطقة فردان قامت إحدى المنظمات الخاصة بجمع رفات أولئك الذين لم يكن ممكناً تحديد هوياتهم في صندوق كبير مخصص لعظام الموتى.

ومن الطرق الأخرى التي استخدمت لتكريم القتلى زيارة أماكن دفنهم أو زيارة المنطقة التي قضى فيها الجندي، إذا لم يكن مكان الدفن معروفاً. وقامت جميع القوى المنتصرة، البعض منها قبل الآخر، بتنظيم رحلات مدعومة مالياً لعائلات الضحايا لمناطق القتال. وكان الأمريكيون آخر من قام بتنظيم مثل تلك الرحلات. بدءاً من مايو 1930، وبفريق أولي مكون من 234 فرداً، غادرت الولايات المتحدة أول مجموعة من أكثر من عشرين مجموعة من الأمهات الأمريكيات لزيارة قبور أبنائهن في فرنسا. وقد خصص الكونغرس خمسة ملايين دولار لتمويل الرحلات. كما سمحت ظاهرة سياحة المعركة في فترة ما بعد الحرب لمجموعات كبيرة بزيارة مواقع مهجورة ومحطمة مثل «إيبر». وفي وقت قصير، وعلى نحو مذهل، جعلت عمليات إعادة البناء مناطق القتال تبدو أكثر طبيعية مما توقعه الزوار.

كما أدت الرغبة لدى بعضهم في الاتصال بمن فقدوا من أحبائهم إلى انتشار مذهب

«الروحانية» Spiritualism في العديد من الدول. وادعت «الروحانية»، وهي طائفة دينية صغيرة نشأت قبل الحرب، أن الموتى ما زالوا يعيشون بين الأحياء، وأن الاتصال بهم ممكن. و شارك الكثير من السكان، خصوصاً في بريطانيا في فترة العشرينيات من القرن العشرين، في جلسات تحضير الأرواح التي زعم أنها تتيح لهم التواصل مع موتى الحرب.

تصالحت بعض العائلات الغنية، مثل عائلة اللورد ويمس، مع خسارتها في الحرب من خلال نشر كتاب تذكاري خاص. أما عائلة روزفلت فقامت بعرض المحور الملتوي من طائرة كوينتن التي أُسقطت في المعركة، في ساحة الشرف بمنزلها. وعندما وصلت صور مجهولة المصدر لجثته إلى منزله في «ساجمور هيل» تجاهلت العائلة حقد المرسل، وقامت بوضع صوره بطريقة جميلة في المجلدات التذكارية، وأرسلت نسخاً منها لأقربائه. واستمر بعض الآباء في الإشارة إلى أطفالهم المفقودين كما لو أنهم ما زالوا أحياء. فقد ذكر الجنرال أللنبي زوجته، عند تلقيه رتبه نبيل في 1919 تقديراً لجهوده خلال فترة الحرب، بأن ذلك هو «عيد ميلاد مايكل. لقد بلغ الحادية والعشرين اليوم»(24).

الحواشي

1. الأرقام والمعلومات المتعلقة بالخسائر الأمريكية يمكن إيجادها في كتاب إدوارد م. كوفمان، «الحرب لإنهاء كلّ الحروب: التجربة الأمريكية العسكرية في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، 1968)، ص. 363؛ انظر أيضاً كتاب هارفي أ. ديويرد، «الرئيس ويلسون يخوض حربه: الحرب العالمية الأولى والتدخل الأمريكي» (نيويورك: ماكميلان، 1968)، ص.392. بالنسبة للخسائر الفرنسية، انظر كتاب جين– جاكويز بيكر، «الحرب العظمى والشعب الفرنسي»، ترجمة: أرنولد بوميرانز (ليمنجتون سبا، إنجلترا: بيرغ، 1985)، ص. 330–331. وبالنسبة للخسائر الألمانية، انظر كتاب ريتشارد بيسل، «ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى» (أكسفورد، إنجلترا: مطبعة كلارندون،1993)، ص. 6، 9–10؛أيضاً كتاب

لورنس موير، «النصر يجب أن يكون حليفنا: ألمانيا في الحرب العظمى، 1914–1918» (نيويورك: هيبوكرين، 1995)، ص. 333–334، وكتاب روبرت والن، «الجروح المريرة: ضحايا الحرب العظمى الألمان، 1914–1918» (إيثاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، 1984)، ص. 38–43. فيما يتعلق بالخسائر البريطانية، انظر ج. م. وينتر، «الحرب العظمى والشعب البريطاني» (لندن: ماكميلان، 1986)، ص. 66–99؛ أيضاً كتاب دينس وينتر، «موت الرجال: جنود الحرب العظمى» (لندن: بنجوين، 1978)، ص. 254–261.

2. جي وينتر، «الحرب العظمى»، ص. 97؛ باربرا توشمان، «مدافع أغسطس» (نيويورك: ماكميلان، 1962)، ص. 439.
3. أدريان جريجوري، «الأجيال الضائعة: أثر الضحايا العسكريين على فرنسا ولندن وبرلين»، في كتاب «العواصم في زمن الحرب: باريس ولندن وبرلين،1914–1918»، تحرير: جي وينتر و جان- لويس روبرت (كيمبردج، إنجلترا: مطبعة جامعة كيمبردج، 1997)، ص. 69–71، 81 – 82.
4. مقتبس من مايكل بلز، «وليام أوزلر: حياة في الطب» (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1999)، ص. 397.
5. المصدر نفسه، ص. 424، 482.
6. ديفيد كندن، «الحرب والموت، الحزن والحداد في بريطانيا الحديثة»، في كتاب «مرايا الفناء: دراسات في التاريخ الاجتماعي للموت»، المحرر، جوشم ويلي، نيويورك: مطبعة مارتن ستريت،1981)، ص. 193. توماس أي كيسلمان، «الموت الحياة الآخرة في فرنسا الحديثة» (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1993، ص. 16–17، 24.
7. موير، «النصر»، ص. 166؛ أيضاً، صحيفة نيويورك تايمز، 26 يناير 26، 1916.
8. دينس وينتر، «موت الرجال: جنود الحرب العظمى» (لندن، منشورات بنجوين، 1987)، ص. 255؛ جريجوري، «الأجيال الضائعة»، في كتاب «العواصم»، تحرير: وينتر وروبرت، ص. 87.

9. فيرا بريتاين، «شهادة الشباب: دراسة سيرة ذاتية للأعوام 1900– 1925» (نيويورك: ماكميلان، 1933)، ص. 136، 142–143، 234.

10. فيما يتعلق بإنكار الأخبار، انظر كتاب جون هينتون، «الموت» (هارمند سورث، ميدلسكس، إنجلترا، منشورات بنجوين، 1967)، ص. 180.

11. ديفيد كندن، «الموت والحياة»، في كتاب «مرايا الفناء»، تحرير: ويلي، ص. 213.

12. بي. جي فلود، «فرنسا، 1914– 1918: الرأي الشعبي والمجهود الحربي» (هاوندميلز، باسنجستوك، هامشير، إنجلترا: ماكميلان، 1990)، ص. 91.

13. أدريان جريجوري، «صمت الذاكرة: يوم الهدنة، 1919 – 1946» (أكسفورد: بيرغ، 1994)، ص. 19.

14. جي وينتر، «مواقع الذاكرة، مواقع الحداد: الحرب العظمى في التاريخ الثقافي الأوروبي» (كيمبردج، إنجلترا: مطبعة جامعة كيمبردج، 1995)، ص. 108–110.

15. المصدر السابق.

16. مقتبس من بات جلاند، «الموت في العائلة الفكتورية»، (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1996) ص. 377–378.

17. مقتبس من كاندن، «الحرب والموت»، من كتاب «المرايا»، المحرر: ويلي، ص. 214.

18. إدوارد جي. رينهان، «الابن، كبرياء الأسود: ثيدور روزفلت وعائلته في السلم والحرب» (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد 1998)، ص. 198.

19. هربرت سلزباخ، «مع المدافع الألمانية: أربع سنوات على الجبهة الغربية، 1914–1918»، ترجمة: ريتشارد ثونجر (لندن: ليو كوبر، 1973،)، ص. 124،125، ص. 178.

20. كيث سمسون، «د. جيمس دان وصدمة القذائف»، في كتاب «مواجهة المعركة الفاصلة الكبرى: تجربة الحرب العالمية الأولى»، تحرير: هوف سيسل وبيتر لدل (لندن: ليو كوبر، 1996)، ص. 511.

21. هنري دي. لكلس، «رفقاء السلاح: مذكرات النقيب هنري دي. لوكلس في الحرب العالمية الأولى»، كونت دي ترافودال، تحرير: روي إي. ساندستورم؛ ترجمة: جاك أف. دبوا (كينت، أوهايو: مطبعة ولاية كنت، 1998) ص. 119–120.

22. مقتبس من أنتوني بروست، «في أعقاب الحرب: مقاتلو لي إنسز والمجتمع الفرنسي»، ترجمة: هياين ماكفيل، (مقاطعة، أر.أي: بيرغ، 1992)، ص. 21.

23. مقتبس من كندن، «الحرب والموت»، في كتاب «المرايا»، تحرير: ويلي، ص. 204.

24. بريان جاردنر، «أللنبي العربي: لواء لورنس» (نيويورك: كوارد ماكان، 1966)، ص. 233.

الفصل الرابع عشر

الهدنة وتسريح الجنود

وصلت الحرب إلى نهايتها في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح يوم الحادي عشر من نوفمبر 1918. كانت الحرب قد أثرت على جميع البلدان المتحاربة بطريقة أو بأخرى. ومثل هذه المشاركة العالمية في الحرب عنت أن ملايين المدنيين وملايين أكثر من الجنود رحبت بالهدنة باهتمام بالغ. إلا أن ذلك اليوم لم يختلف عن الأيام التي سبقته في ألمانيا الباردة المنهكة، حيث تزامنت الهدنة مع الثورة السياسية التي تشهدها البلاد آنذاك.

مثلما واجهت الحكومات الخطوة غير المسبوقة بحشد أعداد هائلة من الجنود لخوض الحرب، وجدت نفسها الآن في مواجهة مشكلة غير مسبوقة تمثلت في إعادة جحافل القوات الموزعة على الجبهات في نوفمبر 1918 إلى الديار. بالنسبة إلى الألمان والحلفاء على حد سواء، ازدادت الضغوطات لخفض حجم أنظمتهم العسكرية. وفي أعقاب الهدنة، كان الجنود يأملون بالعودة إلى ديارهم في أقرب وقت ممكن.

الهدنة

أدرك كل من قرأ الصحف في الأيام الأولى من نوفمبر أن كلا الجانبين يتبادلان رسائل تشير باتجاه مفاوضات الهدنة. ثم، وفي 7 نوفمبر، انتشرت شائعة بين المدنيين

والجنود على حد سواء تفيد بأن الحرب أوشكت على الانتهاء. انتشرت الشائعة، التي ربما تكون قد زرعت في مكاتب الاستخبارات الفرنسية على أيدي الألمان، على نطاق واسع وأدت إلى الاحتفالات الصاخبة، ولاسيما في أمريكا. وعندما تبين أنها خاطئة أو تضليلية، كانت خيبة الأمل قاسية. ومزق المحتفلون المحبطون في «تايمز سكوير» بمدينة نيويورك الصحف التي أعلنت عن الوضع الحقيقي وخربوا واجهات المحال التجارية في الجوار.

وفي الوقت نفسه، حث المارشال فردينان فوش، القائد الأعلى لقوات الحلفاء، القوات الفرنسية والبريطانية والأمريكية على مواصلة الهجوم. فتراجع الألمان في مواجهة هذا الهجوم النشط من قبل الحلفاء بصورة جيدة، وقاموا بتنفيذ انسحاب قتالي كلف العديد من الأرواح على كلا الجانبين. وكانت هناك إشارة لافتة للنظر إلى ازدياد الشعور بين الجنود الألمان بأن مهمتهم أصبحت عقيمة: فكلما تراجعت الوحدات الألمانية، كانت تترك خلفها أعداداً من الجرحى في المكان ليعالجوا من قبل الموارد الطبية المتفوقة التي تمكن الحلفاء من حشدها.

وكان قادة الوحدات على كلا الجانبين قد تلقوا أنباءً عن الهدنة الحقيقية في صباح اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر. وذكر في وقت لاحق النقيب هاري ترومان، قائد سرية مدفعية في الحرس الوطني لمدفعية الميدان، أنه تلقى أوامر بحجب الأخبار عن رجاله حتى تحين اللحظة الفعلية لوقف إطلاق النار. وأطلقت مدفعية سريته نيرانها الأخيرة قبل حلول الساعة الحادية عشرة بخمس عشرة دقيقة. كما واصل الكثير من الوحدات العسكرية عمليات نشطة وخطرة، وأصيب جنود قوات المشاة الأمريكية المهاجمة في غابة آرجون مثل الملازم أول فرانسيس أوستن من الفرقة 22 بجروح قاتلة في الساعات الأخيرة من الحرب. وفي هذه الأثناء، لاقى الجنود الألمان كجنود فرقة المشاة 425 الذين كانوا في تلك الساعة ما زالوا يعتبرون أعداء للقوات الأمريكية حتفهم في القتال. فشنوا في صبيحة يوم الهدنة هجوماً مضاداً ضد الوحدات الأمريكية التي عبرت «ميوز» قبل لحظات قليلة. ووصل أحد الضباط الألمان الشجعان إلى مسافة تبعد ياردات من خطوط القتال الأمريكية قبل أن تصرعه رصاصة في الرأس.

واصلت بعض الوحدات إطلاق النار حتى الدقيقة الأخيرة- وإلى ما بعد ذلك. وأصدر المتحمسون من كبار الضباط من الحلفاء أوامر صارمة بملاحقة العدو بقوة حتى تحين الساعة الحادية عشرة. كما فات بعض الوحدات المعزولة نبأ وقف إطلاق النار بشكل كامل. فقد اشتبكوا في قتال شرس، ولم يكن لدى قادتهم أي اتصال مع مؤخرة الجيش أو أي فرصة لقراءة الرسائل التي تصل. فواصلت هذه القوات هجومها العسكري ضد أعدائها حتى عندما سكتت المدافع في معظم الجبهات.

وهكذا، توقف القتال بطريقة غير مؤكدة ومشرذمة. ولكن صمت المدافع عند الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الاثنين كان إشارة لجميع الجنود على طرفي المنطقة المحايدة ليرفعوا رؤوسهم من الخنادق، بشكل مؤقت أولاً، ثم بثقة أكبر. وتحرك الكثير منهم على امتداد الأرض القاحلة التي تفصل الجانبين ليقابلوا أعداءهم السابقين وليتقاسموا المؤن والسجائر. وتلقى أحيانا الألمان الذين أرادوا إظهار الود واستجداء السجائر استقبالاً عدائياً. فقد لاحظ أحد مراسلي جريدة «ساتورداي إيفننغ بوست» الوحدات الأمريكية وهي تطلب من الألمان المغادرة على الفور. وأشار إلى أن «المزاج الأمريكي، في هذه اللحظة... التي لم تبرد فيها مدافع الأعداء بعد ولم يدفن موتاهم بعد، لم يكن من النوع الرقيق العاطفي الذي يحتضن عدواً كان يقاتله منذ زمن قريب»(1). وفي أكثر الأحيان، تقابل الطرفان بشكل سلمي، إن لم يكن بشكل حذر. كما قايض الجنود الأمريكيون المولعون بجمع التذكارات، السجائر وقطع الشوكولاتة بمسدسات الجيش الألماني.

نزل المدنيون في المدن الكبرى والقرى الصغيرة الممتدة من فرنسا إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة مروراً بأستراليا ونيوزيلندا إلى الشوارع احتفالاً بالهدنة. كما تمتع أطفال المدارس في كل مكان بعطلة. وكان سكان باريس قد تلقوا إشارة مبكرة بشأن انتهاء الحرب. وفي المساء الذي سبق الهدنة، أصدرت الشرطة الأوامر بإزالة الطلاء الأزرق - الذي كان يستخدم للتمويه ضد الهجمات الجوية- عن مصابيح شوارع المدينة. وفي 11 نوفمبر، رقص سكان العاصمة الفرنسية في قلب المدينة. واستدعى بعضهم، تكريماً لحلفائهم الأمريكيين، أفضل من يتحدثون اللغة



موكب الانتصار الفرنسي، 1919. بموافقة محفوظات «معهد هوفر»

الإنجليزية لينشدوا أغنية «يانكي دودل داندي» التي كان يُعتقد على نطاق واسع من قبل الفرنسيين أنها النشيد الوطني الأمريكي.

وفي لندن، دوت أجراس «بيج بن» للمرة الأولى منذ صيف 1914. كما ملأت الجماهير المبتهجة «ميدان ترافلجار» لإقامة احتفال صاخب دام ثلاثة أيام. ووصف في وقت لاحق أحد الجنود البريطانيين العائدين من فرنسا إلى الوطن المشهد هناك: «رقصت الجماهير في حلقات دائرية طوال الليل، وهم ينشدون أغنية Knees Up Mother Brown وأغنيات أخرى من التراث الإنجليزي. واستولى الجمهور، وهم يصيحون، على حافلات الركاب العمومية الكبيرة... وأخذوا يرشقون بعضهم بعضاً، ابتهاجاً، بخوذات رجال الشرطة»(2).

بدأ الاحتفال الأمريكي على الساحل الشرقي في وقت مبكر من الصباح. حيث أضاءت السلطات تمثال الحرية لأول مرة منذ دخول البلاد الحرب، واحتشدت المواكب المرتجلة بآلاف الجماهير ذلك اليوم. وعلى الساحل الغربي، وصل نبأ الهدنة الوشيكة قرابة منتصف الليل، وبدأت الاحتفالات الأولى في جنح الليل. وترك عمال

بناء السفن في «لونغ بيتش»، في كاليفورنيا، الوردية الليلية للانضمام إلى موكب النصر.

كما تلقى بعض الأمريكيين الشبان الذين جُنّدوا في الجيش في صبيحة 11 نوفمبر أمر التسريح من الخدمة في غضون ساعات. وأمر الصناعي هنري فورد مصانعه التوقف عن الإنتاج الحربي فوراً والبدء بإنتاج الجرارات التي ستدعو الحاجة إليها في اقتصاد زمن السلم. وفي ذلك المساء، كان مغنيا الأوبرا إنريكو كاروز ولويز هومير، يؤديان أوبرا «شمشون ودليلة» في «دار أوبرا متروبوليتان» في نيويورك، فظهرا خلال فترات الاستراحة ليغنيا النشيد الوطني للدول المنتصرة.

وكانت الصلاة بالنسبة للكثيرين في تلك الدول المنتصرة، سواء الرسمية أم التلقائية، هي التجاوب الملائم مع تلك الأخبار. ففي إنجلترا، أقامت كاتدرائية «برمنغهام» ثلاثة طقوس دينية خاصة أثناء النهار. وعلى الجانب الآخر من الأطلسي، جمعت أفانجيلاين بوث، زعيمة منظمة «جيش الإنقاذ» الخيرية، 400 من أعضاء منظمتها على درجات مكتبة نيويورك العامة لتتلو صلوات الشكر لله لوضع الحرب أوزارها.

وفي ألمانيا، وصلت أنباء الهدنة إلى السكان الذين كانوا في حالة عقلية مكتئبة ومضطربة. فقد اعترفت الحكومة بالهزيمة، ووجدت البلاد نفسها في خضم ثورة سياسية قائمة. وأشعل تمرد البحارة في أسطول أعالي البحار الاضطرابات السياسية في صفوف الجيش والسكان المدنيين على السواء. فـ «مجالس الجنود»[1] باتت الآن تقود الكثير من الوحدات العسكرية، وأتاحت إطاحة النظام الملكي الفرصة لميلاد حكومة جمهورية هشة. وعلى الصعيد المحلي، بادرت مجالس العمال– أو مجالس الجنود والعمال في بعض الأحيان– إلى تولي زمام السلطة.

لم يكن هناك شيء يذكر في برلين سوى أعمال عنف متفرقة. لكن الوحدات العسكرية المتمردة التي حملت شارات حمراء تحدت الحكومة الجديدة، وأظهرت الرايات الحمراء التي ترمز إلى الثورة في كل مكان. ولاح خطر اندلاع الحرب الأهلية

(1) المجلس التنفيذي يتكون من مجلسين أحدهما للعمال والآخر للجنود. أسس عام 1918 وتولى إدارة شؤون البلاد في ألمانيا حتى موعد الانتخابات.

في الأفق، ولم تكن العاصمة الألمانية هي المكان الذي تجد فيه مظاهر الابتهاج الواضح كما في لندن وباريس ونيويورك. فقد كان سكان برلين مثقلين بالبرد والإرهاق والجوع جراء الحرب. وكانت مواصلة الروتين العادي هي كل ما استطاع معظم سكان برلين القيام به، وفي 11 نوفمبر «عاد معظم الألمان إلى العمل في حين كان العالم يعيش ثورة من الابتهاج»(3). وبقيت المتاجر مفتوحة للتجارة، وعملت وسائل النقل العام حسب جدول المواعيد العادي. وعلقت الأميرة إيفلين بلتشر، زوجة أحد النبلاء الألمانيين الإنجليزية الأصل، أثناء يوم الهدنة على «الطريقة المنضبطة والمنظمة التي نُظمت بها ثورة بمثل هذه الأبعاد، مع أقلّ قدر ممكن من الخسائر في الأرواح حتى الآن»(4).

بالنسبة إلى جميع سكان البلاد المدنيين، عكرت ذكرى الأحباء الذين لقوا حتفهم في الصراع جو الفرح بسماع نبأ الهدنة. ولم تتح الفرصة لبعض العائلات لاستيعاب خبر انتهاء القتال؛ إذ استمرت الأنباء المقيتة في الوصول حتى يوم 11 نوفمبر. ففي «شروسبوري» بإنجلترا، تلقى والدا الشاعر ويلفرد أوين، وهو ضابط بريطاني كان قد قُلد وسام الإمبراطورية البريطانية، برقية عند الظهيرة، بعد ساعة واحدة من الأخبار الطيبة بنهاية الحرب، معلنة موته في القتال قبل أسبوع بالضبط من نهاية الحرب.

رحّب بعض الجنود المقاتلين على الجبهة الغربية بوصول ساعة الهدنة بتلاوة صلوات الشكر التي اكتنفها الإرهاق والشعور بالراحة، ورحب آخرون بها بهتافات النصر. ولكن الهدوء كان أول ما لاحظه الجميع: فقد توقفت نيران المدفعية التي أعطت الحرب الكثير من طابعها الرهيب. وتذكر أحد المجندين من سلاح المدفعية هذه اللحظات قائلا: «حينئذ سكن كل شيء. ولم يكن هناك أي صوت يُسمع. لقد كان ذلك الشعور الأغرب في حياتي». وأشار بالمثل ضابط أمريكي كان قد قاد وحدة مدفعية «كان الصمت ثقيل الوطأة، وكان له رنين في الأذن»(5). ولاحظ الجميع تغيراً آخر جاء مع حلول المساء. فقد أشعلت المركبات مصابيحها الأمامية، كما أُشعِلت نيران المعسكرات بحرية. وفي المساء نفسه، فجرت القوات الألمانية كميات كبيرة من القنابل المضيئة والصواريخ. وكان الألمان يدمرون الإمدادات الحربية التي لم يستطيعوا

حملها إلى الوطن ولم يرغبوا في تسليمها إلى الحلفاء، محتفلين بذلك بنهاية الحرب إلى حد ما.

تسريح الجنود

من المفارقة، أن الخاسرين في الحرب كانوا أول من رأوا وطنهم. فقد نصت بنود الهدنة على الانسحاب الألماني السريع من الأراضي الأجنبية. وقبل فترة طويلة من رجوع جحافل الأمريكيين أو الإنجليز لوطنهم كان الجيش الألماني على الجبهة الغربية بكامله قد غادر الأراضي التي احتلها، وعبر الحدود الفرنسية أو البلجيكية ودخل ألمانيا.

كان الأمريكيون المنتصرون في الحرب من أغنى الدول وأقلها تضرراً من الحرب على الجانب المنتصر، ولكنهم كانوا بعيدين عن وطنهم ويفتقرون لوسائل نقل الأعداد الكبيرة عبر المحيط الأطلسي. ولذلك كانت هناك في الغالب مدة انتظار طويلة قبل أن يرى الجنود وأسرهم بعضهم بعضاً مرة أخرى. وفي هذه الأثناء، كان معظم الجنود الألمان يعاودون الانخراط في الحياة المدنية.

لم يكن الأمر يتطلب رحلة طويلة لوصول معظم القوات البريطانية والفرنسية في الخارج إلى أوطانهم. ولكن الحكومات كانت لا تزال تواجه صعوبة في مسألة إيجاد أفضل السبل لصرف الملايين من الجنود من الخدمة العسكرية. وقد احتاجت كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية إلى إعادة الاستقرار لاقتصادهما الذي مزقته الحرب- كما احتاج الفرنسيون إلى إصلاح الدمار الهائل الذي وقع أثناء الحرب. هل تكون الأولوية لتسريح الجنود الذين يمتلكون مهارات اقتصادية يمكن أن تكون مفيدة في العالم المدني؟ أم يجب السماح للجنود بخلع زيهم العسكري بناءً على المدة التي خدموها؟ وكانت الإضرابات وغيرها من الاضطرابات في صفوف القوات المسلحة البريطانية والفرنسية المتبقية توبيخاً لأولئك القادة الذين اختاروا سياسة لا تحظى بشعبية مع الجنود.

الأمريكيون

عاد بعض الجنود الأمريكيين لوطنهم فوراً. ولم يحصل العائدون المتأخرون الذين اقتربوا من ساحل فرنسا عند التوقيع على الهدنة على إذن بالهبوط؛ ووجدوا بدلاً من ذلك، أن وسائل نقلهم استدارت واتجهت غرباً للولايات المتحدة. ولكن عبر ما يقرب من ربع مليون في الجيش الأمريكي الثالث الذي شُكل حديثاً، إلى فرنسا وبلجيكا في أعقاب تراجع القوات الألمانية، ودخلوا في الأول من ديسمبر إلى ألمانيا الغربية لتولي مهمات الاحتلال في مدن مثل «تراير» و«كوبلنز»(6).

رفض وزير الحرب نيوتن بايكر على الفور طلباً فرنسياً لاستخدام الجنود الأمريكيين للمساعدة في أعمال إعادة الإعمار. وبالتالي، وجد الجنود الأمريكيون في أوروبا أنفسهم قد أُبقوا وأُشغلوا في تدريبات ودورات تدريبية مصطنعة. ومع ذلك، وجد الجندي الأمريكي العادي الآن صعوبة أكبر في تقبّل قواعد الانضباط العسكري أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من أنه كان محاطاً بأعداد غير مسبوقة من رجال الشرطة العسكرية. وفي مستهل 1919، شدد الجيش على إنشاء برنامج رياضي شامل لامتصاص الطاقة الزائدة. كما التحق ضباط وجنود أمريكيون على حد سواء بجامعات بريطانية وفرنسية وذلك برعاية «جمعية الشبان المسيحيين»، وأنشئت جامعة خاصة للقوات المسلحة الأمريكية في «بيون» بفرنسا. وعمل ضباط من الجيش مثل المقدم تيودور روزفلت الابن، والذي كان يحدوه بعض الأمل في التصدي لحالة الضجر وانخفاض الروح المعنوية، على إنشاء منظمة للمحاربين القدامى في فترة ما بعد الحرب. وقد حددت رابطة المحاربين القدامى المستقبلية مبادئها وأصولها في مؤتمر للضباط عقد في باريس في فبراير 1919 أعقبه اجتماع موسع لكل من الضباط والمجندين في مارس.

في عامي 1917 و1918، عبر معظم الأمريكيين المحيط الأطلسي في سفن بريطانية. أما الآن فالسفن البريطانية باتت مشغولة في إعادة القوات البريطانية، التي كان معظمها من فرنسا وبعضها الآخر في أجزاء بعيدة من العالم. وكانت السفن تحمل أيضاً قوات من مناطق نائية من الإمبراطورية مثل أستراليا. وبالتالي، كان على الجنود الأمريكيين

الانتظار حتى يتم إيجاد مكان لهم على متن سفينة أمريكية، مدنية أو عسكرية. وعاد بعضهم على متن سفن شحن تم تحويلها لنقل الجنود، وحشر بعضهم على متن سفن حربية.

أدت أخبار تلقي إحدى الوحدات الأمريكية الأوامر بالعودة للوطن إلى احتفالات صاخبة، كانت توازيها صخباً احتفالات قبيل المغادرة فعلياً. وعند وصول الجنود إلى الأرض الأمريكية، واستعدادهم للخروج من الخدمة العسكرية، كانت تقام العروض العسكرية الاحتفالية. وقد أقيم أكثر من 500 عرض بنهاية يونيو 1919. وصل كما تمنى الكثيرون فيلق المشاة 165، الذي كان يعرف سابقاً بالفيلق المقاتل 69 من الحرس الوطني التابع لنيويورك والذي كان يتألف من جنود من أصول أيرلندية، متأخراً للعرض في في يوم عيد القديس باتريك. ولكن في أواخر أبريل سارت هذه الوحدة من فرقة «راينبو 42»، بمسيرة لا تُنسى بالعتاد الحربي الكامل والخوذات من الطرف الجنوبي لمانهاتن إلى الشارع 110. وبعد أربعة أشهر، غادرت الفرقة الأولى الوحيدة المتبقية من الفرق المقاتلة الأمريكية في أوروبا، فرنسا، عائدة إلى بلادها. ومع أن هؤلاء الجنود هم آخر من عادوا للوطن، فقد كانوا أول الواصلين من القوات المسلحة الأمريكية إلى ساحات القتال قبل صيفين.

في الفترة ما بين بداية التهدئة ومنتصف أبريل 1919، صرفت القوات الأمريكية المسلحة ما متوسطه أربعة آلاف جندي يومياً. وكان جندي واحد فقط من كل خمسة من صفوف الجنود الموسعة في زمن الحرب لا يزال في الخدمة بحلول منتصف صيف 1919، وبالكاد بقي مائة ألف جندي في ألمانيا. وبحلول الخريف، انخفض العدد هناك إلى أحد عشر ألفاً فقط. وقد أعطى الجيش الأمريكي المتقلص بسرعة كبيرة كل جندي يُسرّح من الخدمة ستين دولاراً وتذكرة للعودة لبلاده من مركز تسريحه. كما أنه حصل على تصريح بالاحتفاظ بزيه العسكري ومعطف وزوج من الأحذية. وقد عرضت الكثير من الأسر الأمريكية في فترة ما بعد الحرب الخوذة والقناع الواقي من الغاز الذي كانت تمتلكه أمام العيان. كما عُرضت أيضاً تذكارات الخدمة العسكرية والتي سمح للجنود الذين خدموا في الخارج بالاحتفاظ بها.

الألمان

بدأ تسريح الجنود الألمان حتى قبل الهدنة. وبحلول صيف 1918، تراجعت حظوظ الألمان العسكرية بشكل واضح، وتجنب عشرات الآلاف من الجنود العودة إلى الخدمة بعد تلقيهم إجازة في بلادهم. وتظاهر آخرون بالمرض أو تعمدوا إضاعة قطعة من عتادهم للحيلولة دون عودتهم لوحداتهم. كما شهدت الأحياء المحيطة بمحطة السكك الحديدية حوادث عنف وتخريب للمحلات عندما كان الجنود يطلقون النار من أسلحتهم(7).

كانت بنود الهدنة قد منحت ألمانيا خمسة عشر يوماً لسحب قواتها من فرنسا وبلجيكا ولوكسمبورغ وكذلك من الألزاس واللورين. ومع إعطاء أوامر وقف إطلاق النار، تلقت بعض الوحدات الألمانية المتخصصة في مجالات الهندسة وتشييد الجسور تعليمات لبدء المسير للوطن فوراً. وسَرّح آخرون أنفسهم بسرعة وبطريقة دراماتيكية على الفور. و قبل حلول الساعة الحادية عشرة مباشرة، عبرت القوات الألمانية التي كانت بالقرب من الحدود الهولندية الحدود إلى هولندا المحايدة ملقية أسلحتها على الجانب الألماني من الحدود.

وأشار ظهور «مجالس الجنود» إلى الإطاحة الجزئية بسلطة الجيش. فقد اضطر الجنرال هيرمان فون كول، القائد الأعلى في «سبا»[1]، للحصول على تصريح مرور من هؤلاء الجنود المتمردين للدخول إلى مقر قيادته الخاصة. وخلال الانسحاب من أنتويرب، هاجم جنود سكارى بعض الضباط. كما مُزقت «الكتفيّة»[2]، وهي من الرموز الجلية لسلطة الضابط، وقُدّمت لعاهرات محليات.

تراجعت معظم الوحدات بتنظيم جيد تحت سيطرة ضباطهم، حتى لو كان هؤلاء القادة قد نزعوا شارات الرتب. ودعت توجيهات الجيش إلى قطع ما بين خمسة عشر وخمسة وعشرين ميلاً في اليوم. وعلى خلاف التقدم غرباً في 1914، لم تكن هناك قطارات لنقل القوات الألمانية. وكان الإيفاء بالجدول الزمني الذي فرضته قوات

(1) تعرف باسم مدينة فيسبادن، وهي منتجع صحي وموطن للكثير من الأثرياء الألمان.

(2) الشارة التي يضعها الضابط على كتفه والتي تعلن عن رتبته.

الحلفاء يعني مسيرة منهكة تمتد لاثنتي عشرة ساعة، وقد تحركت الوحدات شرقاً خلال ساعات النهار وفي الليل أيضاً. وفي النهاية، استغرق الأمر نحو ستة أسابيع لوصول السواد الأعظم من القوات المسلحة إلى الوطن من الجبهة الغربية، وذلك بوصول آخر الفرق في منتصف يناير 1919. وعلى الرغم من أن معظم الجنود سافروا مع وحداتهم، إلا أن ما لا يقل عن واحد من كل ثلاثة غادر بمفرده ليعود لوطنه بطريقته الخاصة.

أنهى هربرت سلزباخ حربه في بلجيكا، وفي اليوم التالي بعد الهدنة رأى البلجيكيين يرفعون علم بلادهم ساخرين من القوات الألمانية المحتلة. وقرع الشعب البلجيكي الأجراس المحلية ترحيباً بالقوات الفرنسية التي كانت تتحرك خلف الألمان المنسحبين. وعبّر سلزباخ عن فكرة أن الكثير من الألمان كانوا محظوظين بما فيه الكفاية لنجاتهم من المحنة على الجبهة الغربية: «تغمرك مشاعر السعادة وأنت تعود للوطن سالماً وامتنان لا يوصف كذلك لأنه في كل هذه السنوات وفي كل تلك المعارك والأحداث التي لا تعد ولا تحصى، لم يصبني شيء على الإطلاق»(8).

ولاقت الوحدات التي دخلت الأراضي الألمانية في نوفمبر ترحيباً حاراً في مواقع كثيرة يرافقه رفع للأعلام على المنازل وبين الحشود المبتهجة المهللة. وقُدّمت للجنود أكاليل الزهور والطعام والسجائر. وفي مدينة فرانكفورت، كان مائة ألف مواطن في استقبال فرق العائدين من الجيش الخامس. وسجل سلزباخ ما رآه أثناء سيرهم في شوارع بون قائلاً: «اكتظت الشوارع الضيقة بالمدنيين الذين هتفوا لنا كثيراً». و بينما كنا نتوجه شرقا من قرية إلى قرية، « تلقينا ترحاباً مفرحاً في كل مكان ، لاحقنا كل الأطفال القرويين وأخذونا إلى القرية التالية»(9). وفيما بدا أنه أمر تلقائي، شُجعت التظاهرات المدنية من قِبل هيئات رسمية مثل وزارة الحرب البروسية «لجعل يوم عودتهم إلى أرض الوطن ذكرى دائمة للجنود»(10). ولكن كان الاستقبال في بعض المدن وخصوصاً في البلدات والقرى الصغرى صامتاً. فقد لاحظ أحد الجنود أثناء سيره مع فيلقه في كولونيا الجموع الصامتة والنظرات غير المبالية من قبل قادة الحكومة الثورية الجديدة في المدينة. وفي خضم الاستقبالات الاحتفالية، لاحظ سلزباخ نساء محليات يذرفن الدموع لتذكر الأبناء والأزواج الذين لن يعودوا.

خططت السلطات الألمانية العسكرية لعملية تسريح منظمة للقوات المسلحة. وكان على الجنود المسير مع وحداتهم إلى موقعهم العسكري في بلادهم، وهناك يُسرّحون من الخدمة. وكان كبار السن أول من عاد للحياة المدنية، ومن بينهم العمال الذين اعتبروا ضروريين من الناحية الاقتصادية، مثل عمال مناجم الفحم الذين حظوا بأولوية كبيرة. وكان كل جندي سابق يحصل على ملابس مدنية وعلى المال الذي يحتاج إليه ليعود لوطنه. وأخيراً، كان من المتوقع أن يقدم الجيش مكافأة قدرها 50 ماركاً، وهي تقريباً ما كان يحصل عليه عامل مدني في أسبوع.

كانت الإجراءات تسير أحياناً على ما يرام، وانخرط الكثير من الجنود في الحياة المدنية بالشكل الذي أرادته السلطات. في أحيان كثيرة، كان النظام ينهار أو يتم تجاهله. فقد تفرقت بعض الوحدات بمجرد عبورها الحدود الألمانية مباشرة. والكثير من الوحدات التي بقيت سليمة فعلت ذلك لأن أفرادها اعتمدوا على النظام العسكري في الطعام والأجور. كما قام بعض الجنود ببيع أسلحة للمدنيين وبنهب المتاجر المحلية للحصول على ملابس مدنية. كما قام بعض الضباط بشكل فردي بصرف جنودهم وإرسالهم إلى أقرب محطة للسكة الحديدية ليشقوا طريق العودة إلى الوطن بطريقتهم الخاصة. كما أقامت مجالس الجنود مكاتب لصرف الجنود من الخدمة، وإعادة أعداد هائلة من الرجال إلى الحياة المدنية. وسرعان ما امتلأت المدن الكبرى مثل برلين بالجنود السابقين المتجولين، العاطلين عن العمل والمليئين بالأمراض.

ولكن كان هناك الكثير من المحاربين الذين لم ينخرطوا في الحياة المدنية في هذا الوقت. فقد أنهى مئات الآلاف من الألمان الحرب كأسرى، بعد أن وقع الكثير منهم في أيدي الحلفاء أثناء الانسحاب الألماني الأخير في 1918. وكان أكثر أسرى الحرب الألمان حظاً هم من عادوا فقط في خريف 1919، بعد عام على الهدنة. وأُلحق هؤلاء الجنود، الذين أطلقوا من الأسر البريطاني والأمريكي، بنظرائهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية الذين وضعوا للعمل في مشاريع إعادة الإعمار. لقد رأى هؤلاء الجنود ألمانيا مرة أخرى في الأشهر الأولى من 1920. وفي جميع هذه الحالات، قامت الحكومة بتنظيم المهرجانات احتفالاً بعودتهم.

الفرنسيون والبريطانيون

سرعان ما علم الجندي الفرنسي أنه سيُسرّح من الخدمة العسكرية بناءً على عمره، والمدة التي أمضاها في الخدمة، ومدة تجربته في القتال. وبشكل عام، فإن الذين تجندوا أولاً سيتم تسريحهم أولاً. وربما كان ذلك الجندي ممتناً للحكومة لرفضها الدعوة التي وجهها قادة اتحاد العمال الفرنسي باستخدام معيار مختلف. فقد جادل قادة الاتحاد دون جدوى لتسريح الجنود استناداً إلى احتياجات البلاد الاقتصادية. وفي مثل هذا المخطط، سيحظى الجندي الذي يمكن أن يقدم مساعدة أساسية لإنعاش اقتصاد البلاد بأولوية كبيرة في التسريح من الخدمة العسكرية بغض النظر عن طول الفترة الزمنية التي قضاها في الجيش(11).

ومع ذلك، أخمدت فرنسا الضربة الاقتصادية التي قد تنشأ من تسريح واسع النطاق للجنود وكفلت لنفسها جيشاً كبيراً حتى تم توقيع اتفاق السلام. بعدئذ بدأت بتنظيم سلسلة من المواعيد المتعاقبة لتسريح رجالها من الخدمة العسكري. وبدأت في أوائل ديسمبر، بتسريح الجنود الذين تتراوح أعمارهم بين الخمسين والاثنين والخمسين. وفي كل عشرة أيام، سُمح للمجموعة الأصغر سناً التالية بالعودة إلى الديار. وبحلول مطلع أبريل، عاد إلى الحياة المدنية نصف الجنود الذين تجاوزت أعمارهم اثنتين وثلاثين سنة، أي أكثر من مليوني جندي. وتعين على الجنود الأصغر سناً الانتظار حتى تم توقيع اتفاق السلام في يونيو 1919 قبل أن يتم تسريحهم، ووصل آخرهم إلى الديار في أكتوبر، بعد قرابة عام من الهدنة.

بدايةً تلقى الجنود البريطانيون أخباراً مختلفة، وبالنسبة للكثيرين، كانت أخباراً أكثر إحباطاً(12). إذ تطلعت الحكومة أولاً إلى الانتعاش الاقتصادي، وسرحت الجنود الذين يمكن أن يحدثوا مساهمة جوهرية لإعادة الصناعة إلى ما كانت عليه في زمن السلم. وكانت الحكومة تأمل في اتباع خطة معقدة أعطت الأولوية القصوى للتسريح من الخدمة العسكرية لأولئك المفيدين اقتصادياً. كما حصل الجنود الذين تم اختيارهم للخدمة في مراكز التسريح على الأفضلية الأولى. ثم يلي هؤلاء «الجنود المحوريون»، أي الجنود الذين كانت خدماتهم أساسية للتحول الاقتصادي القادم. وبعد توقف

القتال مباشرة، جعل تعديل سريع للخطة من عمال مناجم الفحم الفئة الأكثر جوهرية التي يجب إعادتها إلى الحياة المدنية. وفي غضون يومين بعد الهدنة، بدأ شمل عمال مناجم الفحم يجتمع مع أسرهم وبدأوا باستئناف أعمالهم السابقة. ودخل الآلاف الحياة المدنية من جديد بحلول بداية ديسمبر.

استطاعت الحكومة أن تبرهن أن السياسة التي اتبعتها في تسريح الجنود أحدثت تفهماً جيداً في البلاد. إذ أن تسريح أعداد كبيرة من الجنود من الخدمة العسكرية بشكل عشوائي لن يؤدي إلا إلى تضخم البطالة. ومن ناحية أخرى، فإن صرف الجنود المستهدفين من الخدمة سيحفز الصناعة ويخلق فرص عمل للجميع. كما كانت الحكومة مستعدة، ولكن فقط ضمن إطار التصنيفات الموضوعة، لتفضيل الجنود المتزوجين، والجنود الذين خدموا لفترات طويلة، وأولئك الذين خاضوا قتالاً طويل الأمد.

ولكن الخطة كانت هدفاً سهلاً للانتقاد. وهذا يرجع إلى أمر واحد، وهو أنها كانت بطيئة ومعقدة، وتتطلب تصنيف ملايين الجنود ضمن واحدة من اثنتي عشرة فئة بالنسبة للضباط أو ضمن واحدة من ثلاث عشرة فئة للمجنّدين. والأهم من ذلك، وبالنسبة للجندي العادي، كانت هذه الطريقة شديدة الإجحاف. إذ أن الجندي الذي خدم عدة سنوات في الخنادق كان يتعين عليه انتظار الجنود الذين تم تجنيدهم في نهاية الحرب، والذين طالما تم تأجيل تجنيدهم بسبب وظائفهم، والذين كانوا في أوائل صفوف العائدين إلى الحياة المدنية مرة أخرى. كما حظي الجندي الذي كانت لديه المقدرة على تدبير عمل قبل تسريحه بأولوية على جندي آخر أقل حظاً أو من أسرة غير مرموقة. بل كانت هناك أخبار أكثر سوءاً للجنود البريطانيين العاملين في وحدات الإمداد والنقل؛ فقد علموا أنهم أقل أولوية في العودة إلى الحياة المدنية. حيث كان عملهم مطلوباً لدعم الوحدات المتبقية من الجيش.

أظهر الجنود سخطهم بطريقة مخيفة. فقد تعرضت القطارات المغادرة للتخريب، بل إن عمال المناجم الذين تمتعوا بامتيازات تحدوا انضباط الجيش في طريق عودتهم إلى الديار. ودفع التهديد بالإضراب– الذي يمثل بحد ذاته علامة على الانضباط الهش–

في وحدات الإمداد والنقل في «لي هافر» في أوائل يناير 1919، القادة العسكريين للسماح للجنود في بعض التخصصات ليتم تسريحهم. وفي الشهر نفسه، نظم الجنود تظاهرات في شاحنات تابعة للجيش بالقرب من المراكز الحكومية في لندن. ورفعوا لافتات كتب عليها شعارات مثل: «لقد ربحنا الحرب. أعطونا تذاكرنا» و«نريد ارتداء الزيّ المدني»)، وقد ساعدت هذه المظاهرات واللافتات على إجبار قادة البلاد السياسيين على تغيير النهج المتبع.

حصل الجنود البريطانيون بعدئذ على التسريح من الخدمة استناداً إلى المدة التي قضوها في الخدمة العسكرية. وصُنف الجندي الذي أصيب على الأقل ثلاث مرات في الحرب، في منزلة عليا على قائمة الأولوية بغض النظر عن المدة التي قضاها في الخدمة العسكرية. وكانت لا تزال هناك حاجة لزهاء 900 ألف جندي للقيام بمهمة احتلالية في غرب ألمانيا، ولكن الجنود المتبقين البالغ عددهم 2،6 مليون جندي حصلوا على تسريحهم من الخدمة بخطى سريعة، إذ استبدل عشرة آلاف جندي يومياً زيهم العسكري بالزي المدني. ومع ذلك، استغرق نقل معظم الجيش ليعودوا إلى الحياة المدنية ما يقارب العام. وتلقى الجنود مكافأة إنهاء الخدمة و تذكرة عودة إلى الديار، بالإضافة إلى علاوة تسريح خاصة، وصلت إلى 40 جنيهاً استرلينياً. واشتملت فوائد التسريح من الجيش على إعانة بطالة؛ ولم يكن يتعين على الجندي أن يساهم بجهد للحصول عليها، وسدت هذه الإعانة حاجاته لمدة عشرين أسبوعاً خلال العام الذي تلا تركه للخدمة العسكرية. وكان القليل من أولئك المحظوظين بما فيه الكفاية للعودة إلى الوطن بحاجة إلى تلك الإعانة، نظراً لأنهم وجدوا اقتصاداً مزدهراً بشكل مؤقت مع فرص عمل وفيرة.

تلاشى الازدهار قصير الأمد الذي شهدته بريطانيا بعد الحرب مع بداية 1920 ليفسح الطريق أمام عقود من الركود والبطالة. وفي ألمانيا، استقرت جيوش الاحتلال التابعة للحلفاء على الضفة اليسرى من نهر الراين، فضلاً عن ثلاث مناطق واسعة شرقي النهر. وفي غضون ذلك، كانت الثورة الألمانية السلمية نسبياً في نوفمبر 1918 باعثاً على الحرب الأهلية الدموية.

كما كانت الصعوبة الاقتصادية التي تواجه إحدى البلدان المنتصرة في الصراع إشارة إلى الإرث المثير للقلق الذي خلفته الحرب الكبيرة. وكذلك الأمر بالنسبة للاستياء العميق من تواجد قوات أجنبية على الأراضي الألمانية. وأخيراً، كان هناك الثوران السياسي الداخلي الذي هز ألمانيا بقوة، الخاسر الرئيس في الحرب. وقد أشارت هذه الظروف مجتمعة، إلى مستقبل مظلم ومرير.

الحواشي

1. مقتبس من ستانلي داينتروب، «سكون يعمّ العالم: نهاية الحرب العظمى، نوفمبر 1918» (نيويورك، أ. ب. داتون،1985)، ص.207.

المصدر نفسه، ص. 265.

2. لورانس موير، «النصر يجب أن يكون حليفنا: ألمانيا في الحرب العظمى، 1914–1918» (نيويورك، منشورات هيبوكرن، 1995)، ص. 313.

3. مقتبس من واينتروب، «سكون»، ص. 400.

4. المصدر نفسه، ص.202، 204.

5. فيما يتعلق بالتسريح الأمريكي، انظر إدوارد م. كوفمان، «الحرب لإنهاء كل الحروب: التجربة العسكرية الأمريكية في الحرب العالمية الأولى» (نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، 1968)، ص. 365–369؛ أيضاً بيرون فارويل، «إلى هناك: الولايات المتحدة في الحرب العظمى، 1917–1918» (نيويورك، نورتن، 1999)، ص. 267–272، 285–288.

6. فيما يتعلق بالتسريح الألماني، انظر ريتشارد بسل، «ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى» (أكسفورد، مطبعة كلارندون،1993)، ص. 69–90؛ أيضاً موير، «النصر يجب أن يكون حليفنا»، ص. 329–336.

7. هربرت سلزباخ، «مع المدافع الألمانية: أربع سنوات على الجبهة الغربية، 1914–1918»، ترجمة: ريتشارد ثونجر (لندن، ليو كوبر، 1973)، ص. 250.

8. المصدر نفسه، ص. 245.

9. مقتبس من بسل، «ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى»، ص. 84.
10. فيما يتعلق بالتسريح الفرنسي، انظر جوشا كول، «الإنتقال إلى السلام، 1918–1919»، في «العواصم في زمن الحرب: باريس، لندن، برلين، 1914– 1918»، تحرير: ج. وينتر وجان– لويس روبرت(كيمبردج، إنجلترا، مطبعة جامعة كيمبردج، 1997)، ص. 209–210، أيضاً، جون هورن، «العمال في الحرب: فرنسا وبريطانيا، 1914–1918» (أكسفورد، مطبعة كلارندون، 1991)، ص. 355–357.
11. فيما يتعلق بالتسريح البريطاني، انظر ستيفن ريتشاردز جيربارد، «التعبئة العسكرية في بريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى»، مجلة التاريخ الحديث 19، العدد 4 (1947)، ص. 297–311؛ أيضاً هورن، «العمال في الحرب»، ص. 355–357.
12. فيما يتعلق بالتسريح البريطاني، انظر ستيفن ريتشاردز جيربارد، «التعبئة العسكرية في بريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى»، مجلة التاريخ الحديث 19، العدد 4 (1947)، ص. 297–311؛ أيضاً هورن، «العمال في الحرب»، ص. 355–357.

ببليوغرافيا مختارة

WRITING ABOUT THE WAR

More than eight decades have passed since the war's conclusion, but the examination of this grandiose and horrifying event continues. New directions in research and new controversies make clear how this complex subject continues to fascinate. There follows a consideration of only a few of the many paths historians have taken.

Did Europeans go to war enthusiastically, even joyfully? The pictures of frenzied crowds bidding farewell to soldiers leaving for the front seem to confirm that many welcomed the war. Recent scholarship has presented a more nuanced picture. The research of Jean-Jacques Becker indicates that, at least in rural France, people greeted the war—and went on to bear it—as a harsh duty forced upon them. Jeffrey Verhey has presented a subtle picture of Germans at many social levels reacting ambiguously to the outbreak of the conflict.[1]

Books of comparative social history, tapping the talents of many specialists, have allowed us to see the various belligerent peoples side by side as they coped with problems ranging from mobilizing their young men to heating their homes. The outstanding works in this genre are Richard Wall and Jay Winter's *Upheaval of War* and Jean-Jacques Becker and Jay Winter's *Capital Cities at War*. Another valuable collection, although with essays of more varying quality, is Hugh Cecil and Peter Liddle's *Facing Armageddon*.[2]

A vital, new line of inquiry has approached the way in which people from the belligerent countries remembered the war. The mass graves of previous wars with no indication of their inhabitants' identity gave way to carefully planned cemeteries containing individual graves. Massive monuments displayed a careful listing of the names of the missing. Every community sought to remember its

tactics combined with better technology, especially in the British Army, to bring a long-awaited but deserved victory.[6]

Such a view was likely to be unconvincing to the soldier suffering through the bloodbath at Passchendaele in the final months of 1917. A view that leaders understood the war better and fought it with greater skill seems to pertain, at best, to the final year of the conflict. And here, apart from the continuing heavy casualties, the question remains whether it was skilled Allied leadership, or vast Allied numbers, or perhaps just Germany's exhaustion from attrition that decided the issue.

A soldier at Passchendaele or any number of other bloody encounters would likely find even more controversial the views of Correlli Barnett in *The Collapse of British Power*. Brian Bond has recently taken up the same position.[7] In a compelling chapter, "Covenants without Swords," Barnett presents three important themes to draw from the war. First, it was a conflict undertaken for appropriate political reasons, namely to defend British interests against dangerous German aggression leveled at France and Belgium but eventually imperiling Britain. Second, the horrors of the war have been overemphasized. It was Englishmen from privileged and sheltered backgrounds who wrote the war memoirs that began to appear at the close of the 1920s. These writings gave a picture of suffering and hardship that looked far different—that is, were more tolerable—to men of working-class origins who made up the mass of the armed forces. Finally, such a view of the war had a disastrous impact on British foreign policy when Adolf Hitler's Germany raised new threats in foreign affairs in the 1930s.

One issue of particular interest to an American audience is the assessment of the AEF's performance on the battlefield. The view Americans long favored was presented by General John Pershing in his memoirs, published in 1931. Pershing lauded both the skills of his soldiers and subordinate commanders and pointed to the great role they had played in bringing the war to a conclusion. European leaders like Georges Clemenceau and David Lloyd George had contested that view while the conflict still raged. It was to their advantage to diminish America's military role in the war in order to diminish America's influence at the peace conference. By the last decades of the twentieth century, American scholars like David Kennedy were contesting Pershing's view. They stressed the raw character of the American units that fought in France, as well as the often uncertain leadership those units received. Unskilled American units contributed to the overall victory by pinning down portions of the German army while the French and especially the British army conducted the war-winning offensive.[8]

Most recently, Mark E. Grotelueschen's *Doctrine under Fire* has proposed a more sophisticated alternative. Grotelueschen, a professional officer as well as a historian, shows how some AEF divisions developed formidable fighting skills. The Second Division, the particular target of his investigation, became a crack military unit, skilled in taking the war to the enemy and successful in reaching its objectives.[9]

John Eisenhower's *Yanks*, like *Doctrine under Fire*, examines the middle ground of military operations, the war fought by majors and colonels. Discussions of leadership at the highest level came immediately after the war, aided by the publication of the memoirs of senior commanders. Soon afterward, the view from the bottom of the military ladder—junior officers and men in the ranks—ap-

war dead—who had for the most part been drawn from the ranks of the average citizen—with some kind of memorial. A tradition of remembrance, including vast war cemeteries, begun in the United States after the Civil War, now became the norm for the European countries that fought on the western front. Works like Jay Winter's *Sites of Memory*, Adrian Gregory's *Silence of Memory*, George Mosse's *Fallen Soldiers*, and Daniel Sherman's magisterial *The Construction of Memory in Interwar France* explore how the people and communities who survived the war tried to come to grips with the memory of immeasurable loss.[3]

The study of women in the war has moved the spotlight away from the battlefield in some respects. But it has also added to our understanding of the combat soldier. Women were drawn into the conflict in innumerable ways, ranging from service in uniform and work in war plants to mourning the loss of the men they sent to the fighting fronts. Following the path marked two decades ago by Gail Braybon, scholars like Laura Downs both have considered women's experiences in the factory world many entered for the first time, and have explored whether this newly central economic role for women proved lasting or liberating. Susan Zeiger has presented an incisive look at American women serving with the AEF, and Ute Daniel has explored the experience of Germany's working-class women. Margaret Darrow has offered a valuable examination of women in various roles in wartime France, including the sometimes hostile view of them that combat soldiers displayed. Belinda Davis's study of women in World War I Berlin shows the difficulties the authorities had in dealing with this segment of the city's population. In introducing and editing an examination of wartime societies in the twentieth century, Margaret Higonnet has offered the stimulating view that the war changed the roles of men and women but the size of the gap separating the status of the two sexes remained fixed.[4]

Another new turn has been to consider the role of the average soldier in diminishing the carnage of the war. Numerous books like Leon Wolff's *In Flanders Fields* have condemned stupid and stubborn "brass hats" for sending men to die in hopeless attacks for unworthy objectives. Tony Ashworth has explored the way in which units created or maintained quiet on much of the front during the times when the great battles were not taking place. By tacit mutual agreement, the Germans on one side of the battlefield and their opponents on the other held their fire, shot only on predictable schedules, and otherwise avoided inflicting casualties on their foes. In a different fashion, Leonard Smith's study of a single, distinguished French infantry division has shown how the men in the ranks took some control of battles to limit casualties. As he points out, all attacks logically should have ended in victory or in 100 percent casualties. In fact few did, and this was due to the influence the soldiers themselves were willing to exert. The French army mutiny in the spring of 1917 was simply the largest example of soldiers who remained loyal to their country and their commanders but who refused to sacrifice their lives in hopeless military ventures.[5]

Was the war an exercise in futility? Did the generals fail to learn anything as the conflict proceeded? Books such as Paddy Griffith's *Battle Tactics of the Western Front* and Albert Palazzo's *Seeking Victory on the Western Front* point to the growing sophistication of the military and its leaders in the final two years of the war. The technical problems of trench warfare, these authors suggest, found solutions as those in authority came to understand the conflict they were fighting. Better

day Life in World War I Berlin (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2000); Margaret Randolph Higgonet, et al., eds., *Behind the Lines: Gender and the Two World Wars* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1987).

5. Leon Wolff, *In Flanders Fields: The 1917 Campaign* (New York: Viking, 1958); Tony Ashworth, *Trench Warfare, 1914–1918: The Live and Let Live System* (London: Macmillan, 1980); Leonard Smith, *Between Mutiny and Obedience: The Case of the French Fifth Infantry Division during World War I* (Princeton: Princeton University Press, 1994).

6. Paddy Griffith, *Battle Tactics of the Western Front: The British Army's Art of Attack, 1916–1918* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1984); Albert Palazzo, *Seeking Victory on the Western Front* (Lincoln, Nebr.: University of Nebraska Press, 2000).

7. Correlli Barnett, *The Collapse of British Power* (New York: William Morrow, 1972); Brian Bond, "British 'Anti-War' Writers and Their Critics," in *Facing Armageddon*, ed. Cecil and Liddle.

8. David M. Kennedy, *Over Here: The First World War and American Society* (Oxford: Oxford University Press, 1980), 202–5.

9. Mark E. Grotelueschen, *Doctrine under Fire: American Artillery Employment in World War I* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 2001).

10. John S.D. Eisenhower, *Yanks: The Epic Story of the American Army in World War I* (New York: Free Press, 2001); also, Grotelueschen, *Doctrine under Fire.*

11. C.S. Forester, *The General* (London: Michael Joseph, 1953); Pat Barker, *Regeneration* (New York: Dutton, 1992), *The Eye in the Door* (New York: Dutton, 1994), and *The Ghost Road* (New York: Dutton, 1996); Sebastian Faulks, *Birdsong* (New York: Vintage, 1997).

ADDITIONAL USEFUL WORKS ON WORLD WAR I

The titles listed here are key books on the subject, many of which have been cited in the notes. More specialized works can be found in the notes for individual chapters.

Augé-Laribé, Michel, and P. Pinot. *Agriculture and Food Supply in France during the War.* New Haven: Yale University Press, 1927.

Barnett, L. Margaret. *British Food Policy during the First World War.* Boston: Allen and Unwin, 1985.

Becker, Annette. *Oubliés de la Grande Guerre: Humanitaire et Culture de Guerre: Populations Occupées, Déportés Civils, Prisonniers de Guerre.* Paris: Éditions Noêsis, 1998.

Bessel, Richard. *Germany after the First World War.* Oxford: Clarendon Press, 1993.

Bland, Lucy. "In the Name of Protection: The Policing of Women in the First World War." In *Women in Law: Explorations in Family and Sexuality,* edited by Julia Brophy and Carol Smart. London: Routledge and Kegan Paul, 1985.

Brittain, Vera. *Testament of Youth: An Autobiographical Study of the Years 1900–1925.* New York: Macmillan, 1933.

Brown, Malcolm. *Tommy Goes to War.* London: J.M. Dent, 1978.

Bull, Stephen. *Arms and Armor.* New York: Facts on File, 1996.

peared. Eisenhower, like Grotelueschen, brings the experience of a professional army officer as well as the talents of the historian to the question of how specific operations were planned. How did regiments and battalions, the basic tools in the senior commander's arsenal, maneuver in order to achieve the generals' objectives?[10]

World War I has long served as the background for important works of fiction, witness the writing of Ernest Hemingway and Erich Maria Remarque. By the mid-1930s, C.S. Forester took the literary examination of the war in a new direction with his superb psychological dissection of a senior British military leader in *The General*. Two recent authors who have enriched our understanding of the war through imaginative and forceful novels are Pat Barker and Sebastian Faulks. Barker's trilogy—*Regeneration*, *The Eye in the Door*, and *The Ghost Road*—slices through multiple layers of British society during the war with psychological insight. Its characters inhabit haunting scenes ranging from the battlefield to the psychiatric hospital to the prison confining conscientious objectors. Equally impressive is Sebastian Faulks' *Birdsong*. One of Faulks' achievements has been to link the prewar world—his early scenes take place in the still peaceful locale that was to become the Somme battlefield in 1916—to present-day characters discovering the agony their ancestors experienced.[11]

NOTES

1. Jean-Jacques Becker, *The Great War and the French* People, trans. Arnold Pomerans (Leamington Spa, Eng.: Berg, 1985); Jeffrey Verhey, *The Spirit of 1914: Militarism, Myth, and Mobilization in Germany* (Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 2000).

2. Richard Wall and Jay Winter, eds., *The Upheaval of War: Family, Work and Welfare in Europe, 1914–1918* (Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1988); Jay Winter and Jean-Louis Robert, eds., *Capital Cities at War: Paris, London, Berlin, 1914–1919* (Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1997); Hugh Cecil and Peter Liddle, eds., *Facing Armageddon: The First World War Experienced* (London: Leo Cooper, 1996).

3. Jay Winter, *Sites of Memory, Sites of Mourning: The Great War in European Cultural History* (Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1995); Adrian Gregory, *The Silence of Memory: Armistice Day, 1919–1946* (Oxford: Berg, 1994); George Mosse, *Fallen Soldiers: Reshaping the Memory of the World Wars* (New York: Oxford University Press, 1990); Daniel Sherman, *The Construction of Memory in Interwar France* (Chicago: University of Chicago Press, 1999).

4. Gail Braybon, *Women Workers in the First World War: The British Experience* (London: Croom Helm, 1981); Laura Lee Downs, *Manufacturing Inequality: Gender Division in the French and British Metalworking Industries, 1914–1939* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1995); Susan Zeiger, *In Uncle Sam's Service: Women Workers in the American Expeditionary Force, 1917–1919* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1999); Ute Daniel, *The War from Within: German Working-Class Women in the First World War*, trans. Margaret Ries (Oxford: Berg, 1997); Margaret H. Darrow, *French Women and the First World War: War Stories of the Home Front* (Oxford: Berg, 2000); Belinda Davis, *Home Fires Burning: Food, Politics, and Every-*

Grayzel, Susan R. *Women's Identities at War: Gender, Motherhood, and Politics in Britain and France during the First World War.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1999.

Greenwald, Maurine Weiner. *Women, War, and Work: The Impact of World War I on Women Workers in the United States.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 1980.

Haber, L.F. *The Poisonous Cloud: Chemical Warfare in the First World War.* Oxford: Clarendon Press, 1986.

Hallas, James H. *The Doughboy War: The American Expeditionary Force in World War I.* Boulder, Colo.: Lynne Rienner Publishers, 2000.

Haythornthwaite, Philip J. *The World War One Source Book.* London: Arms and Armour Press, 1992.

Higgonet, Margaret R., ed. *Nurses at the Front: Writing the Wounds of the Great War.* Boston: Northeastern University Press, 2001.

Hogg, Ian. *The Guns, 1914–1918.* New York: Ballantine Books, 1971.

Holm, Jeanne, Maj. Gen., USAF (Ret.). *Women in the Military: An Unfinished Revolution.* Rev. ed. Novato, Calif.: Presidio Press, 1992.

Horne, Alistair. *The Price of Glory: Verdun, 1916.* New York: Harper and Row, 1962.

Horne, John. "Immigrant Workers in France during World War I." *French Historical Studies* 14, no. 1 (1985): 57–88.

Horne, John, and Alan Kramer. "German 'Atrocities' and Franco-German Opinion, 1914: The Evidence of German Soldiers' Diaries." *Journal of Modern History* 66, no. 1 (1994): 1–33.

Jackson, Robert. *The Prisoners, 1914–1918.* London: Routledge, 1989.

Jalland, Pat. *Death in the Victorian Family.* Oxford: Oxford University Press, 1996.

Keegan, John. *The First World War.* New York: Alfred A. Knopf, 1999.

———. *The Price of Admiralty: The Evolution of Naval Warfare.* New York: Penguin, 1989.

Kent, Susan Kingsley. *Making Peace: The Reconstruction of Gender in Interwar Britain.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1993.

Ketchum, J. Davidson. *Ruhleben: A Prison Camp Society.* Toronto: University of Toronto Press, 1965.

Kocka, Jürgen. *Facing Total War: German Society, 1914–1918.* Translated by Barbara Weinberger. Leamington Spa, Eng.: Berg Publishers, 1984.

Levenstein, Harvey A. *Revolution at the Table: The Transformation of the American Diet.* New York: Oxford University Press, 1988.

Liddle, Peter H. *The Airman's War, 1914–18.* Poole, Eng.: Blandford Press, 1987.

———. *The Sailor's War, 1914–1918.* Poole, Eng.: Blandford Press, 1985.

———. *The Soldier's War, 1914–1918.* London: Blandford Press, 1988.

Longworth, Philip. *The Unending Vigil: A History of the Commonwealth War Graves Commission, 1917–1984.* Rev. and updated ed. London: Leo Cooper, in association with Secker and Warburg, 1985.

Macdonald, Lyn. *The Roses of No Man's Land.* London: Michael Joseph, 1980.

———. *To the Last Man: Spring 1918.* New York: Carroll and Graf. 1998.

———. *1914–1918: Voices and Images of the Great War.* London: Michael Joseph, 1988.

———. *Stormtrooper: Elite German Assault Soldiers*. London: Publishing News, 1999.

Cahalan, Peter. *Belgian Refugee Relief in England during the Great War*. New York: Garland Publishing, 1982.

Cannadine, David. "War and Death, Grief and Mourning in Modern Britain." In *Mirrors of Mortality: Studies in the Social History of Death*, edited by Joachim Whaley. New York: St. Martin's Press, 1981.

Cecil, Hugh, and Peter Liddle, eds. *At the Eleventh Hour: Reflections, Hopes and Anxieties at the Closing of the Great War, 1918*. London: Leo Cooper, 1998.

Chickering, Roger. *Imperial Germany and the Great War, 1914–1918*. Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1998.

Cobb, Richard. *French and Germans, Germans and French: A Personal Interpretation of France under Two Occupations, 1914–1918/1940–1944*. Hanover, N.H.: University Press of New England, 1983.

Coffman, Edward M. *The War to End All Wars: The American Military Experience in World War I*. New York: Oxford University Press, 1968.

Cushing, Harvey. *From a Surgeon's Journal, 1915–1918*. Boston: Little, Brown and Company, 1936.

Dyer, Colin. *Population and Society in Twentieth Century France*. London: Hodder and Stoughton, 1978.

Eksteins, Modris. "War, Memory, and the Modern: Pilgrimage and Tourism to the Western Front." In *World War I and the Cultures of Modernity*, edited by Douglas Mackaman and Michael Mays. Jackson, Miss.: University of Mississippi Press, 2000.

Ellis, John. *Eye-Deep in Hell: Trench Warfare in World War I*. New York: Pantheon, 1976.

Farwell, Byron. *Over There: The United States in the Great War, 1917–1918*. New York: W.W. Norton, 1999.

Ferrell, Robert. *Woodrow Wilson and World War I, 1917–1921*. New York: Harper and Row, 1985.

Feuer, A.B. *The U.S. Navy in World War I: Combat at Sea and in the Air*. Westport, Conn.: Praeger, 1999.

Flexner, Eleanor. *Century of Struggle: The Woman's Rights Movement in the United States*. Rev. ed. Cambridge, Mass.: The Belknap Press of Harvard University Press, 1975.

Fredette, Raymond H. *The Sky on Fire: The First Battle of Britain, 1917–1918 and the Birth of the Royal Air Force*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1966.

Freidel, Frank. *Over There: The Story of America's First Great Overseas Crusade*. Revised ed. Philadelphia: Temple University Press, 1990.

Gavin, Lettie. *American Women in World War I: They Also Served*. Niwot, Colo.: University Press of Colorado, 1997.

Graubard, Stephen Richards. "Military Demobilization in Great Britain following the First World War." *Journal of Modern History* 19, no. 4 (1947): 297–311.

Gray, Edwyn A. *The Killing Time: The German U-boats, 1914–1918*. New York: Charles Scribner's Sons, 1972.

Grayling, Christopher. *A Land Fit for Heroes: British Life after the Great War*. London: Buchan and Enright, 1987.

Wedd, A.F., trans. and ed. *German Students' War Letters*. New York: E.P. Dutton, [1929].
Weintraub, Stanley. *A Stillness Heard Round the World: The End of the Great War, November 1918*. New York: E.P. Dutton, 1985.
Westman, Stephen, M.D., F.R.C.S. *Surgeon with the Kaiser's Army*. London: William Kimber, 1968.
Whalen, Robert. *Bitter Wounds: German Victims of the Great War, 1914–1939*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1984.
Williams, John. *The Other Battleground: The Home Fronts: Britain, France and Germany, 1914–1918*. Chicago: Henry Regnery, 1972.
Wilson, Trevor. *The Myriad Faces of War: Britain and the Great War, 1914–1918*. Cambridge, Eng.: Polity Press, 1986.
Winter, Denis. *Death's Men: Soldiers of the Great War*. London: Penguin Books, 1978.
Winter, J. (Jay) M. *The Great War and the British People*. London: Macmillan, 1986.
Woollacott, Angela. " 'Khaki Fever' and Its Control: Gender, Class, Age and Sexual Morality on the British Homefront in the First World War." *Journal of Contemporary History* 29, no. 2 (1994): 325–47.
———. *On Her Their Lives Depend: Munitions Workers in the Great War*. Berkeley: University of California Press, 1994.
Zabecki, David T. *Steel Wind: Colonel Georg Bruchmüller and the Birth of Modern Artillery*. Westport, Conn.: Praeger, 1994.
Zieger, Robert H. *America's Great War: World War I and the American Experience*. Lanham, Md.: Rowman and Littlefield, 2000.

WORLD WAR I WEB SITES

Art of the First World War. http://www.art-ww1.com. A Web site containing a collection of 110 paintings produced by fifty-four painters from countries that fought on both sides in the war.
British Army in the Great War. http://www.1914–1918.net. A Web site giving a detailed description of the major units of the British army and the battles in which they participated.
The Great War and the Shaping of the Twentieth Century. http://www.pbs.org/greatwar/. A companion Web site for the 1996 PBS documentary (see the Documentary Film list). It features critical reviews of the television production, interviews with historians of World War I, maps, and an interactive timeline.
Hellfire Corner. http://www.fylde.demon.co.uk/. A Web site devoted primarily to the British army in World War I, featuring information on visiting the battlefields today, cemeteries and memorials, and individuals who served in the war.
Navies of World War I. http://www.naval-history.net/NAVAL1914–18.htm. This Web site gives a wealth of information on all of the maritime powers that participated in the war. It includes a list of the major vessels in each nation's fleet, significant naval battles and campaigns, and the ships lost.
Photos of the Great War. http://www.ukans.edu/~kansite/ww_one/photos/

McPhail, Helen. *The Long Silence: Civilian Life under the German Occupation of Northern France, 1914–1918*. London: I.B. Tauris, 1999.
Middlebrook, Martin. *First Day on the Somme: 1 July 1916*. New York: W.W. Norton, 1972.
———. *The Kaiser's Battle: 21 March 1918: The First Day of the German Spring Offensive*. London: Allen Lane, 1978.
Mosse, George. "Shell Shock as a Social Disease." *Journal of Contemporary History* 35, no. 1 (2000): 101–8.
Moyer, Laurence. *Victory Must Be Ours: Germany in the Great War, 1914–1918*. New York: Hippocrene Books, 1995.
Offer, Avner. *The First World War: An Agrarian Interpretation*. Oxford: Clarendon Press, 1989.
Panayi, Panikos. *The Enemy in Our Midst: Germans in Britain during the First World War*. New York: Berg, 1991.
Porch, Douglas. *The March to the Marne: The French Army, 1871–1914*. Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1981.
Pound, Reginald. *Gillies: Surgeon Extraordinary*. London: Michael Joseph, 1964.
Prost, Antoine. *In the Wake of War: 'Les Anciens Combatants' and French Society*. Translated by Helen McPhail. Providence, R.I.: Berg, 1992.
Renehan, Edward J., Jr. *The Lion's Pride: Theodore Roosevelt and His Family in Peace and War*. New York: Oxford University Press, 1998.
Roberts, Mary Louise. *Civilization without Sexes: Reconstructing Gender in Postwar France, 1917–1927*. Chicago: University of Chicago Press, 1994.
Roshwald, Aviel, and Richard Stites, eds. *European Culture in the Great War: The Arts, Entertainment, and Propaganda, 1914–1918*. Cambridge, Eng.: Cambridge University Press, 1999.
Sarnecky, Mary T., Colonel, USA (Ret.). *A History of the U.S. Army Nurse Corps*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1999.
Schneider, Dorothy, and Carl J. Schneider. *Into the Breach: American Women Overseas in World War I*. New York: Viking, 1991.
Schulte, Regina. "The Sick Warrior's Sister: Nursing during the First World War." In *Gender Relations in German History: Power, Agency and Experience from the Sixteenth to the Twentieth Century*, edited by Lynn Abrams and Elizabeth Harvey. Durham, N.C.: Duke University Press, 1997.
Shephard, Ben. *A War of Nerves: Soldiers and Psychiatrists in the Twentieth Century*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001.
Simkins, Peter. *Kitchener's Army: The Raising of the New Armies, 1914–1916*. Manchester, Eng.: Manchester University Press, 1988.
Spector, Ronald H. *At War at Sea: Sailors and Naval Combat in the Twentieth Century*. New York: Viking, 2001.
Speed, Richard B., III. *Prisoners, Diplomats, and the Great War: A Study in the Diplomacy of Captivity*. New York: Greenwood Press, 1990.
Strachan, Hew, ed. *World War I: A History*. Oxford: Oxford University Press, 1998.
Terraine, John. *To Win a War: 1918, The Year of Victory*. London: Sidgwick and Jackson, 1978.
Tuchman, Barbara. *The Guns of August*. New York: Macmillan, 1962.
Van Emden, Richard. *Prisoners of the Kaiser: The Last POWs of the Great War*. London: Leo Cooper, 2000.

greatwar.htm. A growing collection of photographs of individuals and events from the war, the site presently contains almost 1,900 images.

U.S. Army Official War Artists. http://www.worldwar1.com/dbc/artists.htm. A Web site describing and illustrating the work of eight artists commissioned by the United States Army to record its activities in battle and in the rear areas of the western front.

DOCUMENTARY FILM LIST

The Battle of the Somme: 1916 (color, 94 minutes). Films for the Humanities and Sciences, 1994. An examination of one of the war's bloodiest battles featuring the accounts of individual participants and present-day views of the locales where combat took place.

Cavalry of the Clouds (color, 38 minutes). Films for the Humanities and Sciences, 1988. An account of Great Britain's airmen and their personal experiences on the western front.

Good-bye Billy: America Goes to War, 1917–1918 (black and white, 25 minutes). Cadre Films, 1972. A poignant, impressionistic account of the American war effort both at home and on the western front.

The Great War and the Shaping of the Twentieth Century (color, 8 hours). PBS, 1996. An extensive treatment of all aspects of the war with commentaries by a number of leading historians.

This Generation Has No Future: The Great War (color, 52 minutes). *Europe: The Mighty Continent* series. BBC, 1974. A factually detailed account of the war stressing the role of the European participants. It includes informed and colorful commentaries by historian John Terraine and English actor-playwright Peter Ustinov.

Verdun (black and white, 30 minutes). *Legacy* series. WNET, 1965. An account of the year-long battle between French and German forces in 1916 including the personal experiences of those in the ranks as well as a consideration of the generals' intentions.

الحرب العالمية الأولى

كيف كانت الحياة اليومية خلال (52 شهراً في الحرب العالمية الأولى) وهي من المواضيع المثيرة والمنفرة على حد سواء، ودراسة جوانبها الاجتماعية معقدة بقدر ما هي مؤثرة عاطفياً، خاصة عند تمثل حياة المدنيين التي تغيرت داخل أوطانهم. حتى بالنسبة لأولئك الذين كانوا بعيدين تماماً عن القتال الفعلي.
فالكتاب بذلك سيظهر لك رحلة في تأثيرات الحرب على مجالات الحياة اليومية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة



Madarek مدارك
دار مدارك للنشر
Madarek Publishing House

